ب ٢/١
خ

خواطر وذكريات

إبراهيم محمّد الحسّون

المجلّد الثاني

توزيع
المكتبة المكية

ⓒ المكتبة المكية، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الحسون، إبراهيم محمد
خواطر وذكريات / إبراهيم محمد الحسون - مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ
٣مج
ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
١-٥٤٣-١٠-٩٩٦٠ (ج٢)

١ - الحسون، إبراهيم محمد - ذكريات أ. العنوان
ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٤/٣٧١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٣٧١٦
ردمك: ٥-٥٤١-١٠-٩٩٦٠ (مجموعة)
١-٥٤٣-١٠-٩٩٦٠ (ج٢)

جدة، ص ب: ٢٣١٦١ الرمز البريدي: ٢١٤٢٦
هاتف فاكس: ٦٦٥٠٤٩٠

الطبعة الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مرَّ القارىء في حديث السنين ومسيرة الحياة في المجلد الأول من هذه الذكريات بوقفات في محطات الحياة، تحدَّثت فيها عن بلدي عُنَيزة؛ عن معالمها السكانية وحياة أهلها، وأسلوب معاشهم وطريقة لباسهم، وملامح الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وعن جوانب من الحياة السياسية.. وعمَّا مرَّ في القصيم من أحداث وعِبَر..

تحدَّثت للقارىء عن أسرتي: والدي ووالدتي ونشأتي ومدارج طفولتي.. وكيف كان بَدء المشوار في السفر إلى الحج مع عمي بحثاً عن أخي عبدالله..

وسار القارىء معي في طريقي إلى الحجاز من بلدي عُنيزة.. منتقلين على الجمال في صحراء ممتدة.. وما لقينا في هذه الرحلة من المتاعب والمشاق.. وعرَّفته على معالم هذا الطريق الذي أجوبه ـ وأنا في العاشرة من عمري ـ عن وديانه وآباره وقبائله.. إلى أن وصلت إلى مكة في الخامس من ذي الحجة سنة **١٣٤٤** وحططت رحالي فيها.

وانتقل القارىء معي إلى ما يقارب الثمانين عاماً إلى الوراء.. أحدِّثه عن ذكريات طفل قصيمي في مكة المكرمة.. عن لقائه بابن عمِّه عبدالكريم الحسُّون.. عن قصة المحمل المصري، وعن معالم المناسك في منى وعرفات ومزدلفة.. عن صحن الفول الذي ذقته أول مرة في حياتي..

وكان محور هذه الرحلة هو البحث عن شقيقي عبدالله.. وعاش

القارىء معي في رحلتي إلى جدة، وحدثته عن القوافل التي كانت تسير من مكة إلى جدة، وعن طول المسير وشدَّة التعب، وعن الأجناس البشريَّة الجديدة التي رأيتها لأول مرة في حياتي.. والمشاهد الجديدة التي وقع عليها بصري..

ثم عاش القارىء معي في جُدَّة.. طفل غريب يحلُّ بلداً لم تطؤها قدماه من قبل، ولا يعرف فيها أي إنسان.. كما لا يعرف طرقها ومسالكها..

ولقد حدّثت القارىء عن محاولاتي في التعرُّف على أخي.. في البحث عن الكنداسة التي كان يعمل بها.. عن الكلمات الغريبة التي تَقْرع أذني.. ثم عن أخبار السقاية في جدة، وجهاز الإدارة فيها، عن السقّائين وشيخهم.. عن مصادر المياه وصهاريج جدة..

ثم بعد ذلك عن استقرار هذا الطفل القصيمي في جُدَّة، وإيثاره البقاء معَ أخيه.. وكيف اصطحبه معه إلى عمله، وما لقيه منه مِن دروس التربية والتأديب.

ثم انتقل هذا الطفل إلى المدرسة الرشدية.. ويمرُّ شريط الذكريات يسجّل ذكرياته في هذه المدرسة.. عن أساتذتها وزملائه فيها.. وموقف الطلاب منه.. ثم يقارن بين المجتمع النجدي والحجازي.. والحالة التي تحكم علاقة كلٍّ منهما، وأسباب الجفاء التي كانت سائدة بينهما.

ثم انتقل هذا الطفل إلى مدرسة الفلاح عام **١٣٤٦**.. وهو من أهم مراحل حياته وأكثرها أثراً في تكوينه.. وحدثت القارىء عن إجراءات التسجيل في المدرسة واختبار المستوى.. عن أساتذة المدرسة، وعن موقعها ومعالمها: عن مكتبتها ومسجدها وساحتها ومطبخها ودرجها وشرفتها..

ثم عن انتظامي طالباً في الفصل الثالث.. وعن زملائي في الفصل.. وأساتذة المدرسة، ونفقاتها، وبرنامج الدراسة فيها.. واختباراتها.. إلى أن تخرجت منها سنة **١٣٥٢**..

وتوقفت مع القارىء وقفة مطوَّلة في الحديث عن مؤسس المدرسة المرحوم محمد علي زينل، وعن جهوده العظيمة في بناء هذا الصَّرح العلميِّ الكبير..

وانتقل القارىء معي ليرى هذا الطفل القصيمي أصبح مدرِّساً لمادة الإنشاء والخطابة في مدرسة الفلاح سنة ١٣٥٥..

ووقفت مع القارىء عند محطة أخرى من المحطات الهامة في حياتي، وهي: تفرُّغي للعمل الخاص بأخي، في تصريف مياه الصهاريج وتأجير البراميل.. وعدت للحديث عن صهاريج جُدة، وكيف كانت تباع فيها المياه.. وكيف كنت أقيس الماء في الصهريج، وأحصي المبالغ..

ويعود القارء إلى التعرُّف على صورة جدة قبل أكثر من سبعين عاماً.. عن أهم البيوت فيها.. عن أسواقها.. عن البيت الذي انتقل إليه أخي في حارة الشام.. عن ذكريات تتعلق بأخي: بزواجه الأول والثاني ثم الثالث والرابع.. عن مرضه وسفره للعلاج.. عن تفصيلات كثيرة دقيقة أصفها كأنها تقع الآن، وتُلتقط عبر وسائل التصوير والتسجيل..

وأتابع حديث السنين في سفري إلى عنيزة سنة ١٣٥٠، عن أول سيارة ركبتها، وأول شركة نقل في المملكة.. ويرى القارىء وصفاً دقيقاً لطريق السبر في البر من جدة إلى عنيزة منذ أكثر من سبعين عاماً.. مروراً بالطائف.. إلى ركبة.. إلى مركز الموية.. إلى أن وصلت إلى بيتنا في حائط الشعيبي.. وكيف كان لقائي بأخي حسُّون وأختي حصَّة.. ووفود المرحِّبين.. واجتماعي بالأخ عبدالعزيز الجريشان.. ولقائي بأمير عنيزة.. وقصة عبدالله الإبراهيم الحسُّون مع أمير عنيزة..

ثم طريق عودتي إلى جدة، وحديث عن جدة من جديد: عن أصدقائي فيها، عن بيوتها، عن أول جهاز راديو يدخل إليها، عن تواصلنا مع صحافة مصر ومجلاتها، عن أول شركة شاركتُ فيها، عن أول كتاب قرأته، عن مكتباتها، عن شلّة بيت نصيف، عن حكايتي مع الشيشة..

ويمرُّ شريط الذكريات لأصور للقارىء مشاهد انتقالي إلى مدرسة

تحضير البعثات في مكة المكرمة.. وكيف حاولت إقناع أخي بمتابعة دراستي دون جدوى.. وعن زملاء الدراسة، ومبنى المدرسة، والمشرف علينا السيد عقيل غمري، وأساتذة المدرسة، والكتب المقرَّرة، ومدير المعارف السيد طاهر دباغ..

وكيف نفدت النفقة واضطررت لبيع مشالحي.. وعن الخطة الاقتصادية الصارمة التي اتبعتها خلال دراستي وصوَّرت للقارىء مشاهد عن المظاهرة الحاشدة التي خرجت في مكة لإدانة الاحتلال لأرض فلسطين وتوطين اليهود، وإنشاء وطنٍ قوميٍّ لهم.. وعن خطبتي الحماسية في هذه المناسبة.. وذكرت للقارىء بعض ملامح الحياة في مكة سنة **١٣٥٦**..

وانتقلت بالقارىء لأحدثه عن تصميمي العودة إلى جدة بعد اختبارات نصف العام **١٣٥٦** والحفل الطلابي الختامي.. وحديث مضمَّخ بالذكريات العطرة مع صديقي الأثير عبدالوهاب باناحة.. وقصة الجنيه الذهبي.. وعن مقابلة أخي بعد جفاء، ومجادلة عاصفة غاضبة كانت بيني وبينه..

ثم وقفت عند محطة هامة من محطات العمر وقافلة الحياة.. وهو عملي مع قائمقام جدة إبراهيم بن معمَّر.. وحدثت القارىء عن وصف الخزنة وموظفيها.. وعن مكتبي فيها.. عن الخطابات الواردة إلى القائمقام.. وعن رحلاتنا البحريَّة.. ولقاءاتنا مع الأمير فيصل آنذاك.. وحديث مفصَّل عن الخزنة، والإدارات الرسمية في المالية والبريد والشرطة والدائرة الرسمية..

وسردت شريط ذكرياتي مع إبراهيم بن معمَّر.. وما كان يتمتَّع به من إدارة حازمة وعفة يد ولسان مع حنوٍّ وعطف على ذوي الحاجة.. وذكرت موقفه الحازم مع السفير البريطاني، وموقفاً آخر يتجلى فيه الرحمة والعطف مع الطبيب الروسيِّ المسلم.

ثم درجت بالقارىء إلى قصة لقائي بأخي بعد جفوة طويلة، واختياري العودة للعمل معه، واستقالتي من الخزنة على أساس مواصلتي للدراسة خارج المملكة.. وتوجُّهي لمكة المكرمة لإنشاء عملية في العين لزوجة

أخي.. رغبةً في متابعة دراستي.. وكيف كانت الصدمة العنيفة عندما اعتذر أخي عن إرسالي للدراسة بتأثير أحد جلسائه الذي حذره من إرسالي إلى مصر خشية انحراف عقيدتي وتبلبل أفكاري وتأثري ببعض الأوساط في مصر.. ولم أفق من أثر تلك الصدمة حتى قررت العمل مع بيت الفضل كاتباً في محلهم التجاري..

ثم عدت بالقارىء مرة أخرى عبر شريط الذكريات إلى وصف دقيق لجدَّة عام ١٣٥٧، وصوّرت له سورها، وأسواقها، ومساجدها، وشركاتها، وتجارها.. وحدثته عن أول صيدلية فيها، وأول مصور فوتوغرافي.. عن السَّمَر والطرب فيها.. وعن سنابيك البحر ورجالها..

وأنتقل بالقارىء في هذا المجلد بعد تطوافي بأهم موضوعات وأحداث المجلد الأول، وبعد عرض لقطات ومشاهد من شريط الذكريات الممتد خلال ربع قرن من مولدي في بلدي عنيزة حتى مغادرتي جدة إلى المنطقة الشرقية في ١٣٥٧/٨/٧ لغيبة امتدت أربعة عشر عاماً.

وفي هذا المجلد الحافل من الذكريات سأحدِّث القارىء عن سبب سفري من جُدَّة، وكيف توفَّرت فرصة العمل، وفتحت لي أبواب الرزق في المنطقة الشرقية من حيث لم أحتسب..

أحدثه عن وداع أخي عبدالله وبنانه.. وسفري إلى مكة ومواصلة السفر حتى وصولنا إلى الرياض.. عن لقائي بعبدالله بن سلمان.. ثم لقائي مع الملك عبدالعزيز لأوّل مرة..

ثم متابعة رحلتنا إلى الدمام.. وسيجد القارىء وصفاً دقيقاً لمسيرنا في الصحراء، وتعريفاً بالأماكن والقبائل والمياه.. وصورة عن الدمام والخبر قبل أكثر من سبعين عاماً..

ثم عن وصولي إليها في ٢١ شعبان ١٣٥٧ وتسلُّمي أوراق العمل.. وعن طبيعة العمل في جمارك الخبر، ووصف لمبنى الجمرك والميناء.. وذكرياتي مع الأصدقاء: أحمد قاسم، وعبدالقادر باحفظ الله.

وأقدِّم صورة واقعية للحريق الذي وقع في شهر ربيع الأول عام ١٣٥٨ للبئر رقم /١٢/ وكيف وقع وتمَّ إطفاؤه..

ثم أنقل القارىء إلى صورة لموكب الملك عبدالعزيز إلى الظهران، وخطبتي المرتجلة بين يديه في رأس تنُّورة، وما دار من حوارٍ بيني وبينه..

ووقفات وتأمُّلات عن تفجُّر البترول في المملكة، وخروج الكنوز من جوف الصحراء.. وكيف تحوَّلت موارد البلاد الشحيحة إلى خيرات كثيرة وفيرة..

وأحدث القارىء في هذه الصفحات: عن إدارة عموم الرسوم التي كان يرأسها المرحوم زكي عمر، ويعمل معه الصديق محمد نور رحيمي.. وعن انتقالنا إلى رأس تنُّورة.. ووصول الخبير السوري خيري عبدالهادي، لإصلاح الأوضاع المالية في أجهزة الدولة، وما قام به من وضع السجلات والتعليمات للدوائر المالية والجمارك والمستودعات، واختصاصات كل موظف في إدارته..

ثم انتقل مع القارىء لأحدثه عن انتقالنا لى بلدة (قرية) القريبة من حدود الكويت، ولقائنا بالأمير ابن جلوي، ووصف دقيق لقصر القرية.. ثم انتقالنا مع المرحوم زكي عمر إلى (حفر الباطن) ووصف لآبار السقيا، وقصر الحفر، وأمير الحفر صالح عبدالواحد، وتصنيف الجهاز الجمركي الذي سيعمل هناك.

ثم مواصلة سيرنا إلى مركز (أم رضمة) ووصف لقصرها وآبارها.. واستلامي لإدارة مركزها.. وحديث مفصل عن الإدارات فيها، والقوافل الغادية والرائحة.. وطريقة استيفاء الرسوم الجمركية..

ويقف القارىء في هذه الصفحات من حديث السنين ومسيرة الحياة وقفة طويلة عن ذكرياتي أيام الحرب العالمية الثانية عام ١٣٥٨ التي عايشتها وتابعت أحداثها.. وفي هذه الذكريات حديث عن جذور الحرب، ونتائج الحرب العالمية الأولى، ووضع المنطقة العربية ما قبل الحرب العالمية الأولى، والتتريك وما حمله من أوزار، والنواة الأولى للدولة

العربية، وخط الحجاز الحديدي، وبذل البريطانيين جهدهم لتدميره، ولورانس العرب ودوره في إغراء رؤساء القبائل، واتفاقية سايكس بيكو، واقتسام أملاك الرجل المريض.. وانكشاف الخديعة البريطانية، ودخول اللنبي إلى دمشق، والخطوط العريضة للثورة العربية الكبرى، وشخصية الشريف حسين..

ثم أعود بالقارىء بعد هذه الاستطرادة التي جرَّ إليها تسلسل الأحداث إلى الحرب العالمية الثانية، التي كنت أتابع أحداثها وأنا في مركز (أم رضمة) في مستهل عام ١٣٦٠.. وحدثت القارىء عن إذاعات المتصارعين؛ إذاعة لندن وبرلين، ووصفت له كيف تمَّ حصولنا على الراديو، والإذن من الأمير بالحصول عليها، وكيف تم شراؤها من الكويت، وكيف كنا نجتمع حولها، نتابع نشرات الأخبار، وأقوم بتدوينها!!

وفي ذكرياتي عن الحرب العالمية الثانية: حديث عن الشرارة التي أوقدت نار الحرب، ومعاهدة فرساي، وسطوع نجم هتلر في ألمانيا، وإعادة بناء مصانع السلاح فيها، والصفعات الموجَّهة لبريطانيا وحلفائها، وتكاثف نذر الحرب، وموسوليني وحزبه الفاشي، وجبهة دول المحور، واستعار الحرب باجتياح ألمانيا لبولندا، ثم بلجيكا وهولندا، والزحف إلى فرنسا، وتوقف الزحف الألماني عند باريس.

وغارات ألمانيا الجوية على بريطانيا، وغرور هتلر بنشوة النصر، والنكسة الأولى لإيطاليا وألمانيا في العَلَمين، واستسلام الجيش الإيطالي، وخطأ هتلر الذي أصابه بمقتل، وسَيْر الأحداث في الجبهة الروسيَّة، وانضمام طوكيو إلى دول المحور، والهجوم على الأسطول الأمريكي، ودخول أمريكا الحرب بجانب الحلفاء، وحصر الجيش السادس الألماني، والنكسة الثانية لهتلر، وتغيُّر موازين القوة والضعف، ووقوع ألمانيا بين فكي الأسد، وإسدال الستار على المجزرة العالميَّة المروِّعة..

وأعود بالقارىء بعد هذا التطواف الطويل على أحداث الحرب العالمية الثانية، للحديث عن مجموعتنا التي كانت تتابع الأخبار، وتتَّصل بالعالم

الخارجيّ من مركز (أم رَضمة) عن طريق جهاز الراديو، وطريق سيارة جَلْب الأرزاق من الكويت في نهاية كلِّ شهر.

وذكريات عن رسائلي المفصَّلة إلى صديقي محمد مرشد الزُّغيبي، وعن أسباب تبدُّل رأيي في نتائج الحرب.

ويتابع القارىء في هذه الذكريات قصة زواج فريد في حياتي من سلمى الغُرَيقان أوفى الزوجات رحمها الله تعالى، ويقف على أحداث هذا الزواج السعيد، وكيف تم الترتيب لحفلة الزواج، وموضع السكن، وإجراءات العقد، وتحديد يوم الزفاف، وعن الأيام الحلوة الهانئة التي كانت تغمرنا بالسعادة ورغد العيش..

ثم عودة بالذكريات إلى حياتنا في (أم رَضمة) وعن الإعاشة التي تفرقها الدولة للموظفين، وعن تموين اللحم..

ثم وقفة أمام غار هدَّاج.. وذكريات عن الحادث الذي جعل الحدود مستنفرة في تلك الأيام بسبب قتل مأمور الزكاة، وكيف تمَّت ملاحقة الجناة، والقبض عليهم..

وعودة أخرى إلى ذكرياتي مع صديقة العمر وعنوان الوفاء زوجتي المثالية سلمى، وعن حياتي الهانئة السعيدة معها.. وعن رجاحة عقلها، وتحريضها لي على دوام الصلة بأسرتي، وأحاديثها الشيِّقة الجميلة.. ثم عن قصة وفاتها المؤثرة، التي تركت جروحاً غائرة في نفسي حتى هذا اليوم..

وذكريات عن زواجي الثاني، واكتشافي أني مسحور، وتطليق ابنة الحربي.

وذكرياتي مع الصديق حمد الهندي، وعجائب طرائفه ومنها: قصة الإتريك، والظبيين، والبيض، والناقة السمينة، وديجوري، وقصة الحليب، وحسد حمد الهندي لنفسه!!

وحديث عن ذكرياتي مع الصديق القديم أحمد عبيد، وتبادل الكتب والرسائل فيما بيننا.

واستطرادة إلى حديث الأمس، وعبر التاريخ في الأندلس..

ويتتابع شريط الذكريات ليسجِّل للقارىء قصة سفري إلى الكويت، ومباشرة عملي هناك في ضيافة عبدالله القاضي، وإتمام المهمة والعودة إلى الحدود السعودية.. وكيف انقلبت السيارة في رحلة العودة في عراء الصحراء، وانتظار الموت، ثم الفرج بعد الشدَّة..

وأتابع في هذه الذكريات مسيرة عملي الوظيفي، وترقيتي لوظيفة مفتِّش سيَّار، واستلامي جمرك حفر الباطن، وقصة رحلة التِّيه، ونفاد المؤونة، وأكل ثمر شجر النَّبق، ثم الفرج بعد الشدة، واليسر بعد العسر..

وحديث عن إسناد إدارة الجمارك لي في (القرية) وسَيْر العمل في إدارة الجمرك، والإيرادات الشهريّة، وقصة اختلاس اكتشفتها؟!

ولمحة عن زواجي بأمّ البنين، ابنة عبدالله الخليف الباني، وحديث عن حفلة الزواج، وبيت الزوجيَّة، وتكاليف الزواج.. وذكريات عن عمي المرحوم علي الحسون. وحديث عن بلدة (الحفر) وبيوتها، وبئر الصحابي أبي موسى الأشعري.. وتعييني مساعداً لرئيس مالية (قرية) وأميناً لجمارك الحدود، والمماحكات التي كانت بيني وبين يوسف الخلاوي، واختياري رئيساً للهيئة الملكية، وحديث عن قصر (لينة)، وفيضة أم عمارة، ومركز الدويد..

وذكريات عن سفري إلى العراق، ولقائي بالصديق عطا إلياس الحاج عطاء، ومشاهد في النجف، وصور وعبر في دار السلام (بغداد).. وشريط ذكريات مع صاحب فندق الرضا ببغداد، واستعراض ما مرَّ بالعراق من أحداث.. منذ تأسيس دولة العراق الحديثة، وضعف النفوذ البريطاني، وتلاحق الأحداث، وسقوط وزارة العراق، وقيام الجمهورية العراقية.. والفواجع المتلاحقة على أرض الرافدين.

ويتتابع شريط الذكريات في العراق، وحديث عن جولاتي في شوارع بغداد، ومشاهداتي في شارع أبي نواس، ودخولي إلى صالته.. وتجوُّل في شوارع النجف، ثم العودة إلى (الدويد).

وعزمي على السفر إلى جدة مع زوجتي أم يوسف، وبرقية يوسف الخلاوي الكيدية الموجَّهة ضدِّي، ولقائي بالشيخ عبدالله بن عدوان رئيس ديوان المراقبة، وحفاوته بي، وتلبية دعوته لي.

ويتتابع الشريط ليسجل قصة ابني العم: إبراهيم وعبدالله الحسُّون، ونشاطهما التجاري، وصلتهم بتجار الكويت، وقصيدة مكيدة تاجر ماكر، وضياع حصيلة العمر التي كنت أودعتها معهم، وانتقالهما من قمة الثروة إلى حضيض الفقر.

وفي آخر محطات الذكريات: عودتي إلى جُدَّة بعد غياب أربعة عشر عاماً، وركوبي الطائرة لأول مرة من الرياض إلى جدة، وما لقيته في جدة من استقبال حافل وتكريم.

وأحدث القارىء عن انطباعاتي عن مدينة جدة بين اليوم الذي تركتها فيه عام ١٣٥٧ وبعد عودتي إليها عام ١٣٧١.. وفاجعتي بفقد سبع وعشرين صندوقاً من الكتب والمجلات التي تركتها في بيت أخي قبيل سفري إلى المنطقة الشرقية..

وبعد هذه الإلمامة والتطواف عبر مراحل الزمن ومدارج العمر، أترك القارىء الكريم، ليعيش معي هذه الخواطر والذكريات في هذا المجلد الحافل بالأحداث والعبر والمواقف والصور والمشاهدات راجياً أن يجد فيه المتعة والفائدة والعبرة، والله وليُّ التوفيق.

إبراهيم محمد الحسون
جدة في يوم السبت
٢٦ جمادى الأولى ـ ١٤٢٤هـ





السفر إلى المنطقة الشرقية

عندما أراد أخي أن يزوِّجني:

واصلت العمل في مكتب الفضل ـ كما سبق وأن شرحتُ ـ وابتدأت آثار الصدمة التي أحدثها عدول أخي عن ابتعاثي لمصر كما وعد، ابتدأت تتلاشى شيئاً فشيئاً، متجذِّرة في أعماق النفس، ومن ثم ابتدأتُ في أيام الجُمَع أذهب إلى أخي في مكان عمله بالكنداسة في فترة الصباح، وفي فترة المساء، وكثيراً ما كان يترك مكانه عندما أصل إليه، ويطلب مني مواصلة عمله بدلاً عنه، وفي حوالي منتصف ربيع العام من ذلك العام، أعني عام ١٣٥٧هـ أخبرتني الجارية التي كانت تباشر العناية بغرفتي في البيت، أخبرتني بأن ستَّها (زوجة أخي) منيرة الزامل، ترغب مني الصعود إليها في الطابق الثالث.

كلام زوجة أخي معي:

صعدتُ إلى حيث توجد، فكلمتني من خلف الباب بما نصه تقريباً: أخوك يقول لك أنك قد كبرت، وأنه يرغب أن يزوِّجك، وأنَّ عليك أن تختار إذا رغبت فلانة بنت يونس بن حِمْد، أو فلانة أخت حسن مشهور، أو فلانة بنت أحمد بكري، أو فلانة بنت محمود كيكي، وكنت أعرف أسر هذه الفتيات معرفة جيدة، وأنَّ أخي يطلب مني الإجابة

إذا كان لي رغبة، وأن أحيطه علماً بالفتاة التي اختارها..

أجبتها على الفور بأنه من حيث المبدأ لا مانع لدي، ولكن أرغب قبل أن يتخذ أي خطوة في هذا الموضوع أرغب في أن أتفاهم معه مباشرة، لأوضح له بعض الملاحظات التي لدي حول مشروع كهذا يتعلق بمستقبل حياتي، فوعدتني بذلك.

مضى أسبوع وتلاه آخر، وتلاه ثالث، وكنت أترقب كل يوم أن يفاتحني أخي في الموضوع أو يطلب مني معرفة ما أرغب أن أحدثه عنه، إلا أنه لم يفعل، وحتى هذه اللحظة، ومن ثم أحسست بشعور ينمو في أعماق نفسي، ويتفاعل معها يوماً بعد يوم، ويزداد تضخماً وقوة حتى أصبح واقعاً فرض نفسه عليَّ لا أملك إلا الخضوع له هذا الشعور هو تقديري أنَّ أخي لم يكن جاداً في هذا العرض بدليل أنه لو كان جاداً لطلب مني معرفة ما لدي، ولكن فعل ذلك من قبيل رفع العَتْب، وتولَّد مع هذا الشعور في نفسي بسبب ذلك، ونتيجة له أن ابتدأت أسائلُ نفسي: إنكِ لديه عبارة عن ضيف لا تملك من حطام الدنيا شيئاً، وأنه فرضاً لو قُدِّر له أن يفي بوعده، ويزوِّجك فإنه بدون شك سيجعل من هذا الزواج وسيلةً لإذلالك، قياساً على التجارب التي مررتَ بها معه، والتي ذقتَ منها الصاب والمر، ولربما عيَّرك أبناؤه في المستقبل بأنك كنت عالةً عليه، وأنه هو الذي زوَّجك، وقد يسمع مثل هذا القول الذرية التي قد أرزق بها مستقبلاً، فتكون الإهانة والذل أشد وأقسى.

التصميم على مفارقة جدة:

وهنا قررتُ بيني وبين نفسي بأن أفارق جدة، في أسرع فرصة متاحة، لأبتعد عنه، وأتفادى مثل هذا الوضع، ولأقتحم ميدان الحياة بجهدي وعرقي بعيداً عنه.

أما ما كنت أنوي أن أفضي به إليه عندما طلبت محادثته مباشرة كان على أساس أن أشرح له بأنني إذا كنت قد انتهجت معه مسلكاً يتصف

بالخضوع المطلق، فإنني لن أقبل أن تكون زوجتي في المستقبل تعامل بنفس المعاملة التي أعامل بها منه، وهي بدون شك لن تقبل، لأنها ابنة ناس تحتفظ بكرامتها، ولا بد لي أن أكون مستقلاً في حياتي الزوجية أي في مسكن آخر، وأن أعرف مستقبل وجودي لديه على أيِّ أساس سيتم، بمعنى أنه يتوجَّب أن يكون لي هناك دخلٌ مستقلٌ شهرياً، يؤمِّن لي حياةً مستقرةً أنا وأسرتي.

الأقدار تفتح لي طريقاً من حيث لم أحتسب:

ظَلَّت فكرة الابتعاد عنه تلحُّ عليَّ باستمرار، وتشغل تفكيري باستمرار أيضاً وتشاء قدرة اللّه أن تحدث المعجزة، وقد علم الله ما يجول في نفسي، فحقق لي الرغبة بأيسر سبيل وأسهله، وبطريقة لم تخطر ببالي قط.

في أوائل شهر شعبان، ولا أذكر إذا كان هو اليوم الثاني أو الثالث من الشهر، وقد أديت صلاة الجمعة، ومعي بعض الأصدقاء، وهم محمود عارف وعبدالجليل عبدالجواد في مسجد الباشا، في حارة الشام، وبينما كنا نسير في الشارع بعد انتهاء الصلاة، على مقربة من بيت البغدادي الواقع جنوب ساحة الكنداسة نسير ثلاثتنا، نتجاذب أطراف الحديث، إذا بصوت ينادينا من الخلف: قفوا.

اللقاء بأحمد بك لاري:

فالتفتنا إلى الوراء، وإذا به أحمد بك لاري، وهو رجل معروف لدينا جميعاً، يعدُّ من أعيان جدة، وكان يسكن في حارة الشام، وكان قنصلاً لدولة إيران في جدة، تحدَّث إلينا بعد أن تبادلنا معه التحية والمجاملات المعتادة، قال مخاطباً لنا: إنني سأسافر إلى المنطقة الشرقية بعد خمسة أيام، فقد صدر الأمر بتعييني ممثلاً للحكومة السعودية في الدمام لدى شركة أرامكو، وكانت تعرف آنذاك باسم (كاسوك)، وأردف قائلاً: بأنني أرغب في اصطحاب مجموعة من الموظفين الأكفاء، وبحكم معرفتكم بالشباب المتعلم

الموجود في جدة، أرغب أن تبحثوا لي عن ستة منهم، وتخبروهم بأن الرواتب ستكون مغرية جداً، وهي مائة وعشرون ريالاً شهرياً على حساب الشركة، وليس على حساب الحكومة، وإني أرجو منكم أن تساعدوني في هذا الموضوع، وتخبروني خلال فترة لا تزيد عن يومين، لأنَّ سفري سيكون من جدة بعد صلاة العصر من يوم الخميس الموافق ٧ شعبان ١٣٥٧هـ.

وعدناه جميعاً بتنفيذ رغبته، وسرنا معاً نحن الأربعة وخلال ذلك كانت فكرة مغادرة جدة بالنسبة لي قد أصبحت واقعاً محققاً بفعل الظروف، وبعد أن سرنا خطوات، التفتُّ إليه قائلاً له: إنني أتعهَّد لك من الآن بموظف يتفق ورغبتك، وعليك أن تعتبر أمره منتهياً.

أجابني: من هو؟ وما اسمه؟

أجبته بأنه لا داعي الآن لمعرفة اسمه، وأنت تثق بي بدون شك، وسيصل إلى دارك في المكان المحدَّد، بعد العصر مباشرة، فإذا لم يرق لك، فلك أن توجِّه اللوم إليَّ.

وهنا تدخل كل من الأخ محمود عارف، والأخ عبدالجليل شهاب، وخاطباه قائلين: إن إبراهيم الحسون لن يتعَّهد لك بشيء إلا وهو يعرف أنه يرضيك.

اللحظات الأخيرة قبل سفري من جدة:

افترقنا في نهاية الشارع، كلٌّ ذهب إلى سبيله، وقبل أن نفترق أكَّدتُ على أحمد بك لاري طالباً منه تحديد موعد السفر بالساعة والدقيقة.

أجابني بأنَّ ذلك سيتم في الساعة العاشرة بالتوقيت العربي آنذاك، أي في الرابعة عصراً بالتوقيت الحالي، وسوف تكون السيارات آنذاك واقفة أمام منزلنا بحارة الشام جاهزةً للتحرك.

عدتُ إلى البيت، وابتدأت أرتب أموري، وأكتم الخبر في نفسي، لا يعلم به أحد سوى الله، حتى رفيقيَّ محمود وعبدالجليل لم يعرفا من هو هذا الشخص الذي وقع اختياري عليه.

وضع الكتب والمجلات في ٢٧ صندوق خشبي:

في ظهر ذلك اليوم أعني يوم الخميس ٧ شعبان ١٣٥٧هـ كنت قد جمعت ملابسي وحاجياتي في شنطة سفر، وقبل ذلك جمعت ما لديَّ من كتب ومجلات، ووضعتُها في صناديق خشبية كبيرة من صناديق الشاي، وكان عددها سبعة وعشرين صندوقاً فيها مئات الكتب النادرة والصحف والمجلات، واستقدمت نجاراً كان يعمل في سوق الجامع، أحضرته معي إلى البيت فقام بتعبئتها في الصناديق، يساعده البوَّاب حسين ينبعاوي، ثم يقوم بتسميرها، ووضعها داخل القاعة الكبيرة المقابلة لدرج البيت من جهة الجنوب.

حمل حقيبة السفر إلى بيت اللاري:

ترقبتُ نزولَ أخي، وتوجهه إلى مقرّ عمله في الكنداسة كعادته يومياً قبل صلاة العصر بنحو ساعة، وعندما تأكدت من خروجه من البيت وذهابه إلى عمله، طلبتُ من البوَّاب حسين ينبعاوي بأن يحمل شنطتي، ويذهب بها إلى حارة الشام، وهو يعرف دار أحمد لاري، وأكَّدت ذلك بوصفها له مرةً أخرى، وأنه سيجد أمامها ثلاثة سيارات اثنين لواري أي شاحنات وواحدة صغيرة محمَّلة وتنتظر، وعليه أن يذهب بهذه الشنطة إلى هناك، ويسأل عن أحمد بك لاري ليسلمها له قائلاً له: هذه شنطة الموظف الذي ذكر لك عمي إبراهيم الحسون عنه وأنه سيحضر إليكم بعد ساعة.

وداع بنات أخي:

توجَّه حسين بالشنطة إلى بيت اللاري، أما أنا فقد طلبتُ من الجارية صفا بأن تستأذن لي من سيدتها، زوجة أخي، بأني سأصعد إليهم فوق لمدة

دقائق. بعد قليل عادت لي وقالت: تفضل. فصعدت إلى هناك، ووجدت بنات أخي فقبلتهنَّ واحدةً بعد الأخرى، وكنَّ أربعاً: لولوة وفوزية ولطفية وزهية، وقد دهشت زوجة أخي لهذا التصرُّف غير المعتاد، فأوضحت لها بأنني أحببت وداعهنَّ ورؤيتهن، لأني أنوي السفر والغياب عن جدة لبضعة شهور، ثم ودَّعت الجميع ونزلت، ولكن بدلاً من أن أتجه رأساً إلى حارة الشام رأيت أنَّ عليَّ أن أودع أخي، رغم ما قد يحدث منه.

وداع أخي عبدالله:

توجَّهت إليه في الكنداسة، وصعدت على الجدار الذي كان يجلس عليه، وجلستُ كالعادة بجواره، وكنت في غاية الارتباك خشية أن يقوم من مكانه ويطلب مني البقاء مكانه كالعادة، ولذا استجمعت قواي بكل ما أملك من شجاعة وقفزت واقفاً، ثم انحنيت على رأسه أقبله، ثم أقفز من الجدار إلى الأرض.

تملكته الدهشة، فصرخ في وجهي: ماذا تفعل؟ وأين تريد؟ فقلت له والعبرة تخنقني: جئت أودعك لربما يكون هذا اللقاء الأخير بيني وبينك. ثم أسرعت في الخطو مبتعداً عنه، وهو يكرِّر النداء بأعلى صوته: ارجع.. ارجع.. تراك تندم يا إبراهيم.

تقديم الموظف إلى أحمد لاري:

وهنا واصلت السير مسرعاً متجهاً إلى بيت اللاري، وصوته ما زال يرن في أذني، وما كدت أصل وكانت السيارات واقفة ووجدت السيارات وقد شُغِلت مكائنها وهم في انتظار الموظف.

وعندما أقبلت سألني: أحمد لاري بغضب: أين الموظف؟ لقد عطلتنا. قلتُ له: ها هو أمامك. فدُهش وقال لي: أنت أنت بنفسك. قلت: نعم. أراد أن يناقشني في الموضوع، ولكنه رأى علامات الانفعال والتأثُّر باديةً على ملامحي، فآثر الصمت قائلاً: تفضَّل في السيارة الصغيرة. فركبتُ معه، ومعنا عبدالجليل عبدالجواد وعبدالصمد نجيب.

كان أحمد بك لاري جالساً بجوار السائق ونحن الثلاثة في المقعد الخلفي، ثم غادرنا جدة عن طريق باب جديد مغرب ذلك اليوم، متجهين إلى مكة.

مغادرة الحجاز

كانت الطرق آنذاك وعرةً للغاية، ولم تكن قد عُبِّدت أو سفلتت، بل كان بعضها عبارة عن بحر من الرمال، يتمثل ذلك على الأخصّ في المنطقة الواقعة ما بين جدة والشميسي والأعلام، وقد ظللنا في تلك المنطقة أكثر من ثمان ساعات نحاول إخراج سيارتنا من تلك الرمال، ولم نستطع إخراجها إلا بعد جهد ومشقة.

واصلنا السير إلى مكة ولم نكن محرمين، ولكننا مع ذلك طفنا بالبيت، ثم اتَّجهنا إلى سيارتنا، وكانت واقفة في الجودرية على مقربة من البيت المحروق.

غادرنا مكة المكرمة، مواصلين السير، ولم نمكث فيها أكثر من ثلاث ساعات على ما أعتقد، وواصلنا السفر عن طريق الزيمة ثم المُوِيْه ثم الدوادمي، حيث وصلنا الرياض في مساء اليوم الثاني من خروجنا من مكة التي كنا غادرناها مع انبثاق الفجر.

واصلنا السير بعد أن أخذنا من قصر المويه أربعة صناديق من البنزين كل صندوق يحتوي على أربع تنك.

وصولنا الرياض:

وصلنا الرياض ونصبنا خيامنا، وكان معنا أربعة رجال على السيارتين اللواري المرافقتين لنا، يضاف إليهم طباخ ومعاونه، بالإضافة إلى معاوني سائقي السيارتين.

تركنا هؤلاء - في مكان يعرف بأبي مخروق، خارج سور الرياض - ينصبون الخيام ويرتبونها، أما نحن فقد وجدنا أحد رجال ابن سليمان، لا

أعرف اسمه الآن، في انتظارنا، ومن ثم اصطحَبَنا معه إلى داخل مدينة الرياض من دِروازة (بوابة) التميري، على ما أذكر، وهناك وجدنا أن ابن سليمان في أحد البيوت الكبيرة غير بعيد من قصر الملك، في انتظارنا، جالساً على ساحة مفروشة بقطع السجاد الثمين والمساند ومضاءة بالأتاريك العلاقي.

لقاء ابن سليمان:

استقبلنا الرجل مرحِّباً بنا، وعرَّفه أحمد بك لاري بأسمائنا واحداً واحداً، ذاكراً له بأنَّ هناك مجموعة من الموظفين لم يتمكنوا من الحضور معه الآن، وتأخَّروا لترتيب شؤون عوائلهم قبل أن يسافروا، وأنهم سيلحقون به بعد أسبوع من تاريخه.

تناول طعام العشاء:

مكث الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، وكنا على مقربة منهم من الجانب الآخر، ثم مُدَّ بساط العشاء، وأحضر الطعام، وهناك حضر مجموعة من الرجال من كبار خويا ابن سليمان، يبلغون نحو العشرة، ثم قمنا جميعاً وتناولنا طعام العشاء، وكان مؤلفاً من ثلاث صواني كبار، يعلوها الرز وثلاث ذبائح، ويحيط بكل صينية مجموعة من الصحون، تحمل أنواعاً عديدةً من الخضر المطبوخة.

العودة إلى المخيَّم:

بعد ذلك ودَّعناه ـ بعد أن مكثنا معه نحو ثلاث ساعات ـ عائدين لخيامنا، وعندما وقف أحمد لاري يصافحه مودِّعاً وجَّه ابن سليمان الخطاب لأحمد لاري قائلاً: عليك أن تَحْضُرْ والجماعة معك غداً، قبل أذان الظهر بنحو ساعة إلى قصر الملك، حتى تقابلوا جلالة الملك، للسلام عليه، والاستئذان منه لمواصلة السفر، وسينتظركم رجلٌ من قبلي عند باب القصر، ليصطحبكم إلى مكتبي داخل القصر، لكي أرافقكم إلى مجلس جلالته.

عدنا إلى المخيم فوجدنا الخيام قد نُصبت، والشاهي والقهوة قد جُهِّزت، وفرشت أرضية الخيام وأُنزلت فرشنا في واحدة منها، وفي الأخرى فراش أحمد بك لاري.

قضينا نحو ساعتين في خيمة أحمد بك لاري نلعب البلوت معه، كانت تدار علينا خلالها القهوة والشاهي ما بين فترة وأخرى، وعندما بدأنا نحس بالميل إلى النوم استئذناه وذهبنا إلى خيمتنا حيث نمنا تلك الليلة، وعند آذان الفجر أدينا الفريضة، ثم عاد كل منا إلى فراشه.

وبعد نحو ساعة أو أكثر، أيقظنا الطبَّاخ لتناول الإفطار، فوجدناه قد فرش سفرةً على الأرض أمام خيامنا، وعليها مجموعة من الصحون، تحمل البيض وأنواع الجبن والحلويات.

بعد الانتهاء من الفطور عدنا إلى خيمة أحمد بك لاري، وعُدنا إلى الحديث، ثم لعب البلوت مرةً أخرى، وكان معنا جهاز راديو ماركة (بوش)، يعمل على البطارية السائلة وهي البطارية نفسها التي تُستعمل في السيارات.

لقاؤنا بالملك عبدالعزيز:

في الموعد المحدَّد ذهبنا إلى القصر، فدخلنا من دروازة الثميري من شارع ترابي يمتد على ما أعتقد نحو خمسمائة متر حتى موقع القصر، وهناك وجدنا مندوب ابن سليمان في انتظارنا، وهو رجل فارع الطول، يرتدي ثياباً نظيفةً بيضاءَ، يعلوها زبون، مخطط جميل الألوان، وهو لباس معروف يرتديه كبار الخويا، وينسج في الشام، وغالباً ما يكون من الحرير، ذو ألوان زاهية، وهو أشبه ما يكون بالبالطو الطويل، ولكنه يعرف بالزبون، وهذا اللباس يختصُّ به كبار حرس جلالة الملك، وكبار خويا ابن سليمان، ويحيط بخصر هذا الرجل حزام مملوء بأمشاط الرصاص، ويتدلى من رقبته سير عريض من الجلد ينتهي عند خصره بفرد (مسدس) صغير مغلف.

قادنا الرجل إلى داخل القصر فصعدنا عدة درجات، انتهت بنا إلى

صالون واسع، تنتثر على جوانبه الكراسي وتعلو أرضيته قطع من السجّاد، ويحتل مكتب الوزير الجانب الأيمن من هذا الصالون.

دخلنا عليه وسلّمنا، ثم أديرت القهوة فالشاهي، ثم نهض ابن سليمان فتبعناه، وعلى بعد نحو أربعة أمتار دلفنا إلى صالون كبير، واسع الأرجاء، مرتفع السقف، مزخرفة جدرانه بنقوش بديعة من الجص الأبيض.

كان الصالون فخماً، قد يبلغ طوله على ما أظن ما يقارب الثلاثين متراً في عرض ما يقرب من العشرين، تحيط به من جميع جوانبه كراسي فخمة، مبطنة بوسائد مريحة تعلو أرضية هذا الصالون قطع فخمة كبيرة من أفخم أنواع السجاد الكاشاني، في نهاية هذا الصالون في الجهة المقابلة لباب الدخول كان جلالة الملك عبدالعزيز ـ رحمة الله عليه ـ جالساً منتصباً كالطود الشامخ.

كان الحرس المدجَّجون بالسلاح ينتظمون صفَّين متقابلين من مكتب ابن سليمان إلى مدخل مكتب جلالة الملك.

كان ابن سليمان يتقدَّمنا حين دخلنا، ووراءه أحمد لاري، ونحن وراءه واحداً خلف الآخر، وبمجرَّد أن شاهد دخولنا متَّجهين إليه، وقف ـ رحمة الله عليه ـ عملاقاً شامخاً، فارع الطول، يعتمر على رأسه عقالاً مقصَّباً، وشماغاً أحمر، ويرتدي ثوباً من الشاش الخفيف، فقد كان الوقت آنذاك صيفاً.

وقف ابن سليمان وقدّم إليه أحمد لاري، معرِّفاً إياه باسمه، وبالوظيفة التي هو متوجِّه لاستلامها، وسمَّاها مندوب الحكومة لدى شركة البترول الأمريكية في الظهران (كاسوك). فانحنى أحمد لاري على يد جلالته وقبلها، ثم أومأ جلالته لأحمد لاري بأن يجلس على الكرسي الذي يلي كرسيه من جهة اليمين، ثم قدَّمنا واحداً إثر الآخر: عبدالصمد نجيب، إبراهيم الحسون وعبدالجليل عبدالجواد معرِّفاً إياه بأسمائنا، وبأننا موظفون قادمون من جدة مع أحمد لاري، للعمل معه في المنطقة الشرقية، في وظائف لدى الممثلية، ولدى الجمارك، هناك، فكان كل واحد منا ينحني يقبل يده، وهو يجيبنا بقوله عندما يذكر له أسماؤنا: بارك الله فيكم.

وهنا أومأ لنا جلالته بأن نجلس على الكراسي التي تليه من جهة الشمال: عبدالصمد نجيب، فإبراهيم الحسون، فعبدالجليل عبدالجواد، ثم جلس جلالته على الكرسي، بينما جلس عبدالله السليمان جاثياً على ركبه على الأرض أمام جلالة الملك مباشرةً.

دخول الملك سعود:

وخلال ذلك فوجئنا بالملك سعود رحمه الله ـ وكان أميراً ـ آنذاك يدخل الصالون من أحد أبوابه الجانبية، ويتَّجه إلى حيث يجلس والده فيقف خلف كرسي والده من الخلف.

نصائح وتوجيهات من الملك عبدالعزيز:

شرع الملك عبدالعزيز رحمة الله عليه يزوِّدنا بنصائحه، وكان مضمونها على ما أذكر يدور حول الإخلاص في العمل والصدق والأمانة، ومعاملة الناس بالرفق والنصح، والاستقامة في السلوك والمعاملة، وأنه يتوجَّب علينا بصفتنا موظفين نمثِّل دولة أن نكون على جانبٍ من السَّمْت والحكمة والرزانة، والحرص على معاملة الناس بالحُسنى، وأننا سنحتكُّ بحكم عملنا بأناس أجانب، قادمين من أقصى الغرب يجهلون عادتنا وتقاليدنا، وعلينا أن نظهر لهم من حُسن المعاملة والأدب والتواضع ما يعطيهم صورةً مشرفة عن عاداتنا وتقاليدنا، كان الرجل مهيباً في حديثه وفي شكله، وفي تركيبه الجسماني، تحس وكأنه خلق للزعامة.

بعد أن مكثنا نحو نصف ساعة تقريباً، نهض ابن سليمان، ونهضنا معه، وقبل أن نودِّعه وقف جلالته موجِّهاً كلامه لنا جميعاً: كونوا عنواناً مُشرِّفاً لبلادكم ولحكومتكم، والله يوفقكم.

مغادرة مجلس الملك:

غادرنا الصالون إلى مكتب ابن سليمان، فلحق بنا بعد دقائق ابن سليمان في مكتبه، وهناك قال لأحمد لاري: سيحضِر لكم فلان ـ لا أذكر

اسمه الآن ـ سيارتين ماركة بلايموث جديدة، وتسلمونه السيارة الصغيرة التي قدمتم بها، وأردف قائلاً: هاتان السيارتان منهما واحدة بدل السيارة التي قدمتم بها، والسيارة الأخرى سيركبها ضابطان معيَّنان لشرطة الظهران، سيحضران لكم هذا المساء في مخيمكم، وسيسافران معكم على هذه السيارة، أمّا الضابطان فأحدهما يُدعى عبدالله خطاب، وأظنه أصلاً من المدينة المنورة، والآخر يدعى يوسف رمضاني، وأعتقد أنه من مكة المكرمة، وأردف ابن سليمان قائلاً: بأني قد عمَّدت إبراهيم الحبودل بأن يؤمِّن لكم جميع مستلزماتكم للسفر، وسيحضر لديكم في المخيم بعد صلاة العصر، ويؤمِّن لكم جميع طلباتكم، لكي تواصلوا سفركم صباح الغد.

الرحلة إلى الدمام:

ذهب الطبَّاخ ومعاونه وإحدى السيارتين الكبيرتين اللتين كانتا معنا ذهبا مع الرجل إلى داخل البلد، وبعد نحو ساعتين عاد إلينا الطبَّاخ ومعاونوه وقد حُمِّلت السيارة بأنواع الأرزاق التي نحتاجها في الرحلة.

في صباح اليوم التالي، وقبيل طلوع الشمس وصلت إلينا سيارة صغيرة نزل منها ضابطان مرتديان بزتهما العسكرية، ويحملان شنطة متوسطة الحجم لكل منهما، وعرَّفا نفسيهما للأخ لاري بأنهما عبدالله خطاب ويوسف رمضاني اللذين مرَّ ذكرهما. رحَّب بهما، وصافحا الموجودين في الخيمة، ثم وُضِعت وجبة الإفطار، وعليها أنواع من الجبن والبيض والحلويات، ثم أديرت القهوة فالشاهي، وإثر ذلك قوِّضت الخيام، وطُويت الفرش، وحُملت جميع الأمتعة والخيم على السيارات، وخلال ذلك وصل إلينا شخص أفاد بأنه مُرسل من قبل عبدالله السليمان، وأنه سيتولى إرشاد القافلة على الطريق الواجب سلوكه إلى أن تصل الدمام، موضحاً بأنه ينتمي إلى قبيلة آل مرة المعروفة بخبرتها ودلالتها على جميع أنحاء الجزيرة، وهنا طلب منه أحمد بك لاري أن يركب مع سائق أحد اللواري، ويسير في المقدمة، وتتبعه بقية السيارات على أن يحرص ألا يبتعد عن بقية السيارات أكثر من ثلاثة كيلومترات تقريباً.

الرياض في تلك الفترة:

سارت القافلة على بركة الله على هذا النحو، متَّجهة نحو الشمال الشرقي من الجزيرة، وقد لاحظت إبان وجودي بالرياض أنَّ هذه المدينة التي تحتضنُ حاكم الجزيرة، ورجال البلاط، وهي عاصمة نجد بأكملها بما فيها من حيوية ونشاط وما يفترض أن تستقبله وتودِّعه يومياً من رجال السياسة وغيرهم من جميع الأقطار، لاحظت أن هذه المدينة بلدة متواضعة، جميع مبانيها من الطين، وشوارعها متربةٌ، وغير نظيفة، ومساحتها أيضاً متواضعة بالنسبة لها كعاصمة، وهي محاطة بسور تغلق أبوابه بعد صلاة العشاء مباشرة، يضاف إلى ذلك أن شوارعها خلوٌ من الإضاءة.

سَيْر القافلة:

واصلت القافلة سيرها، تتقدمها السيارة اللوري التي تحمل الدليل، تليها سيارة أحمد بك لاري الصغيرة، تحمله وتحملنا معه، تليها السيارة الصغيرة الأخرى التي تحمل الضابطين، ومعهما خادمان، ثم السيارة اللوري الثانية في المؤخرة. واصلنا السير حتى اشتدت الظهيرة فتعذَّر على السيارات مواصلة السير، لحرارة الجو، وهناك أقمنا على بُعد نحو خمسين كيلو من الرياض.

نُصِبَتْ الخيام، وأسرع الطبَّاخ بنصب قُدوره لإعداد الغداء، بينما جلسنا نحن داخل الخيام في استراحةِ استرخاءٍ، نظراً لحرارة الجو وسكون الريح.

قُبيل العصر مُدَّت المائدة، وعليها رزٌ ولحم، وكنَّا نحملُ معنا في أحد اللواري مجموعة من الخرفان، ثم أُديرت القهوة والشاهي، وكنا قبل ذلك قد أدينا فريضة الظهر والعصر صلاة قَصْرٍ وجمع تأخير، ثم طُويت الخيام، وحُملت مع الأمتعة للسيارات.

واصلنا السير، ولم أعرف الأمكنة التي كنا ننزلُ فيها، لأننا لم تكن لنا معرفة بهذه الأماكن، واصلنا السير حتى الساعة الثالثة تقريباً ليلاً بالتوقيت

العربي، وقد لاقينا من التعب والمشقة ما جعلنا بحاجةٍ إلى الراحة، وكنا خلال سيرنا، لا نكاد نقطع نحو عشرين كيلومتراً، حتى تتوقفَ سيارتنا وزميلتها عن السير نتيجةً للتغريز بسبب كثافة الرمال، وكنا نعاني من سحب السيارات، وكثيراً ما نسحبها بالحبال.

أمرحنا تلك الليلة، وأعتقد أنَّ المسافة التي قطعناها لا تزيدُ عن ستين كيلومتراً تقريباً، وما كادت السيارة تتوقف، وتُنصب الخيام والفرش حتى أسرعَ كلٌّ منا إلى فراشه، للإجهاد والتعب الذي لاقيناهُ، وقبيل الفجر أيقَظَنَا الطبَّاخ، وكان قد هيأ لنا العشاء الذي لم نكن ننتظره بسبب التعب، تناولنا العشاء، وشعرنا بالنشاط والراحة، ثم أُديرت علينا القهوة فالشاهي، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث وأصبحنا غير محتاجين للنوم. أذَّن الفجر فأديَّنا الفريضة، ثم طُويت الخيام والفرش، وواصلنا السير من جديد.

كان نسيم الصباح عليلاً منعِشاً، يحسُّ الإنسان ببرده ولطافته فيضاعف فيه القوة والنشاط، ولا غرابة في ذلك فالأرض أرضُ نجد، والصَبا صَبا نجد.

واصلنا السير حتى وصلنا قُبيل الظهر إلى مركز حكومي، فيه قصر من الطين، وبه بئرٌ عميق الغور، يسحب منه الماء على ظهور الإبل لسقي من يرد إليه، وربما كانت بجواره آبارٌ أخرى لم نقف عليها، وإنما أوقفنا سياراتنا على مقربة من هذا البئر، وعلى مقربةٍ منه حوضُ ماءٍ كبير يُسْتَسقَى منه، وتملأ منه القرب وهو للتروية، وماء هذا البئر متوسط العذوبة.

نصبت خيامنا على مقربةٍ من حوضِ الماء، وخلالَ ذلك تسابقنا إلى غسل وجوهنا عن التراب، والاستمتاعِ بالماء، بينما كان رفقاؤنا في الرحلة ينصبون الخيام، ويهيؤون الطعام.

دعوة أمير مركز رماح:

كان على بعدٍ ليس بالكثير من هذا البئر قصر مربع من الطين، يبدو أنه مسكن أمير المركز، وقد حضر إلينا أحدُ الأشخاص وسأل: مَن رئيس

الركب؟ فأشرنا له إلى أحمد لاري، فوجَّه إليه الخطاب قائلاً: أمير القصر يسلم عليك، ويقول لك: تفضل القهوة أنت وجماعتك. فاعتذرَ منه أحمد بك لاري قائلاً: إننا على عجلةٍ من أمرنا، ونأمل منه أن يعذرنا، فانصرَف الرجل، وبعد دقائق عاد إلينا، ومعه رجل ربع القامة يرتدي مشلحاً، ويَدُل مظهرهُ على أنه أمير القصر؛ لأنَّ الرجل الذي جاءنا أولاً كان يمشي خلفه، وكنا عندئذ قد عدنا للخيمة، وقد فُرِشت بالبسط والزل، وكانت تدار علينا القهوة، وهنا حضر الرجل ورفيقه إلى الخيمة، فوقف أحمد لاري، ووقفنا معه عند مدخل باب الخيمة مرحِّبين به، ويبدو أنَّ لديه إشعاراً مسبقاً قد يكون من الرياض بأنَّ هناك قافلة من السيارات ستمرُّ بك، وعرفنا منه أنَّ هذا المركز هو مركز رماح المركز المشهور.

بعد السلام طلب منه أحمد لاري أن يجلسٍ لتناول القهوة والشاهي معنا، فوافق على ذلك مردفاً قوله بأنَّ غَداءنا قد أُعِدَّ الآن، مُقسِماً بأن لا نبرحَ مكانَنا حتى نتناول الغداء الذي كان قد أعدَّهُ قبل حضوره إلينا.

حاول أحمد بك لاري إقناعه، والاعتذار منه، ولكن بدون جدوى ثم استأذن بالخروج مفيداً بأنه ينتظرنا بعد ساعة، وأنه لا فضل له في إكرامنا لأننا موظفو حكومة، والضيافة على حساب الحكومة.

قبيل العصر ذهبنا إليه جميعاً نحن والسائقين والطبَّاخين والخدم، وكان عددنا حوالي أربعة عشرَ شخصاً، دخلنا القصر، فإذا به يستقبلنا شخصياً عند الباب ثم يسير ممسكاً بيد أحمد بك لاري، ونحن خلفه حتى وصلنا إلى صالون في الجانب الجنوبي من القصر تبلغ مساحته نحو عشرين في عشرة - على ما أظن - تغطي أرضه بسط قديمة، وتحوط بجوانبه الأربعة مساند من التبن، وفي جانبه مما يلي الباب يقعُ وجار وأواني القهوة.

أديرت علينا القهوة فالشاهي، ثم دخل علينا أحد الأشخاص قائلاً: تفضلوا، فقام أمير القصر الذي لا أذكر اسمه، وقمنا معه، فوجدنا خارج هذا الصالون بساحة القصر بساطاً عريضاً وُضِع في وسطه صينية كبيرة الحجم وذات حِلَق، يعلوها كومة من الرز وذبيحة بكاملها، ويحيط بهذه

الصينية أواني مملوءة باللبن، وبجوار هذه الصينية صينيةٌ أخرى أقل حجماً منها، وعليها كوم آخر من اللحم، وأظنه نصف ذبيحة.

أقبلنا على تناول الطعام بنَهَم وبلذّة وشهية، قد لا أبالغ إذا قلتُ: إننا لم نذق ألذَّ وأشهى منها.

كان هناك شخصان ممسكٌ كلٌّ منهما بإبريق ماء وبيده الأخرى صابونة. غسلنا أيدينا، ثم عدنا إلى الصالون فأديرت القهوة فالشاهي، ثم البخور، وإثر ذلك نهضنا شاكرين له ومودعين، وقد مشى معنا حتى خيامنا.

أصالة عربية:

أدَّينا فريضتي الظهر والعصر جمعَ قصر وتأخير، ثم طُوِيت الخيام، وحُملت مع الأمتعة، وودعنا الرجل ثم واصلنا السير، وفي الواقع فإنَّ ما أبداه هذا الرجل البسيط من لطف وكرم ومروءة يدل على الأصالة العربية الحقيقية، التي أصبحنا نفتقدها مع الأسف في الكثير من مظاهر حياتنا.

كان لَبِقاً لطيفاً حلو الحديث، يختار ألفاظ عباراته بدقة وعناية، بشوش الوجه، طلق المُحيَّا.

واصلنا سيرنا باتجاه الشمال الشرقي، كما ذكرت سابقاً، وكان السير رفيقاً مريحاً، لم تصادفنا فيه أيُّ مشقةٍ نظراً لصلابة الأرض وانبساطها وانعدام المنخفضات ومجاري السيول حتى منتصف الليل تقريباً، وكنا في غاية النشاط والحيوية، ولكن كنا قد ابتدأنا نحس بجوع، رغم أنه لم يمض علينا أكثر من خمس ساعات منذ تناولنا الطعام عند الرجل، ورغم أكلنا من اللحم، خاصة، حتى التخمة.

نُصِبت الخيام، وأُضيئت الأتاريك، وجلسنا نلعب البلوت بينما أسرع الطاهي ومرافقوه بسرعةٍ لإعداد العشاء، وكان الطباخ قد اشترى خروفاً في رِماح بإيعاز من أحمد لاري، فقد أمره بأن يشتريه ويذبحه ثم يعلقه على جانب السيارة حتى المعشى، أي الموضع الذي نقرر العشاء فيه.

لعب البلوت:

ظَلِلْنا نلعب البلوت، وكنا سعداء ومرتاحين، وكنا ورفاقنا الضباط قد اندمجنا معاً، وزالت الكلفة والتحفُّظ فيما بيننا، كان للعب البلوت في ذلك وما يتبعه من نرفزات واستفزازات نتيجةً للغْلب أو النصر، الفضل في هذا الاندماج.

في الهزيع الأخير من الليل كانت سفرة الأكل قد مُدَّت، فأقبلنا على الأكل بنهم وشَرَه، وكأننا لم نذق الطعام منذ أيام، كان الأكل عبارة عن سليق ضمن أربعة تباسي كبار، وُزِّع لحم الخروف عليها، أكاد أزعم بأننا قد مسحنا تلك الصحون مسحاً.

صوت الدليل:

عدنا إلى فرشنا حيث اضطجع كلٌّ منا على فراشه، وبعد أن نمنا حوالي ساعتين أو أكثر إذا بصوت الدليل المري يعلو بآذان الفجر، فاستيقظنا على حسّه (صوته)، كانت الفترة التي قضيناها في النوم لا تتجاوز الساعتين، ومع ذلك فقد كنا نحس بنشاط ما بعده نشاط.

أدينا صلاة الفجر، ثم تناولنا الشاهي والقهوة، ثم طُويت الخيام، وحُملت مع الأمتعة على السيارات، وواصلنا السير على بركة الله، وكانت الشمس قد أرسلت أشعتها الذهبية منتشرةً في الأفق قبل أن تبرز بوجهها الصبوح لتراه العيون.

دليل ماهر:

كنا نسير على منبسطٍ من الأرض، تتخلّله بعض الربى والكثبان المتناثرة هنا وهناك، وكان الدليل ماهراً، عارفاً بتعرُّجات الأرض، فكان يميل بنا يَمْنةً ويَسْرةً متفادياً السير على هذه الكثبان التي تمثل طليعة صحراء الدهناء العريضة الواسعة، التي هي عبارة عن بحارٍ من الكثبان الرملية الحمراء، وأشبه ما تكون بالذهب الإبرير.

أشجار الطلحِ والسَّمَر:

واصلنا السير مجتازِينَ منخفضاتٍ من الأرض، وهي على هيئة بُقَع متناثرة، مساحةُ كلٍ منها قد لا تزيد عن مائة متر في مائة متر، تعلوها غابات كثيفة من أشجار الطلح والسَّمَر، وتحيط بها من الجهات الأربع روابي من الرمل الأحمر، وهذه تكون في مواسم الأمطار أشبه ببحيرات تمتلىء بالماء وتظل شهوراً عديدةً محتفظةً بهذا الماء، وهي تجمع إلى ذلك أنها مراتع آمنة لجمائل الظباء والآرام، وهي على الأخص ملجأ آمنٌ للظباء في مواسم توالدها، فتجد الكثير من البادية التي تعرف بالصَّلَب.

بادية الصَّلَب:

وهذه الفئة معروفة لدى القبائل العربية بأنها بادية خفيضة الرأس، لا قيمة لها ولا وزن، ولكنها مشهورة بمعرفة الأرض ومسالك الطرق، وباحترافها لمهنة صيد الظباء، وتَتَبُّع أماكن توالدها في مواسمها المعتادة، فتقوم بتتبع جمائل الظباء في مهامه الصمَّان والدهناء حين توالدها، فتجمع جآذِرَهَا (الجؤذَر ولد الظبى ساعة ولادته) وتبيعها بأثمان غالية على هواةِ تربية الظباء (وقد اقتنيت وقت وجودي في أم رُضمة الواقعة على حدود العراق في عام الستين، أكثر من عشرين جؤذراً).

الجلا:

كما يقومون أيضاً بصيد الظباء، وتجفيف لحومها بعد ذبحها، وبيعها في الأسواق ويعرف هذا النوع من لحوم المجففة (بالجلا).

واصلنا السير حتى قبيل الظهر، فاشتدت الحرارة فاضطررنا للنزول.

مشقة وعناء:

بتنا في هذا الموضع تلك الليلة وكان في وسط الصُمَّان، ثم واصلنا السير في صباح اليوم الباكر، فلاقينا في هذا السفر مشقةً وعناء لم نصادفهما من قبل، بسبب كثبان الرمال العالية، وكانت تضطرنا أكثر من مرة للنزول من السيارات ودفعها لإخراجها من التغريز.

تغريز سيارة الضباط ثم تعطلها:

وخلال ذلك حدث لدينا أن غاصت إحدى السيارات، وهي التي كان يركبها الضباط، وبعد جهد جهيد استطعنا إخراجها من بحار الرمل، وسرنا نحو ثلاثة كيلوات تقريباً، وإذا بها ـ أي هذه السيارة ـ تجتاز شعيباً (مجرى سيل عميق)، وكانت مسرعة، ولم يتنبه السائق نتيجةً للسرعة إلى مجرى الشعيب المنخفض عن سطح الأرض، فهَوَت السيارة بسرعة مرتطمة بالأرض، ونتج عن ذلك أن انكسر عمود الكردان، ولم يكن في إمكاننا إصلاحها فتركناها في مكانها.

ماء الحنَّاة:

واصلنا السير نحو نصف ساعة، فوصلنا فسيحاً من الأرض، مستوي السطح، تتوسطه بئر جاهلية قديمة، على مقربة منها مجموعة من النخيل المهملة بلغ العشرين نخلة تقريباً، وهذه البئر يبلغ عرضها نحو ستة أمتار في عمق ثلاثة أمتار في جوف الأرض، وهي ممتلئة بالماء، لا يبعد موجودها من الماء عن سطح الأرض أكثر من ثلاثة أمتار، ولكن الماء كان آسناً ذا رائحة غير مريحة، وهذا الموضع يعرف (بالحنَّاة)، وهو موضع تَحَدَّثَتْ عنه كتب الأقدمين في العصر الجاهلي، وأشارت إلى أنَّ حرب داحس والغبراء كانت ميادينها غير بعيدة عن هذا المكان.

أُنزلت أمتعتنا ونُصبت خيامنا، وقرر رئيسنا أحمد بك لاري بأن نبقى في هذا المكان ريثما يعود الدليل المري بالسيارة اللوري المرافقة لنا إلى الرياض لإشعار المسؤولين عن تخلّف السيارة والطلب منهم إرسال مهندس لإصلاحها، كما طلب إرسال بعض صناديق الكتب التي كان قد تركها في الرياض، ومعنى ذلك أن علينا البقاء في هذا المكان إلى أن تعود هذه السيارة من الرياض ويتمّ إصلاح سيارتنا الخربة.

أربعة أيام من أجمل الأيام:

قضينا في هذا المكان أربعة أيام، كانت من أمتع الأيام وأجملها التي

مَرَّت علينا، فقد كان الضباط يحملون معهم جرامفون (صندوق غناء) مع كمية ضخمة من الأسطوانات.

كنا نقضي أوقاتنا في لعب البلوت بينما عبدالوهاب يشنف أسماعنا بروائعه (يا شِراعاً وراءَ دجلة يجري، الهوى والشباب، والأمل المنشود، عَلَّمُوه كيف يجفو فجفا، النيل نجاشي)، إلى غير ذلك من ألحانه الخالدة، تشاركه كوكب الشرق أم كلثوم في روائعها (سلو كؤوس الطلا، القلب يعشق كل جميل، وُلِدَ الهدى) إلى آخر أغانيها الخالدة. كما أنَّ هناك أسطوانات أخرى لكثير من المطربين والمطربات سواء في الكويت أو البحرين أو العراق أو مصر: كأغاني محمد زُويِّد من البحرين، وعبداللطيف الكويتي من الكويت، وناظم الغزالي من العراق، وحضيري أبو عزيز، وغيرهم.

كان المكان فسيحاً لا يجد طَرْف الإنسان إلا التقاء الأفق عندما يبلغ النظر مداه.

نسمات الصحراء:

كانت نسمات الصحراء، خاصةً بُعَيد الفجر وأوائل النهار وعند الأصيل، منعشة تنساب إلى أعماق النفس هادئة رخيَّة، فتملؤها نشاطاً وحيويةً وبهجةً ومرحاً.

كنا خلال الأيام الأربعة نأكل أربع وجبات في اليوم، وكنا بعد الأكل مباشرةً بعضنا يضطجع على فراشه وبعضنا يسير على قدميه، متأملاً في هذه السباسب والفيافي، مُستعيداً في مُخَيِّلته كم من القبائل سكنت هذه البقاع، أو مرَّت بها عبر حقب التاريخ الأوَل، وكم شهدت من صراع واقتتال، مستلهماً في ذلك العِبرة.

كنا نقضي أوقاتنا كما ذكرت نشنِّف أسماعنا بأعذب الألحان، ونتبادل الطُرَف والنكت والذكريات بعد أن نكون مللنا من لعب الورق.

عودة المرسَلين إلى الرياض بالسيارة المصلَّحة:

في مساء اليوم الرابع عادت إلينا السيارة اللوري ومعها مهندس واثنين

من المعاونين قاموا بإصلاح السيارة وأحضروها إلى مكاننا، وفي صباح اليوم التالي واصلنا سيرنا، واصطحبنا المهندس ومعاونيه في السيارة اللوري.

الوصول إلى بلدة الجبيل:

قرب صلاة العصر من ذلك اليوم وصلنا إلى بلدة الجبيل، والتي تعرف آنذاك باسم أبو عينين، وهي بلدة واقعة على الساحل الغربي من الخليج العربي، بلدة متواضعة، بيوتها من طابق واحد مبنية بالطين، سكانها قد لا يبلغوا المائتي نفر، لم نشاهد فيها سوى دكانين متواضعين، تعتمد في حياتها على صيد السمك، وعلى الغوص في البحر، لاستخراج اللؤلؤ في مواسم الغوص.

السواحل السعودية:

كانت هذه البلدة أهم الموانىء السعودية على ساحل الخليج العربي، فقد كانت السواحل السعودية، آنذاك تبدأ من العِقير في الجنوب الذي يفصله عن الأحساء مسافة نحو ستين كيلومتراً، وعن الدمام، وهو يقع شمال العقير بنحو مائتي كيلومتر تقريباً، ثم ميناء القطيف، ويبعد نحو ثلاثين كيلومتراً عن الدمام، ثم ميناء الجبيل الذي هو آخر ميناء سعودي من جهة الشمال.

ميناء الجبيل وميناء العقير:

كان ميناء الجبيل وميناء العقير هما الميناءان الرئيسان اللذان كانا يستقبلان مستوردات المملكة من الأطعمة والبضائع آنذاك، وكان الاتِّجار مع الكويت في ذلك الوقت ممنوعاً، ويعدُّ ما يرد منه مهرَّباً فلم تكن علاقات الرياض والكويت آنذاك على وضع يسمح بالاستيراد من الكويت.

نخيل القطيف وصفوة:

مكثنا في الجبيل نحو ساعة، أدينا فيها فريضتي الظهر والعصر جمعاً وقصراً ثم واصلنا سيرنا باتجاه الجنوب، قاصدين الدمام، فشاهدنا عن

يسارنا غابات نخيل القطيف وصفوة تمتد يسارنا على مسافة عدة كيلومترات، وفي مغرب ذلك اليوم وصلنا مدينة الدمام.

الوصول للدمام:

كانت الدمّام تتكوَّن من أكواخٍ من جريد النخل، تسمى بَرَسْتِيَّات، وكانت تمتدُّ على رقعةٍ من الأرضِ تبلغ مساحتها نحو كيلومترين، لا يوجد فيها أي بناء إلا غرفة واحدة فقط، كانت مكتباً لممثل الحكومة لدى شركة الزيت، وكان آنذاك هو المرحوم إبراهيم رضوان، وكان أحد أعيان جدة.

المرحوم إبراهيم رضوان أحد أعيان جدة:

وكان بيت إبراهيم هذا يقع في حارة المظلوم، على بُعد نحو عشرين متراً من الزاوية الشمالية الشرقية لمسجد الشافعي المسجد المعروف.

أما عن بيت رضوان هذا فلا بد لنا من أن نعود إلى ذكريات نحو نصف قرن مضى فقد كان يوجد بجوار هذا البيت من الجهة الجنوبية بيتٌ كان يسكنه الزميل الصديق محمود عارف ـ أمدَّ الله في حياته ـ، وكان الطابق الأرضي من هذا البيت مَجْمَعاً، يجتمع فيه كل مساءً، مجموعة من أساتذة مدرسة الفلاح آنذاك بدءاً من عام ١٣٤٨هـ على ما أذكر، كان منتدىً لهؤلاء الأساتذة، يجتمعون فيه كل مساء من بعد المغرب مباشرة حتى الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي، أي العاشرة بتوقيتنا الحالي.

منتدى أساتذة الفلاح:

كان هذا المقعد أشبه بنادٍ أدبي تتوفَّر فيه جميع المسليات من كيرم وضومنة وبلوت وشطرنج ومجموعة من الصحف المصرية المتنوعة، وكان له نظام خاص يلتزم رواده بالتقيُّد به، فلا يسمح لأيِّ شخص بالانضمام إليه ما لم تتوفَّر فيه شروط معيَّنة ولا تستطيع إذا كنت مشتركاً فيه أن تحضر معك صديقك أو قريبك عند حضورك إليه، ما لم يكن هذا الصديق مكتملة فيه

الشروط المطلوبة، وأهمها السمعة الطيبة، واستقامة السلوك، وأن يكون معروفاً عنه التديُّن والمواظبة على أداء الشعائر.

روَّاد النادي:

كان روَّاد هذا النادي، على ما أذكر، الآن هم عبدالوهاب نشار، محمد باجسير، حسن عبدالولي، حسن عواد، أحمد قنديل ـ رحمهم الله ـ، وعمر عبد ربه ومحمود عارف أمدَّ الله في حياتهما.

وكان هناك شخصٌ معيَّن يُدعى ظافر، يأتي مغرب كل يوم فيفتح المقعد، ويشعل الإتريك، ويهيىء الجمر للشيشة، ويشعل السموار لتهيأة الماء الحار لصنع الشاهي.

كانت هذه المجموعة كلها تنتسب لمدرسة الفلاح، كانت مجموعة متناسقة متناغمة عفَّة اللسان، سمحة الوجوه، تسود أحاديثها روح الأدب الرفيع. كنا نقضي هذه الساعة في هذا النادي، وكان من أحب وأمتع الساعات بالنسبة لنا جميعاً.

الدور والتسليم بين إبراهيم رضوان وأحمد لاري:

نعودُ إلى الدمام التي وصلناها مغرب يوم ٢١ شعبان عام ١٣٥٧هـ وكنا تركنا جدة في السابع من هذا الشهر.

استقبلنا الممثل إبراهيم رضوان رحمة الله عليه كان قد هيَّأ لنا العشاء، وكذلك عدة أكواخ تُسمَّى (بَرَسْتِيَّات) كما أشرتُ سابقاً، وذلك للاستراحة، والنوم فيها.

جرى التعارف والمجاملات المعتادة وبطبيعة الحال، فإنَّ كُلاً منا يعرف الآخر، لأننا جميعاً من أهل جدة، وأكاد أزعم أننا محصورون في حارتي الشام والمظلوم، وواضح أنَّ إبراهيم رضوان كان يعلم بأن مجيء البيه أحمد لاري إنما كان لاستلام العمل منه.

تسلُّم أوراق العمل:

وقد سمعت بعد انتهائنا من تناول العشاء وجلوسنا للسمر في مقر الممثلية، وهو حوش واسع جدرانه من سعف النخيل سمعتُ إبراهيم رضوان، مخاطباً أحمد لاري، بأنه قد جهَّز أوراق دور الاستلام والتسليم التي تتم عادةً في مثل هذه المناسبات، واتَّضح أيضاً من حديثهما أنَّ الأخ عبدالصمد نجيب والأخ عبدالجليل عبدالجواد سيعملان في الممثلية مع أحمد لاري، كما أن الضابطين عبدالله خطاب ويوسف رمضاني سيعملان في شرطة الظهران مع مدير الشرطة الذي عُيِّن ولم يصل بعد وهو غالب توفيق.

مديرنا حسين مشَّاط:

أما أنا والزميلان أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله اللذان تخلفا في جدة، ولحقا بنا بعد ذلك سيكون عملنا في جمرك الخبر، وأنه سيرأسنا شخص يُدعى حسين مشَّاط هندي الأصل، ولكن مؤهلاته أن شقيقته زوجة لأحمد لاري، أما عن خبرته وثقافته فكانت محدودة جداً.

وصول الزميلين: أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله:

بتنا تلك الليلة في الدمام، وأثناء الليل كان الزميلان أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله قد وصلا الدمام، وقد فوجئنا في الصباح بوجودهما معنا في الممثلية.

مدير جمرك الخبر:

كان مدير جمرك الخبر آنذاك شخص يُدعى يوسف الفوزان زبيري المولد، سعودي الجنسية، وكان هذا الشخص قد سبق له أن استلم جمرك الخبر من سلفه عبدالوهاب سلامة، نجل علي سلامة رئيس بلدية جدة آنذاك.

اليوم الثاني في الدمام:

أمضينا اليوم التالي لوصولنا في الدمام، بعد أن أخذنا جولةً مع أحمد لاري ومديرنا الجديد حسين مشَّاط، على كل من مدينة الخبر وجمرك الخبر ومقر شركة الزيت في جبل الظهران.

كان مقرُّ الشركة يقع غرب جمرك الخبر نحو ١٧ كيلومتراً، بينما يقع جمرك الخبر على الساحل الغربي من الخليج العربي المقابل لجزيرة البحرين، أمّا المسافة بين الدمام وجبل الظهران فهي في حدود ٢٢ كيلومتراً تقريباً، والمسافة بين الدمام والخبر في حدود ١٥ إلى ١٧ كيلومتراً تقريباً.

الدمام والخبر في تلك الأيام:

كانت مدينة الدمام، وكذلك مدينة الخبر، كلتاهما عبارة عن مجموعة من العشش يقطنهما بعض السكان الأصليين الذين يُعرَفون بالدواسر، يضاف إليهم الكثير ممن لهم علاقات أو ارتباطات مع شركة الزيت، وكذا مجموعة من أصحاب المتاجر المتواضعة ممن وفدوا إلى هاتين المنطقتين من العديد من مدن المملكة الداخلية.

مهنة استخراج اللؤلؤ:

أما السكان الأصليون فكانوا يمتهنون مهنة استخراج اللؤلؤ في مواسم الغوص المعتادة في كل عام، في مناطق متفرقة معروفة لهم، تبدأ من قرب رأس تنورة في الشمال، وتنتهي في أقصى مدخل الخليج من جهة الجنوب على مقربة من عُمَان، وكان لكلٍّ من هؤلاء السكان الأصليين سفنٌ شراعيةٌ، كانت راسية حين قدومنا في ميناء الدمام والخبر، وأكثرها في ميناء الدمام الذي كان يخضع للمد والجزر بشكل غير اعتيادي، فعندما يأتي المد تستطيع السفينة أن تسير إليه وعندما يعقبه الجزر تبقى السفينة على الأرض.

كانت السفن الشراعية التي تَرِدُ لميناء الدمام تقف على بُعد حوالي ثلاثة كيلومترات من الساحل، وهناك تنقل حمولتها على مراكب صغيرة تسمَّى (جالبوت)، وكان من أبرز أصحاب السفن شخص يدعى الخان، وأظنه فارسي مستعرب، أي من الفرس المتوالدين في هذه المنطقة.

قلعة القرامطة:

على بعد نحو مائتي متر من ساحل الدمام من جهة الشمال قلعة ضخمة، قد يبلغ طول أحد أضلاعها أكثر من مائتي متر، جدرانُها مشيَّدة بأحجار ضخمة وفي داخلها العديد من الغرف والأبراج، ولكنها بفعل السنين قد تهدَّم الكثير من جدرانها وسقوفها، وهذه القلعة ـ كما يقال ـ بنيت في عهد أبي سعيد القرمطي، عندما حكم في القرن الرابع الهجري منطقة الأحساء امتداداً إلى البصرة شمالاً.

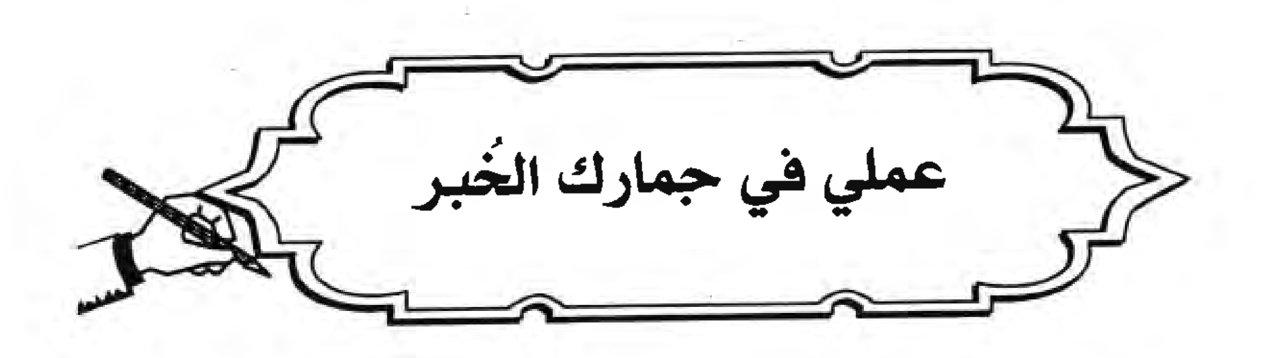
استحلال القرامطة الحرم المكي الشريف:

ويقال بأنَّ هذه القلعة قد نُقِلَ إليها الحجر الأسود من مكانه في الكعبة في عام ٣١٧ هجري حينما احتلَّ أبو طاهر القرمطي ـ لعنة الله عليه ـ الحرمَ المكي الشريف بخيوله وذبح جميع الحجاج الموجودين في الحرم آنذاك، حتى غطت دماؤهم أرض الحرم، ثم اقتلعوا الحجر الأسود الشريف، واصطحبوه معهم إلى أماكن حكمهم في شرق الجزيرة، وكان قد ابتدأ قبل هذا التاريخ بنحو عقدين من الزمان.

كانوا قد اقتحموا الحرم الشريف على ظهور خيولهم، فامتلأت ساحات الحرم ـ كما تروي كتب التاريخ ـ بروث خيولهم وبولها، مختلطةً بدماء الحجيج، وقد أُعِيد الحجر إلى مكانه بعد أن ظلَّ في حوزة القرامطة أكثر من عشرين عاماً، وقد حاول الخلفاء الفاطميون، وخاصة المهدي العبيدي أن يضغطوا على القرامطة لإعادة الحجر، لما هو معروف من علاقة القرامطة بالفاطميين إلا أنهم لم يوفقوا إلى ذلك، وكان يحكم مصر آنذاك دولة ضعيفة في دور الاحتضار، كما أن الدولة العباسية في بغداد كانت في

وضع من الهوان والضعف في جعلها مهددة باستيلاء القرامطة على عاصمتها، ولكن القرامطة أعادوا الحجر بعد أكثر من اثنين وعشرين سنة من الاستيلاء عليه.





إلى جمرك الخُبَر:

في اليوم الثاني توجهنا: مديرُنا حسين مشاط والزملاء أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله إلى جمرك الخبر، ثم لحق على أثرنا أحمد بك لاري.

بيانات الدور والتسليم:

استقبلنا مدير الجمرك آنذاك يوسف الفوزان، وقد كان قد أعدَّ بيانات دور الاستلام والتسليم على موجودات الجمرك، من مكاتب وأثاث وبضائع وما إليه، فقمنا بتطبيق هذه البيانات على الموجودات، ثم وُقِعَت البيانات بعد ذلك من قبل المدير أولاً، ثم من قبلنا نحن الثلاثة الموظفين، كلٌّ فيما هو عائد لوظيفته، فاستلم عبدالقادر الصندوق وموجوداته والسجلات المالية العائدة له، كما استلم أحمد قاسم سجلات اليومية والمبصرات والفسوحات والأوراق ذات القيمة وهي سندات القبض، وأوراق تعيين الميناء، وهي (مَنَافِسْت)، ومجلدات الفسوحات، وكانت كلُّ ورقة من هذه المستندات تساوي قرشاً واحداً تحصَّل من التاجر.

أما أنا فقد استلمتُ موجودات المستودع، وهي بعض الصناديق المقفلة، تحمل كتابة هي عبارة عن اسم شركة الزيت (كاسوك)، ومعنى ذلك أنني مسؤول عن واردات الشركة التي تصل عبر جمرك الخبر، فقد كنتُ على إلمامٍ بسيطٍ باللغة الإنكليزية.

مبنى الجمرك:

مبنى الجمرك مربَّع صغير يحتوي على أربع غرف سُعة كل غرفة ثلاثة أمتار في أربعة، إحداها للمدير، والثانية لأمين الصندوق، والثالثة لكاتب اليومية والفسوحات أحمد قاسم، والرابعة هي لمسؤول المستودع إبراهيم الحسون، يلاصق هذا المبنى من جهة الجنوب غرفتين، تفضي إحداهما إلى الأخرى، كان يشغلهما مسؤول الجوازات آنذاك، ويدعى عبدالله فؤاد، وهو من أهالي المنطقة كما أذكر، وهو رجل نحيف الجسم أسمر اللون قصير القامة، وكان يقوم بعملٍ شاق وحده، يعمل ليلاً ونهاراً كان على مقربة من الجمرك.

الميناء:

على بعد نحو عشرة أمتار من ساحل البحر يقع ممر عرضه نحو أربعة أمتار يتجه في عمق البحر نحو كيلومتر تقريباً ينتهي بساحة واسعة أسطوانية الشكل تبلغ مساحتُها نحو عشرة آلاف متر، وهي الميناء التي ترسو عليها اللنشات والسفن الشراعية، كانت اللنشات تتردد صباحَ مساء ما بين هذا الميناء وميناء المنامة وسترا في البحرين ناقلةً للبضائع والأفراد. كان العمل مستمراً على امتداد ٢٤ ساعة بدون توقُّف.

مندوب شركة الزيت:

كانت شركة الزيت تقتني أعداداً هائلة من الأبقار، وكانت تستورد لها العلف والبرسيم من البحرين على لنشات، وكانت عشرات الصناديق تصل يومياً إلى الجمرك قادمة من البحرين على لنشات، وكان هناك مندوب من الشركة يدعى (فين FINN)؛ هذا الشخص يعمل معي باستمرار، فنقوم معاً بفتح جميع الصناديق الموجودة في الساحة التي تحمل عبارة كاسوك. نفتحها بواسطة عُمَّال يحضرهم معه من الشركة يقومون بفتح هذه الصناديق، ثم أقوم أنا وهو بتطبيق محتويات كل صندوق على أوراق الـ (SHIPPING NOTICE) المنافستو الوارد معها من البحرين. بعد التطبيق، والتأكد تقفل

الصناديق، وتنقل بواسطة سيارات كبيرة إلى مركز الشركة بجبل الظهران، ذلك بالنسبة للبضائع، أمّا الأعلاف فهذه تشحن من الميناء رأساً عند وصولها إلى مقر الشركة.

عمل شاق:

كان العمل بالنسبة لنا مضنٍ وشاق بأوسع ما تعنيه هذه الكلمة، فقد اتضح لنا بعد مباشرتنا العمل في ميناء الخبر أننا كنا ضحيةَ إغراء الراتب الذي هو مائة وعشرون ريالاً، واتَّضح لنا بعد المباشرة أنَّ العمل يتطلب منا المواصلة ليلاً ونهاراً، وأنَّ الشركة تدفع راتبين للموظف، أي مائتين وأربعين ريالا مقابل عمله في الليل والنهار لكن ما يدفع له هو مائة وعشرون ريالاً فقط، وقد اتضح لنا ذلك فيما بعد وقد أكد لي ذلك مستر FINN مندوب الشركة.

باشرنا العمل ثلاثتنا: عبدالقادر باحفظ الله، إبراهيم الحسون، أحمد قاسم، وكنا جميعاً نزاول العمل الجمركي لأول مرة، ولم يكن لنا سابق معرفة بالإجراءات الجمركية والأنظمة التي تحكمها، وقد زاد الطين بلة أنَّ مديرنا الذي يرأسنا حسين مشاط كانت معلوماته صفراً في هذا الموضوع ولذلك اعتمدنا على أنفسنا في محاولة تتبع إجراءات مَنْ سَبَقَنا، والنهج على منواله.

إيرادات الجمارك:

وكانت الحكومة آنذاك تهتم كل الاهتمام بإيرادات الجمارك وتنميتها، والاهتمام أيضاً بأيِّ مرفق يدرُّ دخلاً مهما كان ضئيلاً. ومن ضمن إجراءات الجمارك أنَّ الرسوم التي تُستوفى على ما يستورد من البضائع يحكمها نظام الجمارك تحكمها تعرفة جمركية مطبوعة.

نوعا فئات الرسوم الجمركية:

كانت فئات الرسوم على نوعين: رسوم تخضع للفئة المئوية بحيث يؤخذ نسبة في المائة من قيمة البضاعة، ونوع آخر يُؤخذ عليه رسومٌ محددة

لأنَّ أصنافه معرَّفة بالاسم، فهذا يخضع لثلاثين في المائة، وذاك أقل، وآخر أكثر وهكذا.

يضاف إلى ذلك أنَّ هناك رسوماً إضافيةً تُستوفى على البضائع، منها استيفاء قرش واحد للمعارف، وهو رسم سبق أن خُصِّص بدءاً من مدارس الفلاح، ورسم آخر يُستوفى على كمية البضاعة من حيث الوزن، فتوزن هذه الطرود بميزان كبير موضوع في ساحة الجمرك كلٌّ طردٍ على حدة، ومن ثم تُؤخذ رسوم على مجموع هذا الوزن.

الزميل أحمد قاسم:

كان المختص والمسؤول عن تحقيق الرسوم هو الزميل المرحوم أحمد قاسم لأنَّه هو الذي كان يقوم بفتح الطرود بعد وزنها، ثم جَرْدُ محتوياتها، ثم تسجيلها في دفتر المبَصِّر، ثم يحقِّق الرسوم المستحقَّة عليها حسب فئاتها في دفتر التعرفة، ثم يضيف على مجموع الرسوم قرش المعارف، ثم رسوم التخريجية التي تُحقق على وزن كل طرد.

كان الزميل أحمد قاسم رحمة الله عليه رجلاً شديد الحرص دقيقاً في عمله، كثير الشك والريبة، يكرر العملية الحسابية عدةَ مرات خشية الخطأ، وكان رجلاً متوسط القامة، ملفوف الجسم، سريع الانفعال، في كثير من الأوقات يبدو محدود التفكير، ولعلَّ ذكر الطرفة التالية توضِّح للقارىء صحة ما نقول.

قصة صديقنا «صاحب الحمار»:

كانت ولا زالت تقطن في جزيرة البحرين بادية رُحَّل، اعتادوا في كل عام في مقتبل دخول الشتاء أن يأتوا إلى المملكة ببيوتهم الشعر وخيامهم وحميرهم ومؤونتهم من الأرزاق لِعدة شهور، بعد أن يكونوا قد استحصلوا مسبقاً من مندوب المملكة في البحرين على إذنٍ بالدخول إلى المملكة للتجول في مراعيها في موسم الشتاء أو الربيع، أينما شاؤوا مع أبنائهم ومعداتهم قطعانَ ماشيتهم من الماعز والضأن.

قبائل النِّعيم:

بعد مباشرتنا العمل بنحو أسبوعين وصلتنا برقية من جلالة الملك عن طريق وزير المالية تنصُّ على السماح لقبائل (النِّعِيم) وهو اسم لهذه البادية وكان عددها آنذاك في حدود المائتي نفر، ما بين رجل وامرأة وطفلٍ، وأن تُعفى الأمتعة والأرزاق التي معهم إلا ما كان منها زائداً عن الحاجة فهذا يرسَّم.

وصل هؤلاء في أمسية أحد الأيام على مجموعة من السفن الشراعية، وكانت تقوم بإنزالهم على شاطىء الميناء، ومن ثم يتجمعون في ساحات واسعة على مقربة من الجمرك، وعندما يتكامل عددهم جميعاً نقوم بتفتيش أمتعتهم، وتسجيل ما معهم من مؤونة لهم مدَّةَ إقامتهم في المملكة، وكانت عادةً كيسين من الرز، ومثلها من الطحين، وخمس أو ست قُلل تمر لكل أسرة.

نقوم بتسجيل الجميع: أسماء الأشخاص، وعدد المواشي بما فيها الحمير، وأنواع ومقادير الأمتعة والأرزاق، ونحتفظ بهذه البيانات في الجمرك، ثم يُعطى لهم تصريح تحت توقيع مدير الجمرك مستنداً على الأمر الوزاري المبني على الأمر الملكي بالسماح لهم بالتجوُّل أينما رغبوا وعدم معارضتهم أو التعرُّض لهم.

الحمير الحساوية الضخمة:

كان الزميل أحمد قاسم كما ذكرت هو المسؤول عن تحقيق الرسوم وجبايتها، وقد حاول أكثر من مرة أن يستوفي رسوماً على بعض ما كان معهم من ملابس جديدة لم تستعمل بعد، سواء كانت للرجال أو للنساء، وكنا نقف في وجهه ونمنعه من تحقيق رغبته، على أساس أن هؤلاء بادية فقراء وهي لاستعمالهم الخاص. وبما أنَّ الأغنام والأرزاق قد نصَّ عليها في برقية الإعفاء، إلا أنَّ الحمير لم يرد لها ذكر، وكان مجموعها نحو خمسين حماراً بعضها من الحمير الحساوية الضخمة، وهي تفوق في أجسامها أجسام

الخيل، فقد اغتنم الزميل أحمد قاسم الفرصة لكي يحقِّق رغبته في جباية الرسوم من هؤلاء فحققها في الحمير، كيف؟

وزن الحمير واستيفاء رسومها الجمركية:

رأى أن يقوم بوزن كل حمار على حدة، ويستوفي رسوم التخريجية المستحقة على وزنه، ولما كان للجمرك ثمانية حُمَّال حساوية، يعملون مع الموظفين في تحميل وتنزيل البضائع التي ترد إلى الجمرك، وكان يوجد خارج الجمرك ميزان قباني كبير تبلغ مساحة كفته أكثر من متر وربع تقريباً مثبتةً بزوايا حديدية في زواياه الأربع، وفي الكفة المقابلة ثقالات من الحديد متفاوتة الأوزان يبلغ عددها العشر، ما بين خمسة إلى خمسين كيلو، فقد نادى الأخ أحمد قاسم على رئيس الحمَّال طالباً حضورهم، وكان ذلك بعد صلاة العصر، وكانت الساحة مكتظةً بالجمهور ما بين موظفي الشركة الأمريكية على مختلف جنسياتهم، وبين حشدٍ من المواطنين وبين بادية النعيم وحواشيهم.

كنت والزميل عبدالقادر باحفظ الله نقف على باب الجمرك، نراقب حركات الزميل أحمد قاسم: ماذا يريد أن يفعل؟ وفجأةً صرخ في الحمَّال مشيراً إلى أحد الحمير الضخمة طالباً منهم إحضاره إلى حيث يوجد الميزان، وفي غمرة دهشة الحاضرين وذهولهم كان الحمَّال قد نفذوا الأمر، وأحضروا الحمار أمام الميزان.

وكان هؤلاء الحُمَّال من أهل مدينة المبرَّز في الأحساء، وهم أقوياء الأجسام بشكل ملفت للنظر، فأخذوا يحاولون تقييد الحمار، تمهيداً لحمله على كفة الميزان، ولكن الحمار كان أقوى منهم، وفي بَدْء الأمر ظهر الحمار، وكأنه يستسلم لرغبتهم وينقاد لهم، ولكن عندما رأى أنهم يريدون أن يبطحوه على الأرض تمهيداً لوضعه على كفة الميزان، ثارت كرامته لنفسه على هذه الإهانة، التي أرادوا أن يلحقوها به، فإذا به فجأةً يستأسد، فيركلهم بعنف بكلتا رجليه، ثم يهجم عليهم محاولاً عضَّهم، فإذا بهم يفرون هاربين من أمامه، بما فيهم صديقنا أحمد قاسم، ولا تسأل عن

صيحات الضحك، التي تعالت آنذاك لفترة من الزمن، والحمار واقف في مكانه شامخَ الرأس يتحدَّى، ولسان حاله يقول: اقتربوا إن كنتم شجعان.

وكان الزميل أحمد قاسم قد أسرع إلى داخل مبنى الجمرك، وكنا نقول له ساخرين: أغلق الباب عليك لا يجيك الحمار.

ظلَّ الحمار واقفاً في مكانه والحبال مربوطة بيديه ورجليه، ولكن الحمَّال رفضوا أن يقتربوا منه، وبعد نحو ساعة على هذا المشهد حضر شيخ طاعن من بادية النعيم إلى الجمرك، واتَّجه إلى أحمد قاسم قائلاً له: وبعدين مَعَاك! نريد أن نذهب.. فكوا حبالكم عن الحمار، فأجابه: فكوا أنتم الحبال عنه، وخذوه وابعدوا عنا.

كانت هذه الحادثة متعة أضحكتنا ذلك المساء، ثم انتشرت القصة وكانت حديث أهل الخبر والدمام وجبل الظهران يتنذَّرون بها.

وكانت سمة تطلق على أحمد قاسم بعد ذلك بصاحب الحمار، وكان ينزعج ويتألم لسماع هذه الكلمة، ولأنه كان حاد الطبع، عصبي المزاج، يغلب عليه الحمق في كثير من الأحيان، فكنا ننكت عليه من قبيل التخويف قائلين له: أنك فرطت في حقوق خزينة الدولة، لأنك سمحت للحمير بالمرور دون أن تستوفي منهم رسوم التخريجية، ولا بد أن الوزارة سوف ترسل مفتشاً يغرمك ما يقابل هذه الرسوم، وكان شديد الخوف وشحيحاً أيضاً، ولكنه طيب القلب فما يكاد ينتفخ أنفه، وتحمر عيناه حتى يعاوده الهدوء. ولأننا نعرف فيه هذه الصفات كنا نتجنب إيذاءه، رغم ما كان ينالنا من حماقاته الكثيرة.

القشة التي تقصم ظهر الحساب:

أما عبدالقادر باحفظ الله فكانت مهمته أمانة الصندوق جباية الرسوم بعد أن يحققها أحمد قاسم في دفتر المبصَّر، ثم يقوم عبدالقادر بمراجعتها واستيفاء الرسوم من التاجر، وإعطائه إيصال استلام رسمي.

كان القيد يتم يومياً على شكل موحَّد، ولكن في سجلين مختلفين: أحدهما دفتر الصندوق، ويسجِّل فيه المبلغ المستلم من التاجر مع اسم التاجر ورقم إيصال الاستلام وتاريخه، أما السجل الثاني فهو دفتر اليومية، ويسجل فيه أنواع البضائع، ومفرداتها، ومقدار الرسوم المستوفاة عليها واسم التاجر، وكانت العادة أن تقفل القيود قبل الفجر بساعتين تقريباً من كل يوم.

كان دفتر اليومية هذا يقوم به أحمد قاسم، وعند إقفال القيود لا بد أن تتم المطابقة بين الصندوق واليومية على مقدار الرسوم التي استوفيت في ذلك اليوم.

كان عبدالقادر ـ رحمة الله عليه ـ يتعمَّد أن يزيد هلله أو ينقص هلله عند تسجيل بعض تلك الرسوم، وهنا تقوم القيامة بينه وبين أحمد قاسم حيث يتَّضح أن هناك فرقاً بين القيدين مقداره هللة واحدة، يقوم الصراخ بينهما حتى يكادان يتشابكان بالأيدي، كل منهما يحاول أن يؤكد أن قيده سليمٌ، وأن الخطأ عند الآخر.

وبعد عراك كلامي وتشاحن يعود عبدالقادر، فيظهر الهللة الناقصة أو الزائدة، ويثبتها في موضعها، ومن ثم يتطابق القيد بين الاثنين وتهدأ العاصفة.

إيراد الجمرك اليومي:

ويجدر هنا أن أشير إلى أنَّ إيراد الجمرك اليومي كان في حدود ألفين إلى ثلاثة آلاف ريال، لأن كل بضائع شركة الزيت كانت معفيةً من الرسوم.

استئجارنا بيتاً في الخُبَر:

مكثنا بعد مباشرتنا العمل مدة أسبوعين نواصل العملَ ليلَ نهار، ولا ننام أكثر من ساعتين قبيل الفجر من كل يوم، نقضيها في النوم داخل حجر عملنا، لكننا بعد ذلك رأينا أنَّ الاستمرار على هذا الوضع أمر غير

مستطاع، ولذا فقد استأجرنا نحن الثلاثة بيتاً من الخوص، وهو حوش واسع تتوسطه ثلاث عشش: واحدة منها جعلناها مطبخاً، والأخرى للمنام، والثالثة لأمتعتنا، وفرشنا، واتفقنا على أن نتناوب العمل فيما بيننا، ويذهب أحدنا إلى هذا الحوش فيأخذ القسط الكافي من الراحة والنوم، بينما يكون أحدنا قد أمَّن عمله، ثم يعود فيذهب الآخر وهكذا، وبعد نحو أسبوع رأينا بأنه لا بد من اتخاذ موقف موحَّد منا نحن الثلاثة، نواجه به مديرنا الذي كان يمضي اليوم واليومين دون أن نراه، لأنه يكون موجوداً مع صهره أحمد بك لاري في الدمام.

موقفنا من مديرينا في الجمرك:

اجتمعنا به، وأثرنا معه أنَّ ما كلفنا به من عمل هو فوق الطاقة، يضاف إلى ذلك أنَّ شركة الزيت تدفع لخزينة الحكومة مقابل هذا العمل المضني الذي نقوم به راتبين، أي بمائتين وأربعين ريالاً لكل موظف بينما الراتب الذي يدفع لنا هو مائة وعشرون ريالاً فقط، أي نصف ما تدفعه الشركة!! وقد استمرَّ النقاش معه أي مديرنا حسين مشاط أكثر من ساعتين، وخلال ذلك مرَّ بنا في الجمرك الممثل أحمد بك لاري قادماً من الدمام في طريقه إلى جبل الظهران مقر شركة الزيت، وقد فُوجىء باجتماعنا في غرفة المدير، ولاحظ علامة الانفعال والتوتُّر على وجه المدير وعلى وجوهنا أيضاً، فسأل قائلاً: خيراً إن شاء الله، لماذا أنتم مجتمعون هنا وتاركون لأعمالكم؟ فأوضحنا له الحقيقة بأننا سنضطر إلى الاستقالة إذا لم يوضع حل لمشكلتنا هذه.

المطالبة بترتيب ساعات العمل:

فسأل: وماذا تريدون؟ فقلنا: إنه لا بد أن يقتصر عملنا الليلي على ثلاث ساعات فقط، وأنه لا بد أن تكون لنا فرصة في وسط النهار، تبدأ من صلاة الظهر وتنتهي بصلاة العصر بحيث يكون دوامنا كالآتي: يبدأ العمل صباحاً بعد شروق الشمس بنحو ساعة ويستمر حتى آذان الظهر، ثم يبدأ من

جديد بعد صلاة العصر مباشرة حتى الساعة الثالثة ليلاً بالتوقيت العربي أي التاسعة بالتوقيت الحالي، وهنا طلب منا العودة إلى مكاتبنا لمواصلة أعمالنا واعداً بأنه سينظر في موضوعنا هذا، وسيكتب لإدارة الجمرك رسمياً باعتماد هذا الترتيب، وفعلاً تلقت إدارة الجمرك في اليوم الثاني من ممثل الحكومة لدى شركة الزيت أحمد بك لاري بموافقته على ترتيب ساعات العمل حسب اقتراحنا، وهنا تنفسنا الصعداء.

طعامنا في الخُبَر:

استأجرنا خادماً يجيد الطبخ، ويقوم بالإضافة إلى ذلك بتنظيف محلاتنا، وغسل ملابسنا، والمحافظة على غرفنا في غيابنا.

كان هذا الطباخ فارسي الأصل، يتكلم العربية بلكنة فارسية، وكان مرتبه عشرون ريالاً شهرياً.

كنا خلال المدة الماضية نستورد طعامنا من البحرين بالطريقة الآتية: أمَّنَّا ثلاثة مطبقيات، وهي المُعدَّة لحفظ الطعام، وهي ثلاثة إلى أربعة أطباق، بعضها فوق بعض، ينتظمها عامود من الحديد لحملها وإحكام قفلها وتسمى في المنطقة (السفرطاس)، واتفقنا مع رجل يدعى أحمد المحرقي من أهل البحرين، يمتلك لنشاً بحرياً، يتردَّد به يومياً ما بين البحرين والخُبَر، ينقل بضائع للشركة، وقد يقوم في اليوم الواحد بأربع أو خمس رحلات.

كنا نعطيه يومياً هذه المطبقيات، لكي يحضر لنا من أحد مطاعم البحرين ما يتوفَّر فيه من أطعمة، يحضر لنا المطبقيات، مملوءةً بالطعام، نستلمه منه، ونزوِّده بآخر فارغ، لكي يقوم بتعبئته لليوم التالي وهكذا.

كان الطعام الذي يرد من البحرين هو في الغالب من نوع الرز والسمك، ولكن كانت مشكلتنا معه أنه عبارة عن نار ملتهبة نتيجة لكثرة البهارات فيه، وخاصة الفلفل.

كنا نترقب حضور لنش أحمد المحرقي من البحرين بفارغ الصبر،

وكان أحدنا عندما يريد الانصراف ظهراً يتَّجه إلى ساحة الميناء الممتدة في عمق البحر، فيستلم المطبقيات التي أحضرها المحرقي، ووضعها عند حارس هناك يدعى إسماعيل الداغستاني، وكان هذا يجيد عدة لغات ويعمل حارساً في الميناء من قبل الجمرك، ومعه أحمد القصيبي، أخو عبدالعزيز القصيبي التاجر المعروف. وأحمد هذا يعمل في الميناء موظفاً مراقباً من قبل شركة الزيت. أما عبدالعزيز القصيبي، فقد عمل معنا في جمرك الخُبَر في كتابة فسوح البضائع التي تتم إجراءاتها الجمركية، وكان يعمل ملازماً بدون راتب، طمعاً في أن تشغر وظيفة لكي يعين عليها رسمياً.

رياح الخُبَر:

كانت مدية الخبر آنذاك أي في شهر شعبان عام ١٣٥٧هـ عبارة عن مجموعة من العشش، تنتشر على رقعة من الأرض، قد لا تزيد عن كيلومتر مربع. كان لا يوجد فيها أي بناء سوى مسجد صغير يقع في الناحية الشمالية الشرقية، بنى منه يالبلك مساحة نحو ثمانية أمتار في أربعة أمتار. كانت مدينة الخُبَر هذه تختص بخاصية هي أنه في أوقات محددة وأعني بها أيام الصيف تهب عليها يومياً كل صباح ريح شديدة تتَّجه من الغرب إلى الشرق حاملةً معها الأتربة، لأنها تأتي من الدهنا والصمَّان اللتان تقعان في الغرب بالنسبة لمدينة الخُبَر. تستمر هذه الريح على درجة من العنف حتى قبيل غروب الشمس بنحو ساعة طيلة أيام الصيف إلا ما ندر.

ولما كانت جميع المساكن عبارة عن عشش، فقد كنت تسمع المنادي كل صباح ينادي بالحرص والحذر من النار.

كنا نلاقي الأمرَّين عندما نحضر ظهراً لتناول طعام الغذاء نتيجة للأتربة، التي كانت تنزل على رؤوسنا بفعل الريح، وكثيراً ما كنا نضع الطعام ونتحلق حوله على هيئة دائرة، ونضع فوق رؤوسنا غطاء لتفادي الأتربة الساقطة من الجو.

موظفو شركة الزيت:

كان من ضمن سكان هذه العشش بعض من كبار موظفي شركة الزيت من جنسيات مختلفة فمنهم الزبيري العراقي، كحِجيٍ بن قاسم وفيصل الماجد، ومنهم عجب خان هندي الأصل، ومنهم عبدالرزاق النصار السعودي الجنسية، والد المرحوم نهار نصار، طيار جلالة الملك فيصل والملك خالد، ثم الملك فهد الذي توفي في عهده، ومنهم أحمد القصيبي، وأخوه عبدالعزيز وعائلاتهم.

كان عجب خان أكبر الموظفين رتبةً لدى الشركة يليه، فيصل الماجد، وحجيّ بن قاسم، وكنا نختلط بهم، ونتزاور وإيَّاهم، فأصبحنا نجتمع ليلياً بعد خروجنا من الجمرك في منزل أحدهم نلعب البلوت لمدة ساعة أو ساعتين، وكانوا جميعاً على جانب من دماثة الخلق ووفرة الأدب، وحُسن المعاملة.

المحلات التجارية في الخبر:

كما يوجد بعض السعوديين، منهم شخص يُدعى المزروع، وشخص آخر أيضاً، لا أذكر اسمه الآن، لديهم دكاكين متواضعة كالخضروات التي كانت ترد من القطيف وبعض الحاجيات والمعلبات، التي كانوا يستوردونها من البحرين، ثم ابتدأ يتوافد على الخُبَر شيئاً فشيئاً بعض المواطنين، يفتحون فيها محلات تجارية متواضعة، ومنهم محمد علي العبدالله التميمي، أحد مواطني مدينة عنيزة بالقصيم الذي قدم إلى الخُبَر وفتح متجراً فيه الكثير من الحاجيات، وقد فهمت أنَّ هذا الرجل قد أنعم الله عليه بوافرٍ من الثراء، كما لحق به بعد ذلك الكثيرون من أهل عنيزة كالقاضي والسعدي وغيرهم.

ماء الشرب والسقاؤون:

كانت الخُبَر تستمد ماء الشرب من بئر ارتوازية حفرتها الشركة في الطرف الغربي من البلدة.

كان هناك سقاؤون يزوِّدون البيوت بالصفائح من هذا الماء.

فرن صالح الحساوي:

وكان يوجد في الخُبَر فرن واحد فقط يديره شخص يسمى صالحاً الحساوي، على جانب من الغباء إلى حد أكثر من أن يصدقه العقل. كان ساذجاً إلى حدِ البلَهَ، وله قصص غريبة مضحكة، يستحيل تصديقها على من لم يشاهدها عياناً.

ولعلَّ في الحادثة التي أرويها لك الآن التي وقعت بمشاهدتي واطلاعي ورفقائي في العمل أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله ما يوضح لك صحة ما أقول وإليك الحادثة.

عنزة الفرَّان:

كان هذا الرجل يمتلك فرناً هو عبارة عن تنُّور يصنع خبزاً عراقياً وهو نوع من الخبز معروف أشبه ما يكون بالتميس في الحجاز، وكنا نتعامل معه بتأمين احتياجاتنا يومياً، وهي كمية من الأقراص قد لا تزيد عن العشرة يحضرها إلينا بنفسه في الصباح وفي الظهر، وكان فرنه لا يبعد عن منزلنا أكثر من عشرين متراً تقريباً.

وكان هذا الشخص يملك عنزة ضخمة الجسم تعرف بالعنزة المصرية في الحجاز، كانت هذه العنزة تحمل ثدياً مُربَّعاً عريضاً وافرَ اللبن قد لا تقل الحلبة الواحدة منه عن رطلين من اللبن، واتفقنا معه بأن يزودنا كلَّ صباح بكمية من الحليب لا تقل عن رطل تقريباً، كان يحضرها إلينا بعد شروق الشمس مباشرة، وفي نهاية كل شهر ندفع له كامل حسابه عن اللبن والخبز.

وكان اللبن يتكلَّف نحو نصف ريال يومياً، كما أن الخبز في حدود الريال الواحد. كان الكثير من أهالي البلد يملك رؤوساً من الماعز، ولكنها من صنف آخر أقل جودة من عنز صالح الفران، ومن عادتهم أن يخرجوا أغنامهم في الصباح من عششهم، فيأتي شخص معيَّن يجمع هذه الأغنام، ثم يسوقها باتّجاه الصحراء، غرب مدينة الخُبَر ليقوم برعيها هناك حيث

الأعشاب والنباتات، ومع غروب الشمس تقريباً يعود بها، فيستقبله أهالي الأغنام كلٌ منهم يأخذ عنزه إلى داخل داره.

كان يوجد مع هذه الأغنام فحل ضخم الجثة (تيس) فاره الطول، أجم الرأس، أي لا قرونَ له من نوع العنز الموجودة لدى صالح الفران.

كان هذا التيس يسرح مع الغنم كل يوم، ويعود معها، ثم يظل متجوِّلاً بين العشش إلى أن يدخله أحد الأشخاص في حوشه إلى الصباح خاصة إذا كان عنده أغنام لكي يلقحها.

نُميَ إلى علمنا أن صالح الفران هذا يلفُّ على رقبة عَنْزِهِ قطعةً من القماش الأبيض يحكم ربطها، وعلمنا أيضاً أنه وضع هذه العلامة برقبة العنزة، حتى يتعرَّف عليها، ولما كنا نعرف سذاجته وبلاهته لاحتكاكنا به يومياً فقد اتفقنا أنا والأخ عبدالقادر والأخ أحمد أن نتأكد من صحة هذه المقولة بأنه لا يعرف عنزهُ هذه إلا بتلك العلامة، التي وضعها في رقبتها.

اتفقنا على أن يقوم المرحوم عبدالقادر باحفظ الله باستقبال الأغنام عند عودتها مساءً للبلدة، بينما يقوم أحمد قاسم بالحديث مع الراعي، أي حديث يختلقه بحيث يظل واقفاً معه ريثما يتم عبدالقادر مهمته وتتلخص في فك العلامة عن رقبة عنز صالح الفران وربطها في التيس، ثم سحب العنز وإخفاؤها داخل منزلنا.

تمَّت العملية بنجاح قبل وصول الأغنام طرف البلد بنحو خمسين متراً، وفي ذلك اليوم، من حسن الحظ كانت الريح فيه مستمرة لم تهدأ بعد وكان الجو مملوءاً بالغبار، مما مكَّن عبدالقادر ـ رحمة الله عليه ـ أن يؤدي مهمته على أكمل وجه.

أحضرنا العَنْز داخل حَوْشنا وقام الخادم بحلبها في إناءين، قد يستوعبان أكثر من رطلين من اللبن، كان الطباخ يقوم بمهمته، وكنا الثلاثة أنا وأحمد وعبدالقادر واقفين في موضع تجمع الأغنام بعد وصولها طرف البلد، وإذا بصالح الفران يقبل، ويتَّجه رأساً إلى التيس، يقوده معه إلى داخل داره لأن العلامة في رقبته.

نوبات الضحك:

كان كل منا الثلاثة قد وضع غترته في فمه لكتم الضحك مسرعين إلى منزلنا، ولا تسل عن نوبات الضحك التي كانت تنتابنا بحيث لا ننتهي منها حتى نعود من جديد.

كانت العادة المتبعة أن يأتي إلينا بحليب المساء بعد صلاة المغرب مباشرةً من كل يوم، أي بعد وصول العنز من المرعى. لذلك كنا نضحك منتظرين ماذا سيفعل.

مرت ساعة وساعتين دون أن يحضر، وهنا أرسلنا إليه الطباخ يستحثُّه على إحضار الحليب، فوجده في حالة وجوم، وفي حيص بيص كما يقال، عندما سأله الطبَّاخ: أين الحليب؟ قال له: أخبر جماعتك أن العنز اليوم عَيَّت تحلب. وهنا ذهبنا نحن الثلاثة إليه بعد أن أوعزنا إلى الطبَّاخ بأن يخرج العنز من حوشنا ويفلتها، لكي تتَّجه إلى منزل صاحبها، وعندما وقفنا عليه وجدناه على جانب من الارتباك والوجوم.

قال له أحمد قاسم: أين اللبن يا صالح؟ أجاب بأن العنز عَيَّت تحلب اليوم. قال له: أين هي؟ قال: شوفها أمامك.

وهنا انفجرنا جميعاً بالضحك، حيث صرخ أحمد قاسم في وجهه بأن عنزك هذه تيس وليست بعنز، فوقف منتصباً، ومسك بالعلامة التي في رقبة التيس، وقال: هذه هي العنز شوف العلامة. وهنا أمسك عبدالقادر - رحمه الله - بيد صالح الفران ووضعها على خصيتي التيس، قائلاً له: هذه خِصْيتا تيس، وليست ثديي عنز.

وفي تلك اللحظة دخلت علينا العنز، لأنها وجدت الباب مفتوحاً، وقد كنا تعمَّدنا تركه مفتوحاً عند دخولنا لكي تدخل، أسرعت العنز إلى الحوش وكان يوجد في جانب منه إناء فيه ماء، لتشرب، وهنا أسرع إليها يعتنقها، ويتلمس ثديها، وكنا بحالة غلبت فيها علينا الرأفة به والعطف عليه؛ لأنه ثبت لنا أنه يحمل من الإنسان الجسم واللسان فقط، ولذا كنا نعطف

عليه بعد هذه الحادثة أشد العطف، وحرصنا بيننا على أن لا تشيع هذه القصة، حتى لا يتَّخذها بعض ضعاف النفوس لاستغلال سذاجة الرجل.

نمو مدينة الخُبَر:

كانت مدينة الخُبَر آنذاك في دَوْر الطفولة، إذ لا يتجاوز عدد سكانها، على ما أعتقد، أكثر من مائتي شخص بما فيهم سكانها الأصليين من بادية الدواسر، وبعض موظفي شركة الزيت الأمريكية، وقد ذكرت بعض أسمائهم فيما سبق، مضافاً إلى ذلك بعض الأفراد الذين بدؤوا يتوافدون بين آونةٍ وأخرى، يأتون من مدن مختلفة كالقطيف والجبيل ـ وكان يُعرَف آنذاك بأبي عينين ـ ومن بريدة ومن عنيزة ومن قرى أخرى يتوافدون إلى هذا المكان، نظراً لقربه من مقر شركة الزيت، الذي أوجد حركة تجارية، لوفرة رجالها من العمال والموظفين، اللذين يؤمِّنون حاجياتهم من خضروات ومعلبات وغيرها من مدينة الخُبَر.

أبرز أصحاب المتاجر في الخبر:

وكان من أبرز أصحاب المتاجر على تواضعها المدعو عبدالله الفرج، وإخاله من الدمام أو من مدينة أخرى لست متأكداً منها. كان يجلب الخضروات من القطيف والقرى المحيطة، يبيعها في دكانه، فيأتي إليه عمال الشركة يشترون منه ما يحتاجون، ثم لحق به أشخاص آخرون من مدن وقرى مختلفة منهم علي العبدالله التميمي من عُنيزة، وهكذا بدأت البلدة تنمو وتتَّسع تدريجاً حتى بلغت عششها ما يزيد على الألف عشة.

رخص أراضي الخُبر:

وكانت أراضيها رخيصة جداً، ويكفي أن أذكر أنني قد استأجرت فيها إحدى العشش وهو مساحة من الأرض قد تبلغ خمسين في خمسين متراً، محاطة بجدار من سعف النخيل وبداخلها عدة عشش على هيئة غرف؛ استأجرتها من شخص يدعى علي مرزوق من أهالي المنطقة، ويبدو أنه من

عبيد الدواسر، حيث كان فاحمَ البِشْرة، استأجرتها منه بأربعة ريالات شهرياً، وذلك بعد تفرقنا أنا والزملاء أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله.

استأجر كل منا حوشاً مستقلاً بعد أن مكثنا قرابة ثلاثة أشهر يجمعنا حوش واحد، وبعد أن كنا نعتمد على طعامنا الذي كنا نستورده مطبوخاً من البحرين كما أشرت سابقاً.

استئجار بيت مستقل وسبب استقلالنا بالسكن:

ورغم صداقتنا وانسجامنا بعضنا مع بعض إلا أننا اضْطررنا للانفصال، لأنه اتَّضح لنا أن الأفضل أن نؤمّن لنا طباخاً في كل أسبوع أو شهر على الأقل نتيجة لحدة طبع المرحوم أحمد قاسم، ومشاكسته الشرسة والمستمرة مع أي طبّاخ نستأجره، بحيث لا يستطيع هذا الطباخ أن يتحمَّل وضعنا أكثر من أسبوع ثم يتركنا رافضاً كل الإغراءات التي نقدمها له في البقاء إلا بشرط أن يخرج أحمد عنا، ومن الواضح أنه يصعب علينا أن نضحِّي بزميل وصديق إرضاءً لطبّاخ، وفي النهاية كان لا بد لنا من الانفصال بحكم الضرورة فاستقل الأخ أحمد ومثله الأخ عبدالقادر كل منهما في مسكنٍ خاص.

وقد آل الأمر في النهاية أن يقوم الأخ أحمد ـ رحمة الله عليه ـ بتهيئة طعامه بنفسه عندما يعود من العمل، نظراً لتعذر وجود من يعمل لديه، لما اشتهر من حدة طبعه.

تناوب الصعود إلى الجبل:

سارت الأمور على هذا النهج الذي ألفناه في العمل، وفي الواقع أنه كان مريحاً. كنا في فترات متفاوتة نتناوب الصعود إلى الجبل، أي يذهب أحدنا إلى مقر الشركة، فيقضي وقتاً عند أحد الأصدقاء والمعارف هناك، بينما يقوم أحد زملائه بتأمين عمله، وهكذا تكوَّنت لنا صداقات مع كثير من موظفي الشركة، نتيجة للاحتكاك، لمرور بعضهم علينا في الجمرك في أثناء ذهابهم إلى البحرين أو عودتهم منها، والتي تتمُّ في نهاية يوم الخميس من

كل أسبوع حيث يتَّجهون، إلى البحرين، ويعودون فجر السبت وبحكم النظام يتوجَّب عليهم المرور بالجمرك لتفتيشهم، وترسيم ما قد يكون قد جلبوه معهم من البحرين من أشياء تستوجب الترسيم، وكنا نتسامح معهم ونغضُّ النظر عما قد جلبوه معهم من أشياء شخصية ليست عائدة للتجارة فنسمح لها تمرّ دون أخذ رسوم عليها، ولذا فهم يقدِّرون معاملتنا هذه لهم مما نتج عنه نمو صداقات مع كثير منهم.

مباني الموظفين:

كان الجبل مقرّ الشركة، ويبعد سبعة عشر كيلو ـ كما ذكرت سابقاً ـ عن جمرك الخُبَر باتّجاه الغرب، يقع في فسيح من الأرض على هيئة ربوة توجد مكاتب الشركة في ناحية منها، كما توجد مباني موظفيها من الأمريكان والعناصر الأجنبية الأخرى في جهة ثانية في بيوت خشبية جاهزة تستوردُها الشركة من الخارج، وعلى مقربة منها مطعم خاص يتولاَّه مجموعة من الطبَّاخين الهنود، ويسمَّى (الميس) مختص بالأمريكان، وكبار موظفي الشركة من العرب والأجانب، وهناك في الجانب الآخر حي كامل على هيئة صفوف (لاينات)، كل (لاين) يتكون من عشرين غرفة تقريباً، موزعة على موظفي الشركة من العرب.

شرطة الظهران:

ويشترك مع هؤلاء موظفو شرطة الظهران، وكان يرأسهم آنذاك غالب توفيق، يعاونه يوسف مضافي وعبدالله خطاب وهما الزميلان اللذان رافقانا من الرياض حين قدومنا إلى الظهران.

المرحوم عبدالله خطاب:

كان المرحوم عبدالله خطاب أحد الضابطين، شاباً دمث الأخلاق، في منتصف العقد الثالث من عمره على ما أعتقد، كان أنيس المعشر رقيق الحاشية، متفتح الذهن، محباً للحياة، وما تنطوي عليه من مباهج وسرور،

كان محله أشبه بنادٍ يرتاده الكثير من الموظفين، سواء كانوا من موظفي الشركة أو من موظفي الحكومة في الجمرك، أو في دار الممثلية في الدمام، كان يقتني جرامفون (صندوق غناء)، وأكواماً من أسطوانات الغناء لمختلف المطربين على مختلف جنسياتهم.

كانوا يقضون الساعات الطوال في كل ليلة عنده، يتحمَّلهم دون أن يبدو منه أي تذمُّر أو ملل، بل دائماً تجده باسم الوجه، يحتفي بكل من يأتي إليه ويتحمل بقاءه مهما طال مكثه.

كان الشاهي والقهوة تدور على الحاضرين الذين يجتمعون لديه، يضاف إلى ذلك أنَّ شيشة الجراك لديه لا تنطفيء شغَّالةً باستمرار، وكنتُ أحد عشاق الشيشة، فقد كنت كثيراً ما أزوره. أما زميله يوسف رمضاني فقد كان حاد الطبع، وكان نوعاً ما انطوائياً، ولذلك فقد احتل عبدالله خطاب مكانةً متميِّزة، لظرفه وكرمه وتواضعه.

شرارة توقد محرقة خطيرة:

في شهر ربيع الأول عام ١٣٥٨هـ كان أحد عمال شركة الزيت يقوم بتفكيك الهيكل الحديدي، الذي ينصبُ على فوهة البئر البترولية التي يراد حفرها، وهذا الهيكل يتكوَّن من أعمدة حديد على هيئة دائرة تبلغ مساحة قطر أرضيتها نحو مترين، وتمتد هذه الأعمدة إلى أعلى مسافة قد لا تقل عن عشرة أمتار أو تزيد، هذا الهيكل الحديدي يُنْصَب على البئر التي يراد حفرها، ثم بعد إتمام الحفر والعثور على البترول تقفل فوهة هذا البئر بصمام من الأعلى، ثم يشرع بتفكيك هذا الهيكل الذي يعلوها.

البئر رقم (١٢):

كانت البئر رقم (١٢) من أغزر الآبار التي تمَّ حفرها آنذاك بوفرة البترول الخام، وكان هذا العامل في قمة الهيكل، ويبدو أن إحدى الصواميل أو البراغي استعصى عليه فكها نتيجةً لما لحقها من صدأ، فاستعان بضربة من المطرقة على هذه الصامولة أملاً في أن يسقط الصدأ عنها ويتمكَّن من

سحبها إلا أن ضربة المطرقة في الحديد نتج عنها شرر، ويبدو أنَّ فوهة البئر لم تكن محكمة الإغلاق بشكل جيد بحيث كان يتسرَّب منها قليلٌ من الغازات غير المرئية.

انفجار رهيب:

فما كادت ضربة المطرقة تحدث الشرارة حتى انفجرت فوهة البئر بشكل مخيف ورهيب بحيث قذفت بكامل الهيكل الحديدي بما فيه العامل إلى مسافة لا تقل عن مائة متر عن فوهة البئر، وإذا بهذا الحديد الضخم محترقاً كأنه فحم، أمّا العامل فقد طار في الهواء واحترق ولم يعرف عنه شيء.

صفارات الإنذار:

كان الانفجار رهيباً هزّ المنطقة، وأثار الرعب والفزع في كافة الأنحاء، فتراكض الأمريكان فزعين نحو الموقع، وبدأت صفارة الإنذار تصرخ بأعلى صوتها منذرةً ومحذرة من الهول الذي وقع حتى إننا ونحن نبعد سبعة عشر كيلو عن الموقع، خرجنا نتراكض من الجمرك فزعين مذعورين نتيجةً لصراخ صفَّارات الإنذار التي كانت تصمُّ الأذان، ما تكاد تهدأ لحظة حتى تعاود الصراخ مرة أخرى بشكل أشد وأعنف، كانت هذه الصفارات تسمع في الدمام وفي القطيف وفي دارين، وبعضها يبعد مسافات كبيرة عن موقع الحدث.

دخان أسود:

تراكض الناس فزعين يتساءلون عن الحدث. خرجنا من الجمرك، وكان الوقت في أواخر النهار أي أنَّ الشمس متَّجهة إلى المغيب، وإذا بنا نشاهد جبالاً ممتدة ما بين السماء والأرض من الدخان الأسود الرهيب.

إقامة جدار من التراب:

كانت البئر تقذف مما في جوفها من البترول والغاز بعضه يمتد في العلو إلى عشرات الأمتار، والبعض ينساب على جوانبها على الأرض

كالسيل مشتعلاً بالنار أشبه ما يكون بانفجار بركان، ولمّا كان موقع البئر يقع في مكان مرتفع بالنسبة لمدينة الخُبَر، وبالنسبة لمنشئات الجمرك والميناء فقد أسرعت الشركة بحشد بلدوزراتها وآلات الحفر لديها لإقامة جدار من التراب يبلغ ارتفاعه أكثر من مترين في الموضع الذي يتجه منه البترول المنساب إلى جهة الشرق حيث توجد مدينة الخُبَر والمنشآت الأخرى، ويتَّجه هذا البترول الملتهب إلى جهة الغرب حيث تقابل الصحراء هناك وذلك إجراء مؤقت حتى يتمكنوا من إغلاق فوهة البئر.

حالة فزع ورعب:

توقفت جميع أعمال الشركة، وتجمهر موظفوها وسكان المنطقة بأكملها كانوا في حالة فزع ورعب، وظل الأمريكان يبذلون أقصى جهودهم، محاولين السيطرة على فوهة هذه البئر لإغلاقها، وخلال ذلك حضرت مجموعة من اللنشات من البحرية تحمل مهندسين واختصاصيين استنجدت الشركة بهم لمساعدتها، ولكن كل ذلك بدون جدوى.

مكث الوضع ثلاث أيام متصلة وجميع الموجودين في هذه المنطقة، سواء في منطقة الشركة، أو في منطقة الخبر والدمام، كانوا يعيشون على أعصابهم من الهول والفزع، خشية أن يمتد هذا السيل الجارف من اللهب إلى أماكن وجودهم، وكانت الصفارات ـ رغم شيوع الخبر ومعرفة الجميع بحقيقة ما حدث ـ تواصل صراخها ما بين ساعة وأخرى ليلَ نهار، إشعاراً بأن الخطر ما زال مستمراً وقائماً.

وصول المهندس الألماني:

في اليوم الرابع من وقوع الحادث علمنا بأنه قد وصل إلى مقر الشركة في الظهران مهندس ألماني على طائرة خاصة قدمت من بون رأساً إلى الظهران، فور وصول هذا الرجل وكان كل كبار موظفي الشركة ومهندسيها، وعلى رأس الجميع المدير العام لشركة الزيت آنذاك المستر F.W. OLIGER إف دبليو أوليجر؛ كانوا في انتظاره على أحر من الجمر كما فهمنا؛ لأنَّ

جميع المحاولات التي بذلت من كبار مهندسي الشركة باءت بالفشل، واتَّسعت رقعة الخطر فامتدَّ السائل الملتهب على وجه الأرض إلى جميع الاتجاهات، نظراً لمئات الأطنان التي تقذفها هذه البئر، وهي معروفة لدى الشركة أنها أغزر بئر من حيث الإنتاج.

كانت جميع أعمال الشركة متوقفة منذ لحظة الانفجار والجميع في ذهول ورعب، وفور وصول هذا المهندس الألماني اتَّجه إلى موقع الحدث، وكان وصوله في منتصف النهار أي قبل صلاة الظهر بنحو ساعة.

ظل يومه ذاك في مكتب مدير الشركة بعد أن حلَّق بطائرة في أجواء مرتفعة جداً على مقربة من موقع الحدث، ثم شرع في اليوم الثاني بعد أن هيأت له الشركة عشرات العمال والمهندسين فقام يدور على موقع الحدث، ثم وضع نقاطاً معيَّنة على استدارة موقع الحدث، وعلى بعد نحو ١٠ كيلو من موقعه، وطلب من مهندسي الشركة أن يبدأ بعماله بوسائل الحفر المتوفرة لديه، ببدء الحفر من تلك النقطة باتجاه فوهة البئر على أن يكون الحفر يتدرج بطريقة انسيابية إلى الأسفل بحيث يصبح عند قربة من فوهة البئر على عمق لا يقل عن أربعين متراً تقريباً عن سطح الأرض.

حفر أنفاق مستديرة:

وقد تمَّ حفر هذه الأنفاق المستديرة التي يبلغ عددها أكثر من عشرة أنفاق محيطة بفوهة البئر إحاطة السوار بالمعصم.

عندما تكامل العمل في جميع هذه الأنفاق وعلى العمق الذي ذكرناه طلب من الشركة أن يقوم مهندسوها في وقتٍ واحد بإحضار مواسير بعضها مثبتٌ في الآخر، وتنتهي في طرفها المتجه إلى فوهة البئر بمواد تفجيرية وأظنها الديناميت، وأمر أن يبتعد الجميع عن هذه المواقع، وأن تفجَّر جميعها في لحظة واحدة. وتمَّ ذلك، وكانت النتيجة أن أحدثت في هذه البئر وعلى عمق أكثر من أربعين متراً عن سطح الأرض فجوات بعدد هذه الأنفاق بحيث أصبح البترول المندفع من البئر إلى أعلى توزع خروجه من

خلال هذه الفجوات التي أحدثت، فتضاءلت كمية البترول المندفعة إلى أعلى من فوهة البئر بما لا يقل عن ٩٠٪ عما كانت عليه، وهنا أتت طائرات بعد أن أصبح اندفاع ما يخرج من الفوهة إلى أعلى لا يتجاوز ارتفاعه الثلاثة أمتار تقريباً، مما مكّن الطائرات أن تتعاقب على الفوهة قاذفةً عشرات أكياس الإسمنت على الفوهة نفسها.

السيطرة على البئر المشتعل:

لم تمض عدة ساعات حتى أمكن ردم الفوهة والسيطرة عليها وإحكام إغلاقها ثم بُدىء بردم وإغلاق الأنفاق التي ذكرناها.

كانت فرحة الجمهور غامرةً، وكان رؤساء الشركة يتبادلون التهاني بهذا الإنجاز العظيم، وعاد الهدوء والاطمئنان إلى نفوس سكان المدن الأقرب إلى موقع الحدث وهي الخُبَر والدمام.

الملك عبدالعزيز في أرامكو:

مرَّ على الحادث أكثر من أسبوعين تقريباً، ثم علمنا أن موكب الملك عبدالعزيز سيصل إلى الظهران قادماً من الرياض.

في صباح اليوم التالي أقيمت معالم الزينة في جميع منشآت الشركة ومكاتبها، كما أقيمت في مدينة الدمام والخُبَر معالم الزينة نفسها، ومُدَّت أسلاك الإضاءة بالكهرباء وزُيِّنت بالأنوار الملوَّنة.

وصول الموكب الملكي:

وصل الموكب الملكي في صباح اليوم الثاني، وكان مكوَّناً من حاشية لا تقل عن مائة سيارة تقريباً. وأقامت الشركة له سرادقات فخمة في موقعٍ فسيح لا تقلُّ مساحته عن عشرة كيلومترات تقريباً في فسيح من الأرض، يقع ما بين موقع الشركة في الظهران ومدينة الخُبَر.

ظلَّ الملك عبدالعزيز مقيماً أكثر من خمسة أيام على ما أذكر، وكانت

أيام وجوده بالنسبة للشركة وعمَّالها وموظفيها أشبه بعرس فخم حافل بالأفراح والزينات والعَرْضات، وأصبح محجةً تتجمَّع فيها جماهير ضخمة من الدمام والخُبَر والقطيف ودارين وصفوة وتاروت وعَنَكْ، وجميع سكان تلك المناطق، كان مقر الشركة بحراً يموج بالمتفرجين ليلَ نهار وخاصةً عندما كان الملك عبدالعزيز ـ رحمة الله عليه ـ يشارك بنفسه في العرضة النجدية التي أقيمت آنذاك مرات ومرات.

الركوب باللنشات إلى رأس تنُّورة:

وفي عام **١٣٥٨** هجرية كانت الشركة قد هيأت مجموعة من اللنشات الضخمة التي هي أشبه بسفن صغيرة في مقربة من ميناء الخبر، فحضر جلالة الملك، ومعه مجموعة ضخمة من حاشيته ومرافقيه، فركبوا هذه اللنشات متجهين بها إلى رأس تنورة، وكان من ضمن هذه اللنشات لنشان كبيران جداً يدعى أحدهما (كا الخُبَر) ويدعى الآخر (كا رأس تنورة)، وقد ركب جلالة الملك في اللنش الأول، والثاني ركب فيه بقية حاشيته، وبحكم أن ذلك اليوم كان يوم عطلة، أعلنته الشركة مسبقاً، ونظراً لأنَّ أعمالنا تختصُّ بالشركة فقد انتهزنا الفرصة، نحن موظفو الجمرك ومعنا موظف الجوازات جارنا في الجمرك عبدالله فؤاد فركبنا معهم.

قطعنا المسافة ما بين الخُبَر ورأس تنورة بواسطة اللنشات في حوالي ساعة وربع تقريباً.

وليمة غداء:

كانت الشركة قد استعدَّت أكمل استعداد لاستقبال الملك ومرافقيه، وهيَّأت له وليمة غداء يتناولها بعد أن يقوم بمهمة قص الشريط الحريري المثبت على الأنبوب الممتد إلى سفينتين ضخمتين معدتين لنقل البترول، تبتعدان عن موقع الأنبوب الذي يوجد في طرفه عجلة تدار فينساب البترول إلى السفن.

كانت الساحة مفروشة بأثمن الزل، وفي الوقت الذي كان الملك يتجه

إلى موضع الشريط هذا، كان عمال الشركة وموظفوها، يقومون بِمَدِّ السماطات على الأرض إلى مسافة قد لا تقل عن سبعين متراً، وينقلون إليها عشرات الصواني من الأكل والأطعمة المتنوعة والفواكه، وكل ما يمكن أن يقدم.

كان من ضمن الأشخاص المحيطين بجلالة الملك من موظفي الجمارك والمالية صالح إسلام وأحمد لاري، كان صالح إسلام آنذاك في مالية الأحساء رئيساً، كما كان أحمد لاري ممثلاً للحكومة لدى شركة الزيت.

خطبتي المرتجلة بين يدي الملك عبدالعزيز:

كان الملك عبدالعزيز يسير ببطء باتجاه الموقع وعلى يمينه رئيس عام شركة الزيت مستر F.W. OLIGER إف دبليو أوليجر يتبادل معه الحديث، ويقوم بالترجمة بينهما آنذاك على ما أذكر أحد كبار مترجمي الشركة، ويدعى عجب خان، وهو من سكان الخُبَر، في تلك اللحظة كان كل من صالح إسلام وأحمد لاري على بعد أمتار من الموقع، وكنت على مقربة منهما، وفجأة لاحظتُ أنهما أخذا يتحدثان بسرعة، وبصوت خافت، ويلتفتان يَمْنَةً ويَسْرة، وكان على مقربة منهما أحد مترجمي الشركة ويدعى حجي بن قاسم، فسألاه على مقربة مني، إذا كانت الشركة قد أعدت كلمةً تُلقى أمام الملك بهذه المناسبة؟ فأجاب بالنفي، وهنا بدت عليهما علامة الارتباك والوجَل فوجَّهت خطابي إلى صالح إسلام قائلاً: خيراً إن شاء الله، ما الموضوع؟ فقال لي: إن هذه المناسبة بالغة الأهمية، لأنها تسجِّل حدثاً تاريخياً يحدث لأول مرةٍ في تاريخ المملكة، وهي تصدير أول كمية من بترولها، ومن أحد موانيها مباشرة لإيصالها إلى الأسواق العالمية، ويشرف على افتتاحها جلالة الملك، وكان الملك آنذاك يخطو الخطوات الأخيرة مقترباً من موقع الأنبوب، وسألني صالح إسلام إن كنت أعرف من يستطيع أن يلقي كلمة من بين الحاضرين، فطمأنته بأن رغبته ستحقق، فقال: أين؟ قلت: ستسمعه الآن، وكان المستر أوليجر في تلك اللحظة يقدم المقص

لجلالة الملك، وهنا اتَّجهتُ بضع خطوات بحيث أصبحت في مواجهة الملك مباشرة، وقبل أن يُقَصَّ الشريط تقدم أحمد لاري مستأذناً جلالته في أن تلقى كلمة مختصرة بين يديه فأذِن بذلك، وعلى الأثر ارتجلت كلمةً مناسبةً مستلهماً روعةَ الحَدَث وبعده التاريخي، وكيف أنَّ هذا الحدث يزيده روعةً وبهجة أن يتم بدؤه على يد سيِّد البلاد ومليكها جلالة الملك المعظَّم.

تصفيق حاد وحماس بالغ:

كان التصفيق حاداً، وكان الحماس بالغاً، ولك أن تتصور شاباً يستعرض أمجاد أمته ووطنه، ممثلاً في مستقبله الذي يرنو إليه، وممثلاً بربَّان السفينة التي تقود الوطن إلى هذا الغد المشرق.

كان أكثر الحضور حماساً وتصفيقاً مدير عام الشركة وموظفوها، وكانت الخطبة تترجم له أولاً بأول، أما عن مرافقي جلالة الملك وعن صالح إسلام وأحمد لاري فحدِّث ولا حرج.

حوار بيني وبين جلالة الملك عبدالعزيز:

قبلت يد جلالته، فَرَبت على كتفي قائلاً: من أنت؟ ومن أي بلد؟ فقلت لجلالته: خادمكم إبراهيم الحسون من أبناء عنيزة، فقال جلالته: أنت (فيد)[1] جدة الذي خطب عند ابن معمَّر؟ قلت: نعم. قال جلالته: بارك الله في عنيزة وأبناء عنيزة.

وقد التقطت الشركة صوراً في تلك اللحظة هو عبارة عن فيلم، وبدون شك أنه عندما يُعرض هذا الفيلم ستظهر صورتي خلاله.

قص الشريط الحريري:

تأخَّرت إلى الوراء قليلاً، وهنا مدَّ جلالته يده اليمنى ممسكاً بالمقص الذي قصَّ به الشريط الحريري إيذاناً بالافتتاح، ثم أشار إليه مدير الشركة

---

(١) كلمة تعني: (صاحب) بلهجة أهل نجد.

إلى العجلة المستديرة المثبتة على طرف الأنبوب ملتمساً من جلالته تحريكها وإدارتها، وهنا انحنى جلالته بقامته الفارهة، فأدار العجلة، إيذاناً بانسياب البترول من الأنبوب إلى خزانات السفن المنتظرة على الشاطىء، وهنا بدأ التصفيق، واستمر طويلاً، وخلال ذلك أمسك مدير عام الشركة مستر أوليجر بيد جلالة الملك مصافحاً، وهزَّها أمام الحضور، تعبيراً عن التهنئة وكان عجب خان آنذاك واقفاً يترجم بينهما.

باخرتان ضخمتان:

كانت على مقربة من الميناء في عرض البحر باخرتان ضخمتان تحمل إحداهما اسم (سلفر ستار) أي النجم الفضي، والثانية اسم (سلفر كلاود) أي السحابة الفضية.

كان هناك على ظهر الباخرتين موظفون مختصُّون من قِبَل الشركة يشرفون على عملية تعبئة البترول الوارد من الأنبوب إلى خزانات هذه الناقلات.

إعداد مائدة الطعام:

وفي تلك اللحظات كانت المائدة قد كمل إعدادها، فاتَّجه جلالة الملك رأساً من موقفه بجوار الأنبوب إلى المائدة وكانت مفروشةً على العادة العربية أي: على الأرض، وقد جلس جلالته في منتصف هذه المائدة عن يمينه ويساره كبار الموظفين والمرافقين، وكانت المائدة غايةً في البذخ، بالغة التنوع، وكان من ضمنها ما لا يقل عن خمسة عشر صينية من الصواني المعتادة والمعروفة في نجد، وترتفع عن الأرض بنحو ثلاثين سنتم تقريباً، وتعلوها خراف كاملة، وحولها أكوام من أنواع الطيور والدَّجاج، ويحيط بهذه الصواني مئات الأطباق تحمل مختلف أنواع الأطعمة، ومختلف أنواع الفواكه.

أداء صلاة الظهر:

كان الوقت آنذاك ظهراً، وما كاد جلالة الملك ينتهي من الأكل حتى اتجه إلى موضع معيَّن على نحو مائة متر عن مكان المائدة وأُذن لصلاة

الظهر، ثم أُدِّيت الفريضة، وخلال ذلك كان المئات من الموجودين في الساحة من مختلف الجنسيات قد أحاطوا بالمائدة يأكلون منها.

زيارة الملك عبدالعزيز البحرين:

انتهت الصلاة، وعاد الموكب إلى اللنشات عائداً من حيث أتى، وقد اتضح بعد ذلك بأنَّ الملك ومرافقيه لم يعودوا إلى الخُبَر، بل اتجهوا إلى البحرين تلبيةً لدعوةٍ وُجِّهت إلى جلالته من أمير البحرين، بطلب زيارته لها وإصراره على ذلك.

حادث مؤسف:

أما أنا وزملائي فقد بقينا في رأس تنُّورة حتى مساء ذلك اليوم، ثم عدنا إلى الخبر على إحدى سيارات الشركة، وقد شاهدنا أمراً مؤسفاً من قِبَل بعض ضعاف النفوس من مواطنينا، بما فيهم الكثير من الخويا المرافقين لجلالة الملك، فقد اتَّضح للشركة عندما انتهى الحفل، وأرادت جمع الأطباق والصواني، أنَّ جميع الأطباق والملاعق والسكاكين والشُّوَك، التي كانت جميعها من الفضة الخالصة، والتي كانت الشركة كما علمنا قد استوردتها: بعضها بالشراء، وبعضها بالاستعارة المؤقتة من فنادق البحرين الضخمة، لم تجد الشركة على السماط أي أثر لها.

رأس تنورة:

أما رأس تنُّورة هذا فهو مساحة من الأرض مستديرة على هيئة أسطوانة، يبلغ قطرها نحو ثلاثة كيلومتر تقريباً واقعة في وسط البحر، ويربطها بالبر ممرٌ يتَّجه من الشَّرق إلى الغرب عرضُهُ نحو ثلاثة أمتار تقريباً، وطوله نحو ستة كيلومتر تقريباً.

وهنا لا بد من إيماءةٍ موجزة نستشفُّ منها مدلولات هذا البترول وأبعاده في المستقبل.

عام الطبعة:

وبالمناسبة فإن هذا الموضع ـ أعني رأس تنُّورة ـ قد شهد كارثةً من أعظم الكوارث التي حلت بمواطني الكويت والقطيف ودارين وجميع سكان المنطقة الشرقية، أو على الأصح سكان الساحل الغربي من الخليج العربي، وهم الفئة التي كانت تزاول عمل الغوص في مواسمه المعروفة طلباً للحصول على اللؤلؤ على امتداد الخليج، فقد حدثت في عام ١٣١٨هـ تقريباً، تلك الكارثة، وهي أن سفن الغوص التي كانت متجمعةً آنذاك من مختلف المدن، وعليها العشرات من الغوَّاصين والمساعدين، وتجار اللؤلؤ، كانت جميعها موجودة بقرب رأس تنُّورة، وكان عددها لا يقل كما يقال عن أربعين سفينة معظمها من القطع الضخم، كانت مجتمعة في هذا المكان تنتظر حلول الفصل الذي يبدأ فيه موسم الغوص، لكي تنتشر على امتداد رقعة الخليج، إذ فاجأتها في إحدى الليالي عاصفة عاتية بالغة العنف، قذفت بهما جميعاً إلى أعماق البحر، ولم ينج ممن فيها شخص واحد، وسمي ذاك العام (بعام الطبعة) أي: عام الغرق، وظلت مدن الكويت والقطيف ودارين والبحرين والدمام والأحساء وحتى القصيم، وكل من له علاقة بالغوص في مناحةٍ طيلةَ عامٍ كامل حزناً على مَنْ فقدوه في هذه الكارثة.

تفجُّر البترول:

كانت تعبئة تلك الناقلتين بالبترول السعودي فتحاً جديداً، وبدايةً مشرقةً لشعب هذه الجزيرة، وبالأخص المملكة العربية السعودية، فقد نقلته فجأة من عالم الفقر والتخلُّف والظلام والبؤس والشقاء، إلى عالم مُشرق لم يكن أي فرد يتخيَّله مجرد تخيُّل في ذهنه، فَضْلاً عن أن يراهَ واقعاً محسوساً يلمسه ويشاهده.

كان المواطنون في المملكة قبل هذا الحدث يعيشون حياتهم امتداداً لعصور موغلةً في القدم، لم يتغيَّر أي شيء في أسلوب معيشتهم.

موارد البلاد الشحيحة:

كانت موارد البلاد الشحيحة تنحصر في عوائد الحجيج من جهة، ورسوم الجمارك من جهةٍ أخرى، وبعض الرسوم المتفرِّقة اليسيرة هنا وهناك مضافاً إليها زكاة المواشي وما قد يُجْبى من زكوات التمور والثمار، وكلها موارد شحيحة تجبيها الدولة، ولا تكاد تسدُّ أبسط احتياجاتها فضلاً عن أن تنهض بمشاريع ومنشآت وإحداث وسائل للتطوُّر والرقي.

ولعلَّ القارىء حينما يعلم أن من ضمن الرسوم التي كانت تجبى آنذاك رسومٌ ضئيلة كالقرش المخصَّص على كل طرد باسم قرش المعارف وهو في الأصل طُبِّق لأول مرة عام ١٣٥١هـ تقريباً، لمساعدة مدارس الفلاح عندما حلَّت كارثة ظهور اللؤلؤ الصناعي التي قَضَتْ على ثروة مموِّل هذه المدارس ومنشئها المغفور له محمد علي زنيل والذي كان عماد ثروته تجارة اللؤلؤ الطبيعي الحر.

كما أن من ضمن هذه الرسوم التي تجبيها الدولة رسماً يعرف باسم (رسوم تخريجية) يُؤخذ على أوزان الطرود كل طرد على حدة، كذلك تُستوفى بضعة قروش على نوع من الأوراق تسمى الأوراق ذات القيمة، وهي تؤخذ قيمة على سند الاستلام الذي يعطى للتاجر، وعلى فسح البضاعة الذي يعطى للتاجر أيضاً، وعلى ورقة تعيين الميناء الذي يرفق بأوراق المنافست، وكذا رسوم الطوابع، وكل هذه الرسوم مبالغ زهيدة لا تُسمن ولا تغني من جوع، ولهذا ظلَّت حياة المواطنين على وضعها امتداداً لحقب التاريخ.

كنوز من جوف الصحراء:

أَمَا وقد أذن الله سبحانه وتعالى أن يفجِّر هذه الكنوز من جَوْف صحراءٍ لاهبة لم يكن يخطر ببال إنسان أنها تحتضن مثل هذه الكنوز.

كانت الدولة تموِّن أجهزتها المحدودة المتواضعة بما قد يفيض عن الحاجات الملحّة المالكة، ولذلك لم تكن هناك مدارس، ولم تكن هناك

منشآت، وكانت رواتب كبار الموظفين لا تتجاوز أربعة وخمسين ريالاً تقريباً في الشهر الواحد. أما صغار الموظفين فتتراوح ما بين العشرين والثلاثين ريالاً.

كانت مواسم الحج تتفاوت كثرةً وقلةً ما بين عام وآخر، وكان أفضلها لا يتجاوز المائة ألف حاج، يفدون من خارج البلاد.

هل تفجُّر البترول نعمة أم نقمة؟

كان تفجُّر البترول حَدَثاً بارزاً، نقل شعبَ المملكة العربية السعودية وغيرها فجأةً من أعمق وأقدم عصور التاريخ، إلى عالم جديد منقطع الصلة بكل ما في الماضي من سلبيات وظلام وشقاء.

هنا قد يتساءل القارىء: أترى هذا الذهب الذي تفَجَّر من أعماق الأرض هو نعمة لهذا الشعب أم هو نقمة؟ ولكي تعطى الإجابة صحيحة على هذا التساؤل يجب أن نضع سلبيات كل من الحالتين في كفة، وإيجابياتها في كفة، أي حالة ما قبل البترول وحالة ما بعده، لكي نتمكن من إعطاء تقويم دقيق هو أقرب ما يكون إلى الواقع.

البترول نعمة ونقمة:

نعم البترول نعمة، ولكنه في الوقت نفسه نقمة أيضاً. نعمة لأنه وضع حاجزاً سميكاً بين الماضي والحاضر. أفقر دولة في العالم تصبح فجأة أغنى دُوَلِهِ.

فجأةً أيضاً وجد هذا الشعب نفسه منغمساً في هذا الخضم من الترف ورفاهية العيش، ومن الواضح أن موضوعاً كهذا لا تكفي كلمة عجلى عن التعبير عنه، وتسليط الأضواء عليه، بصورة تتفق والواقع ولذا فقد يكون من الأنسب أن نؤجل مثل هذا البحث إلى نهاية تسجيل هذه الخواطر إذا مدَّ الله لنا في الحياة، ومكننا من إتمامها.



مهنا المعيبد (قيجر):

مكثنا في الخُبَر أنا وزملائي أحمد قاسم وعبدالقادر باحفظ الله، نزاول أعمالنا بطريقة روتينية، كما أسلفت القول.

كانت الشركة آنذاك قبل بدء التصدير عن طريق رأس تنُّورة إنتاجها من البترول، وهو كميات محدودة، يتمُّ ضخهُ من مركز الشركة بالظهران إلى مدينة سَتْرَة بالبحرين بواسطة أنبوب يمتدُّ من مركز الشركة عبر البحر حتى مكان التجميع في سِترة في البحرين، كان هناك موظف مُنْتَدَب من قبل الحكومة يدعى مهنا المُعيبد، ويعرفون وظيفته بمسمى (قيجر GAGER)، أي أنه يقوم بتسجيل كميات البترول الذي يَنْساب عبر هذا الأنبوب يسجلها في بيانات يومية يرفعها إلى مرجعه في الحكومة.

كان مكتب هذا الموظف يقع على بعد نحو مائة متر جنوب إدارة الجمرك التي نعمل فيها، بينه وبين ساحل البحر بضعة أمتار. كان إنساناً وديعاً شاباً في حوالي الخامسة والعشرين من العمر من مواليد الأحساء، تربطنا به صداقة نتيجةً للتواصل بيننا وبينه. وكان كثيراً ما يزورنا في إدارة الجمرك أو نزوره في مكتبه.

الشباب الموظفون:

كانت الشركة، وهي في بداياتها الأولى، آنذاك تعتمد في الحصول على الأيدي العاملة على مجموعات من الشباب، من أبناء مدن الساحل الشرقي للخليج، أي من أبناء الخُبَر والدمام والقطيف ودارين وتاروت وسيهات وعنك وصفوى.

كانوا يأتون بالمئات كل مساء خميس، تنقلهم شاحنات ضخمة من النوع المعروف باللانسيات، تنقلهم مساء كل خميس من مقرّ عملهم بالشركة إلى مدنهم، ثم تعود بهم فجر السبت أو مساء الجمعة، وكانوا يُعَدُّون بالآلاف، كنا نشاهدهم ونحن في إدارة الجمرك، أثناء مرورهم في الذهاب والإياب.

مهندسو الشركة وخبراؤها:

كان يعمل في الشركة آنذاك عدد كبير من الأمريكان، وكل واحد منهم يعمل معه مجموعة ضخمة من هؤلاء العمال، الذين كان يطلق عليهم كلمة كُوْلِيّه جمع كولي، أي عامل؛ كانت الشركة آنذاك لا زالت في دور البحث والتنقيب وكان مهندسوها وخبراؤها منتشرون على امتداد الساحة الممتدة بساحل الخليج شرقاً إلى حدود الرياض تقريباً غرباً، وحدود حفر الباطن شمالاً وحدود الربع الخالي جنوباً، كل خبير أو مهندس يرافقه مجموعة من السيارات عليها أجهزة البحث والتنقيب، ويرافقها مجموعات من العمال.

حادثة العامل السعودي مع الأمريكي:

وأذكر بهذه المناسبة ما حدث من أحد العمال من أبناء سيهات وأحد خبراء التنقيب من الأمريكان، وهو حادثٌ ذو مغزى جديرٌ بالتسجيل، وملخَّص هذا الحدث: هو أنَّ الخبير الأمريكي الذي يحمل معه أجهزة لقياسات الأبعاد، وكان عمَّاله الذين دَرَّبهم على العمل قد استوعبوا التدريب بشكل جعله يطمئن إلى صلاحيتهم للعمل معه، وإلى فهم ما يوجهه إليهم من تعليمات واستيعابها، وفي مكانٍ ما، على حافة النفود غرب مقر الشركة بنحو مائتي كيلومتر، كان يقوم الخبير بقياس مكان معيَّن من الأرض، فأعطى الأعمدة الخاصة لأربعة عمال معه، وهي عبارة عن ألواح هندسية، يحدِّد لكل منهم موضعاً يقيم العمود الذي أعطاه له فيه، ويبدو من واقع الحدث أن هذا الخبير المحترم كان محتفظاً بمعلوماته التي كان يختزنها عن العرب، وقدم بها من بلاده، وهي أنهم شعب ضعيف خامل لا قيمة له ولا كرامة، ولذا فإنه عندما وجَّه تعليماته لأحد العمال العاملين معه لم يكن هذا العامل قد فهم الكلمة التي تفوَّه بها هذا المهندس، فما كان منه إلا أن وجه إليه الخطاب بحنق، شاتماً للعامل بقوله Good Dame it (جاد دامت) وهي شتيمة ويبدو أنَّ العامل على معرفة بمدلول هذه الكلمة فردَّ عليه بقوله (يو You) أي: أنت. وهنا بلغت الغطرسة مداها في نفس الخبير، فأسرع إلى العامل محاولاً ضربه، وكان واقفاً على بعد أمتار معدودة أمامه، فما كان من

العمَّال الآخرين إلا أن أمسكوا بالأمريكي وبطحوه على الأرض، وأوسعوه لكماً وضرباً، وكان الوقت آنذاك في نهاية الدوام.

مدير الشرطة غالب توفيق:

كان مدير الشرطة آنذاك غالب توفيق، فما كاد العامل يصل إلى اللاين مكان إقامته حتى أسرع إلى مكتب مدير الشرطة مقدِّماً له شكوى مكتوبة تتضمَّن تفصيل الحادث، وكيف أن الأمريكي قد شتمه، وهنا أسرع غالب توفيق إلى الاتصال بأمير المنطقة آنذاك، كان مقيماً في الدمام وهو الأمير سعود بن جلوى، وأخبره بالحادث، فما كان منه أي ابن جلوى إلا أن أمر مدير الشرطة أن يرسل في الحال أحد ضبَّاطه وجنديين معه إلى مقر سكن الخبير الأمريكي ويحضروه على الفور، مخفوراً إلى إدارة الشرطة، وأن يحجز فيها إلى صباح الغد، ولا يسمح لأحد أياً كانت مرتبته في الشركة بالاتصال بهذا الشخص.

الأمير سعود بن جلوى:

ثم أصدر الأمير سعود بن جلوى أمراً لمدير عام الشركة مستر أوليجر بأنَّ عليه أن يأتي هو وجميع الأمريكان العاملين في الشركة في الساعة الثامنة من صباح الغد في الساحة المقابلة لمبنى ساحة الشرطة، وأن تتوقف جميع الحركة في الشركة خلال هذه الفترة.

وقد علمنا بالخبر، لأننا كنا في تلك الليلة عند الصديق عبدالله خطاب، الذي قام بإحضار الأمريكي وسجنه، ولذا فقد حرصنا على الحضور في صباح اليوم التالي لنرى ماذا سيتم فيه.

ترحيل المهندس الأمريكي:

في الوقت المحدَّد من اليوم الثاني كان جميع الأمريكان مع زوجاتهم وجميع كبار موظفي الشركة من عرب وأجانب، وكذلك مجموعات ضخمة من العمال كانوا كلهم حاضرين في تلك الساحة، وهنا جيىء بالعامل

المشتكي في وسط الساحة، وجيىء بالأمريكي أيضاً، فأُوقفا معاً أمام جمهور المشاهدين، وهنا طُلب من العامل أن يذكر تفصيل ما حدث، وكانت كلماته تترجم فوراً للأمريكان، ثم سُئل الأمريكي: أحقاً ما ذكره العامل؟ فأجاب: بنعم، ولكنَّ رفاقه العمال قد ضربوني.

وهنا أعلن مدير الشرطة بواسطة المكرفون بأنَّ المستر فلان الفلاني وذكر اسم الأمريكي قد أهان مواطناً سعودياً بدون سبب، وأهان كرامته، وعليه وَجَبَ تسفيره في الحال إلى بلده. وفعلاً أركب في الموقع نفسه بسيارة جيب كانت واقفة، ومعه اثنان من الجنود، وضابط الشرطة عبدالله خطاب، انطلقوا به إلى الخبر، وكان يوجد أحد لنشات الشركة واقفاً في الميناء فأركبوه في اللنش وأمروا اللنش بمغادرة الميناء فوراً.

كانت هذه الحادثة، رغم ما فيها من عفوية في الإجراء، وارتجال غير منظَّم، إذ كان المفروض أن تتَّخذ وضعاً قانونياً فيجري التحقيق الدقيق في موضوع الشكوى، ويناط مثلاً بلجنة مشتركة من العرب والأمريكان تُجرِي البحث والتحقيق في الموضوع من مختلف جوانبه، ومن الفعل ورد الفعل من الجانبين، ونتائجها على كلٍ منهما، ثم ترفع نتائج التحقيق لكي يُبَت في الموضوع على نهج سليم عادل، يعطي لكلٍ ذي حقٍ حقَّه.

كرامة المواطن:

أقول: إن ذلك مع الأسف لم يتم، إلا أنه من الناحية الأخرى قد أعطى درساً قاسياً وصريحاً لكل الأجانب الموجودين في الساحة، وعلى رأسهم الأمريكان، ومن سيأتي مستقبلاً، بأن للمواطن كرامة مساوية لكرامة كل منهم إن لم تفقهم.

وقد تجلّى ذلك فيما بعد، فقد تبدلت معاملة الأمريكان وغيرهم من الأجانب للمواطنين، فأخذوا يعاملونهم معاملة الند، وبكل احترام بَدَلاً عن نظره الازدراء والامتهان التي كانوا يعاملونهم بها قبل هذا الحادث.

وكان المستر (فين FINN)، وهو أمريكي يتعامل معي في الجمرك في

تخليص مستوردات الشركة، يعلِّق على الحدث بقوله: إنه علم بأن المسؤولين في الشركة هنا قد بعثوا رسالة مستعجلة إلى مدير مكتبها العام في أمريكا، يؤكِّد عليه فيه بأن يشرحوا شرحاً وافياً لكل من يرغبون ابتعاثه إلى الظهران أن يعرف الكيفيَّة التي يجب أن يتعامل بها مع المواطنين، وأن يعمِّموا على جميع مكاتب الشركة هناك صورةَ خطيةً تمثِّل ملخص الحادثة التي تمَّت مع العامل.

❊ ❊ ❊

زكي عمر مدير عموم الرسوم:

كانت الجمارك الواقعة في كل من الجبيل، القطيف، دارين، الدمام، الخُبَر تتبع إدارة عامة تسمى (إدارة عموم الرسوم)، وكان مركزها ميناء العقير الذي يقع على بعد نحو مائتي كيلومتر جنوب الخُبَر، ويقع على ساحل الخليج على بعد تسعين كيلو تقريباً شرق مدينة الأحساء، كان يرأس هذه الإدارة أحد أبناء ينبع النابهين وهو المرحوم زكي عمر، كان لَقَبُه الرسمي مدير عموم الرسوم، وكان يعمل معه في تلك الإدارة مجموعة من أبناء بلدة ينبع، ومنهم الشيخ الوقور الصديق محمد نور رحيمي أمدَّ الله في حياته.

سالم الحمود:

كان ـ أي زكي عمر ـ يتفقد هذه الجمارك ما بين آونة وأخرى، وفي بعض الأحيان يرسل من ينوب عنه كالشيخ سالم الحمود رحمة الله عليه، وهو أحد أبناء عُمان، وهو رجل فاضل، ذو أنفة وكبرياء، مترفع عن الصغائر، ودود سليم القلب كفءٌ في عمله، محبوب لدى الجميع.

محمد نور رحيمي مدير الجمارك:

في منتصف شهر ذي القعدة من العام نفسه أي عام ١٣٥٧هـ حضر إلينا في الخُبَر الشيخ محمد نور رحيمي، واستلم إدارة الجمرك من مديرها

السابق محمد حسين مشاط، وقد سكن الشيخ محمد نور عندي في مسكني. لأنه كان لدي طبَّاخ خاص وخادم، وكان يوجد عندي مجموعة من الدجاج، استوردتها من البصرة، وهو نوع ضخم تكاد البيضة منه تضاهي بيضة النعامة من حيث الحجم.

ارتبطت والشيخ محمد نور بصداقة متينة. فقد كان الرجل ـ والحق يقال ـ على جانب كبير من سماحة الخلق ونبل الصفات، وطهارة القلب، وسلامة النية.

أُعجب كلٌ منا بالآخر، وكنت أستورد عن طريق صاحب اللنش أحمد المحرقي أسبوعياً كل ما يرد للبحرين من صحف ومجلات، سواء كانت من مصر أو الشام أو العراق.

وصول الصحف والمجلات:

كانت تأتي إلينا بعد صدورها في يومين أو ثلاثة على الأكثر، وإخالها كانت تأتي بالطائرة، ولما كنت ألتهم كل صحيفة قراءةً على مختلف ميول هذه الصحف واتجاهاتها، فإن الشيخ محمد نور كان يختلف عني من هذه الناحية، فكان يميل إلى قراءة الصحف الفكاهية المضحكة كمجلة حَبَزبوز، وكانت تصدر في بغداد وكمجلة البَغْكُوكة والفكاهة اللتين كانتا تردان من مصر.

انتقالنا إلى رأس تنورة:

في أوائل شهر ذي الحجة من تلك السنة ١٣٥٧هـ، على ما أذكر، صدر أمر مدير إدارة عموم الرسوم زكي عمر بنقلي أنا وزميلي أحمد قاسم وزميل آخر يُدعى محمد السليمان البسام من أبناء عنيزة وزملاء آخرين، من مواليد الزبير في العراق، بينما هم في الأصل من أهل نجد، كانوا يعملون في جمرك القطيف، صدر أمر بنقلنا جميعاً إلى رأس تنُورة، وقد سلمت عملي أنا والمرحوم أحمد قاسم في جمرك الخُبَر، وتوجَّهنا معاً إلى رأس تنُورة، ثم لحق بنا محمد السليمان البسام، ثم الزبيريين، وهما عودة

الدليقان وعبدالعزيز الصانع، وقد أصرَّ مدير جمرك القطيف آنذاك، وهو المرحوم أحمد زهران أحد أبناء جدة، على بقائهما في العمل لديه وفعلاً بقيا، أمَّا نحن الثلاثة، فلحق بنا بعد شهر من وصولنا إلى رأس تنُورة المرحوم حسن كامل خُجا أخو الصديق علي كامل خجا، من أهالي المدينة المنورة، وبهذا أصبحنا أربعة، ولكن وجدنا حين وصولنا لرأس تنُورة، أننا أشبه بسكان الأربطة من العجائز والشيوخ، إذ لا عمل نقوم به، ولا مكاتب أو سِجلات، أو أي شيء يدل على أنه بحاجة إلى موظف، وكان سكننا يقع في مبنى ضخم، مكوَّن من طابق واحد يسمى (كَبْرة) وفعلاً مكثنا طيلة مدة وجودنا في رأس تنُورة لم يمسك أيٌّ منا قلماً ولو مرة واحدة.

الخبير السوري الذي استقدمته الدولة:

بلغنا أن الدولة استقدمت خبيراً سورياً يدعى خيري عبدالهادي، هذا الخبير كان على جانب متميز من الخبرة والكفاءة، والإلمام الواسع بكل ما يتعلَّق بالشؤون المالية، وطرق الجباية والسجلات الواجب وضعها لهذه الشؤون، هذا الخبير استقدمته الحكومة من سوريا ممثلةً بوزيرها الأوحد آنذاك وزير المالية عبدالله السليمان، رغبةً منه بأن يقوم هذا الخبير بتفقد دوائر الحكومة، ويعالج ما قد يراه فيها من خلل.

وقد تأبَّى هذا الخبير عن تلبية رغبة وزير المالية عبدالله السليمان، إلا أنَّ عبدالله السليمان أصرَّ مُلِحاً بطلب التعاقد معه، مُعلناً له بأنه سيطلق يديه في إصلاح كل ما يرى أنه في حاجة إلى هذا الإصلاح، ومنحه كافة الصلاحيات، أي أطلق له التصرُّف في إصلاح أجهزة الدولة بما يشاء، مضافاً إلى ذلك إغراؤه مادياً بضخامة الراتب الذي خُصِّص له والسكن والمميزات.

والحقيقة أنَّ هذا الخبير أهلٌ لذلك كله، فهو خبير بمعنى الكلمة، ويكفي أنَّ السجلات المعمول بها حتى تاريخه، في جميع دوائر الدولة، وخاصةً فيما يتعلق بالمستودعات، وفي جباية الأموال وفي استيفاء الرسوم، وتنظيم الصرف والاستيراد، على نحو دقيق وسليم، كانت من وضع يده الكريمة.

وضع السجلات والتعليمات:

ولعلَّ من المفيد أن أذكر أسماءَ تلك السجلات، فهو أولاً بعد وصوله قام بجولةٍ سريعةٍ على بعض دوائر الجباية في الدولة في جدة ومكة، واطلع خلالها على السجلات المعمول بها في هذه الدوائر، ومن ثم اعتكف في منزله في مكة لمدة لا تقل عن شهرين، وضع خلالها نماذج للسجلات والتعليمات التي يجب أن يُعمَل بها، ثم أحيلت هذه النماذج للطبع، فتمَّ طبعُها خلال أسبوعين تقريباً، طبع منها كميات محدودة، ووزِّعت على الدوائر، بينما استمرت المطابع الموجودة آنذاك في الطبع حتى تتم طبع الكميات الكافية لسد احتياجات الدولة في مختلف دوائرها على امتداد المملكة.

بعد اكتمال الكميات المراد طبعها، وُزِّعت هذه الدفاتر والتعليمات على جميع الدوائر، ثم قام المذكور بجولةٍ على جميع دوائر الحكومة مبتدئاً بدوائر مكة المكرمة، كان يدخل الدائرة وتكون جميع المطبوعات قد أُحضرت له، فيقوم بشرحِ مضمونها للموظفين الموجودين وكيفية العمل بها، ولعلَّ من المفيد ذكر ما يحضرني الآن من مسميات تلك الدفاتر والسجلات التي ابتكرها المذكور، وهي كالآتي:

أ ـ بالنسبة للدوائر المالية:

١ ـ دفتر التصنيف.

٢ ـ دفتر الصندوق.

٣ ـ إيصال قبض.

٤ ـ أمر إعطاء.

ب ـ بالنسبة للجمارك:

١ ـ دفتر التصنيف.

٢ ـ دفتر اليومية.

٣ ـ دفتر الصندوق.

٤ ـ دفتر المبصَّر.

٥ ـ فسح البضائع.

ج ـ المستودعات:

١ ـ دفتر المستودع.

٢ ـ مذكرة إدخال.

٣ ـ مُذكرة إخراج.

د ـ تعليمات مفصَّلة ومحددة، توضح اختصاصات كل موظف في الإدارة: المحاسب مثلاً، المحرر، كاتب اليومية. كاتب الصادر والوارد، إلى آخر ما يتطلبه العمل. كذلك ما يختص بطريقة القيد في هذه السجلات، والنهج الذي يجب أن يُتَّبع في استعمالها.

وبالجملة فإن الرَّجل أي الخبير السوري، قد ألغى جميع السجلات المعمول بها سابقاً واستعاض عنها بهذه السجلات الجديدة التي تنظم العمل في دوائر الدولة، وتحدِّد اختصاصات الموظفين على أكمل وجه وأتمه، ومن الواضح أن ما ذكرته في هذه العجالة هو بعض السجلات التي يحضرني ذكرها الآن وليست حصراً لجميع ما أوجده الرجل من سجلات.

جولات الخبير السوري على دوائر الدولة:

كان المذكور الخبير خيري عبدالهادي يقرر مثلاً أن تكون زيارته لدائرة معينة، فيأتي إلى تلك الدائرة مبكراً قبل حضور الموظفين بنحو نصف ساعة، ويظل موجوداً بالإدارة على مكتب مديرها، ينتظر ريثما يتكامل وصول موظفيها ثم يتجوَّل عليها غرفة غرفة، ولتكن الغرفة تحتوي على أربعة مكاتب مثلاً، كل موظف أمام مكتبه وأمامه السجلات التي يعمل بها، فيسأل كل منهم عن عمله، أي عن العمل أو الأعمال التي يؤديها خلال ساعات الدوام وليكن هذا يعمل كاتباً للصادر، ويكون زميله كاتباً للوارد

مثلاً، وهكذا يستوضح من كل منهم عن العمل الذي يزاوله، ثم يَطَّلِع على الدفاتر الموضوعة أمامهم، فيرى مثلاً أنَّ كاتب الوارد لا يوجد في دفتره من عمله بالأمس سوى نصف صفحة مثلاً، أي أنَّ ما سجله في دفتره لا يستغرق من الوقت أكثر من ربع ساعة، ومعه مذكرة صغيرة يدوِّن بها اسم الموظف، واسم وظيفته ومقدار إنتاجه اليومي من واقع سجلاته، ثم يتجه إلى غرفة المدير، فإذا كان موظفو الإدارة مثلاً عشرة أشخاص يختصرهم إلى أربعة، ويضم أعمال الستة موزعةً على هؤلاء الأربعة مع أعمالهم السابقة، ثم يدعوهم واحداً واحداً أمام المدير، بعد أن يكون قد وضع قائمةً بأسماء الموظفين الذين يُراد إبقاؤهم في العمل نفسه، مضافاً إلى كل منهم الأعمال المنوطة به والمسؤول عنها، هي أعمال زملائهم الستة، التي وُزعت عليهم، فيستغرق العمل الذي يكلَّف به الموظف كامل ساعات الدوام، ثم يسرِّح باقي الموظفين.

أحدث هذا التصرُّف منه موجةً عاتيةً من الرعب والسخط لدى موظفي عموم الدوائر الحكومية، سواء كانوا رؤساء أو مرؤوسين، أثار في نفوسهم الرعب فأخذوا يتتبعون خطواته، ومسيرة توجهاته من مدينة لأخرى ومن دائرة لأخرى، إذ كانت هذه الصلاحية التي خُوِّلت له سيفاً مسلَّطاً، يمسك بقبضته فيجتث رقبة من يشاء، ويبقى من يشاء، وكان لا يقتصر على المرؤوسين فقط، بل كان موسه يجتث حتى رؤساء بعض الإدارات، التي يرى من واقع ما تزاوله من عمل أنه لا حاجة أن يكون لها رئيس، بل يكفي أن يضم موظفوها إلى دائرة أخرى، أو يكتفي بموظف ذو درجة أقل من مرتبة المدير.

نتج عن ذلك أن صفَّى ثلاثة أرباع الموظفين تقريباً الذين يملؤون قبل حضوره دوائر الدولة آنذاك، وكانوا في أكثريتهم زرعتهم المحسوبيات والمجاملات في تلك الدوائر، وقد يكون من بينهم من لا يعرف تلك الدائرة إلا في نهاية الشهر عند استلام الراتب.

استمر الرجل يزحف زحفاً بطيئاً في عمله، وكان، والحق يقال، نزيهاً

في عمله، متجرداً عن الهوى والغرض، دقيق الملاحظة فيما يفعل في جميع تصرفاته.

كانت انطلاقة عمله من المنطقة الغربية ثم الوسطى ثم الجنوبية ثم الشرقية، وكنا أنا وزملائي في رأس تنُورة نظنُّ أن وضعنا لا يحتاج لقدومه، لأنه لن يجد لدينا أي شيء، ومعنى هذا أنَّ وضعنا محسوم مُقدماً، أي إننا راحلون إلى بيوتنا بدون شك، وإنما نترقب صدور الأمر ما بين يوم وآخر، ولهذا كان الأمر كما نراه، لا يستحق منا أي اهتمام.

وكان الزميل حسن كامل خجا وهو واحد منا مغرماً بالنكات الطريفة، وكان يتفكَّه علينا كلَّ صباح بقوله (أنتم تعلمون سلفاً بأنكم مطلقون طلاقاً بائناً، فلماذا أنتم باقون هنا؟ احملوا أمتعتكم وتوكلوا على الله إلى بيوتكم).

وصول الخبير السوري خيري عبدالهادي:

وصل الخبير السوري خيري عبدالهادي في جولته إلى القطيف، وكنا نتتبع أخباره أولاً بأول، لمعرفة الموظفين الذين طالت رؤوسَهم شفرتُه، وإذا بنا نفاجأ في أحد الأيام في نصف عام ١٣٥٨هـ بأحد لنشات الشركة يقف على الساحل في رأس تنُورة، أي بقرب (الكَبرة) التي نسكنها هناك.

كنا نظنُّ عند رؤيتنا للنش أنه يحمل موظفين لشركة الزيت، ولكننا لاحظنا عند نزوله أنه اتجه إلينا، وبرفقته ممثل الحكومة لدى الشركة أحمد بك لاري، فوقفنا مشدوهين لاستقباله.

كنا نفترش الأرض على قطع من السجاد ومساند، أي أنَّ سكننا أو مقر عملنا هو عبارة عن مجلس!

سألَنا عن المكاتب التي نعمل عليها: أين هي؟ فلزمت الصمت، وأجابه الزميل حسن خجا بقوله: لا يوجد عندنا مكاتب هذه هي إدارتنا.

سأل: أين السجلات التي تعملون بها؟ فأجبته بأنه لا يوجد لدينا

سجلات ولا مكاتب، ونحن جيىء بنا إلى هنا بأمر من الحكومة، وقد يكون مجيئنا هنا هو تمهيد لتأسيس إدارة هنا نتولى العمل بها.

أعجبت عبارتي هذه أحمد بك لاري، لأنَّ الوضع فعلاً كان مُحرجاً فهنا أربعة موظفين يتقاضون أربعمائة وثمانين ريالاً شهرياً، بواقع مائة وعشرين لكل منهم دون أن يقوموا بأي عمل، أي أنَّ وضعنا كان أشبه بثكنة الرباط أو دار العجزة.

صمت الرجل قليلاً، ثم وجَّه إلينا الخطاب قائلاً: اعتباراً من يوم غد يجب أن تذهبوا إلى بيوتكم، وكنا بطبيعة الحال متوقعين هذه النتيجة، ثم غادَرَنا هو وأحمد لاري متجهين إلى اللنش، وفجأةً قبل أن يصلوا إلى اللنش، الذي كان يبعد عن مكان وجودنا بنحو عشرين متراً تقريباً، عاد إلينا الخبير المذكور ومعه أحمد لاري، ووجَّه الخطاب إلينا قائلاً: عليكم أن تبقوا كما كنتم، وأن تعدوا ما سبق أن قلتُه لكم من عودتكم إلى أهلكم ملغياً، كأن لم يكن، وقد فهمنا بعد ذلك أنهما بعد خروجهما من عندنا أخبره أحمد لاري بأن إلغاء بقائنا سيفيد الشركة، ويلحق الضرر بخزينة الدولة، لأنَّ الشركة تدفع للدولة راتبين لكلِّ موظف منا، يُصرف لنا راتبٌ واحدٌ، وتحتفظ خزينة الدولة بالراتب الآخر، أي أنَّ بقاءنا هو مصدر دخل للدولة. فلا تسأل عن المرح والنكات التي كنا نتبادلها نتيجةً لهذا الموقف.



تصفية أجهزة الدولة من التضخم الوظيفي:

ظلَّ الخبير المذكور يزاول نشاطه حتى استطاع أن يصفِّي أجهزة الدولة من التضخمُ الوظيفي الناتج عن المحسوبيات والمجاملات، أدت إلى إنشاء وظائف بمسميات لا يوجد لها أي عمل ولا مبررَ أساساً لوجودها، وإنما وُجدت خدمةً لأهواء شخصية لإشغالها بالمحاسيب وذوي الحظوة. واستطاع هذا الرجل أن يصفِّي أجهزة الدولة، ويضغط دوائرها إلى أقصى حدٍّ ممكن، موفراً لها المبالغ الطائلة التي هي أحوج ما تكون إليها، مضافاً إلى ذلك ما

أوجده من سجلات وتعليمات لمختلف جوانب عملها، وبهذا أمكن ضبط ما يرد لخزينة الدولة، وما يصرف منها على أدق نظام ممكن.



استدعاء زكي عمر إلى الطائف:

في أواخر ذي الحجة عام ١٣٥٧هـ علمنا أن مدير عموم الرسوم المرحوم زكي عمر قد استدعي إلى الطائف، وهناك أبقي، ولم يسمح له بالعودة إلى مقر عمله بالعقير بالمنطقة الشرقية، وبقي في الطائف تحت طلب وزير المالية.

❁ ❁ ❁

إعلان الحرب العالمية الثانية، وأثرها على المملكة:

في ١٥ شعبان ١٣٥٨هـ أُعلنت الحرب في أوروبا بعد إرهاصات متتالية كان هتلر قد استطاع خلال الفترة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم في ألمانيا، والتي بدأت منذ عام ١٩٣٢م أن ينتشلَ شعبه من حالة الهزيمة والجراح التي عاناها ذلك الشعب نتيجةً للحرب العالمية الأولى، والقيود الصارمة التي كبّلته نتيجةً لمعاهدة فرساي، التي فرضها الحلفاء المنتصرون عليه، وكان من أبرز بنودها إسقاط الحكم القيصري، وسلخ مقاطعة الألزاس واللورين وإلحاقهما بفرنسا، وكذا سلخ مقاطعة دانتزج وضمها إلى بولندا، وتفكيك مصانع الأسلحة، وفي مقدمتها مصانع كروب، وتحميل الشعب الألماني دفع جميع تعويضات الحرب للحلفاء المنتصرين.

أعلنت هذه الحرب، وفجأةً التهب العالم، ودخل في صراع دموي مخيف، شمل جميع سكان الكوكب الأرضي، وأخذت الشعوب نتيجةً لذلك تلهث وراء ما يمكن الحصول عليه لكي يقيها ويلات هذه الحرب، أو يخفِّف عنها بعض ويلاتها، التي لا بد أن تلحق بها.

والمملكة العربية السعودية لم تكن في منجاة من ويلات هذه الحرب، وهي بوضعها الحالي، وبإمكانياتها المحدودة ستكون أول المتأثرين بعواقب هذه الحرب الضروس، وبالأخص حاجتها الملحة إلى تأمين الغذاء والكساء في الدرجة الأولى، ومن الواضح أنَّ أول إجراء اتخذته المملكة هو إعلانها الحياد المطلق بين الجبارَين المتصارعين روما وبرلين من جهة، التي كان يطلق عليهما كلمة المحور، وبين الجانب الآخر الممثل في لندن وباريس ومن يدور في فلكهما، وكان يعرف آنذاك باسم الحلفاء.

إصلاح العلاقة بين السعودية والكويت:

كان من ضمن الإجراءات السريعة التي اتخذتها الحكومة أن اتجهت إلى ترميم العلاقة بينها وبين جارتها الكويت؛ لأن العلاقات قبل ذلك كانت متوترة بين الدولتين، ونتج عن ذلك منع استيراد أي بضاعة تَرِدُ عن طريق الكويت، وكان من يقبض عليه مستورَداً من الكويت يعدُّ مهرَّباً وَيُصادَر، ولهذا الغرض كان هناك دوريات على امتداد حدود المملكة مع الكويت، تقوم بها كل من دوريات حفر الباطن من جهة ودوريات قرية من جهة أخرى.

الاستيراد عن طريق الكويت:

أسرعت الحكومة في إصلاح هذا الوضع، وإعادة العلاقات القوية بين الحكومتين، وإباحة الاستيراد عن طريق الكويت، ولعلَّ منع الحكومة السعودية الاستيراد من الكويت في السابق، إنما كان ناتجاً عن رغبتها في أن تكون مستورداتها من البضائع إنما ترد عن طريق موانئها الممتدة على سواحلها البحرية، كالجبيل والقطيف والعقير من جهة الشرق أو جدة وينبع والقنفذة والليث وضبا والوجه وأملج من جهة الغرب، أما وقد قامت الحرب وأصبحت السفن التجارية مهددة بالخطر، وهي مملوكة بطبيعة الحال للدول المتحاربة، فإنه من الواضح ضرورة البحث عن منفذ بحري قد يكون وصول البضائع إليه مؤمَّناً من الخطر، وهذا المنفذ يتمثل في ميناء الكويت،

نظراً لأنَّ هذا الميناء يتمتع بالحماية البريطانية، وهي دولة عظمى تملك أساطيل تجارية ضخمة، كما تملك أيضاً أساطيل حربية في وسعها أن تحرس هذه السفن وتحميها، يضاف إلى ذلك أنَّ علاقة الدولة السعودية ببريطانيا حسنة جداً، ويهمُّ بريطانيا أن تظلَّ السعودية محتفظة بحيادها بين الفريقين المتحاربين.

سبب تحديد الكويت منفذاً لتموين المملكة:

ولما كانت المنطقة العربية، بل والعالم الإسلامي ككل يتأثرون بموقف المملكة السعودية نظراً لموقعها الديني بالنسبة للعالم الإسلامي، فإني لا أستبعد أن يكون تحديد منفذ الكويت وحده لتموين المملكة عن طريقه بالغذاء والكساء مدةَ الحرب، لا أستبعدُ أن يكون ذلك بتدبير وتخطيط تمَّ وضعه بين داوننج ستريت في لندن وبين الرياض في المملكة، وما تمَّ طيلة أيام الحرب في هذا الموضوع يؤيِّد صحة هذا الاستنتاج، إذ ظلَّت المملكة تستورد كل حاجياتها من طعام وكساء وبضائع أخرى عن طريق الكويت، وسنوضح فيما بعد الكيفية التي اُتخذت لضمان استمرار هذا الوضع.

برقية من الطائف إلى أحمد لاري:

في أواخر شهر ذي الحجة عام ١٣٥٨هـ ١٩٣٨م كنت حينئذ موجوداً في الخبر عند أحد الأصدقاء المدعو عجب خان، وكنا مجموعة نلعب البلوت، تتكوَّن مجموعتها من عجب خان، ومن فيصل الماجد، ومن حجي بن قاسم، ومني أنا إبراهيم الحسون، كان الوقت بعد صلاة العشاء، وأثناء اللعب رمى حجي بن قاسم الورق من يديه، وظلَّ دقائق منصتاً لا يتكلم، ثم فجأةً أخبرني بأنَّ هناك برقية سحبت من الطائف بتوقيع زكي عمر موجهة إلى ممثل الحكومة أحمد لاري، وتتضمَّن الطلب منه ترحيل بعض موظفي الجمارك الموجودين في المنطقة إلى بلدة (قرية) الواقعة بين الكويت والرياض، وهي أقرب ما تكون إلى حدود الكويت، وأنَّ عليهم أن ينتظروه في قرية ريثما يصل إليهم قادماً من الحجاز.

نقلنا إلى «قرية»:

كنت بين مصدِّق ومكذب لهذه الرواية، ولم أهتم بها نظراً لغرابتها، ولأنني لم أكن أعلم أن الأخ حجي بن قاسم على معرفة تامة بالإشارات البرقية التي تُسحب من مكان إلى آخر، ولكن لم نشعر في صباح اليوم الثاني إلا بموظف مرسل من أحمد لاري بسيارة الممثلية يطلب منا نحن موظفو رأس تنُورة أحمد قاسم، محمد السليمان البسام، إبراهيم الحسون، حسن كامل خجا، مرافقةَ هذا الموظف إلى الممثلية بالدمام، وفعلاً توجهنا على الفور، وعند وصولنا هناك أُبلغنا بأنَّ علينا أن نُحضِرَ أمتعتنا وأغراضنا في اليوم الثاني، ونحضر إلى مقر الممثلية في الدمام، وسيحضر آخرون من زملائنا موظفي الجمارك إلى هذا المكان، ومن ثَمَّ يكون قد أُعِدَّ لنقلنا وأمتعتنا شاحنة كبيرة تُسمى لانسي من سيارات الشركة لتنقلنا من الدمام إلى قرية، مروراً بالعقير والأحساء.

تمَّ حضورُنا في اليوم الثاني كما طلب منا، وإذا بالموظفين المطلوب ترحيلهم هم نحن الثلاثة أحمد قاسم، ومحمد السليمان البسام، وإبراهيم الحسون مضافاً إلينا: عبدالعزيز الصانع، وعودة الدليقان.

السفر إلى «قرية»:

غادرنا الدمام حوالي نهاية شهر ذي الحجة ١٣٥٨هـ، واتجهنا جنوباً بمحاذاة الساحل فقطعنا المسافة ما بين الدمام والعقير وهو آخر ميناء جمركي سعودي يقع على ساحل الخليج الغربي من ناحية الجنوب قطعنا المسافة في ثمان ساعات تقريباً، والميناء مبنى واسع مستطيل مكوَّن من طابق واحد، ويحيط به مجموعة من الغرف وكلها مبنية بالطين، أقمنا فيه تلك الليلة، ثم واصلنا سيرنا في صباح اليوم الثاني متجهين إلى الجنوب الغربي ومجتازين بحاراً من الرمل الأحمر (النفوذ) الذي يفصل العقير عن الإحساء، فوصلنا مدينة الهفوف بعد أن قطعنا الطريق في نحو ستَ ساعات.

نزلنا على مقربة من عين نجم، وهي العين المعروفة في الأحساء،

وتقع خارج البلدة من جهة الغرب، ثم طُلِبَ منا الاستعداد للتوجه إلى قصر الأمير ابن جلوي، للسلام عليه والاستئذان منه بمواصلة السفر، كما هو العرف المتَّبع آنذاك.

السلام على الأمير ابن جلوي:

بعد نحو ساعتين، وكان ذلك بعد صلاة العصر مباشرةً، كنا جميعاً في قصر الأمير، صعدنا إليه في الطابق الثاني في المبنى الذي يقيم فيه، فوجدناه متصدراً المجلس في الجزء الشمالي، أي في مواجهة الصاعد من الدرج، وكان الصالون واسعاً، قد تكون مساحته عشرة أمتار في خمسة، وعلى جانبيه رُصَّت كراسي خيزران عادية، تقدمنا إليه واحداً واحداً فصافحناه باليد، ثم أخذ كلٌّ منا موضعه على الكرسي، لم نسمع منه أي كلمة، وإنما كانت عيونه الواسعة الحادة تتجوَّل بيننا، فاحصة تارةً من ناحية الجنوب، وتارةً من ناحية الشمال، وفجأةً سمعنا أحد الخويا، وكان واقفاً عِلى رأس الدرج ينادي بأعلى صوته قائلاً.. إقهوة..، بعدها بدقائق أديرت علينا القهوة، ثم أعقبها الشاهي، ظللنا بعد ذلك نحو ربع ساعة، كأننا خشب مُسَنَّدة، وكل منا مُطْرِقٌ رأسه، ثم فجأة نهض الأمير واقفاً، وكأنه يعلن بهذا الوقوف انتهاء المقابلة، وأذكر بالمناسبة أنه تبادَل مع الموظف الذي حضر معنا مندوباً من قبل الممثلية في الدمام بضع كلمات خافتة لم أستوعب مدلولها.

تناول طعام العشاء في قصر الأمير:

غادرنا القصر عائدين إل سيارتنا، وبعد نحو ربع ساعة حضر إلينا أحد خويا الأمير، وأفهمنا بأنَّ علينا أن نحضر بعد صلاة المغرب مباشرةً إلى القصر، لتناول طعام العشاء مع الأمير ابن جلوي، وفعلاً تمَّ ذلك، وكان الأكل صينتين كباراً (صحون كبار) من ذات القواعد التي ترتفع عن الأرض بنحو ثلاثين سنتيمتر، ولها أربع حلق لنقلها من مكان إلى آخر، وعلى كل صينية نصف ذبيحة على ما أذكر، ويحيط بكل صينية بضعة أطباق تحمل خضاراً مطبوخة، وبعض الأطباق يوجد بها برتقال.

كان بجوار الأمير على السفرة أحد كبار تجار الأحساء يتبادلان الحديث بصوت خافت، وقد فهمنا فيما بعد بأن هذا الشخص يدعى سليمان بلغِنِيمْ، أحد أعيان الأحساء وتجارها.

بعد عودتنا من عند الأمير واصلنا سيرنا باتجاه (قرية) محطتنا الأخيرة، وقد وصلناها بعد أن قطعنا نحو عشرَ ساعات مجتازين (قرية) نِطَاع وقرية القرية العليا، ثم نزلنا في قصر (قرية) قبيل الفجر بنحو ساعة، وهنا أنزلنا أمتعتنا، وعادت السيارة من حيث أتت.

قصر قرية:

كان القصر الذي نزلنا فيه يبعد عن البلدة المكوَّنة من مجموعة من بيوت الطين بنحو مائتي متر من جهة الشمال، والبلدة مجموعة من بيوت الطين المتناثرة هنا وهناك، في مساحةٍ قد لا تزيد عن كيلين، وقد لا يزيد عدد هذه البيوت عن مائة بيت.

هجر قبائل الإخوان:

وهذه القرية تدعى قرية السُّفلى وهي في الأساس هِجْرَة للمدعو تُريحيب بن شقير، أحد زعماء قبيلة مطير، والذي يأتي في مرتبة الزعامة من المرتبة الثالثة بعد فيصل الدَّوِيْش، الزعيم الأوحد لقبيلة مطير المعروفة، أقيمت قرية مكاناً لتجمُّع القبيلة، التي يرأسها تُريحيب هذا، وذلك عند بَدْء الموجة العارمة الذي ابتدأت في أواخر العقد الثالث من القرن الرابع عشر الهجري والتي عرفت آنذاك باسم (دعوة الإخوان)، وهذه الهجرة ـ أعني هذه القرية ـ المعروفة بقرية سُفلى، والتي هي مدار الحديث، واحدة من عشرات الهجر التي أنشئت بتوجيهٍ من الملك عبدالعزيز ـ رحمة الله عليه ـ، لتكون أماكن استقرار للعديد من القبائل التي تأثرت بإيقاف غزو القبائل بعضها بعضاً، ومن هذه الهجر على سبيل المثال: هجرة الأرطاوية لزعيم مطير فيصل الدويش، وقد صارت الآن بلدة عامرة، وكذا هجرة ابن ربيعان زعيم قبيلة عتيبة، وكذا هجرة إقبة لمحسن الفرم زعيم قبيلة حرب، وكثير من الهجر التي لا أتذكر أسماءَها الآن.

وصف قصر قرية:

نزلنا في القصر، وهو مبنى من الطين، مربع الشكل، تبلغ مساحة ضلعه نحو مائة متر عليه أبراج أربعة، في كل ركن منه برج واحد فيه مجموعة من الغرف، وفي ساحته مبنى من الطين يقع في وسط الساحة، ويتكون من أربع غرف، أُستُخدمت بعد ذلك مقراً لموظفي جهاز مالية قرية.

أما الركن الجنوبي الغربي من القصر فيه أربع غرف مستطيلة الشكل، تبدأ من الشمال الغربي بمسجد تبلغ مساحته نحو ٣٠ متراً مربعاً يليه من الجنوب الشرقي مبنى مستطيل تبلغ مساحته حوالي ٤٠ متراً مربعاً تقريباً، وهذا استعمل فيما بعد مستودعاً للمالية، ثم يليه ملاصقاً له من جهة الجنوب الشرقي أيضاً صالون كبير يبلغ طوله نحو عشرين متراً في مثلها تقريباً، استُعمل هذا مقراً للجمرك.

أما الضلع الشمالي الغربي لهذا القصر فقد أُنشىء بجواره من الداخل منبى ذو طابقين، يحتوي الأول على أربع غرف هي مقر أمير القصر، وكان آنذاك محمد بن سلطان والد إبراهيم السلطان، الذي كان يعمل سفيراً للمملكة إلى وقت قريب في عمّان، ويحتوي الطابق الثاني على جهاز موظفي الإمارة.

أما الضلع الشرقي من هذا القصر فقد أنشىء بجواره من الداخل مبنى ذو طابقين، يحتل القسم الأرضي منها أجهزة اللاسلكي والطابق الثاني غرف موظفي اللاسلكي. كما أنشىء أيضاً بجوار الضلع الشمالي الشرقي مبنى من طابق واحد به عدة غرف، يشغله مجموعة من الجنود، وبجوار مقر الجنود بضع سيارات لا تزيد عن الست، وهي السيارات المخصَّصة للدوريات، التي تقوم بمراقبة الحدود ما بين الكويت والمملكة، لمنع التهريب، وهذه المجموعة من الجنود والسيارات يوجد مماثل لها في قصر حفر الباطن الذي يبعد عن قرية من جهة الشمال الغربي بمائة وثلاثين كيلومتر، وكذا مثلها في قصر أم رضمة الذي يبعد عن الحفر بمائة وخمسين كيلومتر بالاتجاه نفسه، ومثله أيضاً قصر لينة ويبعد عن قصر أم رضمة مائتي كيلومتر في الاتجاه

نفسه، ومثلها أيضاً في قصر لوقة ويبعد مائة وتسعين كيلومتر عن لينة في الاتجاه نفسه أيضاً، أي إلى الشمال الغربي.

مجموع سكان القصر:

كان مجموع سكان القصر حين وصولنا إليه لا يتجاوز أربعين شخصاً، على ما أعتقد، هم الأمير مع خوياه وموظفيه وجنود الدوريات وموظفو اللاسلكي.

كان القصر يقع على مرتفع من الأرض، وله بابان واسعان، أحدهما من جهة الشمال الغربي للدخول، والآخر من الجنوب الغربي للخروج، وهو على مرتفع من الأرض بالنسبة لبلدة قرية.

بحث زكي عمر عن موظفين:

علمنا عند وصولنا أن زكي عمر رحمة الله عليه لا زال في الحجاز بعد، يتردَّد ما بين جدة ومكة والطائف أملاً في الحصول على أكبر عدد ممكن من الموظفين ممَّن يرضون ويوافقون على السفر معه للعمل في الحدود النائية، التي تقع على امتداد شمال المملكة في محاذاة حدود الكويت والعراق، والتي سيتم إنشاؤها على يدي زكي عمر عند وصوله لهذه المنطقة.

وصول زكي عمر مع مجموعة من الموظفين:

مكثنا في القصر قرابة خمسة وعشرين يوماً ننتظر وصول زكي عمر ما بين يوم وآخر، وفي يوم ٢٦ من شهر محرم عام ١٣٥٩هـ وصل زكي عمر في موكب من السيارات، ومجموعة من الموظفين وبعض كبار موظفي الجمارك والماليات التي أنشئت مؤخراً، مع تكليف زكي عمر بالمهمة حيث تضمَّن قرار تكليفه بالعمل بأن يكون لقبه الرسمي المدير العام لماليات الأحساء وجماركها، وبالتالي أنشىء ملاك لعديد من الوظائف ذات مراتب مختلفة، وقد ابتدأ زكي شغل هذه الوظائف بالموظفين الذين يختارهم، كلٍّ

بحسب مرتبته، التي يرى أنه مُسْتَحِقٌ لها، بما في ذلك وظائف المديرين والمحاسبين ورؤساء الأقسام وبقية مسميات الوظائف الأخرى.

كان عدد السيارات التي قَدِمت معه نحو عشرين سيارة، منها خمس سيارات صغيرة، وثلاث بوكسات، والباقي لواري يرافقها مجموعة من الخدم والعمال ومهندسي السيارات، ومجموعة من الموظفين، وكان من ضمنهم الشيخ يوسف العوضي ـ أمدَّ الله في حياته ـ والذي كان أحد أساتذتي في مدرسة الفلاح، إبان دراستي بها، ومنهم طه ضليمي ـ أمدَّ الله في حياته ـ وكان آخر عهده بخدمة الدولة أن شغل وظيفة مساعد المدير العام للجمارك محمد نور رحيمي، ومجموعة من الموظفين لا أذكر أسماءهم الآن، إلا أسعد كماخي، لا أعرف إن كان من جدة أو من المدينة، وعبدالحميد يحيى وهو من أبناء جدة، وينتمي إلى بيت آل يحيى، وهي أسرة مرموقة تسكن حارة البحر في جدة.

نُصبت مجموعة من الخيام والشرع في ساحة تقع على بعد نحو مائتي متر شمال غرب القصر. في اليوم الثاني لوصول زكي عمر كان قد وضع في الليلة السابقة ملاكاً لوظائف موظفي جمرك قرية يشتمل على:

١ ـ مدير عُيِّن عليها المدعو عبدالرحمن الجاسر.

٢ ـ محاسب عُيِّن عليها المدعو إبراهيم الجبهان.

٣ ـ أمين صندوق.

ثلاثة مبصِّرين (معاينين للبضائع)، مأمور واحد للمستودع، كاتب يومية واحد، مدقِّق واحد، أربعة مراقبي السيارات القادمة المحملة بالبضائع ومفتشيها، وعشرين حمالاً لتنزيل البضائع التي ترد على الشاحنات وتحميلها.

توزيع الأعمال على الموظفين:

كان زكي قد أحضر معه من الحجاز أعداداً كبيرةً من المكاتب أنزل منها أعداداً بعدد موظفي جمرك قرية فنُقِلت إلى الجمرك ونصبت في

أماكنها، وخصَّ كل موظف بمكتبه، ثم سُلِّمت لمدير الجمرك السجلات والمطبوعات والأوراق التي يستلزمها العمل الجمركي، وكانت التعليمات التي أُعطيت لمدير الجمرك تتضمن تفصيلات دقيقة عن كيفية استعمال تلك السجلات، وعن اختصاصات كل موظف من موظفي الجمرك وصلاحياته، وتحديد العمل الذي يمارسه بكل دقة.

أثر الحرب على علاقة المملكة بالكويت والعراق:

تمشياً مع أحداث الحرب المتلاحقة اتخذت الدولة إجراءات سريعة، واتصالات مكثَّفة مع الدول المجاورة وهي الكويت والعراق، ونتج عن تلك الإجراءات والاتصالات ما يلي:

بالنسبة للكويت:

١ ـ تُفتح الحدود ما بين المملكة والكويت، وتُلغى الإجراءات والحَظر الذي كان مفروضاً على ما يَرِدُ من الكويت من بضائع.

٢ ـ تقتصر جميع مستوردات المملكة من البضائع والأرزاق على ميناء الكويت، ثم تنقل بالشاحنات إلى المملكة بعد ترسيمها في جمرك قرية السعودي الذي أشرنا إليه آنفاً، ثم تواصل تلك الشاحنات سَيْرها إلى الجهة المراد تفريغ البضائع فيها، سواء في الرياض أو في الأحساء أو في الدمام أو مكة، أو أي من مدن المملكة.

٣ ـ أن يعيَّن موظف خاص من قبل الحكومة السعودية، ذو مرتبة عالية يطلق عليه لقب الوكيل التجاري السعودي، ويكون مقره الكويت، ويُفتح في الكويت مكتب خاص باسم مكتب الوكيل التجاري السعودي، يجهز هذا المكتب بالموظفين اللازمين له، يرأسهم الوكيل التجاري، وقد تم اختياره من مدينة الطائف، وهو من أبرز أعيان الطائف، ويدعى عبدالله قاضي وهو والد الصديق عمر قاضي أمين العاصمة المقدسة سابقاً.

٤ ـ تستأجر مستودعات ضخمة في الكويت، لتستقبل ما يرد على

البواخر من بضائع وأرزاق باسم السعودية، ويعين لتلك المستودعات موظفون سعوديون لتسجيل ما يرد وما يشحن للسعودية.

٥ ـ يقوم مكتب الوكيل التجاري السعودي في الكويت بتزويد كل شاحنة تقوم بنقل بضائع وأرزاق من تلك المستودعات إلى السعودية، ببيان مفصَّل يسمى (منافست)، ويشتمل هذا البيان على أنواع الطرود وعددها وأوزانها، وبيان مفردات محتوياتها، ورقم الشاحنة ونوعها واسم السائق، ويحمل هذا البيان رقماً متسلسلاً، ويشمل البيان أيضاً اسم التاجر المستورد وعنوانه، واسم الجهة المستورد منها البضاعة.

عندما تصل هذه الشاحنة بحمولتها إلى جمرك (قرية) يتم تقديم هذا البيان من قبل السائق إلى إدارة الجمرك، ويقوم حمال الجمرك بإنزال طرود البضاعة إلى الأرض، ثم تفكيكها وجردها وتسجيلها في دفاتر المبصر، من قبل الموظفين المختصين بالجمرك، ثم تحقّق عليها الرسوم المستحقة، ومن ثم يتم الإفراج عن هذه البضاعة، مرفقاً ببيان من الجمرك يسمى الفسح، يوضح أنواع هذه البضاعة ومفرداتها، وذلك بعد أن يتم استيفاء هذه الرسوم من التاجر أو من وكيله ودفعها إلى أمين صندوق الجمرك، يزوِّد التاجر بإيصال استلام، مصحوباً ببيان فسح البضاعة، ومن ثم يتم إعادة تحميل هذه البضاعة على الشاحنة، ويسمح لها بمواصلة السفر إلى الجهة التي تقصدها.

هذا عن البضائع التي يستوردها التجار، أما البضائع التي ترد باسم الدولة، وهي الأرزاق والأقمشة، فهذه تتَّجه رأساً إلى المدن الرئيسة فيتم تفريغها في مستودعات حكومية ضخمة أُعِدَّت من قبل الحكومة في كل مدينة.

ب ـ بالنسبة للعراق:

أما عن العراق فقد استقرَّ الوضع على أن تكون المنافذ التي تستورد منها البادية السعودية ما تحتاجه من الأطعمة والأرزاق من حاصلات العراق، وهي تنحصر تقريباً في التمور وفي الدقيق وفي الحبوب. هذه المنافذ

حُدِّدت بأن تكون أم رضمة، ولينة، ولوقا، والدويد، وهذه المنافذ السعودية يقابلها من الجانب العراقي مدينة السماوة ومدينة الناصرية ومدينة سوق الشيوخ ومدينة النجف، وهنا لا بد من الإيضاح بأن البادية السعودية في مختلف أنحاء المملكة تأتي في مواسم معينة على هيئة قوافل منتظمة تتجه إلى هذه المدن العراقية، عن طريق المنافذ السعودية التي ذكرناها، والتي أنشأها زكي عمر في رحلته هذه.

كانت هذه القبائل تؤمِّن احتياجاتها، لكامل العام، من إنتاج العراق، إذ وكانت تعود منه، وعلى كل جمل من هذه القوافل عدلين كبيرين (كيسين) مملوءة بالتمر أو الطحين أو الحبوب، كانت هذه القوافل تمر، بعد قدومها من العراق باتجاه السعودية من المنافذ الجمركية التي أُسِّست حديثاً والتي أصبحت تتقاضى رسوماً جمركية (تسمى بالْبَاجْ) أي الرسوم وكان يؤخذ على كل بعير يحمل عدلين من الأطعمة سواء كانت تموراً أو طحيناً أو حبوباً، أربعةَ ريالات فرنسية (ريال تريزا المعروف) وهي عملة فضية كانت هي العملة الوحيدة المتداولة بين أيدي أبناء البادية السعودية آنذاك.

بعد مُضيِّ أربعة أيام من وجود زكي عمر في قرية، وبعد أن اطمأنَّ على سَيْر العمل وانتظامه في جمركها، وَفْقَ الطريقة التي رُسمت له اتَّجه إلى حفر الباطن، مصحوباً بالموظفين الذين قدموا معه من الحجاز، مضافاً إليهم نحن، موظفو المنطقة الشرقية، اتَّجه الموكب من قرية إلى حفر الباطن الذي يقع، كما قلنا، في الشمال الغربي بالنسبة لقرية، ويبعد عنها بمسافة مائة وثلاثين كيلومتراً. بعد أن قطعنا ثمان ساعات من السير وصلنا إلى حفر الباطن.

حفر الباطن:

في منخفض من الأرض تبلغ مساحته نحو عشرين كيلومتراً تقريباً، يقع ما يسمى بحفر الباطن، وهو واقع في مَجْرى شعيب وادي الرمَّة، وهو الشعيب المعروف تاريخياً، ويأتي في مواسم الأمطار على مقربة من المدينة

المنورة، ثم يتَّجه إلى الشرق مروراً بالقصيم، ثم ينعطف إلى الشمال مروراً بحفر الباطن، ثم يتَّجه إلى مدينة الزبير باتجاه الشمال الشرقي فيصبُّ في رأس الخليج، على مقربة من شطِّ العرب.

آبار السُّقيا:

هذا البسيط من الأرض أعني موقع حفر الباطن، تنتشر على رقعته مجموعة من الآبار المعدة للسُّقيا، يرجع تاريخ إنشائها إلى قرون بالغة القدم، ويبلغ عدد هذه الآبار تقريباً ما بين خمسة عشر إلى عشرين بئراً، وهو موقع مُتميز لسكن البادية تحيط به الأرض الخصبة من مختلف جهاته الأربع، مما يجعله مفضَّلاً لتواجد البادية فيه، وعادة يطلق على مجموعة الآبار التي من هذا النوع كلمة (جو) فهذا جو الحفر، وذاك جو أم رضمة، والآخر جو لينة، ومثله جو لوقا، وهكذا...

اختصاص القبائل بالآبار:

وكل جو من هذه الأجواء، أو الجيان على الأصح تختص به قبيلة معينة من قبائل العرب، ذات الوفرة في العدد والأفخاذ والفروع، فإذا كان جو الحفر مختص بقبيلة مطير، فإنَّ جو أم رضمة مختص بقبيلة الأسلم من شمَّر، كما أنَّ جو لينة، وجو لوقة، مختصان أيضاً بقبيلة التمياط والرخيص من قبيلة شمر المعروفة، ومعنى اختصاص القبيلة بهذا الجو أنها تتجمَّع في هذا الجو في مواسم القيظ (الصيف) بحيث لا يسكن معها أحد من القبائل الأخرى إلا بإذنها وموافقتها.

قصر الحفر:

كان البناء القائم في حفر الباطن ـ عند وصولنا إليه، وكان ذلك على ما أذكر في العشرين من شهر محرم ١٣٥٩هـ ـ هو قصر مربَّع الشكل على غرار قصر قرية، وسبق أن وصفناه بما فيه الكفاية، وكان قصر الحفر هذا كما هو في قرية يحتضن في داخله مركز اللاسلكي ومقر الأمير، ومكتب

الإمارة، ومقر الجمرك، وسكن مجموعة من الجنود وقسم للسيارات وسائقيها.

أمير الحفر صالح بن عبدالواحد:

وكان الأمير آنذاك هو المرحوم صالح بن عبدالواحد، وهو من مواليد مدينة الدرعية بجوار الرياض، وكان منذ فجر شبابه من ضمن حاشية المرحوم الملك عبدالعزيز، وكان ذا حظوة لدى جلالته، لأنه يمتاز بالجرأة والصراحة، ولذلك أسند إليه جلالة الملك العديد من إمارات المراكز، كان آخرها مركز الحفر حين وصولنا إليه.

كان هذا الرجل ـ أعني ابن عبدالواحد ـ كريماً سخياً، وذو سلطة نافذة منحه إياها الملك، وهي سلطة عادة يمنحها الملك عبدالعزيز لأمراء المراكز، فيستطيع الفرد منهم أن يعاقب بالحبس أو الجلد أو التغريم دون أن يرجع إلى أحد.

كان لهذه السلطة دور في تنمية الاستعلاء في نفسه، لأنه عندما يهدِّد ينفِّذ ما يريد دون خشية عقاب أو رقيب.

كان على مقربة من القصر على بعد مائتي متر تقريباً مجموعة من بيوت الطين متناثرة هنا وهناك، قد لا يتجاوز عددها العشرين تقع في الجهة الشمالية من القصر.

نصب الخيام:

أقمنا خيامنا في منبسطٍ من الأرض، يقع شرق القصر، وعلى بعد نحو ثلاثمائة مترٍ تقريباً، وكان ابن عبدالواحد، أمير القصر، على علم بمجيئنا، وريثما تنصب الخيام وتنزل الأمتعة، رأى زكي عمر أن يتَّجه إلى القصر للسلام على ابن عبدالواحد، باعتباره أمير المنطقة، الذي يعني أنه ممثِّل للملك، وقد طلب منا جميعاً مرافقته.

السلام على أمير الحفر مع زكي عمر:

اتجهنا جميعاً خلف زكي عمر، بدخولنا إلى القصر توجهنا إلى صالون واسع يبلغ طوله نحو ثلاثين متراً تقريباً، أرضيته مفروشة بالرمل الأحمر، وعلى جوانبه مراكي (مساند) بادية القدم، وفي جزء من هذا الصالون، مما يلي الباب، كان موضع الوجار، أي محل أدوات القهوة وصنعها. وقف ابن عبدالواحد، وصافح زكي عمر، وصافحناه نحن بدورنا، ثم أخذنا مقاعدنا على الأرض في هذا الصالون.

انسحاب زكي عمر من مجلس الأمير:

جلس الأمير متّكئاً على نطع موضوع على شِداد كور، وبدلاً من أن يحادث زكي عن مهمته، أو الاستفسار منه هل كانت رحلته ميسَّرة أو صادف فيها مشقة وعقبات؟ أسرع يسرد على مسامع زكي علاقته بجلالة الملك عبدالعزيز، وكيف أنه اقترح على الملك كذا، وأنه عارضه في كذا، قاصداً بذلك الإيحاء إلى زكي بمدى مكانته عند الملك عبدالعزيز، وكان زكي من الفطنة والذكاء والاعتداد بالكرامة، وخاصة عندما لاحظ أن ابن عبدالواحد قد مدَّ رجليه مسنداً ظهره على الشداد، لذا كان الرد السريع من زكي، وكان ممسكاً بفنجان القهوة، أن وقفَ على الفور واضعاً فنجان القهوة علْى الأرض، ثم اتَّجه خارجاً، فتبعناه بدورنا، خرج دون أن يتفوَّه بكلمة، وقد دُهش ابن عبدالواحد، من هذه الحركة من زكي وأدرك خطأه بمعاملته لزكي.

اعتذار زكي عمر عن مقابلة الأمير:

اتجه زكي رأساً إلى خيمته حيث كانت قد نُصبت مع بقية الخيم، واشتغل الخدم بإعداد الشاهي والقهوة، وتهيئة طعام الغذاء، وكان من ضمن الموجودين شخص عمله قاصر على خدمة زكي خاصةً، يدعى ابن قُرين، دخل زكي الخيمة ومعه يوسف عوضي، وطه ضليمي، وبعض كبار الموظفين، ونادى على ابن قرين قائلاً له: سيأتي إليك الآن أمير الحفر،

يطلب مقابلتي، فأخبره بأني مشغول، ولا تمكنه من الدخول عليَّ، وبالفعل لم تمض دقائق حتى رأينا ابن عبدالواحد مقبلاً بسيارته اللوري، وعند نزوله منها على مقربة من مكان القهوة سأل: أين خيمة زكي عمر؟ فأجاب ابن قرين بأنه مشغول، فأعاد عليه القول: أخبر زكي بأن أمير الحفر يرغب مقابلته، فأجابه ابن قرين: بأنه مشغول ولا أستطيع الدخول عليه، فأحنق ذلك ابن عبدالواحد، لأنه أعاد عليه القول قل له: أمير الحفر. أجابه ابن قرين: حتى ولو كان أمير الحفر لأنه مشغول، ولا يرغب مقابلة أحد.

اعتذار أمير الحفر عن جفوته:

وهنا ابتدأت علامات الغرور التي كان يتميَّز بها ابن عبدالواحد تتلاشى، وإذا به يجلس على مقربة من نار القهوجي، كأيِّ فرد عادي لا أهمية له. مكث ابن عبدالواحد في موضعه هذا حتى حان وقت الصلاة، وهنا أذَّن أحد الموجودين، فخرج زكي من الخيمة، وأسرع ابن عبدالواحد لملاقاته وعانقه قائلاً له: إنني أخطأت في حقِّك، وإنني أعتذر إليك، وأرجو أن تعتبر ما حدث زلةً غير مقصودة.

ابتسم زكي عمر قائلاً له: صلِّ معنا ونعزمك على غدانا. وفعلاً أدَّى الصلاة معنا وانتظر على مقربة من القهوجي، حتى قدم الطعام، بينما اتجه زكي بعد الصلاة مباشرة إلى خيمته، وأمر ابن قرين بعدم دخول أحد عليه.

كان هذا التصرُّف من زكي درساً عملياً، لَقَّنَهُ للأمير صالح ابن عبدالواحد بحيث ربما لم يكن قد مرَّ عليه طيلة حياته مثل من هذا الدرس.

اعتذار زكي عمر عن قبول هدية الأمير:

في المساء أرسل ابن عبدالواحد في سيارته مجموعة من الخراف، سلَّمها للمشرف على المخيَّم أنزلتها السيارة، وعادت إلى القصر، وعندما علم زكي بأمر هذه الخراف أمر بأن تشحن في الحال على أحد اللواري

وتعاد إلى الإمارة في القصر، ومعها رسالة شفهية لابن عبدالواحد فحواها: أنَّ هديتك وصلت، وأننا نشكرك على ذلك، إلا أننا لسنا بحاجة إليها، لأنَّ الحكومة قد وفَّرت لنا جميع احتياجاتنا، ولذا فإنا لا نستطيع أخذها.

انبهار أمير الحفر ودهشته:

كانت إعادة هذه الخراف مرةً أخرى إلى عبدالواحد درساً ثانياً يوجهه زكي إليه، ومع ذلك فإنّ زكي كان من بُعد النظر، وسَعَة الأفق على جانب، مكَّنه من أن يوعز لابن قرين في اليوم التالي بأن يسمح لابن عبدالواحد حينما قدم في الصباح المبكر بالدخول إليه، في خيمته الخاصة، وهو محاط بمجموعة من الكتَّاب الذين يقومون بتحرير المذكرات والبرقيات والتعليمات التي يصدرها، واستقبال البرقيات التي ترد من الملك عبدالعزيز عليه ما بين ساعة وأخرى وتحريرها، فلا تمضي ساعة على مجيء موزع البرقيات إلى خيمة زكي، حتى يعود مرة أخرى بمجموعة من البرقيات الواردة من جلالة الملك. كانت البرقيات ما بين زكي وجلالة الملك مستمرة لا تنقطع، فقد كان زكي يرفع للملك اقتراحات معيَّنة يعرضها على جلالته بهدف حصول الموافقة من جلالته عليها.

كانت برقيات الملك تقول في معظمها والكلام موجه لزكي عمر.

ج برقيتكم رقم كذا بشأن اقتراحكم الفلاني، افعل جميع ما تراه ونحن موافقون على جميع إجراءاتكم، فأنت ممثل لعبدالعزيز في الحدود.

كان ابن عبدالواحد في غاية الانبهار والدهشة، إذ كان زكي كلما استلم البرقيات، قرأها وأعطاها لابن عبدالواحد للاطِّلاع عليها، وكان لقراءته لهذه البرقيات ما يُشعِرُه بفداحة الخطأ الذي ارتكبه مع زكي عمر.

تصنيف ملاك الجهاز الجمركي:

في اليوم الثاني لوصولنا الحفر كان زكي عمر قد أتمَّ تصنيف ملاك الجهاز الجمركي الذي سوف يعمل بالحفر، لاستقبال البضائع الواردة من

الكويت عبر مركز الرقعي (الرقعي هو النقطة السعودية الواقعة على الحد ما بين الكويت والسعودية، والواقعة على الزاوية التي تلتقي بعد عدة كيلومترات إلى الشمال الغربي بحد العراق ويبعد عن الحفر حوالي ٩٠ كم).

أتمَّ التشكيل، واختار الموظفين الذين أثبت أسماءهم على هذا المَلاك، ملاك إدارة جمرك الحفر، وهو يتكوَّن من مدير ومحاسب وأمين صندوق ومعاين ومأمور مستودع وكاتب يومية، فعيَّن أحمد الجابر (وهو من أبناء البحرين) مديراً، وعبدالحميد يحيى، وهو من أهالي جدة محاسباً، وعبدالله الغنام أميناً للصندوق، وعبدالرحمن هندي وهو من أهالي جدة معايناً، وعثمان الفريان أحد أبناء الأحساء كاتباً لليومية، وإدريس بن سعد مساعداً للمعاين، وبندر بن صحن، وينتمي إلى إحدىٰ قبائل الأردن مأموراً للمستودع.

مبنى الجمرك:

أُنزلت المكاتب الخاصة بموظفي إدارة الجمرك من الشاحنات، ووُضعت في المكان الذي عُيِّن ليكوِّن مبنىً للجمرك، وهو عبارة عن صالون مستدير تبلغ مساحته حدود ١٠×٦ أمتار، ويقع داخله، على يمين الداخل للقصر مباشرة، ويقع في الجهة الشمالية الشرقية من مبنى القصر.

رُتِّب الموظفون على المكاتب، ووُزِّعت عليهم السجِّلات والتعليمات الخاصة بكلٍّ منهم، وشرح لهم منهج العمل الواجب اتباعه باستقبال ما يَرِد للجمرك من بضائع، مكثنا ثلاثة أيام في منزلنا هذا رغبةً من زكي عمر في أن لا يترك الحفر حتى يطمئنَّ على استيعاب الموظفين لتأدية واجباتهم، وكانت الشاحنات ترد من الكويت خلال هذه الثلاثة الأيام فنتم الإجراءات عليها وَفقاً للمنهج المطلوب.

الاتجاه إلى مركز أم رضمة:

في صباح اليوم الرابع غادرنا الحفر، وواصلنا السير باتجاه الشمال الغربي، قاصدين مركز أم رضمة، الذي يبعد عن الحفر حوالي مائة

وخمسين كيلومتراً، وصلنا المركز عصر ذلك اليوم، ومركز أم رضمة هذا هو مماثل لقصور الحفر وقرية من حيث التصميم والبناء والمساحة، إلا أنَّ هذا القصر يمتاز بأنه واقع على حافة هضبة منخفضة تحدُّه من الشمال والغرب والشرق، إذ يقع هو بالنسبة لهذا المنخفض في الجهة الجنوبية، والمنخفض هذا ملتقى لمجموعة من الأودية، وهي الشعبان تصب كلُّها في هذا المنخفض في مواسم الأمطار.

آبار أم رضمة:

وينتشر على سطح هذا المنخفض مجموعة أبيار قد يبلغ عددها الثلاثين بئراً، وعمق الماء فيها عن سطح الأرض في حدود خمسة عشر إلى عشرين متراً، وهي أبيار قديمة العهد، وربما كانت من العصر الجاهلي، وهي تُعرف باسم جو أم رضمة، ولا أعرف السر في هذه التسمية، اللهم إلا أن يكون منشأ ذلك وجود جبل مرتفع في الجهة الجنوبية الشرقية يرتفع نحو خمسة عشر متراً عن سطح الأرض، ويبعد عن القصر من الجهة الجنوبية الشرقية بنحو مائتي متر تقريباً، فهذا الجبل توجد على قمته صخور عدة ضخمة تُعرف عند البادية باسم رُضَمْ.

قصر أم رضمة:

هذا القصر شأنه شأن القصور الأخرى في المراكز، أنشىء كما أنشئت تلك القصور في وقت واحد، وأشرف عليها مهندس واحد، وإخالها بُنِيت بعد عام ١٣٤٠هـ، أي بعد سقوط حائل، ودخول المنطقة الشمالية تحت حكم الملك عبدالعزيز.

نُصِبَت الخيام على مرتفع من الأرض بمواجهة القصر من الجهة الجنوبية، وأقام زكي عمر تلك الليلة ومرافقوه في خيامهم هذه، وعكف على وضع ملاك لموظفي الجمرك في هذا المركز كما فعل في الحفر وقرية.

ملاك الجهاز الجمركي في أم رضمة:

ونظراً لأنَّ مركز أم رضمة، سيكون أوَّل المنافذ السعودية التي تقع على الحد ما بين العراق والمملكة، والتي تستورد البادية السعودية عن طريقه ما تحتاجه من مواد غذائية، وهي مقصورة كما أسلفنا، على أنواع التمور والحبوب والأرز (التمَّن) فقد اقتضى الأمر أن يكون موظفو هذا المركز محدودو العدد، وقد تكوَّن ملاك الجمرك في هذا المركز من مدير ومحاسب وأمين صندوق ومعاين ومأمور مستودع.

تعييني مديراً لمركز أم رضمة:

عُيِّنت مديراً، وعُيِّن أحمد قاسم محاسباً، ومحمد نور نظمي أميناً للصندوق، وعُيِّن حسن العواد مُعَايناً، وعُيِّن عبدالوهاب غنيم من أهالي مكة مأموراً للمستودع، ووضع في الملاك وظائف لستة حُمَّال، وحارسين يختارهم ويعينهم مدير الجمرك.

اتجاه زكي عمر إلى مركز «لينة»:

ثم في مساء ذلك اليوم واصل زكي سفره ومرافقوه إلى مركز لينة الذي يقع على بُعد مائتي كيلومتر عن أم رضمة من جهة الشمال الغربي، حيث مكث في لينة ثلاثة أيام أسَّس فيها جمركاً على غرار جمرك أم رضمة، وجهَّزه بالموظفين الذين وضع على رأسهم سعد بن سرّاء مديراً عليهم، وهو من أبناء الأحساء، ولا أذكر أسماء الموظفين الذين كانوا معه.

اتجاه زكي عمر إلى «لوقة»:

ثم واصل زكي عمر سفره من لينة، مُتَّجهاً إلى لوقة، وتبعد باتجاه الشمال الغربي بنحو مائة وتسعين كيلومتراً، وهناك أسس مركزاً جمركياً على غرار مركزي لينة وأم رضمة وبالعدد نفسه ومسمَّيات الوظائف، ووضع المرحوم أحمد حمدي من أهالي جدة، مديراً لهذا الجمرك.

مواصلة زكي عمر سفره إلى «الدويد»:

ثم واصل سفره بعد يومين إلى مركز «الدويد» ويبعد عن لوقة باتجاه الشمال الغربي بنحو تسعين كيلومتراً، ووَضَع فيه موظفاً واحداً يدعى حمزة هاشم من أهالي المدينة المنورة.

ومركز الدويد هذا هو منخفض من الأرض، توجد على سطحه مجموعة من الآبار السطحية التي يطفو ماؤها على السطح، والمعروفة عند البادية بالثمايل (جمع ثميلة، وهي حفرة تتجمع فيها المياه)، ويرد على هذا المركز مجموعات من أفراد البادية، وهم الذين يعرفون (بالصَلَب).

أمّا مركزي لينة ولوقة وهما أيضاً مماثلين لمركز الحفر وأم رضمة، من حيث وجود الآبار العميقة في كل منهما، وعددها لا يقل في كل مركز عن ثلاثين بئراً، وهذه الآبار من حيث عمقها عن سطح الأرض متشابهة تقريباً فلا يقل عمق البئر الواحدة في كلا المركزين عن خمسة وعشرين متراً تقريباً.

آبار مركز «لينة»:

إلا أنَّ مركز لينة يمتاز عن مركز لوقة بأنه واقع على مرتفع صخري من الأرض، أرضيتُه صخرية صماء لا يمكن أن تكون حُفرت بوسائل ما حُفرت به الآبار الأخرى في مختلف المراكز؛ لأنَّ أرضية ليّنة صخريَّة ملساء، وهي منحوتة نحتاً في هذا الصخر الأصم، ولذا فإن هناك روايات عديدة تشير إلى أنَّ الذي أنشأ هذه الآبار هو نبيُّ الله سليمان بواسطة تسخير الجن في حفرها.

عودة زكي عمر إلى الأحساء:

عاد زكي عمر بعد أن انتهى من إنشاء هذه المراكز، وبعد أن اطمأنَّ على سير العمل في كلٍّ منها، وتوجه إلى الأحساء، وتقرَّر أن يكون هناك مركز إقامته، فيزاول عمله من هناك مديراً عاماً لماليات الأحساء وجماركه، وهو اللقب الرسمي الذي يخاطب به.

قصر أم رضمة:

عند وصولنا أم رضمة أول ربيع أول عام ١٣٥٩هـ كان يوجد بالقصر أمير يدعى عبدالرحمن أبو صامل، وهو من أهالي ضَرَما، موفد من قبل الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، ومعه خمسة من الخويا، وهذا الأمير تابع لأمير أعلى منه رتبة يدعى عبدالعزيز بن مرشود، وهو تابع لابن مساعد أيضاً، ويقيم مع مجموعة من الخويا في خيام نُصِبت في مكان يُدعى الرخيمية، وهي على حد المنطقة المُحايدة ما بين المملكة والعراق.

مدير اللاسلكي: ناصر الصايغ:

بعد وصولنا بأربعة أيام لأم رضمة وصل إلينا مدير اللاسلكي الذي تقرر وضعه في هذا المركز، وهو الأخ ناصر الصايغ شفاه الله، ومعه مأمور مخابرة يدعى أحمد قلعي من أهل مكة المكرمة، ومهندس يدعى عبدالقادر تركي، وهو من الأتراك الذين فضَّلوا البقاء في الحجاز بعد رحيل الدولة العثمانية عام ١٣٣٤ هـ وهو من أهالي جدة، ومعهم مراسل يدعى أحمد أبو الروس من أهل ينبع، ثم بعد نحو أسبوع من هذا التاريخ وصل إلينا المرحوم حمد الهندي من أهالي عنيزة، ومعه مجموعة من الجنود عددهم سبعة عشر جندياً، وكانت رتبته برتبة ملازم، وبذلك أصبح مجموع ما يحتويه هذا القصر من موظفين وجنود حوالي أربعين شخصاً تقريباً.

المنفى «أم رضمة»:

كان الوضع بالنسبة لنا جميعاً وضع غير مريح، لأننا أشبه بسجناء منفيين في أعماق الصحراء، الممتدة ما بين العراق والمملكة، وكان وقت حضورنا لسوء الحظ في وقت (الصُّفري)، وهو الفصل الذي تنتقل فيه البادية من مراكز تجمّعاتها على المياه في أيام القيظ إلى أماكن بعيدة قد تبلغ الستين والسبعين كيلومتراً عن آبار المياه، ذلك أنَّ الطقس في هذا الموسم

يكون قد ابتدأ في البرودة، وبذلك تستطيع المواشي، سواء كانت أغناماً أو إبلاً أن تظلَّ يومين أو ثلاثة دون أن ترد على الماء، يضاف إلى ذلك أنَّ هؤلاء البوادي عندما يبتعدون عن آبار المياه يبحثون عن أماكن يوجد فيها الحطب ليستعملوه في تدفئتهم في فصل الشتاء الذي هو في طريقه إليهم.

كان هذا القصر بالنسبة لنا في تلك الأيام أشبه بجزيرة سيشل أو سانت هيلانة، أو قل سجن الباستيل. شعرنا بالوحدة، ووحشة البعد عن الأهل، ومرارة الانزواء في جوف الصحراء، ثم شيئاً فشيئاً بدأنا نتأقلم مع واقعنا الجديد، ونكيِّف حياتنا معه، وما هي إلا أيام حتى اندمج الجميع في أسرة واحدة، نقضي أوقات النهار في رحلات نتجوَّل خلالها على إحدى سيارات الإمارة حول الأماكن القريبة من القصر للتعرف عليها وعلى طرقها ومنافذها، وهذا في الغالب الأكثر، وفيما عدا ذلك نقضي أوقاتنا مجتمعين إما في ديوان الإمارة، أو في مركز اللاسلكي، أو في الجمرك، نقضي الوقت مع الألعاب المتوفرة آنذاك كالضومنة والبلوت وخلافها.

كنا بعد صلاة المغرب مباشرة نغلق باب القصر الخارجي بحيث لا يبقى أيٌّ منا خارج القصر، فما يكاد الظلام يخيِّم على الأفق حتى نسمع عواء الذئاب على مقربة منا خارج القصر، ونشاهد تجولها ودورانها حول القصر من خلال الفتحات الصغيرة الموجودة في باب القصر.

انتظام عمل الإدارات الأربع:

مضت علينا في القصر عدة أيام حتى تمَّ تكامل وجود الأجهزة الرسمية المقرر عملها في هذا المركز، وهي ممثلة في الإمارة وفي الجنود وقائدهم، وفي إدارة اللاسلكي، وفي إدارة الجمرك، وخلال ذلك ابتدأت كل إدارة من هذه الإدارات الأربع تمارس عملها الرسمي المنوط بها، وكانت إدارة الجمرك هي الأكثر نشاطاً في هذا المضمار، إذ ابتدأت قوافل البادية تتوافد عليها يومياً في طريقها إلى العراق، سواءٌ ما كان متَّجهاً منها إلى سوق الشيوخ، أو إلى مدينة السماوة، أو إلى مدينة الناصرية، وكلُّها مدنٌ عراقية تكاد تكون متخصِّصة في التجارة مع أفراد البادية السعودية.

القوافل الغادية والرائحة:

كانت القوافل تمرُّ بنا يومياً بمعدل عشر إلى خمسة عشر قافلة، وكلُّ قافلة يتراوح عددها ما بين الستين جملاً أو الثمانين أو المائة يتَّجهون إلى العراق، وأكثرهم يحملون على ظهور رواحلهم قرباً ضخمة مصنوعة من الجلد تُعرف عندهم باسم (عيبة)، وهي كلمة عربية فصحى، تعني الإناء الذي يحفظ فيه ما يقتات منه، وهي عادةً مخصَّصة لنقل التمور الرطبة، لأنَّ التمور على نوعين: أحدهما يُعرف بالتمر الصقعي، وهو من تمر ناشف، كل حبة منه منفصلة عن الأخرى، بينما النوع الآخر هو التمر المضغوط، والذي يُحمَل داخل هذه العِيَبْ، لأنه يكون عادة مشبعاً بالدبس.

كنا نشهد يومياً هذه القوافل بعضها ذاهبة وبعضها آيبة، أما الذاهبة فلأنَّ مرورها يتم عن طريقنا لحاجتها لآبار الماء، خاصةً أيام الصيف، أما في الشتاء فلا تمر في حالة ذهابها، إذ لا توجد آنذاك أية إجراءات تتخذ معها سواء من حيث التفتيش أو من حيث وجود جوازات، أو ما إلى ذلك؛ لأنَّ البادية عادةً لا يحمل أفرادها أي هوية، هذا الإجراء بالنسبة للقوافل الذاهبة، وهو ترك الحرية لها بمرورها المركز أو عدمه، لم يدم لأكثر من عامين فقط، ثم تغيَّر الأمر، فقد صدرت تعليمات تحتِّم على أفراد البادية هؤلاء وجوب المرور على المراكز حال خروجهم إلى العراق، وسنرجع إلى تفصيل هذا الموضوع مستقبلاً.

القوافل القادمة من العراق:

أما القوافل القادمة من العراق فهي تتجمع في فسيح من الأرض يمتد نحو خمسة كيلومترات تقريباً، فتنيخ جِمالها، وتضع ما عليها من أحمال على الأرض، وهنا يأتي إليها موظفو الجمرك: المحاسب والمعاين ومعهم موظف من قبل الإمارة مندوباً عنها، يقومون بجرد هذه الأحمال الموجودة على الأرض وإحصائها، وهي عادةً تتألف من طردين على كل بعير، يضعون محضراً بعدد تلك الطرود ونوعية محتوياتها.

استيفاء الرسوم الجمركية:

ثم يُستوفى على هذه الطرود رسوم جمركية مقدارها ريالين فرنسي على كل طرد، سواءٌ كانت تموراً أو دقيقاً أو تمّن (رز) أو ذرة، يُستوفى ريالان على الطرد الواحد، وتدفع هذه الرسوم لإدارة الجمرك، على أساس ما هو مدوَّن في المحضر الذي يحتوي على: اسم الفرد من البادية العائدة له هذه الأحمال، وعدد الطرود ونوع محتوياتها، وعدد الجمال التي حملت هذه الطرود، وبيان اسم المدينة التي جُلبت منها هذه الطرود، وبيان الهجرة أو الجو المتجهة إليه هذه الطرود، مع إيضاح اسم القبيلة التي ينتمي إليها الفرد، وأماكن تواجدها واسم شيخ القبيلة التي تنتمي إليه، ثم يزوَّد الشخص بإيصال استلام محرراً من قبل إدارة الجمرك، وموقَّعاً من المعاين والمحاسب وأمين الصندوق والمدير.

حصيلة اليوم الأول:

كانت حصيلة اليوم الأول من بدء أعمالنا على ما أذكر عشرة ريالات فرنسية، ثم أخذت تتضاعف يوماً إثر يوم، حتى بلغت في بعض الأيام، وخاصةً في الفصول التي تسبق موسم الشتاء، ألفي ريال فرنسي في اليوم.

السيارة المرسلة للكويت شهرياً:

في نهاية الشهر تقوم سيارة من سيارات المركز بالذهاب إلى الكويت، وتَصْطحب معها أمين الصندوق والنقود المتجمِّعة الموجودة لديه، والتي تمثِّل حصيلة رسوم الجمرك لكامل الشهر، تتجه هذه السيارة إلى حفر الباطن وهي واحدة من السيارات الموجودة في القصر والمعدة لتأمين عمل الدوريات على الحدود.

تسليم حصيلة رسوم الجمرك إلى مالية الحفر:

بوصولها إلى حفر الباطن يقوم أمين الصندوق بتسليم تلك النقود إلى مالية الحفر، أي إلى صندوق الجمرك هناك، لأنَّ جمرك الحفر يطلق عليه

اسم الجمرك والمالية معاً، ولأنَّ جمرك الحفر هو المسؤول عن دفع رواتب جميع الموظفين في المراكز التي سبق أن ذكرناها، والذين يمثِّلون موظفي الأمارات، وجهاز العسكر، وموظفي اللاسلكي، وموظفي الجمارك، ويَفِدُ في نهاية كل شهر مندوبٌ منهم يحمل مسيَّرات رواتبهم، يسلمها لإدارة جمرك الحفر، ويستلم تلك الرواتب ليعود بها ويقوم بتوزيعها على جهاتها.

بعد أن يتم أمين صندوق جمرك أم رُضمة تسليم ما لديه من نقود لجمرك الحفر، يستلم منه إيصالاً رسمياً موقَّعاً من أمين صندوق الحفر والمحاسب والمدير.

تأمين احتياجات الموظفين من الكويت:

وتكون السيارة التي قدم عليها آنذاك واقفة في انتظاره، حيث يستقلها متجهاً إلى الكويت، ليقوم بتأمين احتياجات موظفي كل إدارة من الدوائر الأربع في مركز أم رضمة، فقد جرت العادة أن يقوم موظفو كل إدارة بوضع بيانات بما يحتاجونه من الكويت من أرزاق وأطعمة وملابس وحاجات، وكل ما هم بحاجة إليه، ثم تسلَّم هذه البيانات لشخص يكون واحداً من موظفي إحدى الدوائر الأربع هذه، وغالباً ما يكون هذا الشخص هو أمين الصندوق، ويستوفي هذا الموظف من الإدارة، صاحبة البيان المطلوب، تأمين محتوياته مبلغاً من النقود يكفي لتأمين هذه الحاجيات.

بوصول هذا الشخص إلى الكويت يؤمِّن تلك الطلبات بحسب البيانات التي لديه، ثم يحملها على السيارة التي قدم عليها بعد أن يسجِّل أسماءَ أصحابها عليها وِفْق البيانات التي لديه، وعادةً تستغرق هذه الرحلة من خمسة إلى ستة أيام.

رخص الأسعار:

كانت الأسعار جداً متواضعة آنذاك، فكيس الرز في حدود خمسة عشر روبيَّة، وكيس السكر يزيد عن ذلك أو ينقص قليلاً، أمّا كيس الطحين فكان

في حدود أربع إلى خمس روبيات، وكذلك الهيل والبن، وكذا بقية الحاجات الأخرى، كالملابس وغيرها، كلها تباع بأسعار رخيصة، خاصةً وأنَّ حكومة الكويت كانت تستوفي ٤٪ فقط رسوماً على كل ما تستقبله موانئها من بضائع مهما كان صنف البضاعة أو نوعها.

عند عودة السيارة من الكويت يقوم هذا الموظف الذي أمَّن هذه الأغراض من الكويت بتسليم كل جهة من الدوائر الأربع ما يخصُّها حسب البيانات المقدمة إليه.

أما اللحوم والسمن التي نحتاج إليها فكانت رخيصة جداً تُجلب إلينا من قبل أفراد البادية السعودية، فلا تزيد قيمة الخروف عن أربعة ريالات، وعكة السمن البلدي الحر، التي تحتوي على ما يعادل ملء تنكة بثلاثة إلى أربعة ريالات.

الجَلاَ:

وهناك مصدر آخر من اللحوم المجفَّفة تجلب إلينا في المركز من قبل أفراد من البادية يُعرفون بالصَلَب، وهذه اللحوم هي لحوم ظباء، اصطيدت، وذُبحت وجُفِّف لحمها حتى يبس، بعد أن رُشَّ عليه قليلٌ من الملح، ويعرف باسم (الجَلاَ)، وهو نوع لذيذ جداً؛ لأنَّ هؤلاء الصلب معرفون بالمهارة الفائقة في اقتناص الظباء بكثرة، وهم ممتازون أيضاً بخفة الجسم، وسرعة العدو حتى إن بعضهم ليستطيع اللحاق بالظبي، ومعروف أن سرعة الظبي لا تقل عن خمسين إلى ستين كيلومتراً في الساعة.

حياة يوم في قصر أم رضمة:

استمر الوضع رتيباً في هذا المركز على النحو الذي شرحناه، ولعلَّ في ذكر نشاطنا في يوم من أيامنا يكفي لإعطاء صورة عن حياتنا التي قضيناها أربع سنوات في هذا المجتمع البسيط المنعزل عن العالم، وانصهر أفراده فيما بينهم، حتى أصبحوا وكأنهم أسرة واحدة.

صلاة الفجر في مسجد القصر:

نستيقظ فجراً على صوت المؤذن في مسجد القصر الذي يقع في الناحية الجنوبية الشرقية، فلا تمر نصف ساعة، حتى نكون جميعاً حاضرين داخل المسجد، نكوِّن ثلاثة صفوف تقريباً، والعدد بالكامل في حدود أربعين يزيد أو ينقص.

الصُّفْرة:

بعد انتهاء الصلاة مباشرة يتجه كلٌّ منا إلى مسكنه فيقضي الفترة السابقة على طلوع الشمس جالساً أو مستريحاً على فراشه يقضي فترة من النوم تسمى (الصُّفرة).

مجلس الإمارة:

وكثيراً ما نفضل الاتجاه إلى مجلس الإمارة بعد الصلاة مباشرة، وأعني مدير اللاسلكي الأخ ناصر الصايغ، وقائد العسكر المرحوم حمد الهندي، وأنا مدير الجمرك إبراهيم الحسون: نتجه إلى مجلس الإمارة، لنجد أمير المركز عبدالرحمن بن صامل جالساً على مقربة من الوجار الذي تُحَضَّر فيه القهوة.

كنا نتحلق حول الوجار نتبادل الأحاديث والنكت والطرائف، حتى ترتفع الشمس، وحينئذ نتفرق كلٌّ منا إلى إدارته، منتظماً في دوامه الرسمي.

نهاية الدوام الرسمي:

بعد صلاة الظهر يكون دوامنا الرسمي قد انتهى، فنؤدي الفريضة، ثم يعود كلٌّ منا إلى مسكنه لتناول طعام غدائه، وأخذ قسطٍ من الراحة لمن أراد أن يرتاح.

بعد أن نؤدي صلاة العصر، إما أن نجلس على جِبس، وهو عبارة عن مصطبَّة مرتفعة عن الأرض بنحو نصف متر ملاصقة لجدار القصر الخارجي، ومثبت عليها من الطين ما يشبه المساند ما بين كلٍّ واحدة وأخرى ما يتَّسع لجلوس الرجل، وبالمناسبة فإن ارتفاع جدار القصر يبلغ أربعة أمتار تقريباً وهو مبنيٌ من الطين الصلب المدعم بالتبن.

مراتع الظباء:

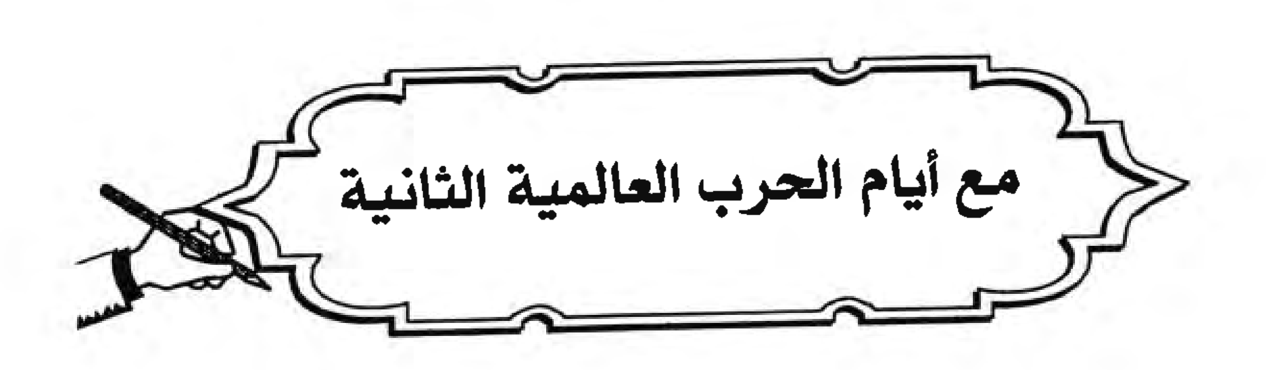
نظل في موضعنا هذا حتى أذان المغرب، وإمّا أن نستقل إحدى سيارات الدورية ونبتعد عن القصر بمسافة قد لا تتجاوز العشرين كيلومتراً طلباً لمراتع الظباء التي كثيراً ما نجدها موجودة في تلك الأماكن بأعداد كبيرة على هيئة مجموعات، قد تبلغ المجموعة منها ما لا يقل عن ثمانين رأساً، وتعرف هذه المجموعات باسم (جمائل) مفردها جميلة، وكانت طريقة انتشار هذه الظباء في الأماكن المستوية السطح، التي لا يوجد فيها جبال أو منحدرات أو روابي فلا يحجب الظبي عن مدى رؤياه أي حاجز، وعادةً يتقدَّم هذه المجموعة ذكر ضخم تسير هي خلفه، وكثيراً ما نصطاد من هذه الظباء ما يؤمِّن حاجتنا من اللحم، ويبلغ في بعض الأحيان عشرة رؤوس من الظباء لأن الخويا كل منهم يحمل السلاح، وبعض الأحيان نَصْطحب معنا بعض الجنود، وكلهم يحملون أسلحة.

كنا نأتي بهذا الصيد ونوزعه على أفراد الدوائر الأربع.

السمر بعد صلاة العشاء:

نعود إلى القصر بعد هذه الرحلة بعد غروب الشمس مباشرةً حيث يتم إغلاق القصر من الداخل، ومن ثم نتجه إلى المسجد لأداء الصلاة، ثم يتجه كلٌّ منا إلى مسكنه لتناول طعام العشاء حتى تحين صلاة العشاء فنؤديها في المسجد، ومن ثم نجتمع مرة أخرى إما في مجلس الإمارة، أو في مركز اللاسلكي، أو في إدارة الجمرك، أو في سكن قائد العسكر حمد الهندي، نظل في الحديث والسمر حتى ما يقرب من الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي آنذاك، العاشرة بالتوقيت الحالي.





كانت الحرب العالمية الثانية وقت ذاك، أي في عام ١٣٥٩هـ قد ازداد لهيبها واشتعالها، وامتدَّ شررها إلى البحار، والمحيطات، فضلاً عن اليابسة، وكانت ظروف الحرب تقلص إنتاجِ السلع والحاجات التي تستلزمها الحياة، فأخذت تلك الدول المتصارعة تُسَخِّر جميع إمكاناتها لشؤون الحرب وحدها، وكان الضيق والحاجة وندرة الموارد والبضائع وشحها تضاعف يوماً بعد يوم.

كان الجباران المتصارعان كلٌّ منهما قد سخر جميع موارده المادية والبشرية لتكون وقوداً للحرب، ولعلَّ من المناسب أن نرجع قليلاً إلى الوراء لنُعطي لمحةً مختصرةً عن كيفية نشوب تلك الحرب، ومن هم أطرافها المتنازعون، والدول المنضمَّة تحت لواء كل معسكر منهما.

جذور الحرب:

ابتدأت إرهاصات الحرب الثانية هذه عند نهاية الحرب الأولى التي ابتدأت في مستهل عام ١٩١٤م وانتهت بعام ١٩١٨م بهزيمة ألمانيا وحلفائها، ومن ضمنهم دولة الخلافة الإسلامية العثمانية في إسطنبول، وكان بدء تلك الحرب - أعني الحرب العالمية الأولى - ومُشِعل فتيلها، طالبٌ صربي ينتمي إلى جامعة سراييفو يدعى (برنزيب)، وقد قام هذا الشاب بإلقاء قنبلة على موكب وليّ عهد الإمبراطورية النمساوية مع قرينته، وهما كانا يمرّان بأحد شوارع سراييفو، بعد عقد قرانهما مباشرةً، وكانت آنذاك النمسا إمبراطورية تفرض نفوذها على صربيا.

جمعية الاتحاد والترقي:

انتهت تلك الحرب، وكان أطرافها إمبراطور النمسا، وقيصر ألمانيا غليوم الثاني، والدولة العثمانية، وكان يتحكم بمقدراتها آنذاك مجموعة من الضباط الذين ينتمون إلى جمعية الاتحاد والترقي، ومنهم: طلعت باشا، وجمال باشا، وأنور باشا.

كان هؤلاء الثلاثة قد تلقوا تعليمهم العسكري، وثقافتهم، في جامعات ألمانيا، وكانوا شديدو الإعجاب والحماس والانبهار بعظمة ألمانيا وقواها العسكرية ومواردها الهائلة، فأسرعوا إلى دخول تلك الحرب، فور إعلانها، بجانب ألمانيا والنمسا، ضاربين عرض الحائط باعتراضات ذوي الرأي في الإمبراطورية العثمانية ونصائحهم، وعلى رأسهم السلطان وحيد الدين، الخليفة العثماني السابع والثلاثين وآخر خليفة عثماني، وكان في تصرُّف هؤلاء الضباط الثلاثة الإجهاز على دولة الخلافة العثمانية، وتمزيقها إرباً إرباً، وتمكين أعدائها من اقتطاع أراضي ولاياتها الشاسعة، فكانت العراق وفلسطين ومصر من نصيب التاج البريطاني، كما كانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا.

نتائج الحرب العالمية الأولى:

انتهت الحرب العالمية الأولى بهزيمة ألمانيا وحلفائها، واستسلامهم، بدون قيد أو شرط، وكانت نتائجها كما يلي:

١ ـ إسقاط الحكم القيصري في ألمانيا، واستبداله بحكم جمهوري.

٢ ـ سلخ الدول التي كانت تابعةً لألمانيا في أفريقيا، وتقسيمها بين الدول المنتصرة.

٣ ـ إلزام ألمانيا بدفع جميع تكاليف الحرب، التي استمرت أربع سنوات.

٤ ـ سلخ مقاطعة الألزاس واللورين وإلحاقهما بفرنسا.

٥ ـ اقتطاع منطقة السوديت من الأرض الألمانية، وإلحاقها بدولة بولندا.

٦ ـ إسقاط الحكم الإمبراطوري في النمسا، وإبداله بحكم جمهوري.

تلك كانت أهم النتائج التي تمخضت عنها تلك الحرب الضروس. كان المنتصرون، وهم بريطانيا وفرنسا ومن حالفهما من الدول الأخرى، قد أخذتهم نشوة النصر، فأمعنوا في إذلال الشعب الألماني وقهره، وكان يرأس الوزارة البريطانية آنذاك المدعو لويد جورج، كما كان يرأس الحكومة الفرنسية المسيو كليمنصو، المعروف بالنمر، ووزير خارجيته المحنك أريستيد بريان الذين دعوا فور انتهاء الحرب إلى مؤتمر يُعقَد في جنيف بسويسرا، وقد عرف بمؤتمر الصلح.

مؤتمر الصلح في سويسرا:

دعوا إلى عقد هذا المؤتمر، واشتركت فيه الدول المنتصرة، كما حضرته أمريكا ممثلة برئيسها، وأعلن آنذاك أنَّ الغرض من عقد هذا المؤتمر هو التشاور لتنظيم ميثاق عالمي جديد من شأنه أن يضمن عدم تكرار العودة للحروب مرة أخرى، وأن ينظم دول العالم آنذاك حسب الواقع الذي أنتجته الحرب.

حضر هذا المؤتمر رؤساء العديد من الدول، ونظم ميثاقٌ جديدٌ، تمَّ التوقيع عليه من قبل الدول التي حضرته، وقد عرف بمؤتمر الصلح. وتقرر أن يعرف قرار المؤتمر باسم ميثاق عصبة الأمم، وأن يكون مقره في سويسرا، وبمدينة جنيف بالتحديد.

اقتسام أراضي الدولة العثمانية:

وقد ابتدع في هذا الميثاق مسمى جديد عرف (بالانتداب)، ويعني هذا اللفظ أن تقوم هذه الدول المنتصرة: بريطانيا وفرنسا باقتسام أراضي الدول المغلوبة، وبالدرجة الأولى أراضي الدولة العثمانية، بحجة أنَّ شعوب هذه

الأراضي شعوب متخلفة، لم تصلها مَدَنِيَّة الغرب بعد، ولذا فإنَّ من مصلحة تلك الشعوب أن تتولَّى إدارة شؤونها وتحكمها إحدى الدولتين ريثما يتم نضجها، وتصبح مستعدةً لاستيعاب النظم الغربية، وهي النظم الديمقراطية التي تحكم دول الغرب، وعلى ذلك تمَّ بسط النفوذ البريطاني على فلسطين والعراق والأردن، كما تمَّ بسط النفوذ الفرنسي على لبنان وسوريا وتونس والجزائر والمغرب وعدة دول في أفريقيا وآسيا.

المنطقة العربية في فترة ما قبل الحرب العالمية الأولى:

وهنا، ونحن نذكر بإيجاز مجرى أحداث الحرب العالمية الأولى وما نتج عنها من تطورات وأحداث، خاصةً ما يتعلق بعالمنا العربي، نرى من المناسب أن نعود خطوات إلى الوراء في مجرى التاريخ، فنعطي لمحةً تاريخيةً عما يتعلق بالوطن العربي، بمساحاته وحدوده.

قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى كانت المنطقة العربية بأكملها ـ كما هو معروف ـ جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، كانت مقسمةً إلى ما يعرف بالولايات، فهذه ولاية العراق، وتلك ولاية سوريا، وثالثة ولاية الحجاز، وهكذا بقية الأقطار العربية الأخرى.

المبعوثان:

كانت الدولة العثمانية آنذاك قد أنشأت بجهد المصلح المجاهد الزعيم العثماني مدحت باشا نظاماً برلمانياً، أصدرت به دستوراً كانت شعاراته الحرية والعدالة والمساواة، وانبثق عن هذا الدستور قيام مجلس نيابي مقره إسطنبول تشترك فيه جميع الولايات العثمانية من عرب وغيرهم بمندوبين يشتركون سنوياً بهذا المجلس، وكان يطلق عليه اسم (المبعوثان).

كانت كل ولاية من جميع ولايات الإمبراطورية الشاسعة تبعث بمندوبيها حسب النسبة التي حددها ذلك الدستور.

كان هذا المجلس ينعقد كل عام، لعدة شهور، تُطرح فيه جميع قضايا الولايات وشؤونها.

ولاية الحجاز:

كانت ولاية الحجاز تعني مكة والمدينة وجدة والطائف، تبعث بمندوبيها ضمن تلك الوفود. كانتِ الحجاز تحكمها آنذاك سلطتان: أولاهما الدولة العثمانية، وهي السلطة الفعلية في البلاد، ويمثلها والٍ تركي تبعثه إسطنبول إلى الحجاز مع ما يتبعه من فرق عسكرية وأجهزة إدارية، كما هو متَّبع في كل حكومة، وكان هذا الوالي يمثل السلطة الرمزية لسيادة الدولة العثمانية، ويتولى الدفاع عن الحجاز في حالة تعرضه لعدوان خارجي.

شريف مكة: الحسين بن علي:

أما السلطة الفعلية الداخلية فيمثلها شريف مكة، وكان آنذاك الحسين بن علي، والذي هو امتداد لأسرة الأشراف التي ظلت تتداول الحكم المحلي في الحجاز منذ القرن الأول للإسلام.

مندوب الحجاز إلى المبعوثان:

كان مندوب الحجاز آنذاك إلى «المبعوثان» هو أحد أنجال شريف مكة الحسين بن علي، ابنه الأكبر عبدالله وهو جد والد الملك عبدالله بن حسين، ملك الأردن الحالي.

كان الأمير عبدالله هذا، إذ لم تكن هناك آنذاك طائرات أو قطارات، يذهب إلى إسطنبول عن طريق البحر، مروراً بمصر في ذهابه وإيابه.

الإساءة إلى العنصر العربي:

وإذ كانت الحرب قد اشتعل أوارها، فقد كان كلُّ فريق من المتحاربين يبحث عن حليف، أو قُوىً أخرى تكون ذات فعالية في مساعدته على خصمه، والتغلب عليه. ولما كان على رأس الدولة العثمانية آنذاك مجموعة من رجال جمعية الاتحاد والترقي: أنور وطلعت ورفاقهما، والذين كانوا قد زجوُّا ببلادهم في حلف مع الألمان المعادي لبريطانيا وحلفائهما فإنهم ـ أي: رجال جمعية الاتحاد والترقي ـ قد شرعوا في الإساءة إلى العنصر العربي،

وهو أكبر العناصر الذي يتكون منها نسيج الدولة العثمانية، وكان يحتل الكثير من مناصب الدولة العليا بما فيها أرفع المناصب وهي الصدارة العظمى، وهي في الأساس رئاسة مجلس الوزراء التي تلي السلطان، وشيخ الأزهر في السلطة والنفوذ، وكان يعبر عن شاغلها باسم (الصدر الأعظم). كان كثير من هؤلاء الصدور العظام يُختارون من سوريا أو بغداد، ولعلَّ آل العابد وآل العظم هم في طليعة من اعتلى تلك المناصب من العرب.

«التتريك» وما حَمَلَه من أوزار:

بدأت تلك المضايقات، والإساءة إلى العرب، ببروز نغمة منبوذة، عُرفت باسم (التتريك)، أي أن تجبر جميع العناصر غير التركية أن تجيد اللغة التركية، ثم أتبع ذلك الشروع في تقليص النفوذ العربي، وإبعاده بالتدريج عن مناصب الدولة ومراكز الإدارة العليا، ونتج عن ذلك أن تنادى الأحرار من أبناء الأمة العربية، فأقاموا عدة جمعيات، أخذت على عاتقها تجميع الجهود العربية وتكتيلها، وإنشاء صحف تنطق بلسانها، لتكافح بها نغمة التتريك الطورانية.

جمال باشا السفاح:

نتيجةً لذلك بدأ الانشقاق والشك بين عناصر الامبراطورية، وبالدرجة الأولى بين العرب والأتراك، فقد أخذ كل فريق ينظر إلى الآخر نظرة الشك والريبة، ونتج عن ذلك أن عُيِّن المدعو جمال باشا، عرف فيما بعد بلقب السفاح، عُيِّن والياً على ولاية سوريا ولبنان، أي حاكماً عسكرياً، فما كاد هذا الرجل تطأ قدماه أرض البلاد العربية حتى بثَّ الجواسيس في كل رقعة وزاوية، يحصي على الناس أنفاسهم، ويُنزِل أشدَّ العقاب على أتفه الأسباب.

مقاومة الأحرار:

كان هناك صفوة من شباب العرب ومثقفيهم، بعضهم تحصَّل على شهادات عُليا من معاهد إسطنبول العسكرية، وبعضهم نال شهاداته العليا من

أعلى جامعات الغرب: كالسوربون في فرنسا، وكجامعة برلين في ألمانيا، وكجامعة كمبردج في بريطانيا. أثارت هؤلاء الأحرار رعونة هذا القائد التركي الأحمق وغطرسته وغروره، واستفزَّهم ما تلاقيه أمتهم من هوان وذل وعَنَتٍ وإرهاق على يد هذا الوالي الجبار، مما جعلهم يُسرِعون إلى نشر حماقات هذا القائد في صحف الغرب، خاصةً في باريس ولندن وروما، ينددون بحماقاته، ويفضحون جرائمه وبطشه، فأحنقه ذلك وأغاظه، فجنَّد المئات من الجواسيس والأذناب، لكي يتتبعوا هؤلاء الأحرار، ويحصوا عليهم أنفاسهم ويرفعوها يومياً له. وكانت نتيجة ذلك أن أصدر أوامره بالقبض على هؤلاء الأحرار، وزجَّهم في سجون دمشق وحلب وبغداد وبيروت، بدعوى الاتصال بالسفارات الأجنبية، خاصة سفارة فرنسا، ثم أنشأ محكمةً عسكريةً لمحاكمتهم بتهمة أنهم على صلة بدول الغرب، التي تحارب دولتهم تركيا، وأنهم يعملون جواسيس لحساب تلك الدول.

المحكمة العسكرية الاستثنائية بعاليه:

عُقدت المحكمة العسكرية الاستثنائية في مدينة عالِيهْ في لبنان، بعد أن تَمَّ جمع أولئك الأحرار من مختلف المدن، جيء بهم مكبَّلين بالأغلال والقيود حيث تعقد تلك المحكمة، ومن الواضح أنَّ هذه المحكمة هي محكمة صورية، وأنَّ أحكامها قد أُعِدَّت سلفاً، قبل أن يتم تكوينها بدليل، أنها لم تمض عليها عدة أسابيع حتى أصدرت أحكامها، وهي تقضي بالإعدام.

أعواد المشانق في ساحة البرج والمرجة:

وفي يوم واحد نُصبت أعواد المشانق في ساحة البرج في بيروت ومثلها في ساحة المرجة في دمشق، وإذا بأهالي دمشق وبيروت يجدون في صباح اليوم التالي أحرار الأمة العربية ومفكريها مدلاة أعناقهم على حبال المشانق في هاتين الساحتين، كان عددهم يتراوح، على ما أذكر، بين عشرة إلى خمسة عشر شهيداً في ساحة دمشق، ومثل هذا العدد ـ إن لم تخني الذاكرة ـ في ساحة البرج في بيروت، وقد عُرفت فيما بعد بساحة الشهداء.

بريطانيا تخطط مع حلفائها للإجهاز على «الرجل المريض»:

كانت أخبار هذه المجازر قد انتشرت في طول البلاد العربية وعرضها انتشار النار بالهشيم، فتنادى الأحرار من أبناء الأمة الذين قُدِّر لهم الإفلات من قبضة هذه الطاغية، فأخذوا يعقدون الاجتماعات السرية بصورة تكاد تكون متواصلة، وفي منأى عن عيون الرقباء والجواسيس، يتبادلون الرأي ويتشاورون، ويكاتبون إخوانهم في سائر المدن العربية الأخرى بحثاً عن الوصول إلى الطريقة التي تمكِّنهم من كسر هذا الطوق التركي ورَفعه عن أعناقهم ومقاومته وطرده من بلادهم.

هروب الشريف فيصل بن الحسين من قبضة جمال باشا السفاح:

ولما كان شريف مكة الحسين بن علي هو أبرز الشخصيات العربية في الساحة العثمانية آنذاك وأوسعها شهرة، فقد كان أولئك الأحرار يتبادلون معه الرسائل، ويتبادلون معه الرأي والمشورة، ومن الموافقات الغريبة أن كان ابنه الأوسط ـ فيصل ـ الذي نصب بعد ذلك ملكاً للعراق، كان آنذاك موجوداً في سوريا، وقد حرص جمال باشا على القبض عليه بأيِّ وسيلة كانت بَيْد أنَّ الشباب العرب المعادين للترك قد أحسُّوا بالخطر المحدق به من المؤامرة التي يحيكها له هذا القائد للقبض عليه وإعدامه، فأسرعوا إليه حيث كان يقيم آنذاك في أحد فنادق دمشق في منتصف الليل، وأيقظوه من نومه، وطلبوا منه مغادرة الفندق فوراً.

توجَّه من فوره متجهاً على حصان أُعِدَّ له إلى جهة الشرق تاركاً سوريا خلفه. وقد أُسقط بيد هذا الطاغية؛ لأنَّ ضباطه الذين أرسلهم صبيحة ذلك اليوم، ليقبضوا عليه ويحضروه معهم، لم يعثروا عليه في الفندق ولم يعرفوا إلى أين اتجه. واصل الأمير فيصل بن الحسين سَيْره حثيثاً لم يتوقف قط إلى أن وصل مكة المكرمة.

كيد بريطانيا لفصل العرب عن الدولة العثمانية:

كانت بريطانيا تراقب عن كثب هذا الانشقاق، أو العداء الصريح الذي

نشأ بين تركيا والعرب، بواسطة جواسيسها وعيونها في المنطقة العربية من جهة، وبما تنشره صحافة الغرب عن فظائع جمال باشا في سوريا ولبنان من جهة ثانية، فوجدت في هذا الوضع فرصةً ذهبيةً لها، فتستطيع أن تتخذ من هذه الفجوة وسيلةً لفصل العرب عن جسم الإمبراطورية العثمانية، وذلك بالتلويح للعرب، وإغرائهم بأنها في حالة قيامهم بثورة ضد تركيا، وانضمامهم إلى بريطانيا وفرنسا في الحرب، فإنها ستمدُّهم بجميع العتاد والأسلحة والأموال التي تمكنهم من القيام بهذه الثورة، مضافاً إلى ذلك أنها تتعهد لهم بأن تنشىء لهم دولة عربية مستقلة تُحد شمالاً بجبال طوروس، وجنوباً بالبحر العربي، أي أن سوريا ولبنان والعراق والجزيرة العربية كلها تكون دولة عربية موحَّدة، تحت قيادة الشريف حسين.

كان ذلك مجمل ما كان يدور في كواليس وزارة الخارجية البريطانية ولكن كيف يتم التفاهم مع العرب، وإبلاغهم هذه الأمنيات؟

اختيار الشريف حسين:

كان الشريف حسين أمير مكة أبرز الشخصيات في العالم العربي، وأوسعها شهرة. وكان ابنه عبدالله يمر بمصر مرتين كل عام عند ذهابه لحضور مجلس المبعوثان نائباً عن مكة والحجاز، وحين عودته منها.

كان المقيم البريطاني في القاهرة آنذاك السير هنري ماكماهون، ويعمل لديه مجموعة ضخمة من المثقفين من أبناء العرب وغيرهم، وكلهم متخصصون في أداء مهمات سرية على جانب عظيم من الأهمية، أوعز إلى أحدهم بأن ينتهز فرصة حضور الأمير عبدالله عند مروره بالقاهرة، وأن يبذل قصارى جهده في محاولة الاتصال به، ودعوته إلى الغداء والعشاء، ومن ثَمَّ طَرْح ما ينشر في صحف الغرب من فظائع رجال الحكم في تركيا، وواليهم على سوريا ولبنان جمال باشا السفاح من فظائع يلحقونها بالعرب، واستثارة نخوته، ثم التلويح له عما إذ كان العرب مستعدون بأن يثأروا لكرامتهم متى وجد من يساندهم، ويقف بجانبهم، ويوفِّر لهم وسائل الدفاع عن أنفسهم.

لقاء الأمير عبدالله بالمقيم البريطاني ماكماهون:

دار الحديث بين الرجلين ووجد مبعوث المقيم البريطاني استعداداً، ورغبةً واضحة من الأمير عبدالله للعرض الذي لمح عنه المبعوث، وهنا اتفقا على اجتماع آخر بين الرجلين، وكان الأمير عبدالله آنذاك في طريق عودته إلى مكة.

في الاجتماع الثاني أوضح المبعوث للأمير عبدالله أنَّ ما كان حديثه معه بالأمس هو اتجاه رسمي من الحكومة البريطانية، وأن المقيم البريطاني مستعد بأن يزوده بكتاب رسمي تحت توقيعه باسم دولة بريطانيا، يعرضه على والده يستطلع رأيه في موضوعه، وفي حالة الموافقة يحضر معه في المرة القادمة كتاباً رسمياً من والده، وتتم المراسلات بعد ذلك، وتحدد الشروط الواجب السير عليها. والتقيد بها من كلا الجانبين، وفعلاً تمَّ ذلك.

المراسلات بين الشريف حسين وماكماهون:

عُرض الكتاب على الحسين فوافق عليه، لأن هذا يمكِّنه من الثورة على الأتراك، وطردهم من المنطقة العربية. سُلِّم الكتاب للمقيم البريطاني السير ماكماهون، وعلى أثر ذلك أخذت المراسلات الرسمية تتم بصورة مستمرة بين مكة والقاهرة، يحملها مبعوثون سريون، لا يعلم بهم أحد من كلا الطرفين، وهذه الرسائل المتبادلة بنصوصها الكاملة موجودة في كتاب أمين سعيد المعنون باسم «الثورة العربية».

ساعة الصفر:

تَمَّت الترتيبات، ووصلت الذخائر والأسلحة والأموال عن طريق جدة إلى مكة، وتحددت ساعة الصفر في فجر يوم خمسة عشر من شعبان من عام ١٣٣٥هـ ويوافق العام الثالث من قيام الحرب العالمية تقريباً. وكانت ساعة الصفر هي:

النواة الأولى للدولة العربية:

في فجر ذلك اليوم، وكان الحسين بن علي آنذاك يقيم في بيت زوجته أم زيد في محلة الغَزَّة في مكة، يقوم بالوقوف في شرفة منزله رافعاً يده اليمنى في الهواء، مُمْسكاً بمسدس تنطلق منه عدة طلقات في الفضاء، وهذه إشارة البدء بالهجوم على المخافر التركية، وتجريد الجنود الموجودين فيها من سلاحهم، وقد تمَّ ذلك، ولم تحدث إلا مقاومة محدودة من بعض القلاع، ثم استسلمت جميع الحاميات التركية في مختلف المدن الحجازية، وما كاد النبأ يعلن، وتناقلته وكالات الأنباء في أنحاء العالم حتى هبَّ أبناء الأمة العربية على مختلف مستوياتهم، سواء من العسكريين الذين يحملون أعلى الرتب العسكرية في الجيش العثماني، أو من العلماء والمثقفين، الذين نالوا ثقافات عالية من جامعات الغرب، هبَّ هؤلاء وهؤلاء متَّجهين إلى مكة، مكوِّنين النواة الأولى للدولة العربية الوليدة التي ولدت في أحضان مكة، بقيادة مفجِّر الثورة زعيم الأمة العربية آنذاك الحسين بن علي.

أفول شمس دولة الأتراك عن جزيرة العرب:

قامت الدولة في مكة، وأخذت دورها التنظيمي، وزعت فيها المسؤوليات على وزارات متعددة، وأُعلن الشريف حسين ملكاً على البلاد العربية.

صفوة رجال الأمة العربية:

كان من ضمن الشخصيات البارزة التي قدمت إلى مكة، سواء كان من المدنيين أو من العسكريين ممن كانوا هم صفوة رجال الأمة العربية في ذلك الوقت، من العسكريين: طه الهاشمي، وياسين الهاشمي، وجعفر العسكري، وحيدر رستم، وغيرهم كثيرون من القادة العسكريين البارزين، ومن المدنيين: فؤاد باشا الخطيب، الشاعر المعروف الذي أسندت إليه وزارة الخارجية، وساطع الحصري، وغيرهم من الشخصيات المدنية البارزة في المجتمع العربي آنذاك، والذين لا تحضرني أسماؤهم الآن، كانت الأمة

العربية، وخاصةً في الحجاز، في عرس وطني، حفل بمعالم الزينة ومعالم الأفراح.

كان في الحجاز موظفون أتراك منهم مدنيون في وظائف الدولة، ومنهم القادة والجنود العسكريون، الذين كانوا يشغلون القلاع الموجودة في كلٍ من مكة المكرمة والطائف والمدينة وجدة.

كان أوار الحرب يزداد يوماً بعد يوم، فاستسلم الأتراك مدنيون وعسكريون، في كل من الطائف وجدة ومكة، ورحلوا جماعات جماعات بحالة مهينة من الذل والانكسار، فنقلوا عن طريق ميناء جدَّة على البواخر الحربية التي كانت موجودة آنذاك تابعة للحلفاء، نقلوا أسرى حرب.

صمود فخري باشا والي المدينة المنورة:

أما المدينة المنورة فقد ظلت صامدةً تقاوم بقيادة واليها البطل التركي فخري باشا، ظلت تقاوم طيلة أيام الحرب، ولم تستسلم لجنود حكومة الشريف حسين وحلفائها الإنكليز إلا بعد أن أعلنت الهدنة، وإيقاف الحرب في عام ١٩١٨م وبعد أن تلقى قائدها فخري باشا الأمر من العاصمة اسطنبول بضرورة التسليم لحكومة الحسين.

الأسرى الأتراك:

كانت مناظر الأسرى الأتراك وهم يجتازون شوارع جدة، ذكوراً وإناثاً وأطفالاً على هيئة قوافل متلاحقة، منكسي الرؤوس، منظراً مزرياً، يثير في النفس كوامن الأسى والحزن، فهؤلاء كانوا لمدة قرابة خمسة قرون يمثلون دولةً كانت فخراً للإسلام، ومناراً لِعزَّته، كان سلاطينها العظام يقضون السنوات الطوال في ساحات القتال، وميادين الحروب، على بطاح البلقان، وساحات أوروبا، حتى استطاعوا أن يمدوا حدود الدولة الإسلامية إلى أطراف ڤينا العاصمة النمساوية، وقد سقط أكثر من سلطان من هؤلاء شهيداً في ساحات القتال في تلك الربوع.

من فضائل الدولة العثمانية:

كان منظر هؤلاء موجعاً ومُحزناً لكل مؤمن يحس بعمق الفاجعة، إذ لو لم يكن لدولتهم من الفضائل إلا أنَّ المسلم فيها كان يتجه من مشرق العالم العربي إلى مغربه دون أن يُعْتَرض أو يُسأل، لا حدود ولا تقسيمات، ولا مجال للعنت أو التفتيش أو الإرهاق أو التكليف بدفع رسوم تختلق لها شتى المسميات.

كان الفرد العربي، سواء كان مسلماً أو غير مسلم، يتجول في أرض العراق كما يتجول في سوريا ولبنان وشبه الجزيرة بأكملها ومصر وتونس والجزائر والمغرب، هويته انتماؤه لدولة الخلافة في إسطنبول.

أمةٌ حمت الإسلام، ودافعت عنه زُهاء خمسة قرون، رفعت رايته خفاقة على الكثير الكثير من معاقل أوروبا وحصونها: ما كان يجب أن يعامل أبناؤها بهذا الشكل المهين، متى علمنا أنَّ الكثير من السفهاء، ومن الرعاع، وخاصةً في جدة، كانوا يقذفون هؤلاء، أثناء سيرهم على الأقدام طوابير طوابير، بالطماطم والبيض، ويسمعونهم أقذع عبارات الإهانة والتحقير، وأحطها، كما يروي ذلك الكثيرون ممن شهدوا تلك الأحداث.

خط الحجاز الحديدي:

كان الحجاز آنذاك يرتبط بعاصمة الخلافة إسطنبول بخط حديدي يبدأ من إسطنبول وينتهي بالمدينة المنورة، مروراً بالأناضول فسوريا فالأردن فعمان فتبوك فالعلا فالمدينة المنورة.

كان هذا الخط الحديدي رمزاً صادقاً، يمثل وحدة الأمة الإسلامية في مختلف بقاعها، فكان إنشاؤه ثمرةً للجهود الخيِّرة المخلصة التي بذلها السلطان عبدالحميد العثماني، الذي دام حكمه أكثر من اثنين وثلاثين عاماً، لفكرةٍ كان مقتنعاً بها، وبذل في سبيل تحقيقها جهوداً مضنيةً، تلك الفكرة هي ربط العالم الإسلامي في خطوط حديدية تربط أجزاءَهُ المتباعدة بعاصمة الخلافة إسطنبول، لتنشيط التجارة، وتيسير الاتصال، وسرعة المواصلات.

زيارة غليوم الثاني عاصمة الخلافة الإسلامية:

كان السلطان عبدالحميد يرتبط بعلاقة وِدٍ حميمة مع قيصر الألمان غليوم الثاني، وكان ذلك في حدود نهاية القرن الثامن عشر ويرأس أقوى دولة عسكرية في أوروبا، وكان من نتيجة هذا الود المتبادل بين العاهلين أن زار القيصر الألماني غليوم عاصمة الخلافة الإسلامية إسطنبول، فلقي من مظاهر التكريم والاحتفاء من حكومة السلطان، ما يفوق الوصف، وما أوغر صدور الإنكليز وخلفائهم على الدولة العثمانية.

كان السلطان عبدالحميد قد عرض فكرته هذه على القيصر غليوم، عندما كان في استضافته في إسطنبول، فأيّدها وشجَّعها وأعلن كامل استعداد حكومته بأن تتولّى بواسطة مهندسيها وخبرائها إنشاء هذا الخط وإبرازه إلى حيِّز الوجود.

دعوة للتبرعات لدعم خط الحجاز الحديدي:

وعلى إثر ذلك أعلن السلطان عبدالحميد بياناً وُجِّه إلى المسلمين أينما كانوا عن فكرته لإنشاء هذا الخط، معلناً أنه سيكون خطاً إسلامياً يمتد إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة؛ لكي يسهل لهم مهمة الوصول إلى هذه الأماكن، وطالباً منهم ـ أنه من أجل ذلك، ومن أجل أن يكون وقفاً إسلامياً، يملكه المسلمون كافةً ـ التبرعات، مهما كانت ضئيلة، من الرجال والنساء والأطفال، أغنياء وفقراء، كلٌّ بحسب مقدرته واستطاعته.

وقد كان لهذا النداء في نفوس المسلمين كافة وقع هزَّ مشاعرهم، وأثار في أعماق نفوسهم الحرص على دينهم، والرغبة في إبراز تعاطفهم وانتمائهم، ليثبتوا للعالم أجمع مدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾.

أيادي المحسنين:

انهالت التبرعات من أعماق آسيا، ومن جزر المحيط، ومن أوروبا وأفريقيا، ومن جزائر البحار، ومن كل مكان يوجد به مسلم، هذه امرأة تتبرع بخاتمها الذهبي، وتلك تتبرَّع بسوارها الفضي، وهذا شيخ يتبرَّع بمبلغ

ضئيل، وهذا يتبرع بأقمشة جديدة، أو أي شيء يكون ذو قيمة.

كانت التبرعات تنهال من مختلف الأنحاء إلى إسطنبول حيث تستقبلها لجنة بل عدة لجان، أُنشئت لاستقبال هذه التبرعات، وبيع ما يستحق البيع منها، وتوحيد الجميع في صندوق خاص باسم مشروع الخط الحديدي الحجازي، وخلال ذلك كانت تتوالى على إسطنبول مقادير ضخمة من المعدات وآلات الحفر ومجموعات ضخمة من الخبراء والمهندسين الذين باشروا العمل فوراً بإنشاء الخط بدءاً من إسطنبول.

إكمال خط الحجاز الحديدي:

أنشىء هذا الخط على أحدث ما يكون، مستوفياً لأدق ما وصل إليه الفن الهندسي آنذاك في إنشاء الطرق الحديدية، وشهرة الألمان وخبرتهم في عالم الهندسة والتنظيم والإبداع في العمل غنية عن الشرح.

وقد تمَّ إكمال هذا الخط في مستهل عام ١٩٠٨م، فوصل آنذاك إلى المدينة المنورة، وكانت النية أن يستمر العمل حتى يصل مكة المكرمة، ثم يتجه شرقاً مروراً بالطائف، نحو الشمال الشرقي مخترقاً قلب نجد حتى يصل إلى البصرة في الشمال الشرقي.

انخراط المتطوعين في الجيش العثماني:

كان الخط الحديدي هذا خلال بدء الحرب العالمية الأولى، يعمل يومياً ما بين المدينة المنورة والعاصمة إسطنبول، وقد كانت الحاجة إليه ماسةً جداً، لاستخدامه في نقل المجاهدين والمتطوِّعين الذين يرغبون الانخراط في الجيش العثماني، سواء كانوا من أفراد القبائل العربية المنتشرة في داخل الجزيرة، أو من المناطق المحاذية لهذا الخط على طول امتداده أو من المتطوِّعين الآخرين الذين يرون الدفاع عن الإسلام ممثلاً في الدفاع عن دولة الخلافة واجباً دينياً مقدَّساً، لأنه جهاد في سبيل الله، ونصرة العقيدة، بينما يقوم هذا الخط في الوقت نفسه بإمداد الحاميات الممتدة ما بين إسطنبول والحجاز بالمؤن والسلاح والذخيرة.

بذل الإنكليز جهودهم لتدمير خط الحجاز الحديدي:

كان هدف الإنكليز الأول بعد إعلان الشريف الحسين الثورة على الأتراك، بذل كل جهد ممكن لتخريب هذا الخط وإيقافه عن العمل، فهو بمثابة الشريان الوريدي ما بين العاصمة والولايات العربية التابعة لها. لذلك بادروا فوراً بشحن السلاح والأموال ومعدات التفجير إلى الحجاز عن طريق ميناء جدة وميناء ينبع وبقية الموانىء الأخرى الشمالية، كما بعثوا بالخبراء والمدربين، وأنشؤوا جيشاً عربياً أسندوا قيادته إلى الرجل الثاني من أبناء الملك حسين، وهو فيصل بن الحسين، الذي نُصِّب بعد ذلك ملكاً على سوريا ثم ملكاً على العراق، بعد أن أخرجه الفرنسيون من سوريا.

لورانس العرب:

كان من ضمن الخبراء والمدربين الذين بعثتهم بريطانيا إلى الحجاز شاب بريطاني يدعى لورنس، كان متخصِّصاً في وضع المتفجرات، ونسف القُطُر الحديدية ومنشآتها، وفي الوقت نفسه كان ممثلاً لبريطانيا في قيادة الأمير فيصل، يسير معه حيثما اتجَّه، يتولَّى جلب ما يحتاج إليه هذا الجيش من أسلحة وعتاد من بريطانيا، كما يتولى استقبال صناديق الذهب التي تبعثها بريطانيا لتمويل ذلك الجيش واستلامها، واجتذاب رؤساء القبائل ومشايخها للانضمام إلى هذا الجيش، وذلك بإغراقهم بالجنيهات الذهبية التي كانت ترد باستمرار ضمن صناديق عديدة مغلقة، كانت تُسلم إلى لورنس في المخيم الذي يقيمون فيه، توضع هذه الصناديق بعضها فوق بعض، ويكون رؤساء القبائل قد دُعوا من قبل الأمير فيصل لملاقاته وتداول الرأي معهم ومعرفة ما يستطيعون تقديمه لهذا الجيش من أفراد قبائلهم.

إغراء رؤساء القبائل:

كان لورنس يؤتى إليه بالصندوق الذهب، فيكسر غلاقه ويصب ما بداخله على بساط أو نحوه عل مشهد من مشايخ القبائل ورؤسائها، ثم يملأ يديه ويعطي كل فرد منهم من هذا الذهب بدون عدد، وكان لهذا التصرُّف

- كما يقول الرواة - أثره البالغ في جلب الألوف من أفراد هذه القبائل، والانضمام لهذا الجيش، ومع ذلك فقد بقي الكثيرون من أفراد تلك القبائل ثابتين على ولائهم لدولة الخلافة، ضاربين بإغراء هذا الذهب عرض الحائط.

فصل المدينة المنوَّرة عن إسطنبول:

دارت الحرب برحاها الطاحنة، وكان لورنس هذا، ومن استطاع تدريبهم على التخريب والتفجير، وقد استطاعوا نتيجةً لنسف قضبان السكة الحديدية أن يفصلوا المدينة المنورة عن العاصمة العثمانية إسطنبول، وهكذا استمرت الحرب ببطء وشراسة، فما يكاد المخرِّبون ينسفون الخط حتى تقوم فرق المهندسين وبواسطة أفراد القبائل أيضاً، الذين ظلوا على ولائهم لدولة الخلافة، يقومون بإصلاحه.

اتفاقية سايكس بيكو:

ظلت الحرب شرسة وقاسية وبطيئة بين الأمير فيصل وحلفائه الإنكليز من جهة، وبين الخلافة العثمانية من جهة أخرى.

كانت الإمدادات تتوالى باستمرار من إسطنبول محمَّلة على الخط الحديدي ممثلة في العتاد والجنود والمؤن لتعزيز المدن والمراكز الحكومية الواقعة على امتداد الخط، وكثيراً ما يحدث نسف القطار ومن فيه من ركاب.

اقتسام أملاك الرجل المريض:

خلال تلك الفترة كان المتحاربان فَرَسَيْ رهان، بريطانيا وفرنسا وروسيا، ومن يدور بفلكهما من دول من جهة، وبين ألمانيا والنمسا والدولة العثمانية من جهة أخرى، وخلال عام ١٩١٦م من الحرب كانت المساومات تتم بين باريس ولندن على كيفية اقتسام أملاك الرجل المريض، أعني الدولة العثمانية، كما كان يطلق عليها من قبل أعدائها آنذاك.

وتحقيقاً لذلك اجتمع كل من المستر سايكس والمسيو بيكو ممثلين

لبريطانيا وفرنسا، واتفقا بصورة سرية على تقسيم البلاد العربية بين الدولتين وتكون العراق وفلسطين ومصر من نصيب بريطانيا، وسوريا ولبنان من نصيب فرنسا.

تمَّ الاتفاق بين الدولتين على هذا التقسيم، ونظمت به معاهدة عرفت بمعاهدة (سايكس بيكو)، ولما كانت روسيا القيصرية آنذاك حليفة للدولتين ومُطَّلعة على ما يدور خلف الكواليس، فقد كان على الدولتين أعني فرنسا وبريطانيا أن تزودا الخارجية الروسية بنسخة من تلك المعاهدة.

مقالات الشريف حسين في جريدة القبلة:

كان الملك حسين بن علي مقيماً في مكة، وكان يؤمِّل أن توحَّد البلاد العربية جميعها تحت تاج واحد يكون هو حامله، وكان يدبج المقالات في جريدة القبلة، التي كانت لسان حال الدولة العربية الوليدة في مكة المكرمة، كان في هذه المقالات مدح لبريطانيا العظمى الدولة الصديقة الوفية التي تقف بجوار الأمة العربية، وتبذل المال والسلاح من أجل أن تخلص الأمة العربية من ربقة الاستعمار التركي، كما كانت تَدَّعي بريطانيا.

انكشاف الخديعة البريطانية:

كان الحسين يُكيل المديح لبريطانيا بدون حساب ـ ولم يدر بخلده أنه وهو يكيل هذا المديح قد وجهت من خلف ظهره خناجر مسمومة تمزق أجزاء الأمة العربية، وتقدمها هدية سائغة لأطماع الإنكليز والفرنسيين.

ظلت أحلام الشريف حسين الذهبية تراوده، كما ذكرنا وبقي يترقب اليوم الذي تنتهي فيه الحرب، ويصبح ملكاً للأمة العربية، ولكن وكما يقول المتنبي: «تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن».

الثورة البلشفية:

ما كاد عام ١٩١٧م ينتصف حتى تفجَّرت الثورة في عاصمة روسيا القيصرية بطرسبورج على يد الثوار البلاشفة، وإذا بالقيصر نقولا الثاني والقيصرة زوجته، وكثير من أفراد الأسرة، يساقون إلى الإعدام في ساحة

بطرسبورج، وإذا الثوار يعلنون دولتهم البلشفية، وإنهاء الحكم القيصري من روسيا إلى الأبد، معلنين في الوقت نفسه انسحابهم من الحرب، ومن الواضح أنَّ رجال الثورة، لينين وتورتسكي وزملاءَهما على عداء سافر مع دول الحلف بريطانيا وحلفائها فهؤلاء الثوار على طرفي نقيض مع نظم الحكم التي تسير عليها الدولتان فرنسا وبريطانيا، ولذا فقد عزم هؤلاء الثوار على أن يكيدوا لهاتين الدولتين ويلحقوا بهما أفظع الضرر ما استطاعوا.

وكان من ضمن ذلك أن نشروا جميع الوثائق السرية المتوفرة في وزارة الخارجية في روسيا القيصرية. كان أول ما فعلوه أن نشروا على العالم أجمع تلك الوثيقة السرية التي أبرمها البريطانيون والفرنسيون بشأن تقاسم البلاد العربية عند نهاية الحرب، أعني بها: معاهدة (سايكس بيكو).

هول الصدمة وفداحة الغدر:

صُعق الملك حسين من هول الصدمة، وفداحة الغدر، الذي بيَّته له حلفاؤه الإنكليز وحلفاؤهم، في الوقت الذي ينشرون في صحفهم، ووسائل إعلامهم، أنهم الأوفياء المخلصون للأمة العربية، وأنهم لم يبذلوا المال والسلاح والرجال إلا رغبة في تمكين العرب من توحيد بلادهم، وتمكينهم من قيام دولة عتيدة، تمثِّل كافة الأقطار العربية. كانوا يكيلون للحسين المدح والثناء، ويصفونه بالمنقذ للعرب، كما يزعمون، من ربقة الاستعمار التركي. صُعق الحسين وعضَّ على أنامله ندماً على ما فعل، ولكن هيهات هيهات لقد سبق السيف العذل.

استمرت الحرب، وكان جيش الشريف يتضاعف عدده تدريجاً أشبه بكرة الثلج المتدحرجة فوق أكوام الثلوج، كلما طالت أيام الحرب. كانت القلاع والحصون التركية تتساقط الواحدة تلو الأخرى، بعد أن قامت بأشرس وأعنف البطولات دفاعاً عن دولتها، وحفاظاً على دينها، ولكن كما هي سنة الحياة، وكما يقول المثل: «الكثرة تغلب الشجاعة» فما بالك إذا كانت أكداس الأسلحة والعتاد وصناديق الذهب الإبريز، تتوالى باستمرار على جبهة هذا الجيش.

الجيش العربي بقيادة الأمير فيصل:

سار جيش الثورة العربية بقيادة الأمير فيصل بن الحسين ومرافقه البريطاني «لورنس» في زحفه البطيء، حتى وصل الأراضي الأردنية؛ وإذ ذاك التقى بالجيش الإنكليزي القادم من مصر بقيادة اللورد اللنبي، فاندمج الجيشان في جيش واحد واقعياً، وإن كان اسمياً جيش الأمير فيصل يسمى بالجيش العربي.

دخول اللورد اللنبي إلى دمشق:

دخل الجيش الموحَّد إلى سوريا، وبَسَط نفوذه عليها، وكان ذلك في العام الثامن عشر بعد التسعمائة والألف ميلادي، وقد اغتنم هذا اللورد الحاقد كما تقول الروايات دخوله دمشق، فأسرع إلى قبر البطل الإسلامي المعروف، الذي يقع على بعد بضعة أمتار من الشمال الغربي للمسجد الأموي، وأعني به قبر الناصر لدين الله السلطان صلاح الدين الأيوبي، واقفاً أمام القبر ومعلناً بشماتة: «ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين»(١).

صلاح الدين الأيوبي في مواجهة الصليبيين:

وقد نسبت روايات كثيرة هذا القول إلى الجنرال الفرنسي غورو، وعلى كلٍّ فأيّاً من القائدين صدرت هذه المقولة منه، إنما تُعطي التأكيد الجازم على الحقد المتمكن في نفوس الغربيين على الإسلام والمسلمين، وعلى هذا البطل الذي هو صورة صادقة للإسلام، والذي قارعهم في ميادين القتال، وساحات المعارك، مُمرِّغاً أنوفهم في التراب، ومُلحقاً بهم أقسى الهزائم، وأنكى الإذلال، وقد استطاع في نهاية الأمر أن يجتثَّ جذورهم في

---

(١) يوجد بجوار قبر صلاح الدين حالياً تابوت من الرخام الجميل المميّز ملاصقاً للتابوت الموضوع على قبر صلاح الدين، وهذا التابوت هو هدية من قيصر ألمانيا خلال زيارته العتيدة لدمشق التي سبق أن ذكرناها في عهد السلطان عبد الحميد، وذلك رمز إعجاب وتقدير من هذا القيصر لبطولة السلطان صلاح الدين.

معركة حطين الخالدة، وأعقبها بتقويض ممالكهم ودويلاتهم في المنطقة الغربية بأكملها، وطردهم من بيت المقدس، أذلاء مدحورين، بعد أن مكث مسجد القدس أسيراً مكبَّلاً بالأغلال تحت أيديهم قرابة إحدى وتسعين عاماً، ابتدؤوه بالمجزرة الرهيبة التي سجلتها أيديهم المجرمة في ساحة الأقصى، التي جعلوها بركةً من الدماء المسلمة، فقضوا على أكثر من سبعين ألف مسلم ما بين شيخٍ طاعن في السن، وطفل رضيع، حتى أصبحت تلك المذبحة، وستبقى وصمةً في جبين دول الغرب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، كما ستبقى أيضاً المعاملة الانسانية الكريمة التي عامل بها السلطان البطل سكان القدس من المسيحيين، حينما انقادوا صاغرين بتسليم مفاتيح المدينة له، فلم يُرِق نقطةَ دم واحدة، بل شملهم بعطفه، واكتفى منهم بجزية رمزية هي دينار أو دينارين على القادرين مع إعفاء الفقراء ممن لا يقدرون على دفع هذا المبلغ، مضيفاً إلى شهامته وخلقه الإسلامي الرفيع، أن أمر بترحيل العاجزين من المسيحيين إلى مدينة صور وعكا إلى بلادهم على نفقته.

وهنا تبرز المقارنة بين سماحة الإسلام وحقد المسيحية.

الخطوط العريضة للثورة العربية الكبرىٰ:

وبما أنَّ ما أعقب دخول الجيش العربي والإنكليزي أرض سوريا ولبنان من أحداث يطول شرحها، فإننا نكتفي بهذه الخطوط العريضة التي ذكرناها، وعلى من يرغب معرفة التفاصيل أن يرجع إليها في عشرات الكتب التي أُلفت بعد الحرب، والتي اشتملت على أدق التفاصيل، ولعلَّ في مقدمة هذه الكتب كتب أمين سعيد التي أصدرها بعنوان «الثورة العربية الكبرى» وغيرها من عشرات الكتب.

العميل الإنكليزي عودة أبو تايه:

على أننا نرى من المناسب أن نشير إلى شخصية بَرَزت أثناء تلك الحرب ضمن الجيش الذي كان يقوده الأمير فيصل، كان لها دورٌ بارز

تَحَدَّثَت عنه وسائل الإعلام آنذاك، وأعني به زعيم إحدى القبائل العربية المتواجدة على أرض الأردن، وهو المدعو (عودة أبو تايه)، هذا الرجل الذي بذل أقصى جهده في الانتقام من الأتراك، إرضاءً لأسياده الإنكليز الذين رفعوا مكانته اعترافاً بنشاطه وإخلاصاً له، وأغرقوه بصناديق الذهب، وعلى من يرغب معرفة تفاصيل ذلك أن يرجع إلى كتاب (أعمدة الحكمة السبعة) الذي أصدره «لورنس»، وهو عبارة عن يوميات لتلك الحرب، منذ بدأ الجيش العربي زحفه من المدينة المنورة إلى وصوله دمشق، ففي هذا الكتاب التفصيل الكافي لإرواء عطش كلِّ تواق إلى المعرفة.

شخصية الشريف حسين:

أما وقد جرَّنا تَسَلْسُل الأحداث إلى السيَّر مع مجريات الحرب الأولى، متَّبعين في سردها خطوطاً رئيسة عامة، لأننا نستعرض أحداثها من الذاكرة ليس إلا، وقد جرَّنا البحث إلى الحديث عن مفجِّر الثورة العربية الحسين بن علي - كما يوصف آنذاك - فإنه من المناسب أن نضع خطوطاً رئيسةً لشخصية ذلك القائد العربي، الذي تميَّز بها وعرفت عنه.

يمتاز الحسين بن علي بحدة الذكاء، وبالحرص الشديد على التمسُّك بجميع موروثات الأمة العربية، من شهامة وكرم وطهارة أخلاق، وقد أجمع الرواة عنه أنه كان طاهر الثوب واليد، حريصاً على الأخلاق التي تنأى بصاحبها عن السفاسف والدنايا، تولَّى أمر الحجاز بعد أن قوّض دعائم الحكم العثماني وأصبح وحده صاحب الأمر والنهي بالحجاز، بادر فوراً إلى تنقية بعض مدن الحجاز وتطهيرها، وأخص منها مدينة جدة بالذات، تطهيرها مما كان موجوداً فيها من دورٍ للبغاء، كانت موجودة بصفة علنية في منطقة حارة اليمن، وفي السوق المسمَّى سوق الذهب آنذاك، وهو السوق الملاصق لشارع قابل من جهة الشمال، وهو يتفرَّع من سوق الحراج المعروف آنذاك، فأغلق تلك الدور والمواخير دفعةً واحدةً، ورحَّل من كان فيها خارج البلاد، واتخذ أقصى العقوبات بحق من يزاول تلك المهن، كما أوضح ذلك المرحوم حسين محمد حسين نصيف في كتابه «ماضي الحجاز

وحاضره» وقد احتوى بالإضافة إلى ذلك معلومات مفصَّلة ودقيقة عن كيفية انهيار الدولة الشريفية واستلام الحكومة السعودية مقاليد الحكم في الحجاز.

تأسيس الهيكل الحكومي في عهد الشريف حسين:

كان الشريف الحسين قوي العزيمة، صُلب الإرادة، يقظاً حازماً، وقد استقامت له الأمور بادىء الأمر، فأنشأ هيكل الحكومة على الطراز الحديث نائياً عن الوضع القَبَلي، الذي كان سائداً آنذاك، فأسَّس الوزارات لكلِّ جهازٍ رئيس من أجهزة الدولة، فأسند وزارة المالية لأحد أعيان جدة البارزين المرحوم أحمد باشا باناجة، كما أسند وزارة الخارجية إلى ابنه عبدالله، وهكذا بقية الوزارات، وأسَّس جيشاً نظامياً، وكان من حسن حظه أن كان العديد من القادة من أبناء الأمة العربية ممن يحملون رتباً عليا في السلك العسكري، ومن كانوا يمثلون أرفع المناصب في الجيش العثماني، قد هُرعوا متَّجهين إلى مكة المكرمة، منذ طرق أسماعهم نبأ قيام الثورة في مكة ونجاحها، فالتفُّوا حول الملك الحسين يشاركونه عريض الأمال في التطلُّع إلى أن تصبح هذه النواة الصغيرة في مكة المكرمة قاعدةً صلبة تستقطب الأمة العربية أينما كان تواجدها في بلاد العرب في دولة عربية متحدة شامخة.

شدة حذره وبخله:

بيد أنَّ الملك الحسين رغم كل الصفات التي كان يمتاز بها فإنه كان من الجانب الآخر شديد الحذر إلى حد القسوة، وشديد البخل إلى الحد الذي جعل هذه الفرصة السانحة، وهي وجود هذه المجموعة من الأحرار المثقفين تتباعد عنه بالتدريج محبطةَ الآمال، فتأسيس أي دولة يعتمد أوَّلَ ما يعتمد على المال، وعلى السخاء والبذل، وعلى وضع الثقة في من يُختار لتحمل المسؤولية.

القبو:

كان الحسين لا يثق إلا بنفسه، وكان مُسرفاً في قسوته وشدته، ويكفي

أنَّ كثيراً من أعيان جدة ومكة وبقية المدن الحجازية قاسوا من أهوال (القبو)، وهو سجن مظلم رهيب تحت الأرض في مكة، أقسى الأهوال لأتفه الأسباب.

وعلى كلٍّ فمصير الحسين ومصير أبنائه عبدالله وفيصل وعلي وزيد قد فصَّلتها عشرات الكتب المتوفرة في المكتبات، والتي فيها إرواءٌ لظمأ من يريد المعرفة والتفصيل، فليرجع إليها من شاء.

(عود على بدء) مع أيام الحرب العالمية الثانية:

نعود بعد هذا الاستطراد الذي لم يكن في الحسبان أساساً، وإنما جرَّ إليه تسلسل الأحداث، نعود مرةً أخرى حيث كنا إلى (أم رضمة) ولنحدد التاريخ في مستهل عام ١٣٦٠هـ.

بين الحلفاء ودول المحور:

كان أوار الحرب العالمية الثانية قد استعر، وامتد لهيبها فشمل الكرة الأرضية بأسرها، كان هناك جبهتان تتصارعان: أولهما ممثلة فيما عُرف آنذاك باسم الحلفاء، وكان ينتظم دولة بريطانيا وفرنسا مستعمرات كلٍّ منهما، وكذا بقية الدول الأوروبية التي تدور بفلكهما أو ترتبط بحلف معهما كهولندا وبلجيكا ودول البلقان وبقية الدول الأوروبية. أما الجبهة المقابلة فكانت تُعرف آنذاك باسم دول المحور، وتتألف من دولتي ألمانيا وإيطاليا وما يتبعهما من مستعمرات.

إذاعات المُتَصارعين:

وكانت حرب الإذاعات بين هاتين الجبهتين على أشد ما تكون عنفاً وضراوة. كانت إذاعة لندن هي اللسان الناطق والمعبر عن دول الحلفاء، كما كانت إذاعة برلين تقوم بالمهمة نفسها بالنسبة لدول المحور، وبطبيعة الحال، فإنَّ كل فريق من المتحاربين يحاول جهد استطاعته إبراز قوته وانتصاراته ومكاسبه في كل ما يُذيع وينشر.

إذاعة أنقرة:

كانت هناك إذاعة واحدة محايدة بين الفريقين تذيع يومياً ما يذيعه كل فريق من المتحاربين، ثم تعقب على ذلك بتعليقات مستقلة من قبلها، تمحص تلك الأخبار، وتبرز الأحداث بصورتها الحقيقية، تلك الإذاعة كانت إذاعة أنقرة، أي الإذاعة التركية التي كانت آنذاك محايدة بين الخصمين المتصارعين.

حصولنا على راديو:

كانت أجهزة الراديو آنذاك محدودة جداً، ولا توجد إلا لدى أفراد معدودين يستوردونها بموجب إذن مسبق من الحكومة، وبما أننا في وضعنا الحالي، في مركز (أم رضمة) في مَهْمَة من الصحراء، فقد كنا أحوج ما نكون إلى الحصول على جهاز راديو يمكِّننا من تتبع الأحداث ومسايرتها يوماً بيوم وساعةً بساعة. وقد ناقشت هذا الموضوع مع أمير المركز إبراهيم بن عمار رحمة الله عليه، فأخبرني أنه بوسعي أن أحصل على هذا الترخيص فيما لو كتبت لسمو الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، في حائل، ملتمساً موافقته.

استئجار بدوي وإرساله للأمير ابن مساعد:

وحالما لمست منه ذلك استأجرت حمَّالاً من أفراد البادية، زوَّدته بخطابٍ مني لسمو الأمير عبدالعزيز بن مساعد، موضحاً له في الخطاب عن وضعنا أنا وزملائي على رأس الحد ما بين المملكة والعراق، وأننا بحاجة إلى جهاز راديو لنسمع منه القرآن والأحاديث، التي تخفِّف عنا وحشة الانفراد في هذه الصحراء. استأجرت البدوي على جمله دافعاً له أربعين ريالاً ـ وهي مبلغ كبير في ذلك الوقت ـ على شرط أن يقطع المسافة في أقصى سرعة ممكنة، ويقدم الخطاب للأمير، ويأتي بالجواب.

وفعلاً عاد إلينا بعد مُضِي ثمانية أيام من سفره، وكانت المدة المتعارف عليها لقطع مثل هذه المسافة لا تقل عن خمسة عشر يوماً.

الإذن بالحصول على الراديو:

كان الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي - رحمة الله عليه - كريماً شهماً، فأسرع برد الجواب في اليوم الثاني لاستلامه خطابي. كان مضمون خطاب سموه هو بالنص الآتي:

من عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي إلى إبراهيم بن حسون مدير جمرك أم رضمة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

من طرف خطكم وصل، وما ذكرتم كان معلوم من طرف تطلبون منا السماح لكم بجلب راديو، فإذا كان قصدكم كما ذكرتم هو سماع القرآن والأحاديث فقط، فلا مانع من ذلك يكون معلوم.

التوقيع.

وهذا الخطاب هو من ضمن مكتبتي الخاصة في عرعر.

شراء الراديو من الكويت:

كان من حسن الحظ أنَّ السيارة المعتاد قيامها في نهاية كل شهر لجلب المؤن والحاجيات من الكويت على وشك مغادرة (أم رضمة)، فأرسلتُ معها أحد الحراس التابعين لإدارة الجمرك، ويدعى مبارك البقعاوي، وهو لا يزال حياً يرزق في بقعاء، أرسلتُه مزوَّداً مني بخطاب للشيخ الجليل الوقور عبدالله قاضي، الوكيل التجاري للحكومة السعودية في الكويت، طلبت منه أن يشتري جهاز راديو بأيِّ ثمن كان، ولم تكن لديَّ آنذاك معرفة بأنواع وموديلات أجهزة الراديوهات المتوافرة في أسواق الكويت آنذاك.

قام الرجل مشكوراً فاشترى جهاز راديو ماركة جنرال إليكتريك، وزوَّده بأربع بطاريات كما طلبت منه في الخطاب نفسه، والبطاريات من النوع نفسه المستعمل في السيارات، فلم تكن البطاريات الجافة قد عُرِفت آنذاك.

كان جهاز الراديو ضخماً أشبه ما يكون بصندوق، كانت غبطتنا بوصوله بالغةً مداها، كانت الأربع بطاريات المرفقة ضماناً لاستمرار تشغيل الجهاز طيلة ساعات النهار ونحو أربع ساعات من الليل.

كنا نعبىء البطاريات الأربع عند فراغها بواسطة موتور جهاز اللاسلكي، وكان يقوم بالإشراف على التعبئة مهندس اللاسلكي عبدالقادر تركي، بإذن وموافقةٍ من رئيسه الصديق ناصر الصايغ رحمهما الله.

الاجتماع حول الراديو:

كنا نتجمع، وخاصةً بعد صلاة العشاء، حول جهاز الراديو، وأعني كل من كان في القصر، كنا نضع الجهاز في ساحة القصر وتفرش الأرض بالبسط والسجاجيد، ونتحلّق عليها جلوساً، بينما يكون الجهاز في الوسط.

متابعة نشرات الأخبار وتدوينها:

أمّا بالنسبة لي أنا شخصياً، فكنت أتعقَّب مواعيد نشرات الأخبار حتى الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي آنذاك، ولما كانت تلك الإذاعات: - إذاعات برلين ولندن - تذيع في ذلك الوقت مجمل أحداث اليوم، وكانت تليها مباشرة إذاعة أنقرة فقد كنت حريصاً على أن أدوّن ما أستطيع تدوينه من تلك النشرات اليومية، وما أستطيع استيعابه من تعليقات إذاعة أنقرة.

شرارة الحرب العالمية الثانية:

كانت الشرارة التي أوقدت نار الحرب العالمية الثانية نتيجة حتمية لما تمخضت عنه معاهدة فرساي، التي أُبرمت بين الإنكليز وحلفائهم المنتصرين في الحرب العالمية الأولى وبين خصومهم المهزومين، وهم الألمان وحلفاؤهم الأتراك والنمساويون، وقد تضمنّت تلك المعاهدة قسوةً بالغة وإذلالاً ما بعده إذلال لكرامة شعب عُرف بالإباء، والصلابة، وقوة الشكيمة، وهو الشعب الألماني.

معاهدة فرساي:

كان من ضمن ما ورد في تلك المعاهدة من بنود فيما يتعلق بألمانيا سلخ جميع مستعمراتها في القارة الأفريقية وفي غيرها.

سلخ مقاطعة الألزاس واللورين وإلحاقها بفرنسا.

إسقاط الحكم القيصري في ألمانيا، وإبداله بحكم جمهوري وُضع على رأسه القائد الألماني هندبرج.

تفكيك المصانع الحربية الألمانية، ونقلها إلى دول الحلفاء.

إلزام ألمانيا بجميع غرامات الحرب، وهي مبالغ طائلة بالغ فيها المنتصرون إلى أقصى حد ممكن.

إلحاق مقاطعة السوديت الواقعة في الشمال الشرقي من ألمانيا المطلة على بحر الشمال إلحاقها بدولة بولندا.

كانت هذه الشروط القاسية أشبه بصدمة صاعقة أيقظت كبرياء الشعب الألماني، بعد أن توقفت الحرب، وصمت صوت المدافع وأزيز الرصاص، وأخذ الشعب الألماني رويداً رويداً يفيق من ويلات الحرب، ويستعيد ذكرياتها، وما لاقاه منها من أهوال ومحن، وكيف تعمَّد خصومه إهانته وإذلاله بشتى الطرق، ولا يزالون يفعلون ذلك.

كان النظام الجمهوري الديمقراطي، الذي فُرض على ألمانيا، بعد الحرب، بعد القضاء على الحكم القيصري، متنفساً طبيعياً، فأخذ الشعب الألماني يتحسَّس جراحه ويخطِّط لاستعادة كرامته، ورفع عار الهزيمة من سجل تاريخه.

كانت الانتخابات التي كانت تجري آنذاك، في أوقات معينة، فرصة ذهبية أتاحت للشعب الألماني أن يثأر لنفسه، فقد أصبح من حق كل مواطن ألماني أن ينشىء حزباً ذا مبادىء وأهداف متى توفَّرت فيه الشروط النظامية لإنشاء حزب.

سطوع نجم هتلر في ألمانيا:

كان نتيجة ذلك أن برز فجأة، ومن آخر صفوف الشعب الأخيرة، شخص مغمور انضمَّ إلى أحد الأحزاب الجديدة التي أُنشئت آنذاك وعُرف باسم الحزب النازي، انتسب هذا الشخص لهذا الحزب، وكان هذا الشخص قد وُهب طلاقة لسان، وتأثير صوت خطابي، وتمكُّن من إثارة المشاعر القومية، بما كان يُلقِيه بين وقت وآخر، من خطب نارية في مختلف الساحات والتجمُّعات، في كافة المدن الألمانية، أخذ الشعور القومي يتبلور بسرعة، وينصهر في بوتقةٍ واحدةٍ هي الثأر لتاريخ (الرايخ)، أي البرلمان الألماني، واستعادة أمجاده، ومن ثم أَخَذَ هذا الإنسان يتدرج في مراتب الحزب، وهو يشقُّ طريقه بقوة الإعصار إلى القمة، حتى ما كادت سنة **١٩٣٢** م تطل على العالم، حتى تسنَّم سدَّة الرئاسة في هذا الحزب العتيد، وبعد ذلك بعدة شهور أجريت الانتخابات كالمعتاد في ألمانيا، وإذا بالهر أدولف هتلر يقتعد قمة المسؤولية رئيساً لألمانيا.

ذُهلت بريطانيا وحلفاؤها من بروز هذا العملاق الجبار فجأة من بين أكوام الركام والهدم، لأنها كانت، آنذاك، تسبح في أحلامها الذهبية. معتقدةً أنها قد قصَّت أجنحة خصمها العنيد ألمانيا، وحطمت جميع وسائل المقاومة فيها، وأنها لن تستطع أن تنهض من كبوتها، وتقف على قدميها، قبل أن يمر ما لا يقل عن قرن من الزمن.

بعد تسلُّم أدولف هتلر لسدة الرئاسة في ألمانيا، باشر فوراً بالتجوال في جميع أنحاء ألمانيا، مركِّزاً بالذات على مدن الريف وقراه والأماكن المتضررة أكثر وأكثر من ويلات الحرب، ملقياً فيهم عشرات الخطب النارية الملتهبة، ومعلناً لهم أنه قد آن الأوان لأن تنتقم ألمانيا من خصومها، وتثأر لكرامتها.

لم تمض شهور حتى كان الشعب الألماني كتلة من اللهب، يعمل أبناؤه ليل نهار في الترميم والبناء، وإعادة المصانع، وفتح أبواب التجنيد لجميع أفراد الشعب ذكوراً وإناثاً.

رئيس الحكومة البريطانية:

كان يرأس الحكومة البريطانية آنذاك زعيم حزب المحافظين نيفل تشامبرلين، وكان كما قلنا يَغُطُّ في لجَّة من الأحلام المريحة، التي أتاحتها له ظروف تلك الحرب، وجعلت منه ومن حلفائه السيد المتحكِّم في مصائر العالم آنذاك.

الصفعة الأولى لبريطانيا وحلفائها:

كانت أول خطوة خطاها هتلر أن أعلن على الملأ أنَّ ألمانيا لن تدفع قرشاً واحداً للحلفاء بعد الآن، وقد أحدث ذلك هياجاً وسخطاً في دوائر الحلفاء، ولكنها كانت زوبعة في فنجان، فلم تمض عدة شهور حتى بلع الحلفاء هذه الجرعة في هدوء واستسلام.

إعادة بناء مصانع السلاح في ألمانيا:

كانت ألمانيا آنذاك تعمل بكل طاقاتها وإمكاناتها، لإعادة بناء مصانع السلاح، وترميم المصانع الأخرى التي دمرها الحلفاء، ولذلك فلم يمض عامان حتى نهضت مصانع السلاح عملاقة متطورة شامخة، كأقوى وأفضل ما تكون، وفي الوقت نفسه كانت المدارس والكليات الحربية والعسكرية، وساحات التدريب، تغصُّ صباحَ مساء بمئات الألوف ممن يتدربون على حمل السلاح ذكوراً وإناثاً.

الصفعة الثانية لبريطانيا وحلفائها:

وهنا وجَّه هتلر الصفعة الثانية لبريطانيا وحلفائها، وأعلن على الملأ وجوب إعادة مقاطعة الألزاس واللورين إلى ألمانيا، ولأن جبهة الحلفاء قد علاها الترهُّل والخمول، نتيجةً لنشوة انتصارات الحرب، ولم يدر بحسبانها قيام مثل هذا العملاق على مقربة منها فجأة وعلى غير انتظار، فقد رأت بريطانيا وحلفائها أن تساير هتلر، وأن تسترضيه بتلبية طلباته ورغباته أملاً في عدم تكرار الحرب مرة أخرى، وطمعاً في أن يقتنع بتلبية طلباته

ويكون في ذلك سبباً وجيهاً لمنعه من الحرب، بَيْد أن استسلام الحلفاء لصلف هتلر وغروره لم يزده إلا عتواً وإصراراً على أن يعيد لأمته أمجادها التي فقدتها.

إعادة الألزاس واللورين إلى ألمانيا:

أعيدت الألزاس واللورين إلى ألمانيا رغم معارضة الفرنسيين وحلفائهم من الإنكليز وغيرهم، ورغم الضجة الإعلامية التي أثارها إعلام الغرب وصحافته آنذاك.

مطالبة هتلر بضم منطقة السوديت إلى ألمانيا:

ما كاد هتلر يبتلع الألزاس واللورين، حتى انفتحت شهيته أكثر فأكثر، فاتجه إلى دولة بولندا المتاخمة لحدوده الجنوبية مطالباً إياها بإعادة منطقة السوديت إلى ألمانيا، بدعوى أنَّ هذه المنطقة، وهي الواقعة على ساحل بحر الشمال الجنوبي، ٨٠٪ من سكانها يتكلمون الألمانية، وهذا في نظره كافٍ لابتلاعها، بصرف النظر عمَّا إذا كانت أرضاً بولندية، أو كان القانون الدولي يبيح مثل هذا التصرف المتغطرس.

كان يرأس بولندا آنذاك المارشال بلسوديسكي، وهو جنرال طاعن في السن، ولكنه صلب العود، قوي الإرادة.

تكاثف نذر الحرب:

كان من الواضح أنذاك أن نذر الحرب تتكاثف يوماً بعد يوم، وكانت دول الحلفاء قد شعرت بالخطر، ولكن ليس إلى الدرجة التي تخيف هذه الدول استناداً على ما تملكه من إمكانات هائلة من حيث العنصر البشري، أو من حيث الأسلحة والمعدات، أو من حيث وفرة الموارد التي تتيحها لها مستعمراتها في القارة الأفريقية وفي آسيا وفي أستراليا، وفي جميع الجزر المنتشرة على سطح البحار.

استعراض فرنسا عمالقة جنود مستعمراتها:

كانت فرنسا آنذاك تعجُّ صحافتها كل صباح بصور مئات الجنود عمالقة الأجسام من أبناء مستعمراتها في القارة الافريقية كالنيجر ونيجيريا والسنغال وبقية مستعمراتها في تلك القارة، كانت تختار عمالقة الأجسام منهم، وتكتب تحت تلك الصور مضمون بيت من الشعر العربي بعد تحوير بعض ألفاظه، إذ كانت تكتب تحت صورهم: أولئك جنودي فجئني بمثلهم، والخطاب طبعاً موجَّه إلى هتلر وهو معنى البيت العربي المشهور:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامعُ

وجوم وحيرة:

ساد الجو العالمي، وبالأخص في القارة الأوروبية الوجوم والحيرة، فأخذ الجميع يحسُّون في أعماقهم أنَّ في الأفق من الخطر ما فيه، وهم بعد لم تغب عن ذاكرتهم ويلات الحرب التي لم يمر على انتهائها أكثر من عشرين عاماً، ولا زالت أهوالها وفظائعها، وما تركته من دمار وخراب وأهوال ومحن كلها ماثلة في أذهانهم بعد.

ارتفاع الأسعار:

كانت مظاهر هذا الإحساس بالخطر تتمثل في ارتفاع الأسعار بدرجة جنونية، واختفاء الكثير من السلع من الأسواق، وشح البضائع المعروضة.

قوة رهيبة ومشاعر ملتهبة:

لم يدرك الحلفاء النقلة الهائلة التي أحدثتها خطب هتلر النارية، التي ألهبت مشاعر الألمان، ولا مقدار المعجزة التي خلقها هتلر من هذا الشعب المحطم، الذي استطاع في أقل من خمس سنوات على تسلمه مقاليد الحكم أن يجعل منه قوةً رهيبةً يهتف بهتاف واحد: «هايلو هتلر، ألمانيا فوق الجميع».

شعب أصبح بين عشيةٍ وضحاها يمسك بكلتا يديه أحدث الأسلحة وأمضاها، بعد أن تدرَّب عليها، وأتقن استعمالها، وأصبح يتحرَّق شوقاً إلى الانقضاض على خصومه، ليكيل لهم الضربات، وليثأر منهم لعزته وكرامته.

ضغط هتلر على بولندا والنمسا:

اتجه هتلر إلى الضغط على بولندا بالنسبة لقضية السوديت، كما أخذ يضغط على الدولة الأخرى المجاورة لها وهي النمسا، وكان مستشارها آنذاك يدعى سوشِنغ.

كان هتلر يحاول إدخال هاتين الدولتين لتدورا في فلكه ولكنهما أبدتا موقفاً صلباً في وجه رغباته وطموحاته، وكان لتشجيع بريطانيا وحلفائها لهاتين الدولتين على الصمود والمقاومة أثرٌ واضح، في تصلبهما أمام رغبات هتلر.

موسوليني وحزبه الفاشي:

خلال تلك الفترة التي تسلَّم فيها هتلر مقاليد الحكم في ألمانيا كان يوجد دولة أخرى تقع في الجنوب الشرقي من الأراضي الألمانية، هي إيطاليا، وهي دولة صناعية متقدمة، وذات إمكانات وموارد لا يستهان بها، كانت تلك الدولة يملكها اسماً ملكها العجوز عمانويل، وولي عهده أمبرتو، ويحكمها فعلاً طاغية متغطرس، أنشأ بدوره حزباً على غرار الحزب النازي، ويعرف باسم الحزب الفاشي.

هذا الطاغية هو بينتو موسوليني، كان أنشأ هذا الحزب على مبادىء عنصرية عرقية، موحياً بأن أفراد هذا الحزب هم العنصر المختار الجدير للحكم والسيادة.

كان إنشاء موسوليني لحزبه الفاشي سابقاً لبروز هتلر، وكان حزبه ـ أي موسوليني ـ مجموعة من الشباب والعمال الذي كان يؤجِّج في نفوسهم روح العنصرية، ويذكرهم بأمجاد روما، وأملاكها الشاسعة، كان هذا الرجل خطيباً

مفوّهاً ما يكاد يعتلي المنبر، حتى تسري كلماته في عقول الجماهير الحاشدة سريان الكهرباء، مستفيداً من النظام الديمقراطي السائد آنذاك في إيطاليا، والذي يبيح له ولأمثاله مخاطبة الجماهير واعتناقهم لما يراه من الأفكار والنظم.

التفَّ حوله الشباب والعمال الذين كان يَعِدُهم بأغلى الأماني، وأعذب الطموحات. كانت الجماهير التي تلتفُّ حوله تعتنق نحلة جديدة وهي النظام الفاشي، الذي ابتدعه هذا الطاغية، وجعله علامةً مميزةً لنظام حزبه.

تسلُّم موسوليني زمام السلطة:

كانت ساحات روما، وكبريات المدن الإيطالية، تغصُّ يومياً بالألوف من هؤلاء الشباب، يتدربون على النظم العسكرية، وعلى حمل السلاح، حتى إذا ما تيقن بأنه قادر على استلام الحكم بالقوة زحف بالألوف المؤلفة من أتباعه على روما، واستلم بالقوة زمام السلطة في إيطاليا، جاعلاً ملكها الشرعي لا يملك من الأمر سوى الاسم فقط، وكتأكيد لهذا الوضع فقد نقلت الأخبار آنذاك أن موسوليني وملك إيطاليا فكتور عمانويل يسيران معاً في طريقهما إلى البرلمان: إذ سقط منديل الملك من يده على الأرض فانحنى موسوليني لالتقاطه لتسليمه للملك، فما كان من الملك إلا أن أجابه بعبارة ساخرة بدلاً أن يوجه له الشكر، أو عبارة مجاملة على الأقل قائلاً له: دعني ألتقطه بنفسي فلن يكن بوسعي أن أفعل أي شيء سوى التقاط هذا المنديل. ومعنى العبارة واضح، إذ معناها بصريح العبارة أنك قد سلبتني ملكي، ولم يبق لي أي شيء أستطيع فعله سوى التقاط منديلي هذا، ومع ذلك التقطته أنت.

كان موسوليني الحاكم المطلق في إيطاليا، وبطبيعة الحال، فإنه قد أوجد من إيطاليا دولةً قويةً فأمسك بكلتا يديه زمام السلطة فيها في مختلف مرافق حياتها، خلق منها قوةً فاعلة، سواء من حيث وفرة الجند القادرين على حمل السلاح، أو من حيث المصانع التي انتشرت في كافة أرجاء البلاد، منتجةً أحدث أنواع السلاح.

جبهة دول المحور:

كان النظامان متشابهان في روما وفي برلين، كلاهما يمسك مقاليد الأمور في بلده بقبضة حديدية شرسة، كلاهما جعل من بلده جيشاً هائلاً مدججاً بالسلاح، يرى أنَّ من حقه أن تكون السيادة قاصرة عليه في الميدان العالمي مهدِّداً متوعداً كل من يحاول أن يعترض إرادته، لذا كان من الطبعي أن يتحالف هذان النظامان، مكونين جبهةً واحدةً عرفت بدول المحور، وهي الجبهة التي كانت في الصف المصارع لبريطانيا وحلفائها.

معاهدة دفاعية مشتركة:

في ذلك الجو المحموم، الذي كان يطلُّ فيه شبح الحرب على العالم، جرت عدة لقاءات ما بين هتلر وموسوليني نتج عنها عقد معاهدة دفاعية مشتركة بين الزعيمين.

استعار الحرب باجتياح ألمانيا لبولندا:

كان امتناع بولندا عن تلبية مطالب هتلر، وعدم اكتراثها بوعيده وتهديداته سبباً في أن يوجه هتلر إنذاراً محدداً بأربعة وعشرين ساعة بوجوب تنفيذ رغباته بتسليم منطقة السوديت إليه، وإلا فعلى بولندا أن تتحمل النتائج، أي الحرب، بعد انقضاء المدة اتَّجهت الجحافل الألمانية المتمركزة على الحدود بين الدولتين، فاجتاحت الحدود مكتسحةً الأراضي البولندية كالإعصار، وهنا أعلنت لندن وباريس الوقوف بجانب بولندا وإعلان الحرب على ألمانيا.

معاهدة بين روسيا وألمانيا:

وخلال تلك الفترة الرهيبة، كان المندوب الروسي في الخارجية الألمانية في برلين، فأعلنت على إثر ذلك، أي في اليوم الثاني للحرب معاهدة عدم اعتداء بين روسيا السوفيتية وعلى رأسها ستالين وبين ألمانيا وعلى رأسها أدولف هتلر.

وُقِّعت تلك المعاهدة من قبل وزير الخارجية الألمانية آنذاك روبن تروب، أما وزير الخارجية الروسي فلا أذكر اسمه الآن.

إذاعتا لندن وبرلين:

اشتعلت الحرب، وتكلمت المدافع، وهدرت الدبابات، واشتعل البر والبحر، وأصبح العالم يعيش في أتون من اللهب، كانت الإذاعة الناطقة بلسان الحلفاء هي إذاعة لندن، وكان يديرها ويشرف عليها نخبة من أبناء مصر على أعلى مستوى من الثقافة وحسن الإلقاء؛ منهم على ما أذكر أحمد كمال سرور، وأحمد عبدالوهاب، ثم بعد ذلك عيسى خليل صباغ وأخاله فلسطيني الأصل.

أما إذاعة برلين فكانت الناطقة بلسان دول المحور، وكان يديرها ويشرف عليها أحد أبناء الرافدين وأعني به يونس بحري، وهو أديب معروف وخطيب مفوَّه وعلى جانب من الثقافة، إذ كان يجيد سبع لغات، وكان يُعرف في العالم العربي آنذاك بلقب خاص اختاره لنفسه وأصبح علماً عليه هو (السائح البحري).

السائح البحري:

كان من طلاقة اللسان بالمكان الأرفع، كنتَ عندما تسمعه يفتتح الإذاعة كل مساء بصوت جهوري مدوٍ قائلاً: **«حي العرب»**.

كانت تلك العبارة تسري في دنيا العرب سري الهواء، كانت تهزُّ مشاعرهم، فيصفقون لها طرباً، وهنا وقبل أن نسير في مجرى أحداث الحرب وتطوراتها، نرى من المناسب أن نُعطي القارىء صورة مصغرة عن الوضع القائم آنذاك في دنيا العرب خاصةً، وفي عموم الممالك والشعوب المقهورة.

احتلال أريتريا والحبشة:

قبيل بدء الحرب العالمية الثانية، ونحن نذكر ذلك هنا كشاهد، كانت إيطاليا قد بلغت شأواً كبيراً من حيث الاستعداد العسكري نتيجةً للمليشيات

العسكرية التي أنشأها موسوليني، لذلك اقتحمت قواته أراضي أريتريا في القارة الأفريقية فجأة، وبدون سابق إنذار، متحدياً بذلك عصبة الأمم وأنظمتها وقوانينها.

كان رد الفعل على هذا الغزو المفاجىء لأريتريا من قبل عصبة الأمم هو ضجة مفتعلة، ثم أخذت تتلاشى وكأنها زوبعة في فنجان، كما يقول المثل.

شجع موقف العصبة المتخاذل أمام عدوان موسوليني هذا الأخير على أن يقوم بمغامرة أخرى أكبر وأشمل. فما كادت تمضي عدة أسابيع حتى تدفقت جحافل جيوشه نحو الحبشة، التي أُخذت على حين غِرة بهذا العدوان الصارخ، فقاومت القوة الغازية بكل ما تملك من قوة وجهد، وكان زعماؤها، وفي مقدمتهم الرأس كاسا والرأس هيوم، وهؤلاء يعتبر كل منهما مسيطراً على أجزاء شاسعة في الأراضي الحبشية. أي أنَّ كلاً منهما يحكم مقاطعة أو قل مملكة يحكمها حكماً مباشراً، وترتبط جميعاً بالإمبراطور.

غرور الطاغية موسوليني:

بذلت الحبشة من الدماء والأرواح كل ما تملك، ولكن هيهات أن تقاوم البيضة الحجر، فبينما يحارب الأحباش بأسلحة قديمة من بقايا العصور الماضية، كان الطليان يقاتلونهم بأحدث الأسلحة التي أنتجتها مصانع الحرب الحديثة، فلم تمض عدة أشهر حتى أصبحت الحبشة وأريتريا كلها تابعة للدولة الإيطالية ـ وكان ذلك في عام ١٩٣٦م، أي قبيل الحرب بثلاث سنوات ـ مما زاد في غرور وعنجهية الطاغية موسوليني، فأعلن في خطبه الحماسية بأنه سيعيد مجد روما قبل ألف وخمسمائة عام من الزمان، وأن استيلاءَهُ على أريتريا والحبشة ما هو إلا الخطوة الأولى في تحقيق هذا الحلم.

بريطانيا وسخط العالم العربي منها:

هذا بالنسبة لإيطاليا، أما بالنسبة لبريطانيا وحلفائها، فقد كانت كما ذكرنا أكثر من مرة في هذه الخواطر تسيطر على ثلاثة أرباع الكرة الأرضية.

كانت تقتسم مع فرنسا السيطرة على كامل القارة الإفريقية، بما فيها مستعمرات ألمانيا السابقة، كما كانت تسيطر على منطقة الشرق الأوسط والأقصى، إذا استثنينا اليابان والصين.

كان العالم العربي يئنُّ ويتوجَّع تحت وَطْأة الحكم البريطاني الذي بسط نفوذه على كامل أرض العرب، بعد سقوط الدولة العثمانية. كان لصلف الإنكليز وغرورهم، ونظرتهم المتعالية على غيرهم من الشعوب وقبضتهم الحديدية البالغة العنت التي يعاملون بها هذه الشعوب المغلوبة على أمرها، قد غرست في نفوس الشعوب الخاضعة لنفوذها كماً هائلاً من الحقد والضغينة، نشأ عنه شعور بأنَّ بريطانيا العظمى، تعني الدولة التي لا تُغلب، وقد وقر في نفوس الغالبية العظمى من هذه الشعوب أنَّ هزيمة بريطانيا نوع من المستحيلات، وأنها دولة لا تُقهر، توفرت لها القوة المادية من أساطيل تنتشر على جميع البحار، وقوة عسكرية ضاربة ممسكة بخناق كل شعب.

طوفان الفرح والشماتة:

هذا الشعور أو الإحساس باستحالة هزيمة بريطانيا قد انفجر كالطوفان، عندما أُعلن لأول مرة أنَّ هذا العملاق الجبار قد وجد من يكيل له الضربات المتلاحقة على أُمِّ رأسه، كل يوم بل كل ساعة. طوفان من الفرح والبهجة والشماتة الممزوجة بالتشفي.

كانت فرنسا، وهي أحد قطبي دول الحلفاء، قد أحاطت نفسها بسياج من الخنادق، التي أوجدتها على امتداد حدودها مع ألمانيا، خنادق حفرت تحت الأرض، وزودت بكافة وسائل الدفاع، وكانت فرنسا وحلفاؤها يتصورون في قرارة أنفسهم أن اقتحام الألمان لفرنسا أبعد من النجم ولذلك فقد كانوا عند بدء الحرب يسخرون من ألمانيا ومن اعتدادها بقوتها وجيوشها.

اجتياح بلجيكا وهولندا، ثم الدخول لفرنسا:

ابتدأت معارك الحرب، فاجتاح الألمان جمهورية بولندا، ثم انعطفوا شمالاً فاكتسحوا دول البنلوكس ـ أعني بلجيكا وهولندا ـ ثم اقتحموا خط

ماجينو الفرنسي من جبهات لم تكن فرنسا تتوقعها، فحوصرت الجنود المرابطة في خط ماجينو، واتجهت الجحافل الألمانية باتجاه العمق الفرنسي، واقتحموا الأراضي الفرنسية من جهة الحدود البلجيكية المتاخمة لفرنسا، والتي لم يكن فيها أية وسيلة للدفاع، لأن خطة كهذه لم تخطر في بال الفرنسيين.

كان الهجوم الألماني مركزاً وعنيفاً على فرنسا، وأخذت فرنسا تصرخ وتستغيث من هول المفاجأة، وتستنجد بحلفائها من الإنكليز، الذين أسرعوا في حشد كل ما يملكون من جنود وعتاد وإرسالهم لإنجاد حليفتهم عبر بحر المانش، ولكن ذلك لم يكن له أي تأثير على مجرى الحرب، فلم تمض أكثر من أربعة أسابيع حتى كانت جحافل الجيش الألماني تدق بأحذيتها مدينة النور باريس. وإذا بفرنسا وقواها اللجبة التي كانت تباهي، وتفاخر بها، قد انهارت، وخرَّت راكعة أمام الجيش الألماني طالبة وقف الحرب والصلح والهدنة.

توقف الزحف الألماني عند باريس:

لم يمانع الألمان بهذا الطلب بعد أن أقرَّ الفرنسيون بهزيمتهم، وأنه ليس في مقدورهم المقاومة بعد الآن، تمَّ الاتفاق بين القائد الفرنسي المارشال بيتان ورئيس وزرائه المسيو بيير لافال، على أن يتوقف زحف الألمان عند باريس وحدها دون أن يواصلوا الزحف إلى بقية المدن الفرنسية.

حكومة فيشي:

هنا توقفت الحرب بين فرنسا وألمانيا، وانتقل المارشال بيتان ورئيس وزرائه لافال إلى مدينة فيشي الفرنسية فأنشؤوا هناك حكومة دُعيت بحكومة فيشي، مهمتها تنفيذ شروط الألمان وإدارة بقية الأراضي الفرنسية، التي لم تحتلها القوات الألمانية، وإذ كانت فرنسا تحكم آنذاك لبنان حكماً مباشراً، فقد أصبح موظفوها الرسميون، الذين يديرون دفة الأمور في لبنان وسوريا باسم موظفي حكومة فيشي.

نجدة الإنكليز لفرنسا التي باءت بالفشل الذريع:

كان الإنكليز الموجودون في فرنسا لنجدتها في تلك الأثناء، قد أسرعوا هرباً إلى ميناء «دنكرك» الميناء الفرنسي المطل على بحر المانش، هاربين طلباً للنجاة إلى بلادهم، وكانت فرصةً ثمينةً للألمان إذ أُتيحت لهم فرصة تجمع أكبر عدد من الجنود الإنكليز الذين كانوا قد أُرسِلوا لنجدة الفرنسيين.

صبَّ الألمان على هؤلاء الجنود جحيماً من قذائف المدافع والطائرات ومزقوهم شرَّ ممزق، ولم ينج منهم إلا القليل الأقل، وكان موسماً لأسماك بحر المانش أن تملأ بطونها شبعاً، شهوراً وشهوراً، من جثث هؤلاء الإنكليز وكأنه عقاب من الله لهؤلاء الذين طالما قهروا الشعوب وأذلوها.

أما عن السفن والزوارق التي كانت موجودة في هذا الميناء لنقل هؤلاء الجنود إلى إنكلترا فحدِّث ولا حرج، إذ استقر ٨٠٪ منها على الأقل في أعماق بحر المانش.

أما بريطانيا نفسها، وبالذات لندن، فقد كانت تستقبل يومياً ما لا يقل عن ثلاثة آلاف طائرة، تمطرها ليل نهار بوابل من القذائف والحُمَم، حتى أخذ الشعب البريطاني يترنَّح من هول الضربات.

كانت الحرب في بدئها آنذاك إعصاراً مدمراً بالنسبة لبريطانيا، ففي الوقت التي تنهال فيه مئات الألوف من الحمم والقنابل تهدم مرافقها ووسائل دفاعها، تتلقى يومياً أنباء تساقط سفنها وبوارجها في مختلف البحار والمحيطات، تتساقط الواحدة تلو الأخرى في أعماق البحار، نتيجةً لضربات الغوَّاصات الألمانية. وخلال موجة هذه الضربات أخذ الإنكليز بإرسال أطفالهم ونساءهم وكهولهم إلى كندا، رغم الخطر المحدق الذي كان يلاحق أي سفينة أو زورق على متن البحار.

رئيس وزراء بريطانيا تشرشل:

كان العالم يترقب استسلام بريطانيا، بين فترة وأخرى؛ لأنها بقيت وحدها في الميدان، أمام آلة الحرب الجهنمية التي حشدها هتلر، وملأ بها

الجوّ والبحر والبر، بيد أنَّ الشعب الإنكليزي قد انصهر في بوتقة واحدة، مظهراً من صلابة العود، وتصميم العزم، على أنه سيقاوم مهما كان الثمن، ولذا لم يجد الساسة وولاة الأمر في بريطانيا بدأً من أن يسلموا مقاليد السلطة للزعيم المخضرم ونستون تشرشل، فسلموه رئاسة الوزارة فما كاد يرأسها حتى أعلن الأحكام العرفية، موجِّهاً إلى الشعب عن طريق الإذاعة رسالة، كلها تنبض بالعزم والتصميم على المقاومة والدفاع، معلناً لهم أنهم لن يسمعوا منه في تلك الأوقات إلا الدموع والمصائب والنكبات، وأنَّ عليهم أن يهيؤوا أنفسهم لأسوأ العواقب، فلم يكن هناك إلا حَلاَّن لا ثالث لهما: إما الانتصار وإما الفناء.

غارات ألمانيا الجوية على بريطانيا:

اطمأن زعيم الرايخ أدولف هتلر أنَّ بريطانيا أصبحت في وضعها ذاك وحيدة في الميدان، في قبضة يده، وأنها ستستلم حتماً لا محالة في نهاية الأمر، فاكتفى بغاراته الجوية التي كانت تدكُّ يومياً كبريات المدن البريطانية، وفي مقدمتها لندن، فهي بالنسبة لنظره أرنب في حجرها سيقبض عليها بيده متى شاء، إذا لم تخرج طوعاً من نفسها وتستسلم.

غرور هتلر بنشوة النصر:

أخذت هتلر نشوة النصر والغرور، بدلاً من أن يقتحم أراضيها آنذاك بدباباته وصواريخه، ويطلق عليها رصاصة الرحمة، وَجَّه جحافله شطر الممالك والشعوب في القارة الأوروبية، فأخذت تلك الشعوب تتهاوى تحت مجنزرات الجيش الألماني، وأخذ ملوكها وزعماؤها يلوذون بالفرار من حيث لا يوجد الأمان، تاركين شعوبهم لمصيرهم المحتوم، وما هي إلا أشهر معدودات حتى أصبحت أوروبا كلها تحت قبضة الجيش الألماني.

كانت إذاعة برلين يومياً ما تكاد تذكر دخول الجيش الألماني إلى أراضي مملكة أو جمهورية أوروبية حتى تذيع في اليوم الثاني أن تلك المملكة أو تلك الجمهورية قد استسلمت.

نشوة الفرح والابتهاج:

كانت تلك الأنباء من إذاعة برلين تسري في نفوس الشعوب والممالك، التي ذاقت الذل والقهر من الإنكليز وفي مقدمة تلك الشعوبِ الشعوبُ العربية، كانت تسمع تلك الانتصارات، فتحس في أعماقها بنشوة الفرح والابتهاج، مقرونة بالشماتة والسخرية من الإنكليز، وحلفائهم.

كانت تلك الشعوب تهتف من أعماق نفوسها بالنصر والتأييد لهتلر وجنوده، ولا أبالغ إذا قلت: إنه قد لا يوجد في العالم، وخاصةً في العالم العربي، من يعطف على الإنكليز أو يتمنى النصر لهم، إلا فئة قليلة قد لا تتجاوز نسبتها ١٠٪، وهم المنتفعون من حكم الإنكليز.

لم تبق في أوروبا أي مقاومة ذات شأن، لأنَّ شعوب القارة كلها قد خضعت لألمانيا كما ذكرنا، ومن الواضح أنَّ هذه الدول والشعوب بحاجة إلى أعداد وافرة من الحكام والإداريين والجنود والضباط الألمان، لكي يستطيعوا إدارة دفة الأمور في هذه الشعوب، والإشراف على مواردها، وحشد إمكاناتها من المصانع وغيرها لتمويل الجيش الألماني، على كافة الجبهات، بحاجتهم من العتاد والسلاح.

الجيش الإيطالي في ليبيا:

كانت الجبهة الشرقية التي فتحها الألمان في إفريقيا في بادىء الأمر مكونة من الجيش الإيطالي المتواجد في ليبيا، فإيطاليا سبق لها أن استغلت ضعف الدولة العثمانية، فغزت ليبيا على حين غرة عام ١٩١١م، أي قبيل قيام الحرب العالمية الأولى بعامين، وقد قامت ليبيا بإمكاناتها المحدودة، وشعبها الأعزل، بمقاومة الغزاة، مُلحِقةً بخصومها أشد الهزائم، ومبديةً من ضروب الشجاعة والاستبسال ما كان مضرب المثل، وحديث العالم، ويكفي الليبيون فخراً أنهم استطاعوا إيقاف الزحف الإيطالي، وحصره في الموانىء التي نزل بها في حدود ليبيا ولم يمكنوه من أن يجتازها كيلاً واحد عن البحر لأكثر من عام على بدء نزوله، رغم القوة الهائلة من العتاد والسلاح وآلات التدمير، التي أحضرها العدو معه.

تسابق الأحرار إلى نصرة الليبيين:

وقد كان الليبيون آنذاك قد تسابق إليهم الأحرار من أبناء الأمة العربية، من مختلف بقاعها، منضمين إليهم، لنصرتهم، والوقوف معهم في وجه العدو، وكان من أولئك الأحرار على ما أذكر عبدالرحمن عزام، أول أمين عام للجامعة العربية، والقائد العربي المشهور عزيز باشا المصري، وغيرهم كثيرون، ممن لا تحضرني أسماؤهم.

عمر المختار:

كانت القيادة في ليبيا للبطل الشهيد عمر المختار، الذي أنهى حياته بعد صراع مرير طويل مع الخصم، وبعد أن استنفذ كل ما يملك من قوة وجهد، إذ تمكن خصمه من إلقاء القبض عليه، لخيانة بعض ضعاف النفوس، وبذلك استطاع الإيطاليون أن يقبضوا على زمام الأمور في ليبيا كلها، بعد معارك دامية ارتوت ساحات الأرض الليبية على امتدادها وسعتها، بالكثير الكثير من دماء أبنائها الزكية الطاهرة، للمعارك الشرسة، التي لم تخلُ منها بقعة من بقاع الأرض الليبية. حوكم البطل عمر المختار، وحاول خصمه أثناء المحاكمة أن يثني من قناته، أو أن يحني رأسه، موهماً إياه بأنه سيعفو عنه وسينصبه حاكماً على ليبيا إذا قبل وسلم بالهزيمة لإيطاليا.

الجنرال جرازياني:

كان الجنرال جرازياني قائد الحملة الإيطالية، التي غزت ليبيا، هو رئيس تلك المحكمة، وكان قائداً مغروراً شرساً يحاول أن يغسل ذلَّ هزيمته، وهزيمة جنوده المدججين بأعظم أدوات الفتك والسلاح، على أيدي هؤلاء البدو البدائيين تحت قيادة هذا البطل الواقف أمامه مكبلاً بالأغلال والحديد.

عزة عمر المختار وإباؤه:

كان جرازياني يحاول بكل ما يستطيع من لباقة ودهاء، أن يستدرج البطل لكي يسمع منه ولو كلمة واحدة، لكي يسجلها في محضر الجلسة

ويوقع عليها، ولكن البطل عمر المختار حرمه من هذه الأمنية، فكانت إجابته المركزة على جميع الأسئلة التي كانت توجَّه إليه من المحكمة ورئيسها، ولم يتزحزح عن حرف واحد منها فقط، هي قولة الشموخ والإباء، قولة الكبرياء والعزة، قولة الشرف وأمجاد العروبة: لا.. لا.. سأقاومكم ما حييت، ما لم تخرجوا من بلدي، فأنتم أعدائي، ولن أذعن وأستسلم أو أعترف لكم بأي حق، أو نفوذ مهما فعلتم معي، لو أطلقتم قيودي هذه اللحظة لقاتلتكم بأسناني وأظافري، إذا لم أجد ما أقاتلكم به.

كان الحنق والغيظ قد بلغ بهذا الجنرال الإيطالي المغرور غايته، فكان جوابه على ذلك: أن أمر بأن يوضع عمر المختار في إحدى الطيارات الحربية، مكبلاً بالحديد، وأن ترتفع الطائرة في أجواء الفضاء، ثم تقذف به إلى الأرض، وفعلاً تمَّ ذلك كما ذكرته الصحف والجرائد الصادرة آنذاك.

النكسة الأولى لإيطاليا وألمانيا في العَلَمين:

ما كادت الحرب تعلن حتى تدفقت الجحافل الإيطالية تدكُّ الأرض باتجاه الشرق نحو الأراضي المصرية، التي كانت آنذاك تحت الحكم البريطاني المباشر، كانت مزهوةً بما لديها من عتاد ضخم وقوة جبارة هي آخر ما توصَّل إليه الفن الحربي آنذاك، فضلاً عن أنَّ تلك الجيوش، فوق اعتزازها بما لديها من قوى هائلة، فإنها كانت تجمع فوق ذلك روحاً عنصريةً متغطرسةً غذَّتها خطب موسوليني النارية، ونشوة الظفر بالسيطرة على أريتريا وبلاد الأحباش.

جيش الشرق البريطاني:

كان موسوليني تداعبه الأحلام بدخول مصر، فاتحاً ممتطياً صهوة جواد أبيض، كما أعلنت وسائل إعلامه آنذاك، بيد أنَّ حساب البيدر لم يطابق حساب الحقل. فالإنكليز، عندما أحسُّوا بنُذُر الحرب، وتأكدوا أنه لا بد من قيامها نتيجةً لتصلُّب هتلر في مواقفه، وللخطوات الجريئة التي كان يتخذها متحدية كل عرف، أو قانون أنشؤوا آنذاك جيشاً أسمته بريطانيا بجيش

الشرق، اختارت لقيادته جنرالاً بريطانياً يدعى (ويغل)، حشدت له مئات الألوف من الجنود الذين استقدمتهم على جناح السرعة، من ممالكها الشاسعة، شرق قنال السويس، كان هذا الجيش جيشاً وافر العدد، وإن كان من حيث التسليح لا يماثل تسليح الجيش الإيطالي.

جبهة العلمين:

اصطدم الجيشان في أول معركة بينهما، جيش قادم من الغرب باتجاه الشرق يقوده الجنرال الإيطالي جرازياني، وجيش آخر قادم من الشرق باتجاه الحدود الليبية يقوده الجنرال ويغل.

دارت المعارك عنيفة وشرسة لعدة شهور، كانت سجالاً بين الفريقين. كانت الخسائر بالنسبة للجيش الإنكليزي من حيث العنصر البشري فادحة جداً، ولكن كان الإنكليز يعوضون هذا النقص بما يمتلكونه من قوى بشرية هائلة في مستعمراتهم الممتدة إلى أقاصي بورما والهند، أما الإيطاليون فكان لحداثةِ عتادهم الحربي وتنوعه، التفوق الظاهر على خصومهم.

كان العالم يراقب أحداث هذا الصراع، وكان يعرف بجبهة العلمين.

استسلام الجيش الإيطالي:

استمر الوضع على هذا النحو، كرٌ وفرٌ، وتقدُّم وتقهقر، إلى أن فوجىء العالم بعد مضي نحو أربعة شهور على هذا الصراع الرهيب، وفي الوقت الذي كان موسوليني شارداً في أحلامه، ينتظر الإشارة من قائد جيوشه جرازياني لكي يركب فرسه الأبيض متَّجهاً إلى مصر، فوجىء العالم بهزيمة نكراء ألحقت بالجيش الإيطالي، إذ أُعلن نبأ استسلام اثني عشر ألفِ من جنوده وعلى رأسهم الجنرال جرازياني.

كان لوقع هذه الهزيمة وقع الصاعقة على هتلر بالدرجة الأولى إذ أظهرت له هذه الهزيمة أنَّ الجيش الإيطالي كم لا قيمة له، وأنه كرتون من الورق فأرغمت هذه هتلر على أن يولي الكثير من وقته واهتمامه لجبهة العلمين، وأن يضع مسؤولية إدارتها على كواهل جنود ألمان، وقيادة ألمانية.

أخذ يرسل الجيوش إلى الجبهة الليبية المصرية، بما يحفظ لها تماسكها، مختاراً القائد البطل الذي عرف فيما بعد بثعلب الصحراء، روميل ليتولى قيادتها، أما جيش جرازياني فقد استسلم للإنكليز، مسلِّماً له جميع ما يملك من أسلحة وعتاد، وكانت مشاهد ذلك الجيش - الإيطالي المهزوم - التي كانت تنشرها صحف الحلفاء آنذاك، مشاهد مُذلة، فمئات الألوف يسيرون صفوفاً طويلة، مطأطيء الرؤوس، مكبلي الأيدي من الخلف.

روميل ثعلب الصحراء:

كان هذا الانتصار للندن وحلفائها مهراجَ عُرسٍ وفرح، أخذت تطنطن به صحافتها ليلَ نهار، ومن الواضح أنَّ هذه الهزيمة قد أضافت عبئاً ثقيلاً على كاهل برلين، إذ أنها أسقطت بعد هذه الهزيمة المنكرة حليفها موسوليني وجيشه من أن يكون له أي قيمة يُعتمد عليها، وبالتالي أصبحت الجبهة المصرية الليبية مسؤولية برلين مباشرة لا جنداً وعتاداً.

لم يدم عرس الحلفاء بهذا الانتصار الذي حصلوا عليه باستسلام الجيش الإيطالي، إذ لم تكد أقدام روميل تطأ أرض ليبيا حتى اكتسحهم، وردَّهم إلى الوراء مذعورين كالفئران، يحشدون ما استطاعوا من جنود وعتاد، تتدفق عليهم ليل نهار، ليوقفوا زحف هذا الإعصار الألماني المفاجيء.

وقوف حكومة الشمال الإفريقي بجانب الإنكليز:

ولما كان الشمال الإفريقي: المغرب والجزائر وتونس مستعمرات كلها لفرنسا آنذاك، فإن هذه الدول الثلاث لم تنفذ أمر حكومة فيشي بالتسليم للألمان معلنة الحرب ضد الألمان بجانب الإنكليز وحلفائهم.

جيش فرنسا الحرة:

كان القادة الفرنسيون الذين يحكمون هذه البلدان الثلاثة، قد أعلنوا فور استسلام باريس، أنهم سيقاومون بجانب الحلفاء، ومن الواضح أنَّ أحرار فرنسا الذين تمكنوا من الإفلات من قبضة الألمان، قد اتجهوا إلى

تلك البلاد، وانضموا إلى زملائهم في المغرب والجزائر وتونس، ووحدوا جيوشهم في جبهة واحدة سميت: «جيش فرنسا الحرة» تحت زعامة الجنرال ديغول.

كانت تدعمهم، وتمدهم، لندن بما تستطيع من عتاد، وبالفعل فقد تكوَّن من هذه الجيوش الفرنسية الثلاثة، التي كانت موجودة على أرض تونس والجزائر والمغرب، جيش له قوته وخَطَرُه، اتَّجه إلى محاربة الألمان من خلفهم من الأراضي التونسية، ومعنى ذلك: أنَّ جيش رومل أصبح يقاتل جيشين لا جيشاً واحداً، جيشاً من الشرق يقوده ويغل، وهو الذي اشتدت معنوياته، وارتفعت عزيمته نتيجةً لما تحصل عليه من أعتدة وسلاح من الطليان، فضلاً عن التأثير المعنوي في وسائل الإعلام الذي أحدثته هزيمة الطليان تلك.

كما كان رومل يقاتل جيشاً آخر قادماً من الشمال الغربي من جهة تونس ومن الواضح أن الجنود الألمان الموجودين في الساحة لا تبلغ نسبتهم بالنسبة لهذين الجيشين، أكثر من ٣٠٪ على أكبر تقدير، ومع ذلك فقد استطاع رومل أن يوقف الجيش القادم من الشمال الغربي أكثر من ثلاث سنوات، دون أن يستطيع أن يتقدم إلى جهة الشرق، وفي الوقت نفسه كان يتعامل مع جيش ويغل من الشرق كما يعامل القط الفأر.

مدينة طبرق الليبية:

كانت مدينة طُبْرُق الليبية بين الجيشين: جيش رومل وجيش ويغل مرات ومرات، فما يكاد جيش ويغل يحتل هذه المدينة حتى يستردها الجيش الألماني مرة أخرى.

ريتشي بدلاً عن ويغل:

استمر الوضع في تلك الجبهة قرابة عام، كانت الحرب فيه سجالاً، فلم يكن في مقدور رومل أن يتقدَّم إلى الشرق؛ لانشغال قيادته بالسيطرة على دول أوروبا وممالكها، وبعد ذلك الجبهة الروسية، مما يجعلها غير

قادرة على إمداده بالعدد الكافي من الجند والعتاد، مما جعله يعتمد على نفسه، وعلى ما هو موجود لديه من جند وعتاد في مواجهة هذين الجيشين، ومع ذلك فقد اضطرت لندن بعد أن أخفق قائدها (ويغل) في إلحاق الهزيمة برومل، رغم ما وفرته له من جند، إلى سحبه من الميدان، وتعيين جنرالاً آخر اسمه (ريتشي) بدلاً عنه.

تسلَّم القائد الجديد دفة القيادة لجيش الشرق بدلاً من الجنرال (ويغل) الذي عُزِل، وطَبَّلت لندن أسابيع وأسابيع لهذا التعيين الذي تصوَّرت أنه سيلحق الهزيمة برومل لا محالة، ولكن مضى عام كامل دون إحراز أي تقدُّم على يد القائد الإنكليزي الجديد، بل كان (رومل) يراوغه ويسخر منه، ويلحق به الهزيمة في أيِّ اشتباك يقع بينهما.

ألكسندر بدلاً عن ريتشي، ثم قائداً ثالثاً هو أوكنلك:

لم تجد لندن بُدّاً من تغيير القائد الجديد ريتشي، لفشله مدة عام كامل من أن يلحق أي هزيمة برومل، فسارعت بتعيين قائدٍ آخر حلَّ مكانه، ويدعى (ألكسندر)، ولم يكن نصيبُ هذا القائد الأخير بأفضل من نصيب زميليه السابقين، فقد أمضى قرابةَ عام ونصف، دون أن يُحدِثَ في جبهته أي تغيير في مصلحة لندن، وهنا مرةً ثالثة استُبدِلَ الجنرال ألكسندر بجنرال آخر يدعى أوكَنلَك، وظلَّ هذا القائد يحاول ما وسعه الجهد إلحاق الهزيمة بخصمه رومل، ولكنه لم يستطع.

خطأ هتلر الذي أصابه بمقتل:

كانت الأحداث خلال أعوام ١٩٤٠ ـ ١٩٤١ ـ ١٩٤٢ ـ ١٩٤٣م قد تطوَّرت، وأخذت مجرى آخر بَدَت فيه بوادرُ الحرب، ونتائجها، متأرجحة وغامضة، فهتلر ما كاد ينهي معركة دَنْكَرْك، حتى أخذت مطامعه وغروره تُزَيِّن له افتراس الدب الروسي، وكان قد أبرم معه في بدء الحرب اتفاقاً يقضي بعدم الاعتداء بين الدولتين، وقَّعه عن الجانب الألماني وزير الخارجية روبين تروب.

افتراس الدب الروسي:

زَيَّن لهتلر غرورُه وطموحاته أنَّ من السهل عليه، وقد أخمد جميع المقاومة في عواصم أوروبا، وأذعنت شعوبها لمشيئتهِ وإرادتهِ، وفي الوقت نفسه ألحق ببريطانيا أشدَّ أنواع الدمار، وأعنف الضربات التي جعلتها تترنح، وينتظر العالم استسلامها يوماً بعد يوم، زيَّن له غروره أنَّ في وسعه الآن أن يفترس روسيا بكلِّ سهولة ويسر غير مُتَّعظ بمئات الألوف من الجنود الفرنسيين الذين ابتلعتهم الثلوج في سهول روسيا، وهضابها، عندما زين لنابليون غروره، بأنه قادر على احتلالها، وكان ذلك في أواخر القرن الثامن عشر.

غرور هتلر وتهوره:

لم يُقِم هتلر أي وزن أو اعتبار لوضع روسيا الجغرافي، ولا لمواردها الهائلة، بشرية كانت أو مادية، ولا لاتِّساع رقعة أراضيها، ولا لما أحاط بها من أحداث على مرِّ التاريخ، لم يُقِم لذلك أي وزن، ولم يُعِرهُ أيَّ اهتمام، بل أصدر أوامره ـ رغم معارضة قادتهِ ومستشاريهِ ـ لقادة الجحافل الألمانية، بأن تنطلق ذات يوم فجأةً، وعلى غير انتظار كالإعصار المدمَّر، مكتسحةً كلَّ ما يقف أمامها باتجاه الأراضي الروسية، وكان هذا الغرور من هتلر نقطة البداية في تقرير مصير الحرب النهائي.

على أبواب ستالينجراد:

اندفعت الجيوش الألمانية، وكانت قرابة مائة وخمسين فرقة، على امتداد الجبهة الروسية مع أوروبا، وما هي إلا شهور قليلة، حتى كانت هذه الجيوش تدقُّ أبواب ستالينجراد، بعد أن اجتازت أوكرانيا، وجميع المناطق الروسية، ووصلت في زحفها من الجنوب الشرقي إلى مدينة سباستول.

كانت الجيوش الروسية المقاوِمة تتقهقر على امتداد كافة الجبهات، متكبدةً أفظع الخسائر في العتاد وفي الجنود، إذ لم تكن مستعدةً للحرب نظراً لاطمئنانها لمعاهدتها مع الألمان.

كان لهذا التهور من هتلر بإعلانه الحرب على روسيا فرصةً ذهبيةً لبريطانيا، التي كانت وحدها آنذاك في الميدان، تتلقى الضربات الألمانية. كان يرأس وزارتها السياسي العبقري السير ونستون تشرشل - كما أسلفنا - الذي استطاع أن يُكوِّن من دول الغرب الثلاث تونس والجزائر والمغرب جيشاً لَجِباً يحسب له حساب.

لنترك الجبهة الشرقية، جبهة رومل، ومقابلة الجيش الثامن، أو جيش الشرق، كما كانت وسائل إعلام الحلفاء تسمِّيه آنذاك، ولنتجه إلى الجبهة الروسية، متابعين سير الأحداث.

سير الأحداث في الجبهة الروسية:

كانت خطوط الإمدادات العسكرية الألمانية قد طالت وامتدت إلى ألوف الكيلومترات عن مصادر تمويلها، وتزويدها بما تحتاج من جند وعتاد، والجبهة الروسية وإن كان المدافعون عنها يتكبدون يومياً المئات، بل الألوف، ما بين قتيل وأسير، فضلاً عن الكميات الضخمة من عتاد الحرب كالدبابات والمدافع والمصفَّحات، إلا أنها كانت تبدي مقاومةً عنيفةً، وخاصةً بعد أن أفاقت من تأثير الصدمة الأولى للحرب، فقد أخذ الجنود الروس يبدون من المقاومة الشرسة، والدفاع المستميت عن بلادهم، ما جعلهم يُلحِقون بالجيش الغازي الألماني من الخسائر ما لا يُستهان به، وكلما تقدَّم الألمان في عمق الأراضي الروسية، كانت حماسة الألمان تفتر، شيئاً فشيئاً، بعد أن فُوجئوا بهذا الطوفان الضخم، من الجنود الروس ومن اتّساع ساحات المعارك، لتشمل ألوف الكيلومترات مما يشتِّت القوى الألمانية، ويُضعف قوة اندفاعها، ولم يَدر بخلد هتلر، أنه بدلاً من أن يبتلع الدب الروسي، ويقضي عليه فإنَّ هذا الدب عَكَسَ الآية.

انضمام طوكيو إلى دول المحور:

خلال تلك الفترة، وأخالها في عام ١٩٤٢م، أعلنت طوكيو الحرب على الحلفاء، منضمة إلى دول المحور.

كانت اليابان آنذاك مدججة بالسلاح من رأسها إلى أخمص قدمها. كانت تمتلك جيشاً ضخماً، يمتلك أحدث ما أنتجته آلة الحرب حتى ذلك الوقت.

الإمبراطور هيروهيتو:

كانت اليابان إذ ذاك تسيطر على مقاطعة ضخمة من الأراضي الصينية وعلى شبه جزيرة كوريا، وكان جيشها مدرباً أحسن تدريب، يمتلك ألوف الطائرات فضلاً عن الدبابات، والمدافع، والبوارج، والغواصات.

وكان الجيش الياباني يلتف حول رمزه الأعلى، وهو إمبراطوره (هيروهيتو)، الذي كانوا يعبدونه عبادةً مطلقة.

أطماع اليابان التوسعية:

رأى قادة الحرب، ورجال السياسة في طوكيو، أن يمتدوا بمطامعهم؛ ليوسِّعوا رقعة إمبراطوريتهم إلى أقصى حد ممكن، مستفيدين من الظروف التي تهيَّأت لهم على غير انتظار، وأصبحت مواتية لهم، ومطلقة لأيديهم، ليفعلوا ما يحلو لهم، تلك الظروف هي انحسار نفوذ المستعمرين الغربيين عن جنوب شرق آسيا، الهند الصينية، وما يجاورها من ممالك وشعوب، والمستعمرات الأندونسية على سعتها وامتدادها، مضافاً إلى ذلك شعوب بورما وماليزيا وسنغافورة، وكذلك الهند إذ أنَّ الدول التي كانت تسيطر على هذه الممالك والشعوب قد استسلمت لقبضة الألمان، وأصبحت هذه الممالك جبهات مفتوحة، ولقمة سائغة لأول مقتحم لها، فأندنوسيا التي كانت خاضعة للتاج الهولندي، والهند الصينية وما جاورها من ممالك وشعوب من تلك التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي، وبورما والهند وسنغافورة وماليزيا، التي كانت تابعةً للتاج البريطاني أصبحت جميعها فريسة لا حامي لها.



ابتلاع اليابان لدول جنوب شرق آسيا:

قدَّر الساسة والقادة العسكريون في طوكيو أنَّ أول لقمة يجب أن يبتلعوها هي الاتجاه إلى الجنوب الشرقي، أي إلى أندنوسيا والفليبين، وبقية الممالك التي أوضحناها.

كان زحفهم على تلك الممالك عنيفاً وسريعاً ملأت نفوسهم نشوةُ النصر، وأخذ منهم الغرور كلَّ مأخذ، وسهَّل لهم فقدانُ المقاومة فرصةَ مكنتهم بأن يطووا أوسع المساحات من أراضي تلك الدول، في أقصر وقت ممكن.

الهجوم على الأسطول الأمريكي:

وإذ حقق اليابانيون تسعين في المائة من طموحاتهم، وبسطوا سيطرتهم ونفوذهم على تلك الممالك والشعوب، التي ذكرناها، وإذ كان يوجد آنذاك، وفي ميناء بيرل هاربر (ميناء اللؤلؤ) بالولايات المتحدة الأمريكية مجموعات ضخمة من قطع الأسطول الأمريكي محتشدةً في ذلك الميناء، فقد قرر القادة اليابانيون أن يشنُّوا هجوماً صاعقاً على قِطع ذلك الأسطول، فيغرقوه عن بكرة أبيه. وفعلاً نفذوا ذلك المخطط، وأودعوا أكثر من ٨٠٪ من ذلك الأسطول في أعماق المحيط، الأمر الذي حمل واشنطن على أن تعلن الحرب على دول المحور الثلاث اليابان وإيطاليا وألمانيا، وهنا يقف التاريخ ليدير عجلة الحرب إلى منحى آخر بمعدل لا يقل عن مائة وثمانين درجة.

مغامرة طائشة متهورة:

وإذا كنا نعدُّ ما أقدم عليه القادة العسكريون في طوكيو، من مهاجمة الأسطول الأمريكي على حين غرة، ودون أن تدخل أمريكا في الحرب، مغامرة طائشة متهورة، لا يسندها أي قسط من التفكير، لأنه لم يعلن عن أي أسباب مبررة لهذا الهجوم، فإنه من الواضح أنَّ القادة العسكريين في طوكيو، لا يمكن عقلاً أن يُقْدموا على مثل تلك المغامرة الحمقاء بدون

دراسة مسبقة، وبدون حسابات دقيقة، شجعتهم على مثل تلك المغامرة، بيد أن تلك الحسابات، وذلك التقدير قد ظلَّ طي الكتمان، ولم يعلن عنه طيلة سني الحرب، وقد يكون أميط اللثام عنه بعد نهاية تلك الحرب، وهزيمة اليابان، بيد أننا لم نعلم عنه شيئاً.

دخول أمريكا الحرب بجانب الحلفاء:

كان اتجاه هتلر إلى محاربة روسيا، ودفعه لمئات الفرق من جيوشه صوب أراضيها، فرصةً ذهبيةً بالنسبة للإنكليز أتاحت لهم أن يتنفسوا الصعداء، لقد ساهمت في تخفيف تلك الضربات التي كانت توجَّه لهم بعنف وقوة، ثم أعقب ذلك قيام طوكيو بانضمامها إلى دول المحور، ثم مغامرتها الحمقاء في ضرب الأسطول الأمريكي، كما أسلفنا، فكانت نتائج ذلك كله أن خاضت أمريكا الحرب، بكامل قواها الهائلة، ومواردها الضخمة، إلى جانب الحلفاء.

وضع الحرب في الجبهة الشرقية في إفريقيا:

كان الوضع في ميادين الحرب خلال عام **١٩٤٠ـ ١٩٤١** بالنسبة للجبهة الشرقية جبهة أفريقيا، استمراراً لحركة الكر والفر بين الجيش الثامن البريطاني الموجود على قسم من الأراضي الليبية، والأراضي المصرية، وبين الجيش الألماني الذي كان يرأسه ثعلب الصحراء رومل.

وضع الحرب في أوربا:

مرَّت تلك السنوات والوضع أشبه بلعبة القط مع الفأر، أمّا عن الساحات الأوروبية، فقد كانت جميع ممالك القارة وشعوبها، في قبضة الرايخ الألماني، وهذه الشعوب المغلوبة تمتلك الكثير من مصانع السلاح في بولندا وتشيكوسلوفاكيا وصربيا، وكل دول أوروبا تقريباً فيها مصانع أسلحة، وفي طليعة هذه المصانع مصانع كروب الألمانية الشهيرة الضخمة والمصانع الفرنسية.

إدارة الألمان للدول المهزومة:

كان الشعب الألماني وحده آنذاك هو العنصر الذي يحمل عبء تلك الحرب، في الساحات الأوروبية، وهذا الشعب قد جنَّد من أبنائه مئات الفرق، التي دفع بها إلى الشرق صوب الأراضي الروسية، ومن الواضح أنَّ هذه الممالك والشعوب التي استسلمت لألمانيا يتطلب الحال أن تدار أمورها في مختلف مرافق الحياة بعناصر من الجيش الفاتح، سواء كان في إدارة المصانع ودور السلاح، أو كان في الإدارات المدنية، أو إدارات الأمن والحفاظ على النظام، فمن الواضح أن العنصر المنتصر لا يثق ولا يطمئن بالعنصر المهزوم؛ لأنَّ كلاً منهما عدوٌ للآخر، ولهذا فقد كان لِزاماً على الألمان أن يبعثوا بألوف الأفراد من أبنائهم، مدنيين أو عسكريين، لإدارة الأمور في تلك الدول المهزومة.

تخريب المصانع الألمانية:

أخذت آلة الحرب في الجبهة الروسية تستهلك يومياً مئات الأطنان من العتاد والسلاح. كانت المصانع ودور السلاح في أول الأمر قادرة على أن تعوِّض ضعف ما تخسره الجبهة يومياً من عتاد وسلاح، لكثرة تلك المصانع، ووفرة إنتاجها، بيد أنَّ العكس هو الواقع في آخر الأمر؛ لأنَّ الأيدي العاملة التي تقوم بتشغيل تلك المصانع هي أيد وطنية، ومن يشتغل بهذه المصانع هم من أبناء البلاد المهزومة، وبالتالي فإنه لا يمكن أن ينتجوا عملاً يقوِّي عدوهم المحتل، ولذا فقد كانوا يلجؤون إلى شتى الحيل لإعاقة الإنتاج وتخريب المصانع، وكان الألمان مضطرين إلى أن يكرِّسوا الألوف من رجالهم لإدارة هذه المصانع.

الأسطول الأمريكي:

كان ردُّ الفعل الأول من الأمريكان على ضرب أسطولهم في ميناء اللؤلؤ (بيرل هاربر) أن أعلنوا الحرب على دول المحور.

أخذت إمداداتهم بالسلاح والطائرات والدبابات والمدافع والسفن،

وجميع آلات الحرب الحديثة، تتوالى على شكل قوافل متلاحقة من سفن الأسطول الأمريكي، على مختلف أنواعها عابرةً المحيط الأطلسي، لتُفرِغ حمولتها في الموانىء البريطانية، مما شدَّ من أزر الإنكليز، وأعاد الطمأنينة إلى نفوسهم، والثقة بأنَّ النصر في هذه الحرب سيكون حليفهم، ولذا فقد اشتدت شوكتهم، وأخذوا يكيلون الضربات الجوية يومياً على المدن الألمانية، وعلى خطوط الإمدادات، وعلى جميع المرافق الحسَّاسة لآلة الحرب، وأصبحوا مهاجِمين بعد أن كانوا مُدافِعين.

لقاء رؤساء دول الحلفاء:

أعقب ذلك لقاء بين القادة الكبار من دول الحلفاء: الرئيس الأمريكي فرانكلن روزفلت، ورئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل، والرئيس الروسي ستالين.

إيصال معدات الحرب إلى روسيا:

كان المحور الرئيس والهاجس الأول لتفكيرهم هو الكيفية التي تمكِّنهم من إيجاد طريق يستطيعون بواسطته إيصال معدات الحرب إلى الأراضي الروسية، عبر أراضٍ آمنة بعيدة عن يد الألمان وحلفائهم.

كانت الطريقة التي توصَّلوا إليها أن يتم نقل الأسلحة الأمريكية من طائرات ومدافع ودبابات وأجهزة وذخائر عن طريق الخليج العربي، ومن هناك تفرغ في الموانىء الإيرانية، ومن ثَمَّ تنقل إلى روسيا عبر الأراضي الإيرانية بواسطة السكك الحديدية، ولذلك فقد باشروا فوراً بإرسال مئات المهندسين الأمريكان والإنكليز الذين ما كادت أقدامهم تطأ الأراضي الإيرانية حتى باشروا العمل ليلَ نهار في مد خطوطٍ حديدية، تبدأ من الموانىء الإيرانية متَّجهةً إلى الشمال الشرقي في عمق الأراضي الروسية التي لا زالت بعيدة عن جبهات الحرب مع ألمانيا.

خلع رضا شاه بهلوي وتولية ابنه محمد رضا:

وإذ كان حاكم إيران آنذاك رضا شاه بهلوي، الذي كان جنرالاً في

الجيش الإيراني، قد قام بانقلاب على آخر شاه من أسرة آل قاجار، التي كانت تحكم إيران منذ أكثر من مائة عام، ثم نَصَّبَ نفسه إمبراطوراً على إيران تحت اسم رضا بهلوي شاه إيران، متهماً من قبل الدول الثلاث أعني بها أمريكا وبريطانيا وروسيا بميوله مع النازية، أي مع هتلر وحلفائه: فقد عمد هؤلاء القادة الثلاثة لخلع هذا الحاكم رضا شاه بهلوي، ونفيه إلى أمريكا الجنوبية، ومن ثم تنصيب ابنه الشاب محمد رضا بهلوي وهو الشاه الذي أسقطت عرشُه عمامة الخميني.

تدفق العتاد إلى روسيا عبر إيران:

أخذ العتاد يتدفق إلى روسيا عبر إيران، بدون أن يتمكن الألمان من إيقافه، نظراً لبعد طرقه عن متناول أسلحتهم، وإن كانت الغوَّاصات الألمانية قد أهدت إلى أسماك المحيطات والبحار الكثير الكثير من السفن التي أغرقتها بطوربيداتها القاتلة.

كان وصول الإمدادات القادمة من أمريكا إلى الساحة الروسية عبر إيران، بمثابة دم جديد أعاد إلى الجبهات الروسية الممتدة على ألوف الكيلومترات الحيوية، والقدرة على المقاومة الفعّالة، بحيث اشتدت مقاومتها للجيش الألماني الغازي.

حصر الجيش السادس الألماني:

وكان أول نتيجة لهذا الوضع أن استطاع القادة الروس أن يحصروا، ولأول مرةٍ في تاريخ تلك الحرب الجيش السادس الألماني البالغ تعداده مائتين وخمسين ألف جندي، بقيادة المارشال الألماني فون باولس، ومن ثم يرغموه على الاستسلام بكامل أسلحته، وكان في ذلك طعنة مميتة جعلت هتلر يترنَّح من هول الصدمة.

كان الجيش الألماني قد توغَّل في عمق الأراضي الروسية إلى أن تمكن من الوصول إلى ستالينجراد، ومحاصرتها، وكان ذلك خلال فورة اندفاعه الأولى، وقبل أن يصل العتاد الأمريكي إلى الجبهات الروسية.

صمود مدينة ستالينجراد في وجه الألمان:

وإذ وقفت تلك المدينة الباسلة ستالينجراد في وجه الغزاة الألمان موقف البطولة المستميتة، فأنهكت قواهم، وكبَّدتهم من الخسائر بشراً وعتاداً، لم يدر في خلد الألمان، فقد ظلت شهوراً طوالاً تقاتلهم من شارع إلى شارع، ومن بيت إلى بيت، وكانت إذاعات دول المحور تنقل إلى العالم بأن يترقب سقوط هذه المدينة البطلة ما بين ساعة وأخرى ومع ذلك استطاعت هذه المدينة الصمود، والمقاومة الشرسة، رغم رداءة السلاح، وضعف الإمكانيات في بادىء الأمر.

النكسة الثانية لهتلر:

كانت النتيجة أن دُحر الألمان، ورُدُّوا على أعقابهم بعد أن فقدوا بين أحضان شوارع تلك المدينة، وبطاحها، الألوف المؤلفة من الرجال والعتاد، وكان ذلك بمثابة النكسة الثانية لهتلر.

تغيُّر موازين القوة والضعف:

تغيرت موازين الحرب بعد دخول أمريكا طرفاً فيها بجانب لندن وموسكو.

كانت القارة الأوروبية بأسرها تحت القبضة الألمانية، وبذلك كانت أوروبا أشبه بقلعة محصنة، ولكن هيهات إنها قلعة محصنة ظاهرياً فقط، لسيطرة الألمان على جميع نواحي الحياة فيها، سواء المدنية أو العسكرية، بيد أنَّ الواقع غير ذلك، فأوروبا هذه هي جبهة عسكرية مقاوِمة تقاتل الألمان بكل شراسة وعنف، فالأحرار من أبنائها، وبجمعياتهم السرية المنتشرة في كل زاوية من الأرض الأوروبية يعملون ليل نهار في تكبيد الألمان أفظع الخسائر، ماثلاً ذلك في تخريب المصانع، وفي نسف السكك والقطارات، وفي تفجير مستودعات السلاح، وفي اغتيال القادة الألمان، سواءً كانوا عسكريين أو مدنيين.

انحسار سيطرة الألمان على البحار:

كانت سيطرة الألمان على البحار قد ابتدأت تنحسر نتيجةً لعدد

الأساطيل البحرية الهائلة التي أنزلتها أمريكا إلى الساحة على مختلف أنواع تلك السفن، تجارية أو حربية، وهي أعداد ضخمة تمثل أحدث ما ابتكره الفن الحربي بالنسبة للسلاح، وبالتالي فقد أخذت هذه السفن تتصيد الغوَّاصات الألمانية على امتداد وجودها في البحار والمحيطات.

الحيلولة دون وصول ناقلات البترول إلى ألمانيا:

ومن الواضح أنَّ من أوليات الأهداف التي وضعتها هذه الأساطيل أمامها هي الحيلولة دون وصول ناقلات البترول إلى ألمانيا، بحيث أخذ المخزون الألماني من هذه المادة الحيوية يتناقص شيئاً فشيئاً، ومعروف أنَّ آلة الحرب تعتمد بالدرجة الأولى على البترول في تموين الطائرات المحاربة، وفي تموين المصانع والدبابات والسفن، وجميع الوسائل التي تعضد آلة الحرب.

كانت المصانع في قلب أوروبا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ تعمل ليلَ نهار، وهي مصانع ضخمة تحت حراسةٍ يقظةٍ من سلطان جنود الاحتلال الألماني، بيدَ أنَّ العاملين في هذه المصانع هم من أبناء هذه البلاد المغلوبة المحتلة.

ضرب المصانع الألمانية وتدمير المرافق:

أخذت أفواج الطائرات تتعاقب على امتداد ساعات الليل والنهار، على أجواء أوروبا، واضعة أهدافها في ضرب المصانع، ونسف السكك، وتدمير المرافق المهمة.

الطائرات المغيرة:

وكانت أعداد الطائرات المغيرة لا تقل عن ثلاثة آلاف طائرة، تلقي أطناناً هائلة من القنابل والصواريخ فتدمر المصانع، ولكن ما تكاد تمضي ساعات على انتهاء الغارة حتى يتم إصلاح ذلك المصنع ليعاود نشاطه في الإنتاج من جديد.

الطابور الخامس في أوروبا:

كانت الجمعيات السرية في تلك الدول التي شكلها المواطنون تمثل طابوراً خامساً في المصانع ضد الألمان، فما يكاد المصنع المدمَّر يعود إلى الإنتاج حتى يرسل عماله إشارات ورموزاً متفق عليها مع قيادة الحلفاء فتعود تلك الطائرات مرةً أخرى لتدميره.

كانت الجبهات الألمانية في روسيا، وفي القرم، وفي الجبهة الليبية قد ابتدأت تعاني من قلة الإمدادات، وتناقص تمويل البترول الذي يغذي الدبابات والمدرعات والطائرات مما حدَّ من فعاليات تلك الجيوش، وجعلها تنكفىء إلى الدفاع بدلَ الهجوم، وتمثل ذلك في مدينة سباستبول، ومدينة ستالينجراد وجبهة رومل.

ظلت الحرب تزداد قوةً وعنفاً، وثقةً بالنصر بين صفوف الحلفاء. وبالعكس من ذلك جبهات المحور، التي بدأت تفيق من غرورها وأحلامها وتحسُّ بالأخطار التي ابتدأت تحيط بها، ومعنى ذلك أنَّ الجيوش الألمانية في مختلف الساحات قد عمدت إلى الدفاع بدل الهجوم، وأصبحت السيطرة الجوية، والسيطرة على مواصلات البحار، في قبضة الحلفاء.

أيزنهاور قائد جيوش الحلفاء في أوروبا:

كانت أمريكا قد اختارت أحد قادتها العسكريين البارزين وهو الجنرال دوايت أيزنهاور، ليتولى قيادة جيوش الحلفاء في أوروبا، كما عينت الجنرال ماك أرثر، ليكون قائداً لجيوشها وأساطيلها في الشرق لمحاربة اليابان.

العبور إلى الأراضي الإيطالية:

نتيجةً لذلك أخذ الحلفاء في رسم الخطط، التي تمكنهم من نقل جيوشهم إلى داخل قلعة هتلر، في الأرض الأوروبية، وقد تمَّ ذلك فعلاً، فقاموا بأول حركة إنزال في النقطة الأضعف في قلعة هتلر تلك وهي إيطاليا، وقاموا بحركة إنزال واسعة في مدينة (باليرمو) في صقلية، ومن ثمَّ

عبروا إلى الأرض الإيطالية، وما هي إلا أيام قلائل، حتى سلمت حكومة موسوليني للغزاة، وبذلك تمكّن الحلفاء من حشد العشرات من الفرق، وآلات الحرب في إيطاليا، وقد عمد الحلفاء إلى القبض على موسوليني، وسجنه في قلعة في قمةِ جبلٍ عالٍ أشبه بوكر النسر؛ استسلمت إيطاليا وألقت سلاحها وأصبحت الطِّعنات توجَّه إلى خاصرة ألمانيا مباشرةً من الأرض الأوروبية.

البدء بمحاصرة ألمانيا:

لم تمضِ عدَّةُ أشهر حتى أتمَّ الحلفاء إنزالهم الشهير الضخم في منطقة (نورماندي) في شمال فرنسا، وأعقب ذلك ابتداء إحكام قبضة الحلفاء على رقبة هتلر بشكل تدريجي، ولكن بعنف وقوة.

وقوع ألمانيا بين فكي الأسد:

مضت الحرب في أحداثها، وأعقب ذلك انكماش الجبهات الألمانية، وانكفاؤها رويداً رويداً باتجاه الأرض الأم، أرض ألمانيا، ثم كانت النتيجة الحتمية أن وقعت ألمانيا بين فكي الأسد، جيوش الحلفاء، يقودها الجنرال أيزنهاور من الغرب، وجيوش الروس يقودها جاكوف ومالنكوف وغيرهم من القادة من جهة الشرق، وأخذت هاتان الجبهتان تتجهان للتلاقي، حتى تمَّ لهما النصر في نهاية الأمر، إذ انتحر هتلر، واستسلمت ألمانيا بدون قيد أو شرط، وشُكلت محكمة «نورنبرج»، لمحاكمة مجرمي الحرب، كما أُلقيت على كل من هيروشيما ونجازاكي في اليابان قنبلتان ذريتان، كان في إسقاطهما القول الفصل في إرغام الجيش الياباني بالتسليم على الفور، دون قيد أو شرط، للجنرال الأمريكي ماك آرثر.

إسدال الستار على المجزرة العالمية المروعة:

وبذلك أسدل الستار على هذه المجزرة العالمية المروعة التي طوت بين ثناياها عشرات الملايين من البشر الأبرياء، فضلاً عن الخراب والدمار،

الذي عمَّ مدن أوروبا كلها تقريباً، كل ذلك كان نتيجة نزوة فردٍ واحد، تُرك له العنان حتى فعل ما فعل، وهو يعطي الدليل عن معنى حكم الفرد.

تلك لمحات عابرة، أو هي على الأصح خطوط عامة لمجريات تلك الحرب، ذكرناها بكل إيجاز، تاركين تفاصيلها، وأحداثها لما أنتجته المطابع من عشرات الكتب، التي احتوت على تفاصيلها، والتي كُتبت بأقلام قادتها، تاركين لمن يريد البحث والاستقصاء الرجوع إلى تلك الكتب ليروي ظمأه بالإحاطة عن تفاصيلها ودقائقها.

(عود على بدء) متابعة الأخبار بالراديو:

مرَّ بنا سابقاً خلال سرد هذه الخواطر حصولُنا على جهاز استقبال (راديو)، وأنَّ هذا الجهاز كان حلقة الوصل بيننا وبين العالم الخارجي، فكنا كما سبق أن أسلفنا نقع في مَهْمَهٍ قفر على حدود العراق الجنوبية، وسكان القصر الذي كنا نقيم فيه، وهو مركز (أم رضمة) معزولاً، وكان يحتوي على مجموعة من الأشخاص، لا يتجاوز عددهم تقريباً ستين فرداً ـ على أكبر تقدير ـ يتكون عددهم من الأمارة وخوياها، والجنود وضباطهم، وإدارة اللاسلكي وموظفوها، وكذا إدارة الجمرك.

الصلة بالعالم الخارجي:

كانت هذه المجموعة ترتبط بالعالم الخارجي عن طريقين: أحدهما: جهاز الراديو، والآخر: سيارة جلب الأرزاق لهذه المجموعة من الكويت في نهاية كل شهر، كما سلف أن ذكرنا.

كانت هذه المجموعة متناغمة متجانسة، لا فرق بين أمير أو مدير، أو موظف أو حارس. كنا نلتف حول جهاز الراديو في مجموعة، مساءَ كلِّ يوم، من بعد المغرب مباشرةً حتى الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي، أي ما يقابل العاشرة بالتوقيت الزوالي، أما أنا شخصياً، فإني ملازم للاستماع طيلة ساعات النهار، عدا ساعات العمل.

كنتُ أحرص أشدَّ الحرص، على الاستماع للأخبار التي، يذيعها

مصدرا الطرفين المتحاربين: لندن وبرلين، مضافاً إلى ذلك الإذاعة المحايدة التي تذيع الأخبار والتعليق المحايد على مجريات الأحداث، وأعني بها إذاعة أنقرة بتركيا.

رسائلي إلى صديقي الزغيبي:

وكنتُ من جانبي أدوِّن كتابياً ما أستمع إليه، ثم أعلِّق عليه، حسب ما يتكوَّن لديَّ من مجريات الأحداث، كان هناك صديق ـ وهو في الواقع أكثر من أخ شقيق لي ـ تربطني به زمالة الدراسة في أيام الصِّبا في أحد كتاتيب مدينة عنيزة، والمعروف بكُتَّاب عبدالعزيز الدامغ بحي السويطي بعنيزة.

كان هذا الصديق معالي الأخ: محمد المرشد الزغيبي، يعمل موظفاً في الشعبة السياسية، ويرأسها يوسف ياسين في الديوان الملكي في الرياض، وبطبيعة الحال فإن ظروف الحرب قد أوقفت انتقال الصحف العربية، ولكن بالنسبة للشعبة السياسية فكانت الوحيدة التي لم تنقطع عنها الصحف العربية سواء صحف مصر أو العراق أو سوريا.

كانت الرسائل بيني وبين هذا الصديق متواصلة، فلا يمضي شهر دون أن تردني منه رسالة أو يرد إليه مني مثلها.

كانت الطريقة التي يتم بها هذا التواصل بيننا هي سيارة البريد التي تنقل البريد، من الرياض إلى الكويت، وبالعكس، مرتين في الأسبوع، وهي سيارة مخصَّصة فقط لنقل البريد.

كان المشرف عليها محمد فقيها، كنت أرسل رسالتي إلى أحد أصدقائي في مركز (قرية)، وهو عثمان العيوني، مدير لاسلكي قرية آنذاك فيودعها مع بريد الرياض، أو بالأصح يسلمها لمأمور السيارة محمد فقيها. كما تردني رسالة الصديق محمد المرشد على السيارة نفسها، وعن طريق هذا الشخص نفسه، محمد فقيها، الذي يُسلِّم الرسالة الواردة باسمي من الرياض إلى عثمان العيوني هذا، وبدوره يقوم عثمان بإرسال هذه الرسالة لي مع إحدى سيارات الدوريات التي تتجوَّل على الحدود ما بين قرية وأم رضمة، وبقية الحدود كل أسبوع.

كان هذا الصديق، أبا مرشد، يكتب إليَّ عن صدى الرأي المنتشر آنذاك بين موظفي الديوان الملكي، بما فيهم الشعبة السياسية، وكان مضمون هذا الصدى أنهم يترقبون سماع كلمة «حي العرب» ينطقها يونس البحري عبر إذاعة برلين، بكل لهفة وشوق، تغمر جوانحهم الحماسة لانتصارات الألمان والشماتة المغرقة في دول الحلفاء وبالأخص العجوز الشمطاء بريطانيا.

وكنت في مبدأ الأمر في السنوات الأولى للحرب عام **١٩٣٩** و **١٩٤٠** و **١٩٤١**، أشاطرهم حماسهم، إن لم أفقهم في هذا الحماس.

كان أبو مرشد يقوم مشكوراً، بتجميع كل ما يتجمّع لديه من الصحف العربية، ثم يضعها في صندوق يبعثها إليَّ في نهاية كل شهر مع سيارة البريد تلك، ويتولى الصديق عثمان العيوني بعثها إلي بدوره في أم رضمة.

كنت أترقب وصول هذا الصندوق، في نهاية كل شهر، بلهفة ما بعدها لهفة، وأغتبط به عند وصوله كظمآن مشرف على الهلاك في مَهْمهٍ قَفْر، في جمرة القيظ، فجأةً وجد الماء بين يديه.

موظفو الديوان الملكي:

ظلّت الحال على هذه الوتيرة طيلة سنوات الحرب الأولى، كان هناك في الديوان مجموعة من موظفيه، يضمُّهم مجلس واحد في كل ليلة من مختلف شعب الديوان الملكي، بعضهم كأبي مرشد، من الشعبة السياسية، وكالصديق محمد بن منديل، الذي كانت مهمته آنذاك أن يكتب ما يملي عليه جلالة الملك عبدالعزيز من برقيات، أجوبة على ما يصل إلى الديوان باسم جلالته من مختلف أنحاء المملكة، نظراً لسرعة يد هذا الصديق في الكتابة، ولسرعة فهمه بمدلول نطق جلالة الملك عبدالعزيز، وفهم مدلول لهجته، إذ كثيراً ما يرد في أجوبة جلالته بعض الألفاظ التي هي عبارة عن كلمات اصطلح عليها العرف في أنحاء نجد، مثل كلمة (الصَّفري) ومعنى هذه الكلمة هي الوقت الفاصل بين دخول الشتاء وبين انتهاء القيظ، أي باللغة العربية وقت الخريف.

عبدالحميد مشخص:

كان من ضمن تلك الشلة الأخ عبدالحميد مشخص، وهو من أبناء جدة وكان والده يعمل في توزيع البريد القادم من مكة صباح كل يوم، كان الأخ عبدالحميد يعمل موظفاً في جهاز اللاسلكي، داخل قصر المربع، الذي يحتوي أقسام الديوان الملكي.

عبدالرحمن الشبيلي:

كما يوجد ضمن هذه الشلة الصديق عبدالرحمن العبدالعزيز الشبيلي - أمدَّ الله في عمره - وغيرهم من موظفي أقسام الديوان الذين لا تحضرني أسماؤهم الآن.

كانت رسائل أبي مرشد تتضمن خلاصة تنبؤات هؤلاء الشباب واستنتاجاتهم على مجريات سير الحرب، وعن النتائج التي ستنتهي إليها. كانت رسالة أبي مرشد لا تقل عن أربع صفحات، أو أكثر، من القطع الكبير، وكنت أرد عليها بدوري بضعف هذه الصفحات تقريباً، وأذكر أنني كنت أسجل في أعلى أول صفحة من الرسالة عبارة هي «من سانت هيلانة: أو الباستيل، إلى دنيا التاج والصولجان» بمعنى أنني أقيم في (أم رضمة)، وهي تشبه سجون سانت هيلانة أو الباستيل بينما الجماعة يقيمون في رحاب القصر الملكي بالرياض.

تبدل رأيي في نتائج الحرب:

كان الصديق أبو مرشد يزوِّدني، بالإضافة إلى الصناديق المملوءة بالجرائد بعلب الجراك كل ثلاثة أشهر تقريباً، بما لا يقل عن عشرين علبة. يشتري بعضها من الرياض وأغلبها يجلبه من جدة من باعشن، إذ كنت آنذاك لا زلت مدمناً على تدخين الجراك، كما أسلفتُ.

كنت في بادىء الأمر أشاطر أولئك الأخوة آراءهم واستنتاجاتهم وتطلعاتهم إلى مستقبل تلك الحرب، بيد أن نظرتي تلك تغيَّرت فجأةً بمقدار

مائة وثمانين درجة دفعة واحدة فورَ أن سمعت إعلان برلين الهجوم على روسيا.

وعندما وصلت إلى أولئك الأخوة بالرياض رسالتي التي تلت ذلك الإعلان، ورأوا تغيُّر موقفي المفاجىء، ذُهلوا لهذا التحوُّل الذي لم يكن له في نظرهم أي مبرر، ومن ثم تداولوا قراءة رسالتي فرداً فرداً، بدليل أنَّ الرسالة التي وصلت إليَّ جواباً على هذه الرسالة تحمل التنديد منهم برأيي وتعدُّه إغرافاً غير مبرر، وأن روسيا في نظرهم هي عبارة عن بناء من الكرتون، لا يستطيع أن يقف أمام جحافل الفرق الألمانية، وأن الوضع لن يلبث أكثر من بضعة أسابيع حتى تدق أقدام الفرق الألمانية طرقات موسكو وستالينجراد وشوارعهما، وبالتالي يُقضى على الدب الروسي ويقضى على خرافة قوته، وفي الواقع إنَّ لهؤلاء الأخوة مبرراً لرأيهم في أن الجيش الروسي الذي مكث أشهراً عديدة، يحاول أن يقتحم خط «مانرهايم»، الذي أقامته حكومة هلسنكي بفلندا على حدودها الشرقية، إذ كانت قبيل الحرب بسنتين مشتبكة في حرب ضروس مع روسيا. وقد صمد هذا الخط في وجه الجحافل الروسية، ولم تستطع اقتحامه رغم عشرات المحاولات، ورغم ما كانت تمتلكه من قوى هائلة في العتاد والرجال، ومعروف أن فنلندا بمساحتها وسكانها لا توازي مقاطعة من مقاطعات روسيا، كأوكرانيا أو أرمينيا أو جورجيا أو غيرها من المقاطعات، ومع ذلك فقد أرغمت هذه الدويلة الصغيرة أنف الدب الروسي على السقوط في الوحل.

لماذا غيِّرتُ رأيي:

كانت تلك نتيجة تحليلاتهم للموقف الحربي آنذاك، وهم معذورون في نظري نتيجةً لتحليلاتهم تلك، إلا أنَّ الواقع في تقديري الشخصي قد تغيَّر جذرياً مبتدئاً من الصفر، ولذلك فقد رأيت أن تكون إجابتي لهم مفصلةً ودقيقةً، موضِّحاً للأسباب التي رتَّبتُ عليها نتائج رؤيتي الجديدة هذه، وعلى ذلك فقد وجهت إليهم رسالة مطولة حرصت على أن أستوفي الموضوع من

جميع جوانبه مُركِّزاً في ذلك على نقاط محددة واضحة، لا تحتاج إلى نقاش، أو مجادلة وتلك النقاط هي كما يلي:

أ ـ إن دول المحور آنذاك، ولنقل دولة الرايخ وحدها: ألمانيا هي الطرف المقابل للحلفاء في الحرب، فإيطاليا في واقع الأمر، وإن كانت ظاهرياً تحتسب حليفةً لألمانيا، فإنها في الواقع عبء على ألمانيا لا يقل ضررها عن خصوم ألمانيا الآخرين.

أقول: إن ألمانيا كانت في تلك الأثناء قد بسطت سيادتها على كامل القارة الأوروبية، بدون استثناء، مُلغيةً جميع ما عليها من حكومات ودول، فارضةً على الجميع سيطرتها التامة بما في ذلك ما هو موجود آنذاك في هذه الدول من مصانع ضخمة تنتج من عتاد الحرب أحدث ما توصَّلت إليه تكنولوجيا الحرب آنذاك من طائرات وغواصات ومدافع ودبابات وخلاف ذلك، وإنشاء طرق ومواصلات، وكل ما تحتاجه آلة الحرب، وإنه من الواضح أنَّ هذه الشعوب المغلوبة على أمرها، وخاصةً أبناء هؤلاء الشعوب الذين يديرون المصانع، ويعملون فيها ليلَ نهار لحساب عدوِّهم، تحت سياط القهر والبطش، ويعلمون في الوقت نفسه، أنَّ كل قطعة سلاح ينتجونها إنما هي لحساب أعدائهم، وأنها قطعة ستوجه لنحور آبائهم وأمهاتهم وإخوان هؤلاء العاملين.

لذا فإنَّ كل فرد يعمل في أيِّ مصنع من مصانع السلاح داخل أوروبا إنما هو جاسوس على الألمان، ويعمل مُكرَهاً، ويسعى جهد طاقته إلى اغتنام أي لحظة تغفل عين الرقيب الألماني عن مراقبته لكي يفسد ويخرب بدلاً من أن ينتج، مما يستلزم أن يجند ألوف الضباط والمراقبين الألمان لمراقبة هؤلاء العمال في مختلف أنحاء أوروبا، سواء في داخل المصانع في مختلف دول أوروبا أو على الطرق الحديدية، التي تعمل ليلَ نهار ناقلةً الجنود والعتاد إلى مختلف ساحات الحرب لحمايتها من التخريب.

ب ـ وقد تجلى ذلك فيما كنا نشهده يومياً من تركيز طيران الحلفاء

على مصانع السلاح على امتداد القارة الأوروبية بأعداد كثيفة، مُفرِغةً عشرات الأطنان على تلك المصانع، مما ينتج عنه إيقافها عن العمل أو شل حركتها على الأقل، وكنا نسمع أنَّ الألمان ما يكادون يفرغون بمهندسيهم وخبرائهم، من إصلاح هذا المصنع، وإعادته للإنتاج كما كان حتى يفاجَؤوا في اليوم الآخر بأنَّ هذا المصنع أعيدت عليه كرة الهجوم بالكثافة نفسها، والعمل نفسه، مما نتج عنه أن أخذت طاقة إنتاج المصانع تقل كل يوم عن الآخر، بينما جبهات الحرب تزداد اتِّساعاً، وتزداد نهماً وإلحاحاً بطلب المزيد من السلاح، وهذا يدل على أن عمال هذه المصانع من الدول المغلوبة إنما هم جواسيس يتَّصلون بالحلفاء بوسائل سرية، بحيث أصبح الحلفاء على علمٍ تام بأيِّ مصنع يتم إعادة بنائه، فيتم قصفه بعد إصلاحه.

جـ ـ يحدثُ ذلك كله بالنسبة للتسلح الألماني الذي ابتدأ يضعف وتضعف فعاليته لتغذية الجبهاتِ مما نتج عنه شل حركة تلك الجيوش مما اضطرها إلى بطء الحركة في الهجوم، أو تأخير الهجوم.

د ـ كان الحلفاء آنذاك قد استطاعوا أن يُلَملموا جراحهم بعد معركة دانكرك الشهيرة، وكان لسيطرة فرنسا آنذاك على الشمال الغربي من القارة الإفريقية تونس والجزائر والمغرب، التي كانت تُحكم آنذاك حكماً مباشراً من فرنسا، وكان يتواجد على أرضها ألوف الجنود الفرنسيين عندما ركعت فرنسا تحت أقدام الألمان، وأعلنت الهدنة بين الدولتين، وتكوَّنت حكومة فيشي، التي كان يرأسها آنذاك المارشال بتان ورئيس وزرائه بير لافال، كان قادة أولئك الجنود الفرنسيين المتواجدين في الشمال الإفريقي قد أعلنوا عصيانهم، وتمردهم، وانفصالهم عن حكومة فيشي، وكوَّنوا جبهة حربية بجانب الإنكليز، وحلفائهم ضد الألمان، وكان يرأس هؤلاء الجنرال كاترو، ثم تولى القيادة بعد ذلك، أي قيادة الجيوش الفرنسية، في الشمال الإفريقي الجنرال شارل ديجول، ومن عجائب القدر أنَّ الإنكليز ظلُّوا يعاملون هذا الجنرال معاملةً لا تتفق ووطنيته وطموحاته رغم أنه استطاع بما وُهب من بلاغة وحماس وطني قبل أن تمض عدة شهور على تواجده في شمال إفريقيا

أن يكوّن فيلقاً من الشباب الفرنسي، الذين استطاعوا الفرار من أوروبا، قلعة هتلر إلى البرّ الإفريقي، منضمين إلى الجنود المتواجدين في تلك البلاد.

لم تمض عدة شهور على وصوله إلى شمال إفريقيا، حتى أوجد هؤلاء الشباب مع الجنود الآخرين، قوةً ضاربةً، كانت أشبه بالخنجر في خاصرة الجيش الألماني، الذي كان يقوده ثعلب الصحراء رومل على بطاح ليبيا، وأنزل به أفدح الخسائر، وشلَّ من فاعليته، وقوة اندفاعه إلى الشرق إلى حد كبير.

هـ ـ في الوقت الذي كانت آلة الحرب الألمانية على مختلف أنواعها، ومسمياتها تتناقص يوماً بعد يوم، نتيجةً للضربات الجوية من قِبَل الحلفاء، التي كانت تُشن يومياً بكثافة لا تقل عن ثلاثة آلاف طائرة في اليوم الواحد، على المصانع الحربية.

كانت قوةُ الحلفاء تنمو وتتكاثر بسرعة مذهلة نتيجةً لتقلُّص ضربات الطيران الحربي الألماني، التي كان يشنُّها يومياً على المصانع البريطانية، لانصراف الألمان إلى تغطية الجبهات الشرقية الجديدة.

و ـ ابتدأ تلاشي فعالية ضربات الأساطيل البحرية الألمانية، التي كانت تطارد وتتصيَّد سفن الحلفاء في أنحاء البحار والمحيطات، باندفاع رهيب، إبان بدء الحرب والشهور التي أعقبته، مما ألحق بالحلفاء خسائر ضخمة، سواء كان ذلك في أساطيلهم التجارية، أو أساطيلهم الحربية. انحسار فعالية هذه الأساطيل الألمانية جاء من تشتتها في جميع المحيطات والبحار متعقبة ومطاردة لسفن الحلفاء وأساطيلهم.

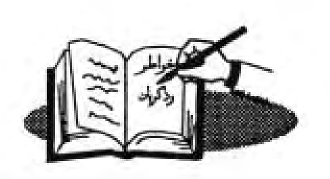
ز ـ تناقص موارد تمويل دولة الرايخ بالبترول الذي هو العمود الفقري لآلة الحرب الألمانية، في مختلف المصانع وجبهات الحرب، وذلك نتيجةً لنمو أساطيل الحلفاء، وبدء استردادها لأنفاسها بعد هول صدمات الحرب الأولى، التي أفقدتها توازنها إبان ذاك.

ومن المعلوم أن منابع البترول التي تغذي آلة الحرب، التي بدونها يتوقف كل شيء، كلها تقع في أماكن تسيطر عليها دول الحلفاء، فبترول

الشرق الأوسط تحت السيطرة البريطانية، والبترول الروسي يقع في أماكن داخل روسيا، ولا زالت بعيدة عن متناول يد الألمان، وحيث إن أوروبا بأكملها خالية من منابع البترول، فإن اعتماد آلة الحرب الألمانية كل الاعتماد، على ما يتوفر لديها من هذه المادة، وقد ابتدأت هذه الكمية تتناقص تدريجاً لتعقب الحلفاء لأيِّ سفينة تغامر بنقل بترول من الشرق الأوسط لتموين ألمانيا، تتعقبها وتطاردها حتى ترسلها إلى قاع البحر، وابتداء شُح البترول لدى الألمان قد ألحق بهم أضراراً فادحة، وابتدأ يشل تحركاتهم، سواءٌ كان ذلك في أسطولهم الجوي، أو في المصانع أو في السكك الحديدية.

عودة إلى حياتنا في (أم رضمة):

هذه فقرات موجزة عَلِقَت بذهني من تلك الرسائل، التي كنتُ أبعثها إلى الإخوان في الرياض، ثم استمرت رحى الحرب تدور، وكلٌّ منا محتفظ برأيه، ولنتركها الآن في سَيْرها، وسنعود لمتابعة أحداثها عندما نطوي الزمن، ونصل إلى الوقت التي توقفت فيه آلة الحرب في مختلف الميادين، لنعطي فيما بعد ملخصاً لما تمخضت عنه من أحداث ومآسٍ، ولنعد الآن إلى حياتنا اليومية الروتينية في (أم رضمة) لنسير مع الزمن.





حدث جديد في حياتي:

في مستهل شهر محرم عام ١٣٦٢ هـ شهدت حياتي تطوراً مفاجئاً لم يكن في الحسبان، ولم يخطر لي على بال، وتفصيل ذلك ألخصه فيما يلي:

كما سبق أن ذكرنا في هذه الخواطر عند ذكر (أم رضمة)، أنها منخفض من الأرض، على سطحه عشرات الآبار الجاهلية. وقلنا: إن هذه الآبار تخصُّ إحدى القبائل العربية، وهي قبيلة (الأسلم)، أحد فروع قبيلة شمر الشهيرة، التي كانت تلتف زعامتها في السنين السابقة حول زعيمها ضاري بن طوالة، أحد فرسان العرب المشهورين. كانت قبيلة الأسلم تقيم على هذه الغيضة (آبار أم رضمة)، طيلة أيام الصيف من كل عام، تظلُّ مقيمة عليها حتى بدء أيام الخريف، ثم تترك هذه الأبيار إلى أماكن بعيدة، لبرودة الجو من جهة مما يجعلها في غير حاجة للماء، ولتوفر حطب الوقود من جهة أخرى.

كانت بيوت هذه القبيلة، التي تقطن على هذه الأبيار، (وهي بيوت من الشعر) لا تقل عن مائة وخمسين إلى مائتي بيت، وهي متقاربة من بعضها. وواضح أنَّ لكل بيت من هذه البيوت مجموعة من المواشي، التي هي عمادها، ومصدر رزقها، تتألف من الأغنام ومن الإبل، وهي تتراوح قلة وكثرة ما بين بيت وآخر، فقد يمتلك هذا البيت مائة أو مائتين أو أكثر من

الأغنام، وما لا يقل عن خمسين إلى المائة من الإبل، وتباين حجم بيوت الشعر هذه من حيث الضخامة والصغر، فتجد مثلاً هذا البيت يرتكز على خمسة أعمدة، وقد تبلغ العشرة فأكثر، بينما لا يرتكز البيت الآخر على أكثر من عامودين إلى ثلاثة.

كانت المواشي سواء كانت من الأغنام أو من الإبل، تَرِدُ مساءَ كلِّ يوم إلى هذه الآبار، يسوقها الرعاة، وهي تأتي عطشى، لأنَّ حرارة القيظ شديدة مما يجعلها عند ورودها تندفع بسرعة، يدفع بعضها بعضاً، للوصول إلى برك الماء، محدثة في الوقت نفسه، ضجيجاً ورغاءً وثغاءً يملأ الأفق.

تجمع الناس حول الآبار:

كان كل بئر من هذه الآبار يمتلكه بيت أو بيتان من هذه البيوت، يقيمون عليه دلاءً لجلب الماء من قاع البئر، تقوم بنزحه ناقة أو جمل، يمتطي ظهرها رجل أو امرأة أو غلام، يوقفها عن وصولها إلى فوهة البئر، ثم يتجه بها عكساً، حتى ينتهي إلى المكان الذي يكون فيه دلو الماء قد ظهر على فوهة البئر، ويتلقفه شخص أو شخصان يفرغا ما فيه في حوض واسع من الجلد، يتسع لما لا يقل عن خمس أو ست صفائح من الماء تقريباً، تساق إليه الإبل أولاً، لتشرب، ثم تساق الأغنام بعد انتهاء شرب الإبل وهكذا.

كان المشهد مُغرياً ومثيراً للفضول، وخاصةً أنَّ فتيات البادية يقمن بالنصيب الأوفر في حركة السقي هذه سواء، باستقبال الدلو القادم من قاع البئر، أو فلا سياقة الدابة التي تنزح هذا الماء، أو في كفكفة ورود هذه المواشي على حوض الماء، وتنظيم الإبل أو الأغنام، وقد تبلغ نسبة تلك الفتيات ما لا يقرب من ٧٠٪ ممن يقومون بتلك الأعمال.

كان هذا المشهد موضعَ جذب وإغراء وتسلية لسكان مركز أم رضمة من موظفين وخلافه، فما يكادون يؤدون صلاة العصر حتى يبارحوا القصر،

متجهين إلى هذه الآبار، يتسكعون ما بين بئر وآخر، ويتلذذون بمنظر تلك الفتيات اللاتي حباهنَّ الله من جمال الخَلق والخُلق ما يغري بالتطلع والانبهار، وخاصةً عندما تتدلي جدائلهن على صدورهن، وقد تصل جدائلهن إلى أخماص أقدامهن.

ومعلوم أنَّ فتيات البادية يكتفين في الغالب الأكثر بتغطية الفم والجزء الأسفل من الأنف، أي التلثم، أما بقية الوجه والعيون وجدائل الشعر فكلها وسائل مغناطيسية تجذب إليهنَّ أنظار الرجال، وخاصة أنهن جميعاً، بلا استثناء، يمتزن برشاقة القد وعذوبة اللفظ، وكلها صفات مميزة، أُختُصَّت بها هذه القبيلة بالذات، الأسلم، وأعني منهم (ألْوُهَبَة).

كان سكان القصر من موظفين وجنود عندما يعودون إلى القصر، يظلون ساعات وساعات، يتجاذبون الحديث، ويروي كلٌّ منهم للآخر ما شاهد وما رأى.

مِعَزِّي الغريقان:

كان من ضمن رجال البادية هؤلاء، رجل مُقعَد يمشي على عكازين يدعى (مِعَزِّي الغريقان)، تتألف أسرته من زوجته وابنتيه فضة ونشوى وابنه عبدالله ومن أخته الشقيقة سلمى. كان هذا الشخص عندما يأتي الصيف ينفرد عن جماعته بموضع سكنه، ويبتعد عن موقع الآبار، وينصب بيته (الشعر) على مقربة من بيوت الشعر التي تسكنها أسرة أمير المركز إبراهيم بن عمار رحمة الله عليه، تتألف من ثلاثة بيوت شعر وخيمتين، وعلى بعد نحو أربعين متراً من هذه البيوت ينتصب بيت هذا الشمَّري (مُعَزِّي الغريقان) وبجواره نصبت خيمة تسكنها أخته سلمى.

كان مِعَزِّي هذا يأتي إلى القصر صباح كل يوم، برفقة الأمير إبراهيم بن عمار، أمير القصر، وينقله معه بالسيارة حين يذهب من أسرته إلى القصر، وكذلك يصطحبه بعد الظهر بالطريقة نفسها، فقد كان الأمير - رحمة الله عليه - وأسرته يعطفون على معزي هذا وعلى أسرته.

كان معزّي عندما يصل صباحاً إلى القصر يأتي إليَّ في المكتب، ويظلُّ جالساً حتى صلاة الظهر حيث نصلي معاً في مسجد القصر، ثم يعود إلى أسرته، بعد أن يكون قد تناول طعام الغداء مع الأمير وخوياه في القصر، وقد حدث أكثر من مرة أن جاءت برقيات عن طريق مدير اللاسلكي الصديق ناصر الصائغ، معنونةً باسم معزي الغريقان، يحملها الموزع محمد أبو الروس فيسلمها إليه وهو موجود عندي، وعند ذلك يطلب مني معزي أن أوقع بالاستلام نيابةً عنه، وأن أفتح البرقية، وأقرأ عليه مضمونها، فكنت أفعل ذلك.

كانت هذه البرقيات موقعة من رؤساء قبائل معروفة، (شيوخ) مثل القشعمي وابن رخيص والوجعان، وغيرهم من مشايخ شُمَّر، ولا تحضرني أسماؤهم الآن، ومضمون هذه البرقيات جميعها هو الطلب من معزي الموافقة على خطبتهم لأخته سلمى، كان يطوي البرقية بعد أن يقرؤها عليه ويهزُّ رأسه قائلاً: الأمر بيدها وليس بيدي.

وفي مساء اليوم أو في صباح اليوم الثاني عندما يعود إليَّ يعطيني البرقية تلك، ويطلب مني كتابة الإجابة عليها نيابة عنه، ومضمونها أن صاحبة الشأن لم توافق، ومعنى ذلك أنه قد استشار أخته سلمى، ولم توافق.

كانت هذه الفتاة ـ وأعني بها سلمى ـ حديث أهل القصر، ومن يأتي إلى القصر، من رجال هذه القبيلة، القاطنين على هذه الآبار، كان حديثهم يتركز بإفاضة عن هذه الفتاة من حيث العقل والدين والجمال والخلق، ومع ذلك فرغم محاولتهم جاهدين لم يستطع أيُّ واحد منهم أن يذكر أنه رأى أيَّ جزء منها.

مَزْحة تورث جدّاً:

في إحدى الأيام كنت والمواطن العنيزي ـ رحمة الله عليه ـ قائد العسكر في (أم رضمة) حمد الهندي، ومعنا الأمير إبراهيم بن عمار، وكاتبه سالم بن الشيخ، ومدير اللاسلكي ناصر الصايغ، والملازم أحمد اليحيى،

كنا جالسين بعد المغرب في ساحة القصر على فرشٍ قد هُيِّأت لنا، نجلس عليها نتبادل الحديث، ما بين صلاة المغرب حتى صلاة العشاء، كان مَعَزِّي هذا موجوداً معنا، كانت الكلفة مرفوعة فيما بيننا، فكان بعضنا ينكت على الآخر، وكنت أصف المرحوم الأمير إبراهيم بن عمار أسميه أبا لهب، أَصِفُه بأن يديه صخر ولسانه نار، وهما عبارتان ظاهرتا المعنى، أي أنه كريم في الحكي بخيل في العطاء، وفجأةً أراد أن يسخر مني، فقال لي على مسمع من الحاضرين: ما رأيك أن تتزوَّج سلمى الغريقان، وهو يعلم أن ذلك بالنسبة لي أبعد من أن يخطر لي على بال، لأمور واضحة، فسخرت منه، وأجبته بأن عليك أنت أن تجرِّب حظك، فأجابني بقوله: أنا عندي أم سعود، يعني زوجته وأم أولاده، وأردف قائلاً: ومع ذلك إذا كانت قد رفضَتَ الشيخ فلان، والشيخ فلان، والشيخ فلان، وهم رؤساء قبائل لهم وزنهم ورفعة مكانتهم فكيف تقبلني؟ ولكن أنت أعزب، ثم وجَّه كلامه مباشرةً إلى معزِّي قائلاً له: ماذا تقول يا معزي لو خطب أختك سلمى إبراهيم الحسون؟ فضحك معزي ضحكةً عريضة وقال: أنا أمامكم موافق مائة في المائة، ولكن الأمر بيدها ولا أظن أنها توافق.

فعقَّب الأمير بقوله: إنها جارتنا وسأشرح لأم سعود - يعني زوجته - لتتصل بسلمى، وتأخذ رأيها في الموضوع.

انفضَّ المجلس في تلك الليلة على أساس أن ما جرى كان مساجلة ساخرة ليس وراءها أي مدلول، وإذا كانت لم تقبل سلمى أولئك الشيوخ، فإنَّ من أبعد المستحيلات أن تقبل بشخص حَضَرِي، لا يتمتع بأية ميزة مما تتطلع النساء البدويات فيما يجب توفُّره في أي خاطب.

مفاجأة سارة:

في صباح اليوم التالي، وكنت لا زلت مضطجعاً على فراشي الذي آويت إليه بعد أدائي صلاة الفجر، فوجئت بالأمير ابن عمار يقتحم عليَّ غرفة نومي ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وكانت عادته أن لا يحضر إلى القصر قبل الساعة الثالثة صباحاً بالتوقيت العربي، فوجئت به يوجِّه النداء

بأعلى صوته إلى الحارس لدي راشد الدويد، وهو خادمي الخاص، وأحد أبناء قرية بقعاء بحائل يسأله بصوت عال: أين عمك إبراهيم؟ أجابه وأنا أسمع بقوله: إنه لا زال في فراشه، وإذا به يندفع نحوي صائحاً بأعلى صوته: انهض فقد حقق الله لك الأمل.

نهضت من فراشي مستغرباً ومستبعداً في الوقت نفسه صحة ما يقول، معتقداً بأنَّ ذلك منه من قبيل التهكُّم أو السخرية أو العبث بالمشاعر على أحسن الحالات. أجبته بقولي: دع عنك المزاح يا أبا لهب. وهنا صاح بأعلى صوته: يا حمد الهندي، يا ناصر الصايغ، وكل منهما يسمع صوته، لأنهما داخل القصر، ولا يبعدون عن مكان وجوده أكثر من أمتار معدودة، وعلى الفور حضرا، وكان بجوار الأمير ابن عمار مُعَزِّي الغريقان أخو سلمى، وهنا قال على مسمع منهما ومني: لقد وافقت سلمى على خطبة إبراهيم الحسون إذا توفَّر لها فيه شرط واحد، هو أن يثبت أنَّ أسرته تنتمي إلى قبيلة معروفة، أي أنه أصيل في عرف البادية.

دوامة تفكير:

كانت هذه الكلمات من ابن عمار بالنسبة لي أشبه بهزة عنيفة أو صدمة كهربائية، جعلتني أسبح في دوَّامة لا أوَّل لها ولا آخر، إنها ورطة بالنسبة لي بدون شك أوقعني فيها أبو لهب هذا ـ سامحه الله ـ فأين أنا وأين سلمى؟

أنا ابن المدن وابن جدة بالذات، تذوَّقت حياة الترف والحضارة ونمطاً معيَّناً من أنماط الحياة، أنا الشخص الذي عُرضت عليه عدة فتيات من أسر كريمة من عِلية القوم في جدة، فلم يقبل بواحدة منهنَّ لأسباب كثيرة قد لا يكون أقلها أن له مواصفات متميزة حَدَّدها كشرط يجب توفره فيمن يختارها شريكةً لحياته في المستقبل.

هذا بالنسبة لي، وبالنسبة لسلمى، فإن الشكوك والافتراضات قد ملأت تفكيري استحالة العيش مع فتاة بدوية عاشت طيلة حياتها في السباسب

والوهاد، وأماكن الكلأ، متنقلةً ما بين مكان وآخر على امتداد بطاح البادية ومرابعها. كيف لها أن تألف حياة الحضارة والتمدُّن أو أن تحقق ولو واحد في المائة مما يتطلبه هذا الحضري المتمدن؟!!

تثبيت أصالة نفسي:

ظَلِلْتُ عدة أيام، وأنا كما قلت أعيش في دوامة رهيبة، تتقاذفني فيها شتى الأفكار ومختلف الظنون، وقد وجدت نفسي أنني قد وُضِعتُ في مأزق لا خلاص منه، ولا يمكن تبريره بأيِّ عذر أو حجة فيما لو رفضته وتنصَّلت منه. ماذا يقول غيري عني عندما يعلمون بأني قد رفضت هذه الخطبة وتخليت عنها؟ لا شك أنَّ التهم ستنهال عليَّ بمختلف الاستنتاجات والأوهام والتي قد يكون أقلها اتهامي بفقدان الرجولة، إذاً فلأقدم على الموضوع (مكره أخاك لا بطل)، وليفعل الله ما يشاء، واضعاً في حسباني أنني على الأقل سأحتفظ بها لبضع أيام أو شهور على الأكثر، ومن ثم أكون في حِلٍ من التخلي عنها، لأنني أكون بذلك قد أخرست الشامتين والمتربصين. وكنت أهيىء لهذا الموضوع بيني وبين نفسي، وكانت العقبة الرئيسة التي وقفت في وجهي، هي أنني حتى ذلك الوقت أحتاج إلى تثبيت أصالة نفسي على وجه الدقة، وأنا قد فارقت عنيزة صغيراً.

أصبحت مشكلتي الوحيدة ـ حينئذ ـ هي البحث عن الكيفية التي أستطيع أن أثبت لسلمى، وأهلها أصالة نسبي، وتحديد القبيلة التي أنتمي إليها.

برقية من حمد الهندي لأمير عنيزة:

يقول المثل (رُبَّ أخٍ لك لم تلده أمُك)، وهذا ما وقع فعلاً معي بالنسبة للصديق حمد الهنديِ، الذي يشاركني الانتماء إلى مدينة عنيزة.

هذا الشخص ـ رحمة الله عليه ـ عندما سمع ابن عمار يزفُّ إليَّ نبأ الموافقة، وسمع الشرط الذي حدد لقبولها، ذهب من تلقاء نفسه، وبدون أن يشعرني، فأبرق لأمير عنيزة، وكان آنذاك المرحوم عبدالله الخالد السليم برقيةً أوضح له عن اسمي واسم والدي وأعمامي، وأسرة الحسون بعنيزة،

طالباً منه الإفادة عن هذه الأسرة وأصالة نسبها من عدمه، وفي حالة الأصالة إلى أيِّ قبيلة تنتمي، وإلى أيِّ فخذ من فروعها تتَّصل هذه الأسرة.

جواب أمير عنيزة:

وقد وردت الإجابة من أمير عنيزة بالنص التالي:

المذكور إبراهيم بن محمد الحسون، معروفٌ لدينا والده وأعمامه وأصوله، وهم ينتمون إلى قبيلة بني تميم، القبيلة المشهورة، وينحدرون من أحد أفخاذها، وهو فخذ آل أبو عليان، الذين سبق أن حكموا بريدة فترة من الزمن في القرن الثاني عشر الهجري قبل قدومهم إلى عنيزة.

يا ابن حسون جاك النصر:

كنتُ خلال الأيام التي مَرَّت في دوامةٍ من التفكير جعلتني أعيش ساهماً أسبح في بحر من التردد والحيرة، وإذ بالأخ حمد الهندي قد أقبل عليَّ في ضحى ذلك اليوم الذي استلم فيه برقية أمير عنيزة، وكنت آنذاك أزاول العمل الإداري مع موظفي الجمرك، أقبل ومعه ابن عمار بحالة ملفتةٍ للنظر، ومضحكة في الوقت نفسه، إذ أقبلا متلاصقين يرفعان إحدى رجليهما وإحدى يديهما إلى الأعلى على طريقة العرضة النجدية المعروفة وهما يتضاحكان ويقولان: يا ابن حسون جاك النصر.

خرجت من المكتب باتجاههما في حوش القصر، رغبة مني في الابتعاد عن الموظفين؛ لأنه لم يكن لديهم أي علم عن هذا الموضوع، ومخافة أن يعلموا فيشيع الخبر ويحدث هرج ومرج بين سكان القصر. حينما وصلت إلى مكانهما سلمني ابن عمار البرقية فقرأتها، كانت موجهة باسم حمد الهندي، وبتوقيع عبدالله الخالد السليم أمير عنيزة.

موافقة سلمى بعد تحقق شرطها:

ثم أخذها ابن عمار معه، بعد أن قرأها على معزى أخو سلمى، وأرسل معزى بسيارة الأمير، ومعه ابن الأمير إبراهيم بن عمار سعود، وهو

شاب لا يتجاوز العشر سنوات من عمره يحسن القراءة والكتابة أرسله أبوه برفقة معزى، وطلب منه أن يذهب إلى حيث بيوت سكن الأمير، ويطلع والدته على مضمون البرقية، ومن ثم ترسل إحدى بناتها إلى سلمى تستدعيها، وعند حضورها يتم إبلاغها بمضمون البرقية، وفعلاً تَمَّ ذلك، وقد أخذت سلمى البرقية واحتفظت بها وأخبرت والدة سعود: ما دام أن شرطي قد تحقق، فأخبره بأنَّ الموضوع من قبلي قد انتهى.

بُعَيد ظهر ذلك اليوم عادَ الأمير إبراهيم بن عمار من سكن أسرته، كما هي عادته في كل يوم، واستدعاني والأخ حمد الهندي، وكان معزي أخو سلمى جالساً بجواره، استدعاني إلى غرفة الأمارة، ويسمونها المختصر (أي المكان الذي ينفرد فيه الأمير بمن أراد الانفراد به)، أبلغني ابن عمار على مسمع من الأخ حمد بما نقلته إليه زوجته عن لسان سلمى، ثم استشهد أي الأمير ابن عمار بمعزى (الجالس بجواره)، على صحة هذا القول فأكَّد المذكور الخبر، وأضاف بأن أخته سلمى قد أبلغته ظهر هذا اليوم بموافقتها على الخطبة كما أبلغتها لزوجة الأمير.

ورطة لم تكن في الحسبان:

أحسستُ بأن عبئاً ثقيلاً قد ألقي فجأة على كاهلي، بدون أن يكون لدي أي قوة أو إمكانات لتحمله، فقد أصابني ما يشبه الدوار، وأخذت أتمتم بيني وبين نفسي بعبارات غير واضحة الدلالة، إلا أنها في واقع الأمر تدلُّ عن سخطي وغضبي من ابن عمار، هذا الذي أوقعني في هذه الورطة التي لم تكن في حسباني قط، ولم تدر بخلدي، ولو للحظة واحدة.

الترتيب لحفلة الزواج:

هنا أخذ الأخ حمد الهندي ـ بطريقة ضاحكة وساخرة، في الوقت نفسه ـ يشجعني، ويشد من أزري ويقول لي: لا تفكر فكل ما قد يصعب عليك نحن (ويقصد هو والأمير ابن عمار) مستعدون لتذليله، وهنا عقَّب ابن عمار على كلمة الأخ حمد بقوله: إن أم سعود ـ ويقصد زوجته ـ قد تكفلت

بأن تقوم هي وبناتها من واقع خبرتها بإجراءات حفلات الزواج، وما ينبغي لها من إعداد وترتيب، وهنا أحسست بشيء من الراحة النفسية لأنني لم تكن لديَّ أي خلفية سابقة بترتيب ما ينبغي للزواج من إجراءات وإعداد، أحسست بشيء من الراحة والهدوء النفسي، وأحسست بأني بدأت منذ اللحظة أشعر بأن الموضوع برمته أصبح واقعاً حتماً لا مناص منه.

التفكير في موضع السكن:

أخذت مع ابن عمار وحمد الهندي نبحث في أول ما يجب فعله، وهي تهيئة مكان السكن، الذي سنستقر فيه بعد إتمام إجراءات الزواج إذ لا يمكن أن يكون سكننا هذا السكن داخل القصر المملوء بالموظفين، وهنا استعرضت عدة آراء فيما يتعلَّق بالسكن هذا، وأين يقع، وعلى أي مستوى يكون؟

طرحت فكرة أن يكون السكن هذا مكوَّن من بيت شعر وخيمة أو خيمتين كبار من النوع الممتاز المحصن، وأن تكون في مكان مناسب خارج القصر بما لا يقل عن مائتي متر، ولكنني لم أجد ارتياحاً في نفسي لقبول هذه الفكرة.

بيت الزوجية:

وهنا خطرت بذهني فكرة مفاجئة، كانت هي المفتاح وكانت الحل، هذه الفكرة هي أنه على بعد عشرين متراً تقريباً خارج القصر من جهة الجنوب مرتفع من الأرض (ربوة)، ترتفع عن سطح فيضة أم رضمة، وعن أرضية القصر نفسه، بمسافة لا تقل عن خمسة أمتار تقريباً، تبدأ من الأسفل إلى الأعلى بطريقة انسيابية. إذاً ليكن السكن في هذا المكان، ولكن كيف؟ قد يكلف ذلك نفقات أكثر مما ينبغي، خاصةً وأن البناء بتكاليفه سيظل باقياً في مكانه، وإقامتي في هذا المكان إقامة محدودة، فقد تكون عاماً أو عامين، أو أكثر أو أقل، ثم أغادر إلى مكان آخر، ولذا رأيت أن أجمع بين الفكرتين، فكرة البناء وفكرة الخيام.

حضرت أحد البنائين من مدينة الحفر، وخطط معي على متن هذه الربوة مساحة قدرها ٢٥×٢٥ متراً، طلبت منه أن يقيم عليها جداراً من الحجر والطين لا يقل ارتفاعه عن مترين ونصف، وأن يبني داخل هذا السور أربع غرف وما يلزم من منافعه، مع غرفة أخرى يفتح لها باب خاص تستعمل مجلساً لاستقبال الضيوف، على أن يتم بناء جدران هذه الغرف بارتفاع مترين، تكون سقوفها من قماش الخيام، مكون من طبقتين من القلع، وقد شرع خلال أيام معدودة في إنجاز هذا المشروع.

زواج بخمسة ريالات:

كان العمال لا يقلون عن عشرين عاملاً، وكان العمل في البناء يتم على قدم وساق، وتمَّ التفاهم مع معزي على أن يأخذ وكالة من أخته، لينوب عنها في عقد الزواج، ولما كانت (أم رضمة) مركزاً محدود العدد لا يوجد فيه قاضٍ شرعي، فقد تقرر أن أذهب أنا ومعي معزي ومعي اثنين من خويا الأمير، هم: ناصر الحُوَيِّر، ومحمد العمار، ليكونا شاهدَين على توكيل سلمى لأخيها، وفعلاً توجهنا جميعاً إلى (لينة) وهي مركز معروف على الحدود، والتي تبعد عن أم رضمة بنحو مائتي كيلومتر من جهة الشمال الغربي، فهناك قاضٍ شرعي، يدعى عبدالمحسن الكويليت، وهو من مواليد مدينة حائل.

حضرنا لدى القاضي، وأتمَّ إجراءات العقد، ثم رجعنا إلى أم رضمة. كان المهر الذي شُرط هو خمسة ريالات، فقد رفض أخوها أن يطلب أي مبلغ، بيد أنَّ القاضي رفض، وقال: لا بد من تعيين مبلغ معيَّن فقلت للقاضي: اكتب ألف ريال. ولكن معزِّي رفض أن يثبت ذلك في العقد وقال كلمة ذات معنى هي: أننا لم نزوِّج هذا الرجل (يقصدني) رغبةً في الحصول على مال.

بطبيعة الحال كان تأثير هذه الكلمة في نفسي وفي نفس القاضي والشهود ذات دلالات رفيعة، وزادتني تفاؤلاً واستبشاراً.

تدبير شؤون العروس وزينتها من حائل:

عدنا إلى أم رضمة، وكانت أم سعود، زوجة الأمير، قد سجلت جميع ما يحتاج إليه من ملابس وثياب وحاجيات العروس، وهي الأشياء المتعارف عليها آنذاك في حائل، أملتها على ابنها سعود في قائمة، وبعثت هذه القائمة مع نجَّاب خاص (صاحب بعير) إلى دخيل الله سعد، أحد تجار حائل المعروفين، الذي يبدو أنها تعرف أنه ذو خبرة بمثل هذه الأمور، وقد أرسَلْتُ من قِبلي إلى أم سعود بواسطة زوجها مبلغ ألف وخمسمائة ريال دفعة لمقابلة تكاليف التجهيزات للعرس.

أُرسل النجّاب إلى حائل ـ وكان يقيم آنذاك مع بعيره مع قبيلة الأسلم في أم رضمة ـ أُرسل بالكتاب والمبلغ إلى حائل ليقوم بتسليم الجميع لدخيل الله سعد، وأن يمكث هناك مدة لا تقل عن الأسبوعين ليستلم من دخيل الله ما يكون قد أَمَّنه من المشتريات التي كُلِّف بتأمينها.

عاد النجّاب بعد نحو عشرين يوماً من سفره، حاملاً معه جميع الأشياء التي سُجِّلت في القائمة، ولم يمض أسبوع على وصوله إلى أم رضمة حتى كان بناء البيت قد تَمَّ على الشكل المطلوب، وقد وُضِعَ له بابان: أحدهما من جهة الجنوب الغربي يفضي مباشرةً إلى مجلس الضيوف، والآخر: من جهة الشمال الشرقي يُفضي إلى داخل البيت.

كان البناء قد استكمل من جميع نواحيه، وبلغت تكاليفه بالكامل ما بين خمسة إلى ستة آلاف ريال. وبمجرد أن شاع خبر عقد هذا الزواج حتى أخذت برقيات التهاني والتبريك من الأصدقاء والمعارف في جميع مراكز الحدود آنذاك، بما فيهم أمراء المراكز صالح بن عبدالواحد أمير الحفر، محمد بن عطيشان أمير قرية، ومحمد بن عرفج أمير لوقة، وعبدالرحمن بن شبيب أمير الدويد، والأخ دخيل الله سعد من حائل، وسليمان الشنيفي أمير لينة، وغيرهم كثيرون.

تحديد يوم الزفاف:

تحدد يوم الزفاف في اليوم الثاني عشر من شهر صفر عام ١٣٦٢هـ،

وقد تقرر أن يكون إقامة هذا الحفل في فيضة الهِرارة، وهي مكان يبعد عن أم رضمة نحو عشرة كيلومترات باتجاه الجنوب، كانت هذه الفيضة عبارة عن قطعة سندسية، أبدعتها يد الخالق المبدع جل جلاله، بمختلف أنواع الزهور ذات الروائح الفوّاحة الشذية كالخزامى والنَفَل، وغيرها من أنواع الزهور العطرية. وكانت مساحة هذه الفيضة لا تقل عن خمسة كيلومترات، منبسطة السطح، جميع جوانبها فوّاحة الأريج، فقد كانت أم رضمة في ذلك العام قد حباها الله بموسم من الربيع لم يمر عليها مثله منذ أكثر من خمسين عاماً، كما سمعت من سكانها الأصليين.

كان هذا الزواج أول حفل فرح أقيمه لنفسي، وإذ كانت ملابسات هذا الزواج وشهرته، كما سبق لي أن شَرحتُ في هذه الخواطر، فقد رأيتُ أن يكون الحفل على مستوى الحدث، ولذلك وجَّهتُ الدعوة إلى أمراء المراكز في الدويد ولوقة والحفر وقرية راجياً منهم الحضور والمشاركة، وكذلك الموظفون.

رأينا أن يكون حفل الزفاف ليلة الجمعة، حتى تتاح الفرصة لحضور الموظفين، وقد جَلبتُ ما لا يقل عن عشر خيام وأربعة بيوت شعر كبار استعرتها من أمراء المراكز، وبالدرجة الأولى الصديق محمد بن شهيل، الذي كان أمير مركز سماح، وهو والد الأديب عبدالله الشهيل، وكذلك من الصديق عبدالعزيز بن مرشود، أمير مركز الرخيمية.

العرس المشهود:

وُضع الترتيب، وتحدَّد الموعد، وجلبنا أدوات الطبخ (القدور والصواني من أمراء المراكز وبلغ عدد الصواني أكثر من ثلاثين صينية من ذوات الحلق.

في صباح ذلك اليوم الخميس بدأ المدعوون يتوافدون، كل أمير ومعه خوياه والموظفون الموجودون في مركزه، وكنا أعددنا للأمراء خياماً خاصة زودناها بالقهوجية، ومعدات القهوة، وما إليها، كما خُصصت خيامٌ أخرى للموظفين، وقد أخذ سيل من الوافدين من أفراد البادية يتوافدون منذ

الصباح، زرافات ووحداناً، وخاصةً بعد أن سمعوا قرع الطبول، وأهازيج الغناء، التي كان ينشدها خويا الأمراء الذين أحضروا طبولهم معهم يؤدونها على طريقة العرضات النجدية المعروفة.

موقف حرج:

كانت الذبائح المعدة للاحتفال عشرون رأساً من الخراف النجدية الضخمة، وحدث في ظهر ذلك اليوم أنَّ الجموع الضخمة التي توافدت إلى مكان الحفل، والتي لم تُدْعَ قد بلغت من الكثرة بحيث لا يقل عددها عن مائتي شخص، ولأن الأمراء والموظفين والخويا والجنود لا يقل عددهم عن هذا العدد، فقد رأيت أنَّ هذا العدد من الخراف لا يكفي، وكان على مقربة مني الأخ حمد الهندي ـ رحمة الله عليه ـ وأنا أناقش الطبَّاخين عمَّا إذا كانت هذه الأغنام تكفي لهؤلاء، وكانت إجابتهم أنها قد تكفي، ولكن من الأفضل احتياطاً لو زِيْدَ في عددها، وهنا وقعتُ في حيرة إذ لا توجد أغنام على مقربة منا يمكن جلب شيء منها؛ لأن الزواج تمَّ في أيام الشتاء، وكانت البادية المقيمة على آبار أم رضمة قد غادرتها إلى المفالى البعيدة منذ أكثر من شهر.

صيد الظباء:

هنا أدرك الأخ حمد حراجة الموقف فقال: لا تجزع سنتدبر الأمر، وهنا نادى على السائق عودة ينبعاوي أن: «شغل سيارتك»، ونادي في الوقت نفسه على كلٍ من مطلق الوقيد، وأخيه سيف، وهم عرفاء لديه من أهل مدينة الرس، ركبوا جميعاً في السيارة، وغادروا المكان، وأنا في موقفي في حيرة لا أحسد عليها، لأني لا أعرف ماذا سيَفعل، لأنَّ الوقت ضيِّق، فقد كان ذهابهم في السيارة تلك اللحظة كان بعد صلاة الظهر مباشرةً، وكان هزيج العرضة ودق الطبول يملأ الأفق، وكان الناس يتكاثرون ساعة بعد أخرى، لم تمض ساعة على مغادرة حمد للمكان بسيارته ومعه رجاله حتى عادوا إلينا وأوقفوا السيارة على مقربة من قدور الطبخ، وأخذوا

يرمون على الطباخين ظباءً مصادةً بلغ عددها حوالي خمسة عشر ظبياً، وقد شكرتهم على ذلك من أعماق نفسي، لأنَّ ذلك سيغطي أيَّ نقص قد يحدث.

أما الكيفية التي تمَّ بها صيد هذه الظباء خلال هذه الفترة التي لم تزد عن ساعة من الزمن فإن جمائل الظباء المنتشرة آنذاك في مختلف السهول والأودية على هيئة جمايل، وكلمة جميلة باصطلاح البادية تعني قطيعاً ضخماً من أفراد الظباء، لا يقل عددها في الغالب الأكثر، عن خمسين رأساً. وعادة تكون هذه الجميلة مكونة من إناث الظباء يسير في طليعتها ذَكَرٌ ضخم تسير خلفه متتابعة، ولم تكن آنذاك قد استعملت السيارات للصيد، وإنه لمن المؤسف أن تكون تلك الثروة الحيوانية الضخمة قد استؤصلت نهائياً بطريقة غبية جاهلةٍ حمقاء، فقد كان لوجود المتنفذين، سواء من داخل المملكة أو من خارجها كقطر والبحرين، وبقية مدن الخليج التي كان يتوافد متنفذوها في خريف كل عام على هذه البقاع الشاسعة فيفتكون بهذه الثروة بسياراتهم وبنادقهم الحديثة بدون وازع أو مبرر، ويتنافسون فيما بينهم، يذكر كل منهم للآخر كم عدد الرؤوس التي صادها، حتى إنهم ليكدسون الظباء بعضها فوق بعض؛ لتأكلها السباع والوحوش البرية بطريقة مؤسفة.

زوال الغم والحيرة:

سرعة حضور المرحوم الأخ حمد الهندي بمجموعة الظباء التي اصطادها، أزالت عني الغم والحيرة، فقد أصبح هذا الكم من الظباء مع الخراف الموجودة كاف مهما كثر عدد الوافدين. كنت والأخ إبراهيم بن عمار والأخ حمد الهندي والأخ ناصر الصائغ، قد أعددنا الترتيبات اللازمة من إيجاد عدة صوالين مفروشة بالبسط والسجاد، وأعددنا الموظفين الذين يتولون مهمة الاستقبال والإرشاد إلى الأماكن المعدة لكل قادم، وبالأخص الأمراء ورؤساء الدوائر، كما حددنا الأشخاص الذين يتولون إدارة القهوة والشاهي على القادمين. تمَّ كل شيء وَفْقَ الخطة المرسومة، وبعد صلاة العشاء مُدَّت الموائد وتناول الحضور طعام العشاء، ثم شُرِع في دق الطبول

في أداء العرضات النجدية، وقد اشترك الأمراء بدون استثناء في هذه العرضات.

بحلول وقت العشاء توقفت الطبول، ثم أذن المؤذن لصلاة العشاء، وأقيمت الصلاة، وبعد انتهائها عاد قرع الطبول مرة أخرى، وعاد حماس الطرب بين المشاركين، وأخذوا يرقصون على دقات الطبول جيئةً وذهاباً.

دخولي على العروس البدوية:

كنت واقفاً مع المشاركين في العرضة، وإذا بالشاب عبدالله معزي، وهو ابن معزي الغريقان يمسك بيدي، ويخرجني من الصف ويبتعد بي قليلاً عن مكان وقوفي، ويهمس بأذني قائلاً: تعال معي أدلك على خيمة نومك، فسألته: من فيها؟ خشيةً مني أن يكون فيها نساء أجنبيات، فقال لي: عمتي سلمى فقط. وعلمت منه أنَّ أم سعود زوجة الأمير وبناتها قد حضرن قبل نصف ساعة تقريباً إلى مكان الخيمة هذه، وهو يبعد نحو مائتي متر تقريباً عن موقع الاحتفال خلف جبل متوسط الطول بحيث يحجب رؤيا الخيمة عن المشاركين في مكان الاحتفال، وأنَّ أم سعود هذه وبناتها هي التي اختارت هذا الموقع، وأمرت بنصب الخيمة فيه، وأشرفت على ترتيب موجودات الخيمة وهي عبارة عن مرتبة كبيرة ومخدتين ومُضرَّب من قطن (لحاف)، وعدة شراشف، وإناء مليء بالماء للوضوء، وسجادتين شيرازيتين تغطيان أرض الخيمة.

مشى عبدالله بن معزي الغريقان أمامي حتى وصلت إلى باب الخيمة، وهناك ودعني وانصرف.

كان الوقت آنذاك شتاء، ووطأة البرد في شمال المملكة شديدة، لذا كنت أرتدي بالطو من صوف، مع فانلة من صوف أيضاً، وشماغ كشميري، وكنت آنذاك نحيف الجسم، إذ كان وزني واحد وخمسين كيلو، كنت مدمناً على شرب الجراك بحيث لا أستطيع الانقطاع عن الشيشة أكثر من ساعة أو ساعتين.

في داخل الخيمة:

دلفت إلى داخل الخيمة، وقلت: السلام عليكم، وكان يوجد بمقربة من المخدات في أعلى الفراش إنسانة فارهة الطول، يظهر ذلك من جلستها ملتفة بعباءةٍ سميكة، ذات جدائل محبوكة بخيوط من الذهب، وهذه العباءة معروفة عند البادية بأنها أول ما يجب تأمينه في جهاز العروس. لم أسمع رداً على تحيتي، فاتجهتُ إلى حيث يوجد إناء الماء، فأخذته وخرجت خارج الخيمة، توضأت ثم عدت به إلى داخل الخيمة. صليت ركعتين ثم جلست على الطرف الأسفل من الفراش وخاطبتها قائلاً: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ على الأقل، فلماذا لم تردِّي السلام؟ ومرة أخرى لم أسمع إجابة، مكثتُ لحظات، أو دقائق أفكر في الأمر بيني وبين نفسي، إنَّ هذه الإنسانة القابعة أمامي، لم يسبق لي قط أن رأيتها أو رأتني، وهي على هذا المستوى من البنية إن محاولة استخدام غير اللين معها هو عبث وحمق؛ لأنني لو أردت ذلك لكان في إمكانها أن تضعني بين ساقيها وتزهق روحي، ولذا لا بد من تحكيم العقل، وأخذ الأمور بالأناة والصبر، عندئذ وجهت خطابي إليها بقولي: أنت الآن زوجتي وأنا زوجك وإذا لم تكلميني اليوم، فستكلميني غداً، لهذا فإني أستأذنك لأنام وتصبحين على خير.

يد رقيقة حانية:

اضطجعت على الفراش، ومع دفء الفراش سرعان ما غشاني النوم، ولم أشعر إلا بيدٍ رقيقة حانية تربت على كتفي الأيسر قائلة: انهض يا إبراهيم، لقد أذَّن الفجر.

أول كلمات في حياتي أسمعها من هذه المرأة. اعتدلت في جلستي على الفراش، وحاولت أن أرفع بصري لأرى وجهها، ولكنها قد حجبته عني بأكمام ثوبها الواسعة، فلم أستطع رؤيته. عندئذ قالت: انهض فها هو الماء قد سخَّنته لك لكي تتوضأ، خَرَجت من باب الخيمة ممسكةً بإبريق الماء الذي كانت قد سخنته قبل أن توقظني.

أولى البشائر:

خرجتُ معها وكانت قد ألقت عنها العباءة السميكة مكتفيةً بثوب الزفاف وهو نوع من الحرير، يسمَّى الشيناوي، وضعت أكمامه الواسعة على رأسها ووجهها. أمسكت الإبريق بإحدى يديها، وأنا أكاد أتمزَّق من اللهفة لأرى وجهها، فلاحظت ذلك مني، وقالت عبارةً لا أذكر نصَّها الآن، ولكن مضمونها: إنَّ ما تحاول التطلُّع لرؤيته أصبح ملك يديك، وبينما كانت واقفة منحنية تصب عليَّ الماء إذ سقطت إحدى جدائل شعرها على رأسي مستقرة على الأرض، وكانت من الكثافة بشكل غير معهود، فقلت في قرارة نفسي: هذه أولى البشائر، كانت قد هيأت لي سجادة الصلاة، فأدَّيت صلاة الفجر، بينما كانت خلفي تؤدي الفريضة نفسها.

خيوط الفجر:

كانت خيوط الفجر آنذاك قد ملأت جوانب الأفق، وانبلج النور، فقمت أريد الخروج إلى حيث يوجد الرجال، كنت مكشوف الرأس، لم أهتم بوضع غطاء على رأسي، فما كادت تلمحني أهمُّ بالخروج حتى جذبتني من البالطو، الذي كنت قد ارتديته قائلة: ارجع وارتد الشماغ فوق رأسك لأنَّ رجال القبائل الموجودين والأمراء سينتقدونك. فأذعنتُ لقولها، ولبستُ الشماغ والعقال، وذهبت إلى حيث دلال القهوة والمعاميل كما يقولون.

كان الأشخاص المدعوون، وهم الأمراء ومن جاء معهم من رؤساء الدوائر والموظفين قد غادروا المكان عائدين إلى بلادهم على سياراتهم، بعد منتصف تلك الليلة، بعد أن توقفت الطبول وأوى أصحابها إلى النوم، ولم يبق في المخيم سوى زملائي، فقررنا معاً إبراهيم بن عمار، وحمد الهندي، وناصر الصائغ، وأنا أن نبقى لمدة ثلاثة أيام على الأقل هذا المكان الجميل.

كانت الفيضة هذه يفوح شذى عطر الزهور فيها من جميع جوانبها، وهي لوحة أخَّاذة رائعة الجمال من صنع المبدع الأعلى جلت قدرته التي

نضَّدت أرضها بالزهور العبقة وبمختلف الألوان الجميلة، وفعلاً نفذنا هذه الفكرة، أما أهلي فقد نقلتهم مساء ذلك اليوم إلى مكان السكن الذي سبق أن أعددته بما يلزم كما سبق بيانه من قبل.

وصول أخي حسون من عنيزة:

في ضحى ذلك اليوم، ونحن في نشوة الطرب والأهازيج وقرع الطبول إذا بي أسعد بوصول أخي الشقيق حسون المحمد الحسون، قادماً من عنيزة.

وكم كان سروري مضاعفاً لحضوره ووددت لو حضر بالأمس لمشاهدة الاحتفال. كنتُ كل مساء، أي بعد المغرب أذهب إلى أهلي بجوار القصر، وأعود إلى المخيم في صباح اليوم الثاني، حتى انتهت الأيام الأربعة، وأشرفتُ على رد جميع ما استعرناه من خيام وشرع وبيوت شعر وأوان طبخ من قدور وصواني وغيرها، لإعادتها إلى أصحابها مع الشكر والتقدير.

مكث أخي حسون المحمد أسبوعين، ضيفاً في بيتي، وكنت مغتبطاً أشدَّ الاغتباط، إذ إنني لم أره منذ اثني عشرَ عاماً، حينما خرجتُ من عنيزة على إثر وفاة والدي رحمه الله عام ١٣٥٠هـ.

عودة أخي إلى عنيزة:

رغم محاولتي إقناعه بالبقاء لديَّ مدةً أكثر، فقد أصرَّ على العودة إلى عنيزة، موضِّحاً بأنَّ غيبته عنها لمدة أسبوعين كافية، ولما يئستُ من إقناعه، وزوَّدته بما هو في مقدور إمكاناتي المادية من عون لمساعدته، ولشراء بعض الهدايا لأفراد أسرته، لأنه سيعود إلى عنيزة عن طريق الرياض، وغادَرَنا في أم رضمة مساء اليوم الخامس عشر من وصوله، وكنتُ قد استأجرتُ له حمَّالاً لكي يوصله إلى الرياض.

ودع بعضنا بعضاً، وكلٌّ منا كان في غاية التأثر للفراق. وقد كان منزلي يضمُّ زوجتي سلمى الغريقان، والفتاة حميدة مسباح، وهي فتاة تبلغ

الثانية عشر من عمرها خادمة في البيت، وهي تنتسب إلى القبيلة المعروفة بالصُّلُبَهْ، بالإضافة إلى الشاب مطلق البزيز، وهو فتى في العاشرة من عمره ينتمي إلى قبيلة شمر (الأسلم)، ويقوم بتأمين طلبات البيت الخارجية.

سارت الأمور رتيبةً تغمرها بهجة العيش ورغد الحياة، تظللها غمامة من السعادة الغامرة والهدوء النفسي، كانت تلك الأوقات تمرُّ علي وكنت أشعر في أعماق نفسي أنني أعيش في جوّ علوي مورقة جوانبه بكل مُسِرِ ومفرح.

الإعاشة التي تصرفها الدولة للموظفين:

كانت الحياة في مركز (أم رضمة) بسيطة غاية البساطة، كان تموين البيت آنذاك بعضه يتم بما تصرفه الدولة لنا شهرياً من أرزاق كالأرز والطحين والسكر والشاهي والقهوة والهيل والتمر، تُصرَف من مستودعات الدولة شهرياً تموينًا للعاملين في الدولة، كانت تلك الأرزاق تصرف على نسبٍ متفاوتة كل حسب مرتبته الوظيفية ومقدار راتبه، والحد الأدنى لما يصرف شهرياً هو ٤٠٠ جرام من الشاهي، و ٨ كيلو سكر، و ٢٠ كيلو من الأرز و ٢٥ كيلو من الطحين، و ٢٠٠ جرام هيل، و ٤ كيلو بن للقهوة، وقلّة واحدة من التمر، وزنها تقريباً ٥٦ كيلو.

كانت هذه الكميات تُصرف للموظفين في نهاية كل شهر، وكنا نصرفها نحن مسؤولي جمرك (أم رضمة) مقابل مذكرات إخراج، نضع فيها مقادير الكميات المصروفة، ومقابلها في المذكرة نفسها أقيام كل نوع حسب السعر المقرر من الدولة.

كانت هذه الأقيام مخفضة إلى حد كبير، وكنا نخصم أقيام هذه الأرزاق على الموظف من راتبه، حين نقوم بصرف ذلك الراتب له في نهاية الشهر، بعد أن يوقع على مذكرة الإخراج، ويكفي تدليلاً على تفاهة الأقيام الموضوعة لهذه الأرزاق أنَّ كيلو السكر يكلف الموظف أقل من نصف ريال سعودي، بينما قيمته خارج تموينات الدولة لا تقل عن ثلاثة ريالات سعودية.

كان الموظف الذي يدفع مائتي ريال قيمة لما صرف له من أرزاق التأمين مثلاً لو أراد بيعها لحصل على قيمة لا تقل عن ثمانمائة ريال. وكنا نوصي بعض سيارات النقل، التي تنقل إلينا الأرزاق من مركز (قرية) بأن يشتروا لنا من أسواق (قرية) أكياس سكر، يحضرونها إلينا معهم على تلك السيارات.

كانت قيمة الأكياس لدى أصحاب الدكاكين في سوق قرية تكلف ستين ريالاً للكيس الواحد. وكنا نبيع هذه الأكياس عند وصولها لدينا في أم رضمة على أفراد البادية العراقية، التي تتوافد على مركز أم رضمة باستمرار، نبيع الكيس الواحد بثلاثمائة دينار عراقي، وكان سعر الدينار العراقي يساوي أحد عشر ريالاً.

توفر الأرزاق أيام الحرب العالمية:

ومن الواضح أنَّ هذا المثال يبيِّن لنا أنَّ المملكة العربية السعودية لم تتأثر بحالة الحرب العالمية القائمة آنذاك، فقد كانت الأرزاق الأساسية، وخاصة الأنواع التي ذكرت آنفاً، موجودةً ومتوفرةً طيلةَ أيام الحرب، عكس جميع بقية الدول المجاورة، التي بلغ فيها ارتفاع الأسعار، نظراً لضآلة العرض بسبب ظروف الحرب، أقصى مداه، وكما قلنا سابقاً فإنَّ الدول، بريطانيا وحلفاءها، قد تكفلوا بتأمين حاجة المملكة من الغذاء والكساء، مقابل وقوفها على الحياد، وعدم تمكينها لدول المحور من التواجد على أراضيها، أو الوصول إلى منابع بترولها.

تموين اللحم:

أمّا موضوع تموين اللحم فقد كان يتوفر لدينا بإحدى طريقتين: أولاهما: أن هناك قصاباً يدعى هويدي يقطن بيت شعر على مقربة من القصر. كان يقوم يومياً بذبح خروف أو خروفين، حسب الحاجة، يأخذ كل منا حاجته منها، وكان يبيعها بسعر الأُقَّة نصف ريال أو أقل، وثمن الخروف بالكامل في حدود سبعة ريالات، ولم تكن هناك ثلاجات لحفظ اللحوم،

أما النوع الآخر من اللحوم فكان ما يعرضه يومياً على سكان القصر أشخاص متخصصون في الصيد من أفراد قبيلة الصُلُبَة، وهم أناس مشهورون، ومتخصصون في اقتناص الظباء إذ يباغتونها في مرابضها فيقتلونها بدون أية مطاردة، ثم يُشرِّحون لحومها، وينشرونها تحت الشمس لتجف، بعد أن يرشوا عليها بعض الملح المطحون، فتجف تلك اللحوم محتفظةً بنكهتها، لأنها لم تطارَد.

كانت تلك اللحوم تعرف بـ (الجلا)، كان الظبي الواحد يعرض بسعر ريال ونصف إلى ريالين. كانت لذيذة الطعم بشكل يفوق أفضل لحوم الضأن.

توقُّف مرور القوافل:

ونظراً لتوقف مرور القوافل التي كانت تتجه إلى العراق للتموين فقد كان العمل لدينا في الجمرك شبه متوقف، فقد تمرُّ عدة أيام دون أن تمرَّ بنا معاملة واحدة.

غار هدَّاج:

كنت أغادر منزلي صباحاً متأبطاً بعض الكتب التي كانت ترد إليَّ من الصديق محمد الرويجح بالكويت، حسب طلبي، ومجموعة من الصحف العربية مما كان يرسله إلي الصديق محمد المرشد الزغيبي من الرياض.

كنت أخرج من بيتي صباحاً، بعد تناول الإفطار، أتجه نحو الشرق، واضعاً فيضة (أم رضمة) عن يميني وهناك على بعد نحو كيلوين يقع غار جبل هدَّاج، وهو عبارة عن تجويف ضخم، تبلغ مساحته نحو أربعة أمتار في ثلاثة في وسط جبل مرتفع، يطل على (أم رضمة) من الناحية الشرقية الجنوبية، كنت أخلو في هذا الغار بما أحمله من جرائد وكتب، يغمرني الهدوء بعيداً عن الضوضاء، أظل في مكاني هذا حتى قرابة وقت الظهر، ثم أعود إلى بيتي، أتوضأ ثم أخرج إلى الصلاة مع الجماعة في المركز، ثم أعود إلى البيت مرةً أخرى حتى يحين وقت العصر، فأعود مرة أخرى إلى

المركز، بعد تأدية الصلاة أجتمع أنا والأمير ابن عمار والأخ حمد الهندي، نجلس فوق دكة بجوار باب القصر، ملاصقةً له من الخارج، وفي الغالب ما نمتطي إحدى السيارات المخصصة للدوريات، نتجول في الأماكن التي لا تبعد عن القصر أكثر من عشرة إلى عشرين كيلو، في الرياض المزدهرة، ومناظر العشب الرائعة ثم نعود أدراجنا إلى القصر مع غروب الشمس فنؤدي صلاة المغرب، ثم يذهب كل منا إلى مسكنه.

كان ذهابي إلى ذلك الغار نهجاً اتبعته طيلة وجودي في (أم رضمة) منذ أن وطأت قدماي أوّل مرة أرضها، لم يسبق لي قط أن شاركت سكان القصر من موظفين وجنود وخويا في تنقلاتهم وتنزهاتهم على الآبار حينما تكون البادية قد قَطنت على تلك الأبيار للتسلية والفرجة.

سبب اختيار سلمى زوجاً لها:

كان نهجي هذا في الانزواء في ذلك الغار كل يوم هو السبب الأساس في لفت انتباه زوجتي سلمى إلى هذا الوضع، فقد أفادتني ونحن نسمر في إحدى الليالي حينما سألتها: لماذا اخترتيني دون شيخ القبيلة فلان وفلان، وفلان وأنت لم تعرفيني قط، وفوق ذلك، فأنا رجل حضري وأنت بدوية؟ كان جوابها: إنني أعرف عنك الشيء الكثير من أم سعود زوجة الأمير ابن عمار، وكنتُ نتيجةً لذلك ألاحظك ضحى كل يوم حينما تتجه إلى الغار، وأنت تحمل تحت إبطك مجموعة من الكتب، وكنت أحرص كل الحرص على أن أراك ضمن من كان يأتي من سكان القصر يتجوّلون على آبار الماء، ويتلصّصون ويسترقون النظر على بنات البدو، اللاتي يقمن بسقيا المواشي والأغنام، ولأني لم أشاهدك قط مع هؤلاء فقد وقع في نفسي إن قُدِّر لي أن أتزوج أن تكون أنت شريك حياتي.





من الأحداث التي مرَّت عليَّ أذكر أنه خلال عام ١٣٦٠ أو ١٣٦١هـ حدثت قضية استأثرت باستنفار أجهزة أمن الدولة في جميع أنحاء المملكة في الداخل وعلى الحدود، وظلت قرابة أسبوع من الزمن الشغل الوحيد لجميع مراكز اللاسلكي، وتلك الحادثة ملخصها كالآتي:

عمال الزكاة:

من المعروف أن الدولة في كل عام تنتدب أشخاصاً معينين يُعرفون بعمَّال الزكاة، ينتشرون في طول البلاد وعرضها، إلى مضارب البادية، وهم عادةً يأتون على هيئة فِرق، تتكون كل فرقة من أمير وقابض (أي أمين صندوق) وكاتب وخمسة أو ستة من الخويا المرافقين، تنتشر هذه الفرق في مواسم محددة من كل عام، فهناك عمال زكاة الجنوب: الطائف وما حواليه، التي تتولى تجهيزهم والإشراف عليهم إمارة الطائف، وهكذا بالنسبة لجميع هذه الفرق، حيث يتم تجهيز كل فرقة من إمارة المنطقة التابعة لها.

زكاة المواشي:

كانت الزكوات، بالأخص زكوات المواشي، التي تتكون من الإبل أو الأغنام بنوعيها الضأن والماعز أو الأبقار، تؤخذ من صاحب الماشية عيناً من مواشيه أو نقداً مقابل كلِّ رأس، وهي مبالغ محددة من قبل وزارة المالية،

ويكون صاحب المواشي، أو عامل الزكاة، له الحرية الكاملة في أخذ المواشي عيناً، طبقاً للأنصبة المحددة في الشريعة، أو ما يقابلها نقداً عن كل رأس وفقاً للأقيام التي حددتها وزارة المالية.

كانت إحدى الفرق قد وصلت إلى منطقة يقال إنها غير بعيدة من مركز (الدوادمي) غرب الرياض على طريق الحجاز، تنتشر فيها مجموعات من بيوت البادية، وكان يوجد من ضمن أفراد تلك البادية رجل يدعى (إمْجَرّي) وكان لديه مجموعة من الإبل قد بلغ عددها ما يوجب الزكاة عليها، وتقول الرواية التي انتشرت عن هذا الحادث، أنَّ عمال الزكاة قد اختاروا الأنصبة المقررة على الإبل المذكورة اختاروا نوعاً معيناً هو أفضل الإبل الموجودة، وقد عارض صاحب الإبل هذا الاختيار، طالباً أن يؤخذ منه من متوسط الإبل (وليس أفضلها)، بيد أنَّ عمال الزكاة رفضوا ذلك، فأعقب ذلك مشادة ومشاجرة بين هذا البدوي إمْجَرّي وبين رئيس عمال الزكاة، ويبدو أنَّ الشجار بلغ من الحدة ما جعل عامل الزكاة يوجه إلى البدوي ألفاظاً استفزازية، قد تكون تعني الإهانة والتحقير، والإشعار بالقوة والاستعلاء، وكان على مقربة منهما ابنان لمجرّي هذا، أحدهما فاره الجسم، مفتول العضلات في حدود العشرين من عمره، والآخر أصغر منه سناً، ولكنه هزيل الجسم ضعيف البنية.

قتل مأمور الزكاة:

تدخل الابن الأكبر في المشادة، أملاً منه أن يحل المشكل، ولكنه سمع من الجانب الآخر إصراراً على الاستعلاء والقهر والتحقير والإهانة، ويبدو أنه تعرَّض للتهديد بالضرب، فثارت نخوته البدوية، واستفزه الغضب ثأراً لكرامته وكرامة أبيه، فأسرع إلى بندقيته ليفرغ منها رصاصةً في صدر مأمور الزكاة أرداه مُجَنْدلاً يتخبط في دمائه، وبينما هرب الآخرون، خوفاً من الرصاص، أدرك الأب إمجري وابنيه فداحة الجرم الذي ارتكبوه؛ لأنَّ عمال الزكاة موظفون حكوميون، وبالطبع فإن الحكومة ستقتصُّ وتثأر لهم، فما كان من إمجري وأبناؤه إلا أن امتطوا في الحال ذلولين من أفضل إبلهم

الموجودة، الموصوفة بسرعة العدو، وفرُّوا هاربين باتِّجاه حدود المملكة الشمالية.

ملاحقة الجناة:

كانوا يسيرون في الليل متجنبين الطرق المألوفة، ومقتحمين المسالك والطرق الوعرة التي لا يخطر على البال اجتيازها. ويختبئون نهاراً بين منحنيات الأودية وبطون الشعاب.

ما كاد النبأ يبلغ جلالة الملك عبدالعزيز حتى استشاط غضباً وأمر، جميع مراكز الأمن، وسيارات الدوريات، وأمراء المراكز، سواء في المملكة داخل المدن، أو في حدود المملكة في جهاتها الأربع، أمر بأن تظل أجهزة اللاسلكي في جميع مراكز المملكة مفتوحة باستمرار على مدى ٢٤ ساعة لتتلقى التوجيهات والتعليمات من الديوان الملكي في الرياض، وكانت تصدر ما بين ساعة وأخرى، موجهة لجميع مراكز الدوريات والأمراء وموضحة الطرق التي سلكها الهاربون، حسب معلومات قصاصي الأثر (المرِّيه)، الذين أرسلوا على الفور لتتبع آثار الفارين، منذ فرارهم من موقعهم الأساس، وكانت هذه البرقيات تتضمَّن التهديد الصارم بالعقاب، لكل مسؤول من قوى الأمن والدوريات والمراكز، يظهر أن هؤلاء المطلوبين قد غادروا المملكة إلى الدول المجاورة عن طريق المكان الذي يشرف عليه ذلك المسؤول.

برقيات تحذير:

كانت البرقيات تصدر يومياً، بما لا يقل عن عشرين برقية، منذ فرارهم حتى تاريخ إلقاء القبض عليهم، وكلها تُحذِّر وتُحرِّض على وجوب البحث واليقظة والسهر ليلَ نهار.

كانت سيارات دوريات الحدود تتعاقب من الشرق إلى الغرب، هذه ذاهبة وتلك آيبة، تلج كل منعطف وكل واد وكل جبل، ومع ذلك لم يستطع أيٌ من هذه الدوريات أن يظفر بهؤلاء، وكان كل من أمراء المراكز

وخاصةً المتاخمون لحدود العراق والأردن والكويت، يتمنى من أعماق نفسه أن يكون له شرف الظفر بهؤلاء.

حضور أمير مركز الرخيمية:

بعد مُضِي أسبوع على بدء المطاردة حضر إلينا في قصر (أم رضمة) المدعو عبدالعزيز بن مرشود أمير مركز (الرخيمية)، وهو مركز يقع على حدود المملكة مع العراق. بسيارته يرافقه ثلاثة من الخويا واثنان من الجنود، كل منهما برتبة عريف، وهما أخوان شقيقان، أحدهما: وهو الأكبر يدعى سيف الوقيت (وقد استشهد هذا الشخص لاحقاً في حرب فلسطين عام ١٩٤٨)، وأخوه الآخر، يدعى مطلق الوقيت وهو لا زال حياً يرزق مقيمٌ في مدينة الرس بالقصيم، مسقط رأسه وأخيه.

كان مطلق هذا في حدود الثلاثين من عمره، حباه الله بنيةً فارهةً وحدةً في البصر غير مألوفة.

حضر ابن مرشود هذا ورفاقه إلى قصر (أم رضمة)، قادماً في مهمة بحث وتنقيب عن الهاربين، شأنه شأن غيره، كان وقت حضوره إلى القصر قبيل شروق الشمس بنحو ربع ساعة، وكنا في الغالب الأكثر ـ أنا وحمد الهندي وبعض الموظفين ـ نذهب بُعيد صلاة الفجر إلى مجلس الأمير ابن عمار، طلباً للدفء وشرب القهوة والحليب والشاهي، وكان الوقت وقت شتاء، وفجأةً دخل علينا ابن مرشود هذا ورفاقه، وفهمنا منه أنه كان طيلة ليلته الماضية يتجول جيئة وذهاباً على جميع المنطقة المتاخمة لحدود العراق والقريبة من مركز عمله: (الرخيمية).

القبض على الجناة:

مكث معنا نحو ساعة ثم ودعنا متجهاً إلى سيارته، التي قدم عليها، مع رفاقه، موضحاً أنه سيواصل البحث عن الهاربين. بعد نحو ساعتين من مغادرته مركز (أم رضمة) عاد إلينا فجأةً، وكنا نظنه قد عاد للتزوُّد بكمية إضافية من البنزين، وإذا به يقف بسيارته أمام القصر، وعلى سطح السيارة

وهي من نوع اللوري الفورد موديل ١٩٣٦م بين برميل الماء الضخم وبراميل البنزين وأكوام من الحطب المعد للوقود ثلاثة أنفار هم إمجري وابناه.

كان الأب أشيب الشعر، ضئيل الجسم، في حدود السبعين من العمر، بجواره ابنه الأكبر، وقد تمزقت إليته اليسرى مع حوض البطن الأسفل وبعض الأمعاء، وكأنها قُطِّعت تقطيعاً، وذلك نتيجةً لرصاصةٍ وُجِّهت إليه من الخلف، ففعلت في جسمه ما فعلت، إذ إن أمعاءه متدلية على عظامِ الفخذ البارزة، كان يئنُّ بصوت خافتٍ، وفي حالة النَّزع الأخير، وفعلاً لفظ أنفاسه، ونحن واقفون بجوار السيارة من الخلف نشاهده.

أما الابن الآخر، فيبدو أنه في حدود الخامسة عشر من عمره، أو أقل، وهو نحيل الجسم، أصفر اللون يرتعش هو وأبوه من الخوف بشكل يمزق نياط القلب. نزل ابن مرشود من السيارة، واتجه رأساً إلى مجلس الأمير ابن عمار، لكي يتناول القهوة بدلاً من أن يتجه رأساً إلى جهاز اللاسلكي، ويحظى بشرف إعلان البشرى للملك عبدالعزيز على القبض على الطريدة الثمينة.

إرسال ابن عمار برقية إلى الملك عبدالعزيز:

هذا التصرف من ابن مرشود يدل على الغباء، كان ابن عمار أمير المركز قد أسرع إلى اللاسلكي فور أن سمع الخبر من ابن مرشود، وأملى على الأخ ناصر الصايغ مأمور اللاسلكي برقية إلى الملك عبدالعزيز، يزفُّ بها البشرى بالقبض على إمجري وعياله، وأنهم الآن موجودون على ظهر السيارة، أمام قصر (أم رضمة).

وعلى الفور جاءت إجابة الملك عبدالعزيز على البرقية متضمنة أن يرسل إمجري وعياله إلى الرياض فوراً، وأن تسلم أسلحتهم إلى الشخص أو الأشخاص الذين ألقوا القبض عليهم كمكافأة.

بعد أن انتهى ابن مرشود من شرب القهوة اتَّجه إلى مركز اللاسلكي،

الذي كان يبعد عن مجلس الأمير بنحو مائتي متر داخل القصر، وطلب من ناصر الصايغ أن يرسل برقية باسمه إلى الملك عبدالعزيز يبشّره بإلقائه القبض على إمجرى وابنيه.

وهنا دهش الأخ ناصر، وأبلغ ابن مرشود أن البشرى قد سبق وأن رُفعت لجلالة الملك من أمير المركز ابن عمار، وأنَّ الإجابة عليها قد وردت من الملك فعلاً.

اعتراض ابن مرشود:

وهنا اعترض ابن مرشود، واحتدَّ قائلاً: أنا الذي ألقيت القبض عليهم، وها هم معي في سيارتي أمام باب القصر، ولا بد من إشعار الملك بذلك. وفعلاً كتب الأخ ناصر البرقية على لسان ابن مرشود سحبت إلى الديوان الملكي، وما هي إلا دقائق، حتى وردت برقية غاضبة بتوقيع الملك عبدالعزيز يطلب الإجابة الفورية بتحديد القابض على إمجرى وأبنائه: أهو إبراهيم بن عمار أمير مركز أم رضمة، أم عبدالعزيز بن مرشود أمير الرخيمية؟

تعنيفُ الأميرين:

وعلى الفور رُفعت الإجابة بتوقيع ابن مرشود مؤكداً للملك بأنه هو لا ابن عمار الذي ألقى القبض، وموضحاً لجلالة الملك الكيفية التي تمَّ بموجبها القبض على إمجري وابنيه، وقد أعقب ذلك توجيه برقية بتوقيع الملك عبدالعزيز موجهة إلى الأميرين معاً ابن مرشود وابن عمار، وتتضمن أشد وأعنف التوبيخ والتهديد.

كيف قُبض على الجناة:

أمَّا كيفية القبض على إمجري فقد تمت على الطريقة الآتية:

على بعد نحو أربعين كيلومتر من قصر (أم رضمة) باتجاه الجنوب الغربي يوجد وادٍ يعرف بشعيب (كَرِيم)، وهو من الأودية المشهورة تاريخاً

عند علماء جغرافية جزيرة العرب، هذا الشعيب على إحدى جوانبه مساحة من الأرض قد تبلغ الخمسة كيلومترات خصبة المرعى، تتواجد فيها بكثرة الظباء في مواسم توالدها، وتعرف هذه البقعة باسم (دويرة كريم)، حينما وصل ابن مرشود إلى هذا المكان بعد مغادرته لنا في قصر (أم رضمة)، في ذلك الصباح، شاقه هذا البساط السندسي من تلك الأرض، فأحب أن يستمتع بشذاها وأريجها ومنظرها الخلاب وقرر أن يُضحّي فيها، بمعنى أن يمكث فيها للراحة فترة الضحى، ولتناول القهوة والشاهي وطبخ الغداء.

أنزلت الأواني من السيارة، وأشعلت النار، ووضعت دلال القهوة وأباريقها، والشاهي عليها، وتحلق ابن مرشود وخوياه حولها، بينما أخذ مطلق الوقيت بندقيته على كتفه وذهب يتمشى بعيداً عن موقع الجماعة، أملاً في أن يبصر ظبياً يصطاده.

وقف مطلق الوقيت على ربوةٍ ترتفع قليلاً عن سطح الأرض، وعلى بعد نحو كيلومترين من مكان الأمير وخوياه، شاهد عن بعد سمارة تلوح في الأفق البعيد، فأخذ يقترب منها، ثم أخرج منظاره الذي كان يلازمه كما يقول، ووجَّهه إلى حيث توجد تلك السمارة، فإذا به يرى بعيرين قد أنيخا متجاورين تفصل بينهما مساحة متر أو مترين فقط، وبينهما ثلاثة أشخاص أحدهما يحمل بندقية، رجع على الفور إلى حيث يوجد ابن مرشود، وأخبره عما رآه، وبأنه يعتقد أن هؤلاء هم طِلْبة الملك عبدالعزيز.

على الفور نهض ابن مرشود ورفاقه، مصطحبين أسلحتهم، واتَّجهوا إلى حيث توجد البَعَارين، وعندما أصبحوا على بعد مائة متر أو أكثر أخذ هؤلاء الأشخاص الثلاثة إمجري وأبناؤه يناشدون ابن مرشود ورفاقه، بأن يكفوهم شرَّهم ويحقنوا دماءهم وأنهم مقتولون، ولكنهم بدورهم سيقتلون من يستطيعون قتله، وإن من الأفضل للجميع أن يحقنوا دماءهم لأنهم كلهم مسلمون، وأن لا ذنب لهم حتى يتحملوا دماءهم أمام الله، وأخذوا يكررون القول بلهجتهم: (عويذ الله منكم عويذ الله منكم) بتوسُّل وضراعة. وبينما كان ابن مرشود يخاطبهم، بأنهم آمنون إذا سلموا أسلحتهم وسلموا أنفسهم،

وأنه يضمن لهم أن لا يمسوا بسوء، وكان وهو يقول ذلك قد أوعز إلى واحد من رجاله بأن يرجع بعيداً ويلتف من خلف الرجال الثلاثة، ثم يقترب منهم ما استطاع، ويصوِّب بندقيته، على الشخص الثالث الذي هو الوحيد من الثلاثة الذي كان ممسكاً ببندقيته واضعاً كفه على الزناد، وفعلاً تمَّ تنفيذ هذه الخطة، وإذا بالرصاصة تنطلق من الخلف، فتخترق إلية الابن الأكبر لإمجري فتمزِّق عظام فخذه وحوض بطنه الأسفل، وجزءاً من أمعائه، فاختل توازنه وسقطت البندقية من يده، وسقط على الأرض، ومن ثَمَّ هجم ابن مرشود ورجاله عليهم، وكبَّلوهم، ووضعوهم في السيارة وأحضروهم إلى (أم رضمة).

بعد وصول برقية جلالة الملك وإنفاذاً لأمره انطلقت سيارة ابن مرشود، وعليها (إمجري) وابنيه القتيل والآخر، وكان يرتعش من شدة الخوف، متجهة إلى الرياض، وقد كانت النتيجة أنَّ الملك عبدالعزيز قد عفا عن (إمجري) وابنه مكتفياً بموت ابنه الأكبر، وقد شاع أن ذلك العفو كان نتيجةً لشفاعة ابنة صغيرة للملك عبدالعزيز، بإيعاز من غيرها، فقد طلبت منه العفو عنه.





حياتي مع سلمى

زوجة مثالية:

سارت حياتي رتيبة هانئةً سعيدةً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فهذه الزوجة، التي أراد الله أن تكون شريكةً حياتي، منذ قَدِمت إلى هذا الوجود كانت تتنقل بين الفيافي والقفار مع أسرتها، حيث الكلأ والمرعى لم تطأ قدمها مدينة قَط، وقد فارقاها أمها وأبوها، وهي لم تبلغ السادسة من عمرها، فعاشت محتمية بكنف أخيها المقعد مُعزِّي، الذي سبق أن أصيبت إحدى ركبتيه برصاصة أفقدته القدرة على المشي في مشاجرة جرت بينه وبين أحد أفراد قبيلته، على أحد موارد المياه، كان سببها التنافس على من يسبق الآخر في سقي مواشيه.

التنافس على موارد الحياة:

كان كل ما يملكه معزي هذا هو مجموعة من الضأن لا تتجاوز العشرين رأساً، وكذلك مجموعة من الإبل لا يزيد عددها عن العشرة، وهذا كل ما تملكه هذه الأسرة من حطام الدنيا، كانوا يتنقلون بمواشيهم هذه أينما وُجد الكلأ والمرعى، برفقة قبيلتهم، فتارةً تراهم يقطنون على هذا الماء، أعني آبار (أم رضمة)، وعاماً آخر يقطنون على آبار لينة أو لوقة أو الدويد أو حفر الباطن، أي في المورد الذي يؤمن المرعى لأغنامهم، وخاصةً بعد أن أصبحت جميع موارد المياه ملكاً مشاعاً لأفراد البادية أينما وُجدوا، وأياً كانت انتماءاتهم القبلية، بعد أن أمسك الملك عبدالعزيز رحمة الله عليه

بزمام الحكم، فألغى الوضع القائم آنذاك، وهو اختصاص كل قبيلة بالآبار التي كان يقطنها أو يتردد عليها آباؤهم واحتكارها، وقد كان من شأن ذلك الوضع أن تحرمَ القبيلةُ القوية قبيلةً أقل منها عدداً وقوةً، تحرمها من ورود الماء لسقي مواشيها، مما كان يوجد متاعب ومشكلاتٍ وقتالاً بين القبائل لا حصر لها.

كان معزي وأسرته يتنقلون ما بين مكان وآخر، وفي الغالب كانوا يُفضّلون آبارهم التي ألفوها، وهي آبار (أم رضمة)؛ لأنها منذ القدم كما علمت تخص قبيلة الأسلم وحدها.

خيمة سلمى:

نشأت هذه الفتاة سلمى مع أخيها، تشاركه السكن في بيته الشعر، ثم رأت بعد أن بلغت رشدها أن تنفرد بسكن مستقل خارج بيت أخيها ومجاور له في الوقت نفسه، ولذلك فقد اقتنت خيمة صغيرة أوصت عليها أحد أفراد قبيلتها، الذين كانوا يذهبون سنوياً إلى إحدى مدن العراق الناصرية أو سوق الشيوخ أو السماوة، فأرسلت معه جملاً كانت تملكه، وطلبت منه بيع هذا الجمل وشراء خيمة بقيمته.

ابن أخي سلمى وابنتاه:

وفعلاً تمَّ ذلك فهي تقيم في خيمة صغيرة تبعد بضعة أمتار عن بيت أخيها الذي يقطنه، علماً بأن لأخيها ابنتان وولد، أما الولد فهو عبدالله، وكان عمره في ذلك الوقت في حدود الثالثةَ عشر من عمره، وأما البنتان فإحداهما، وهي الكبرى وتسمى فضة، قد تزوجها أمير مركز أم رضمة عبدالرحمن بن صامل، وذلك في أول محرم عام ١٣٥٩هـ، وكان ذلك قبل وصولي إلى أم رضمة بنحو شهر واحد، أما الصغرى فتدعى نشوى، وقد تزوجها المدعو ناصر الحويِّر، وذلك بعد زواجي من سلمى بنحو خمسة شهور، وكان كل من عبدالرحمن بن صامل وناصر الحوير من خويا الأمير عبدالعزيز بن مساعد، أرسلهما من حايل في مستهل عام ١٣٥٩هـ، الأول

وهو عبدالرحمن بن صامل أميراً للمركز، والثاني وهو ناصر الحوير كاتباً له، وقد بقيا في (أم رضمة) حتى نهاية رجب عام ١٣٥٩هـ حيث أبدلا بالأمير محمد بن عرفج أميراً، وسالم بن الشيخ كاتباً، وظل محمد بن عرفج وسالم بن الشيخ ـ في مركزيهما حتى رجب ١٣٦٠هـ، فأبدلا بإبراهيم بن عمار، أميراً وعادل الفقير كاتباً، وكانت عادة الأمير ابن مساعد في حايل أن يُغَيِّر أمراء المراكز في كل عام، إلا ما ندر. وعادل الفقير هذا هو خال عبدالله وفيصل الشهيل، أبناء الأمير محمد بن شهيل، أحد أمراء ابن مساعد المرموقين، وقد تنقَّل في أمارة كل من سماح ونصاب والرخيمية والعديد من المراكز على الحدود السعودية العراقية.

السيدة الفاضلة فوزية الفقير:

كانت زوجة محمد الشهيل هذه، وهي شقيقة عادل الفقير، وتدعى فوزية، امرأة متحضرة، على جانب متميز من التمدُّن والرقي، فقد كانت في حياتها أشبه بأميرة في إحدى المدن، وكانت تقتني جميع ما هو موجود لدى الأسر المتحضرة في المدن، من أدوات المنزل المترفة، التي لا يمكن أن توجد في البادية أو القرى، ومع ذلك فهي تقتني جميع هذه الأدوات، وتسكن مع زوجها في أربع خيام وبيتينِ من الشعر، متنقلين كل عام من أمارة مركز إلى أمارة مركز آخر، ولكي أُدَلل لك ـ قارئي العزيز ـ على هذه الحياة الحضارية المترفة، التي كانت تعيشها هذه السيدة الفاضلة في قلب الصحراء فأقول: إن المرحوم صالح العبدالواحد، وكان أميراً لمركز الحفر آنذاك، وكان الكثير من أفراد الأسرة المالكة يفضِّلون ترك الرياض والتنقل ما بين وهاد الدهناء وصحارى الحَفَرْ ومناطق الشمال، طلباً للفسحة، ومزاولة لهواية الصيد، سواء كان بالنسبة للحباري بواسطة الصقور، أو بصيد الظباء التي كانت تتواجد بأعداد ضخمة في تلك الأماكن.

كان ابن عبدالواحد ـ رحمة الله عليه ـ عندما يعلم بأنَّ أحد الأمراء قد خَيَّم في أماكن قريبة من الحَفَرْ يسرع إليه ويدعوه لتناول العشاء أو الغداء لديه، وبطبيعة الحال فإن الأمير يستجيب، فيحدِّد اليوم والوقت الذي يتم فيه

ذلك، وهنا يسارع الأمير ابن عبدالواحد إلى المركز الذي يرأسه الأمير محمد الشهيل، ويتصل بفوزية، بحضور زوجها، ويخبرها بالموعد الذي حدده لدعوة الأمير، ويرجوها أن تحضر إلى الحفر في ذلك اليوم مع جواريها الثلاث، محضرةً معها جميع ما تحتاجه الوليمة من أدوات الطبخ والأواني الفاخرة، كالقدور والصحون المتعددة، والملاعق والشوك والسكاكين والفضيات والمباخر والطيب والعود، وكل ما يتعلق بمتطلبات الوليمة، وفعلاً تُلبّي طلبه، وتذهب إلى الحفر، سواءً بإحدى سيارات المركز الموجودة فيه، أو على إحدى السيارات التي يرسلها خصيصاً لها ابن عبدالواحد، ولم تكن هناك سيارات صغار آنذاك، وإنما كانت جميع السيارات لواري.

كانت مهمة ابن عبدالواحد تقتصر على الذبائح وعلى الرز، أمّا ما عدا ذلك فكله تحضره السيدة فوزية أم فيصل معها، وكانت تحرص أن تُحضِر معها الكثير من أنواع المعلّبات المتوفرة آنذاك: كالأناناس والفواكه المشكّلة والأجبان والزيتون والحلويات بشتى أنواعها.

كان الأمير، من آل سعود، الذي أقيمت هذه المأدبة على شرفه، عندما يشاهد هذا السِّماط الفخم، الذي قد لا تقل محتوياته من أطعمة وأثاث وأدوات عن السِّماط نفسه الموجود في قصره من الجودة والذوق، وحسن التنسيق، وبطبيعة الحال فإنَّ ابن عبدالواحد يخبر الأمير، ضيف الشرف، بأن هذا السماط الفخم هو من يدي أم فيصل، السيدة فوزية زوجة محمد بن شهيل، وهي في غنىً عن هذا التعريف؛ لأنَّ الأمراء الذين كانوا يترددون على تلك المناطق يعرفون أم فيصل، لأن ابن شهيل يقوم بدعوتهم إليه حالما يعلم بوجود واحد منهم، وكانوا يشاهدون مثل هذا السماط الفخم عند ابن شهيل، وقد فهمت من أخيها عادل، وهو يعمل معنا في مركز (أم رضمة) كما ذكرت، كاتباً للأمير ابن عمار، أنَّ أخته قد عاشت في دمشق عدة سنين، وهي بالنظر لأنها من عائلة الفقير، وهم أمراء بادية المنطقة الشمالية الغربية، المتاخمة للساحل الغربي للمملكة، وعرفوا بوفرة الثراء والميل إلى الترف والحضارة.

ذكريات مع سلمى:

كنتُ أحسُّ بسعادةٍ غامرةٍ تملأ نفسي، تتضاعف يوماً بعد يوم، لما كنتُ ألاحظُهُ على تصرفات هذا الطارق الجديد الذي قدر أن يكون شريكاً لحياتي، كنت أزداد إعجاباً يوماً إثر يوم بما أسمعه من أحاديث هذا المخلوق، ومن تصرفاته، وحركاته مع الأسرة الصغيرة التي يحتويها هذا العش الصغير، وحتى آل الأمر إلى أن أصبحتُ أجد نفسي أختصر الوقت خارج هذا العش الصغير، أو القفص الذهبي، يوماً إثر آخر، لكي أعود إلى هذا القفص بلهفة، مختصراً الوقت خارجه ما أمكن، لأقضي أكبر وقت ممكن ضمن جدرانه، وإنني أذكر أنني كنت أصطحب معي بعض سجلات الإدارة، والمعاملات اليومية، أصطحبها معي إلى البيت، لأنجزها هناك، بدلاً من أن أنجزها داخل الإدارة مما أثار انتباه بعض الإخوان والزملاء من الموظفين وغيرهم كل ذلك رغبة في أن أقضي أكبر وقت ممكن داخل بيتي.

قد يتساءل بعض الناس عن هذا الإسراف في رسم الصورة وتضخيمها، وقد يتهمني بعض آخر بالمغالاة والشطط أفعل ذلك، انسجاماً مع مضمون بيت الشعر العربي المعروف (وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة) ولكن يعلم الله أنَّ ما قلته وأقوله خاصةً في هذا الموضوع قد لا يصل إلى نصف حقيقة الواقع، وإنني أكتب للتاريخ، وأمانة التاريخ تقتضيني أن أسجل الواقع، ولا أكون مغالياً إذا كتبت ما تحمله ثنايا هذه السطور.

رجاحة عقل سلمى وبُعد نظرها:

كنت أنصت إلى حديثها، وأعجب كل العجب أن أسمع من فتاة بدوية حديثاً رائعاً متزناً يتَّسم بالحكمة والهدوء، وبُعد النظر، أنصت إليها وقد أخذ مني العجب كلَّ مأخذ أن أسمع منها مثل هذا الحديث، ولعلَّ فيما سبق أن ذكرته عن صبيحة ليلة الزفاف، حينما منعتني فجر ذلك اليوم من الخروج من الخيمة حاسر الرأس، لعلَّ في هذه اللفتة منها مفتاحاً يحمل كثيراً من الدلالة على رجاحة العقل وبُعد النظر.

حاولت أكثر من مرة أن تشاطرني وجبة الغداء أو العشاء أو الفطور، كانت ترفض بكل إصرار، وبكل أدبٍ وضراعة، في أن أعفيها من ذلك لكي تشترك مع أسرتها في البيت من الخدم، الذين سبق أن ذكرت أسماءهم قائلة: إنها مسؤولة عنهم، وإن من واجبها أن تشاركهم، لكي لا يشعروا أن هناك تمايز طبقي بينها وبينهم.

«تمايز طبقي»!! كيف عرفت هذه البدوية معنى مثل هذه الكلمة ومدلولها؟

الأطواق الحريرية:

حدث أن كلَّفتُ أحد أصدقائي في الكويت وهو المرحوم محمد بن ضاوي، وكان يعمل آنذاك مساعداً للشيخ المرحوم عبدالله قاضي، الوكيل التجاري للحكومة السعودية في الكويت، بأن يبحث لي في أسواق الكويت عن أجمل وأغلى أنواع الأقمشة الحريرية المتوافرة في أسواق الكويت، وأن يأخذ لي من كل نوع طولاً واحداً أي طاقة، وهو يكفي لتفصيل من أربعة إلى خمسة من الثياب، وصلت تلك الأطواق الثلاثة بعد مضي نحو شهر من حفلة الزفاف، وكنت سعيداً مسروراً بوصولها، لأقدمها هدية لها تعبيراً عن تقديري، وإعجابي بها.

أسرعت بها إلى البيت حَال استلامها من السيارة، وما كدت أسلمها لها حتى سألتني بشيء من الامتعاض والاستنكار معاً قائلةً: لمن هذه؟ قلت لها: إنها لك، وأريد منك أن تعطيني أحد ثيابك لكي أرسلها إلى أحد الخياطين في الكويت أو في الرياض، لتفصيلها وخياطتها. أجابت بما معناه: إن هذا العمل منك كانت تنقصه الروية والتفكير. هب أنَّ هذه الملابس قد خيطت، وهي بدون شك بالغة الثمن، فهل من المعقول (والحديث لها) أن ألبسها في (أم رضمة) مركز ناء في أعماق الصحراء، جميع رواده بادية، لم تعرف حياة المدن والترف؟! أجبتها بأنك تلبسينها من أجلي، لكي أسعد برؤياك ترتدينها. أجابتني بقولها: إذا لم أكن جميلة في نظرك إلا بارتداء هذه الملابس فإنَّ ذلك أمر لا قيمة له، إذا لم يكن جمالي

في خَلْقي وفي خُلُقي، وما عدا ذلك فهو بهرجة وقتية.

بذلتُ المستحيل في إقناعها، ولكنها رفضت، مُصرَّة على ضرورة إرجاعها إلى من باعها، وعندما أخبرتها بأن إرجاعها ضرب من المستحيل، أجابت بقولها إذاً لنحتفظ بها حتى يقدر لنا العودة إلى الحجاز وأسرتك، وهناك يكون مجال حياكتها، وارتدائها، مناسباً ومقبولاً، وبالفعل بقيت هذه الأقمشة حتى غادرت منزلها - رحمة الله عليها - إلى مثواها الأخير، بعد مضي ثمانية أشهر فقط من زواجنا.

تحريضها على دوام الصلة بأسرتي:

كانت لا تفتأ من الإلحاح عليَّ بمكاتبة أسرتي، وكنتُ شرحت لها بُعيد زفافنا بعدة أيام، بناء على طلبها الملحّ، أن أفراد أسرتي مقيمون في كل من جدة وعنيزة، وأن عنيزة لم تصبح سكناً لي منذ أن غادرتها صغيراً في عام ١٣٤٤هـ وعشت في جدة، وتأقلمت بها في كنف أخي الشقيق عبدالله رحمة الله عليه، وبعد أن غابت عن سماء عنيزة أغلى وأحب الرموز إلى نفسي، وهما والداي اللذان احتواهما الثرى رحمة الله عليهما.

كانت سلمى تلحّ عليَّ بضرورة التواصل معهم، وتستزيدني باستمرار عن معرفة أحوالهم وأخبارهم، وتلحّ عليَّ أيضاً لمعرفة اليوم الذي نعود فيه معاً إلى جدة، لتراهم وتعيش بينهم.

الاستيقاظ لصلاة الفجر:

كنا نتابع الأخبار خلال جهاز الراديو، ونحن معاً على الفراش، فيغلبني النعاس فإذا بي أغط في نوم عميق دون أن أعلم إلا حينما تربت على كتفي بلطف ورفق قائلة: إنهض فقد وجبت صلاة الفجر، وها هو إبريق الماء الساخن لتتوضأ منه، أحاول التملّص من إلحاحها لكي أواصل نومي، ولكنها تسحب الغطاء من فوقي واقفة على رأسي ممسكة بيدي لأنهض، فكنت أخجل من نفسي، وأضطر مُكرَهاً تحت إلحاحها، لكي أغادر الفراش للوضوء فالصلاة.

كرم سلمى:

كان يحيط بالبيت الذي نسكنه مجموعة من بيوت الشعر أظنها سبعة على ما أذكر، يقطنها أسر فقيرة من البادية رغبت في جوارنا، وكانت تلك الأسر فقيرة مُعدَمة، قد لا يعدو ما تملكه من حطام الدنيا سوى رأسين أو ثلاثة من الضأن أو الماعز، تقتات على حليبها، ومنذ أن بدأوا يستقرون في السكن على مقربة من بيتنا، أخذت تستأذني في السماح لها بأن تدعو نساء هذه البيوت وأطفالها إلى بيتها، بين آونة وأخرى، ثم أضافت إلى ذلك أن أعلمتني بأنها ترجو مني الإذن لها بأن تساعد ما استطاعت هذه الأسر، فكانت تقدم لها كميات من الأرز أو الطحين أو التمر، شارحةً لي في الوقت نفسه وكأنها واعظ ديني ما يترتب على مثل هذا الأمر من أجر وثواب، وأن ما ننفقه على مثل هؤلاء سيخلفه الله علينا، ويعوضه بالبركة والنماء، ولا أبالغ إذا قلت: إنني قد امتعضت في بادىء الأمر لمثل هذا الطلب، لأنه ليس قاصراً على شخص أو شخصين، بل قد يبلغ عدد أفراد هذه الأسر أكثر من ثلاثين شخصاً، ولكنني تحت إلحاحها قد وافقت مُكرَهاً رغم امتعاضي، بيد أن هذا الامتعاض لم يدم إذ شرح الله صدري لذلك، وقد اغتبطت أيما اغتباط حينما افتقدتها من فراشي في إحدى الليالي، واستيقظتُ فجأة على غير عادة، فإذا بها لم تكن موجودة فخرجت من الغرفة إلى ساحة الحوش بحثاً عنها، فإذا بها تدخل فجأةً قادمة من الخارج ملتفةً بعباءتها ممسكة بإناء فارغ متوسط الحجم.

وعندما شاهدتني أخبرتني بأنها قد أوصلت بهذا الإناء قليلاً من الرز إلى بيت سعود الحربي، الذي يقع على بعد أمتار من بيتنا، قائلة لي: إنها قد سبق أن أرسلت خادمتها الصغيرة جِميدَة في طلب زوجة سعود الحربي مغرب تلك الليلة، ولكن زوجة سعود لم تحضر، لأنها كانت طريحة الفراش، فأحبت أن تزورها، واصطحبت معها بهذا الإناء بقية الأرز المطبوخ في البيت، لكي تطمئن على صحتها، وتقدم ما في هذا الإناء عشاءً لأطفال تلك المرأة، مضيفةً إلى ذلك أنها لم ترغب في إزعاجي بإيقاظي، لتستأذن مني في القيام بهذه المهمة.

صلاة التهجد:

كنت في الكثير من الليالي عندما تضطرني الحاجة للذهاب للحمام مستيقظاً من نومي، أجدها في ساحة الحوش قائمة تصلي في جوف الليل صلاة تهجد، ولن أغلو في الحقيقة، أو أجافي الواقع: أنني قد أصبحت أحس بالغيرة منها، وأخجل من نفسي أن لا أكون مثلها على الأقل في التوجُه إلى ربي لأخلو معه في جوف الليل، وأنا الرجل الدارس الفاهم الواعي لما يجب عليَّ نحو ربي أكثر بكثير مما تعرفه هذه البدوية. وشيئاً فشيئاً أخذت أجاريها في هذه الصلاة، ثم أصبحت عادةً يومية توقظني في منتصف الليل، وكأن عقلها ساعة زمنية تحدِّد الوقت، مع أنه لم تكن لدينا آنذاك أي ساعة للتنبيه. نأوي إلى الفراش بعد الصلاة وهي عادةً أربع ركعات في تسليمتين، ثم نستسلم إلى النوم، فما يكاد ينبلج الفجر حتى تستيقظ، وتوقظني معها للصلاة.

أحاديث سلمىٰ:

كانت تحدثني باستمرار، سواء كنا في الفراش، أو في ساحة البيت الذي يفرش فناؤه عادة بعد العصر بالبسط والمخدات، عن الكثير من حياة البادية، وقسوة ما تلاقيه من اللأواء والبؤس. كانت تذكر أنها وأسرتها: أخيها وأسرته، قد تمرُّ عليهم في بعض الأوقات عدة أيام لا يأكلون فيها سوى وجبة واحدة من التمر، محدودة الكمية، خلال الأربعة والعشرين ساعة. كانت من ضمن ما ذكرته أن والديها قد اجتاحهم مرض الجدري، فماتا الواحد إثر الآخر يفصل بينهما عام واحد، وكان عمرها آنذاك كما تقول في حدود الخامسة، كما كان أخوها معزي يكبرها بنحو خمس سنوات، شاباً جلداً، لم يُصَب بعد بالعاهة التي أقعدته.

كانت الأسرة، بعيد وفاة والدها، تمتلك قطيعاً من الأغنام، يتراوح عدده ما بين ثلاثين إلى أربعين رأساً من الضأن والماعز، كلها حلوبة ومطفلة، أي أنها قد ولدت ومعها أطفالها، كانوا يرون أنفسهم سعداء بهذه الثروة، وكانوا يقيمون في روضة تُعرَف بروضة أم رُبخلا، كان الوقت ربيعاً

والعشب قد نمى، وغطّى جنبات الروضة، ويحرس هذه الأغنام كلبٌ ضخم الجثة اعتنوا بتربيته منذ صغره، كان يرافق هذه الأغنام، حينما يتنقل بها أخوها معزي من مكان إلى آخر، بعيداً عن أماكن وجود بيوتهم، بيوت الشعر التي يسكنونها. بعد مدة أصبح هذا الكلب كما تقول من الضخامة والقوة بحيث يخيف الذئاب، فلا تجرؤ على القرب من هذه الأغنام.

وحدث أن أصبح أخوها معزي يترك الأغنام وحدها بعيداً في المرعى، اكتفاءً بحراسة الكلب لها، وشيئاً فشيئاً اطمأن معزي أنَّ وجود الكلب وحده مع تلك الأغنام كافياً لحمايتها وحفظها، وهكذا أصبح الكلب وحده يسوق الأغنام إلى حيث الكلأ صباحاً، ويعود بها مساءً، بينما يظلُّ معزي قابعاً في البيت.

وحدث أن أصيب الكلب في أحد الأيام بمرض أفقده الحياة فجأة، وكان بعيداً بالأغنام عن مكان البيت، وتعلّل موت هذا الكلب بأنه قد يكون نتيجة لحية أفرغت فيه سمّها، بدليل أنهم وجدوا جثته كما تقول منتفخة وزرقاء، ولأن تلك المناطق أرض تغصُّ بالسباع، كثيرةَ الذئاب، وقد لاحظت تلك الذئاب عن بُعد الأغنام، ترعى منفردة لا حارسَ لها، فقد تجرأت، وأسرعت إليها تمزقها واحدة إثر الأخرى، ولم يبق من تلك الأغنام سوى ثلاثة رؤوس فقط.

قضت الذئاب على مجموعة الأغنام ما عدا ثلاثة، كما أوضحت، وقد نتج عن ذلك (والكلام لا زال لسلمى) أكثر من شهر، وهم يقتاتون على بضع تمرات، مما يعطي صورة لحالة البؤس والفقر التي مرَّت بهذه الفتاة اليتيمة، التي لم تتجاوز سن الطفولة بعد.

كانت تحدثني كثيراً عمَّن جاورتهم طيلة حياتها من بيوت البادية، أي أفراد قبيلتها شمَّر. وكانت تحدثني عن أمثلة رائعة مما يضربه أفراد هذه القبيلة من أمثلة رائعة في الإباء والشمم، وتحمُّل قسوة الحياة، والإيثار على النفس، حتى إن الفرد منهم قد يطرق بابه الضيف ليلاً وهو لا يملك أكثر من وجبة واحدة لأفراد أسرته، فيبادر إلى إحدى أغنامه،

وهي قليلة محدودة العدد، فيذبحها للضيف، ويفرغ كامل موجوده من الأرز في قدر هذه الذبيحة، ثم يدعو جميع الأفراد الموجودين على مقربة منه، يشاركون الضيف في هذا القِرَى، يفعل ذلك فرحاً مسروراً، وهو لا يعرف هذا الضيف ولا يقيم أي وزن لمكانته أو شخصيته، ولكن يكفي أنه ضيف طرق بيته دون غيره، وهو يعلم في قرارة نفسه، أنَّ هذه السعادة التي عبر عنها بالترحيب بالضيف قد نتج عنها ألا يجد هو وأفراد أسرته ما يسدُّ رمقه.

أحاديث كثيرة من هذا النوع كانت تحدثني عنها، وهي صفات مشتركة، ليست خاصة بالرجل فقط، وإنما المرأة الشمرية مثل الرجل، فقد يكون صاحب البيت غائباً عن أهله، فيطرق بيته ضيف على غير انتظار، فتجد المرأة تسرع إلى إخراج ما قد يوجد لديها من حبوب القهوة وحبات الهيل، طالبةً منه ـ ودلال ومعدات القهوة موجودة أمام بيت الشعر ـ أن يخدم نفسه بنفسه، ثم تسارع إلى أحد جيرانها تدعوه ليذبح لها أحد أغنامها، وتبادر بتهيئة عشاء الضيف، داعيةً إليه جيرانها من البادية.

كرم قبيلة شمر:

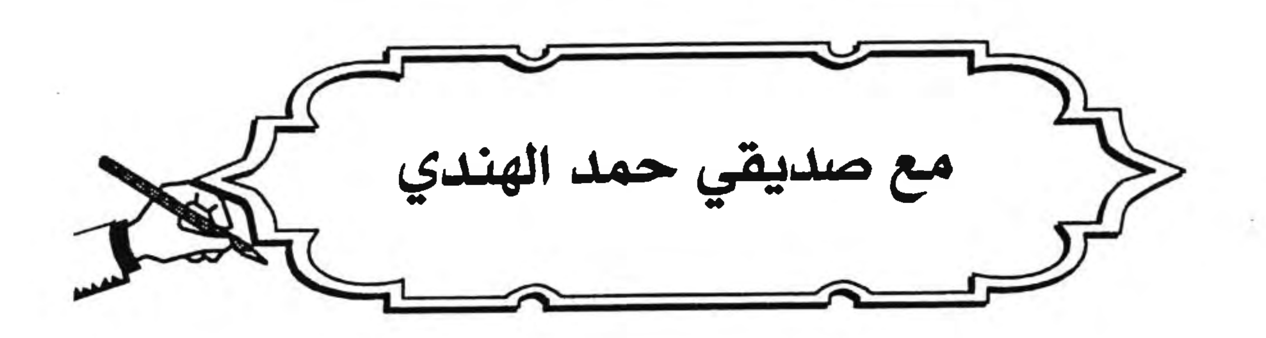
قد يكون في أحاديثها بعض المبالغة، ولكني أروي أكثر من حادثة لها صلة بهذا الموضوع، شهدتها بنفسي، وبيان أحدها كالآتي: بحكم عملي الوظيفي أمين جمارك للحدود آنذاك، كنت أقوم في نهاية كل شهر بجولة تفقدية على المراكز الجمركية، الممتدة على الحدود، التي سبق ذكرها خلال هذه الخواطر، كنتُ أقوم، بدءاً من قرية نقطة الانطلاق، مروراً بالحفر، فأم رضمة فلينة فلوقة فالدويد، ثم أعود من حيث أتيت على الطريق نفسها، كنت أختار السفر ليلاً، حتى أتمكن من إجراء التفتيش على المركز الذي أقصده خلال وقت الدوام في الصباح الباكر.

كانت عادة البادية، وخاصة في أيام الشتاء أن تنتشر مضاربها عن يمين الطريق ويساره، بمسافة قد لا تزيد عن مائتي متر، وكنت أشاهد خلال مروري على الطريق بيوت البادية، وكانت مضارب البادية من الكثافة

والكثرة، تمثل وضعها القديم، ولم تتحول إلى حياة المدن، كما هو واقعنا الآن.

كنت أسير، فأشاهد عن بعد ناراً مشتعلة أمام بيت البدوي، فما أكاد أقترب بمحاذاة هذه النار، حتى أراها تنطفىء فجأة وكأنها لم تكن، وفي الوقت نفسه أشاهد عن بعد بمجرد ما تلوح أضواء السيارة على الطريق، بعض البيوت، توقد فيها النيران فجأة بمجرد اقترابي من محاذاتها، وأشاهد رجلاً أو فتى واقفاً في الطريق مشيراً بيده بما يفيد بأن أقف، وعندما أكلف سائق السيارة بتخفيف السرعة، أقف أمام هذا الشخص ظناً مني أنه بحاجة إلى مساعدة أو عون، أو أن أركبه معي إلى المركز الذي أنا متجه إليه، فما تكاد السيارة تتوقف أمام هذا الشخص، حتى يتجه نحوي مهلياً مرحِّباً بقوله: تفضل تفضل حيَّاك الله يا ضيف الرحمن، مضيفاً: ها هو عشاك على وشك أن ينتهي طبخه، مُلحّاً عليَّ بإصرار أن أشرِّفه بتلبية طلبه، مع أنني لم أكن ضيفاً عليه كما هو واضح، ولم تكن بيننا أي صلة أو معرفة، كنت أعبِّر له عن بالغ تقديري وامتناني، وأحاول التملُّص منه معتذراً له بأنني في مهمة مستعجلة لا تسمح لي بالتأخر، وبعد إلحاح مني ورجاء يقبل ذلك على مضض، وقد تبيَّن لي عندما كنت أتحرَّى عن هوية مثل هذا الشخص، وانتمائه القبلي، أن من يشعل النار هو شمري، أي من قبيلة شمر.





مع صديقي حمد الهندي

انقضت أيام الزواج، وصارت حياتي رخية هانئة، تظللها السكينة، ويغمرها الود والاحترام المتبادل، وكانت الأيام تمر وكأنها لحظات، ولم يكن ينغص عليَّ سعادتي هذه سوى أصدقائي حمد الهندي وإبراهيم بن عمار وناصر الصايغ، الذين يحاولون دوماً إبقائي معهم ومنعي وتأخيري من العودة للبيت، وكنت مضطراً لمجاراتهم، وتلبية رغباتهم، وهنا أرى من المناسب أن أسجل بعض الطرائف، التي هي بلا شك جديرة بأن تسجَّل، لِما فيها من الطرافة والمتعة، وهي خاصة بأعز أصدقائي الثلاثة هؤلاء، وهو مواطني حمد الهندي ـ رحمة الله عليه ـ، وقبل أن أذكر شيئاً من هذه الطرائف لا بد لي من أن أضع بين يدي القارىء لمحة موجزة عن حياة هذا الرجل.

هو من مواليد عنيزة، وهو آنذاك في حدود الأربعين من العمر، فَكِهُ الحديث، حلو المداعبة، بشوش الوجه، يحمل فوق كتفيه دماغاً عبقرياً، لا أبالغ إذا قلت: إنه في عمق تفكيره، وأصالة رأيه، قد لا يفوقه خريج أكسفورد أو السوربون، كان متديِّناً على أكمل ما يكون التدين، ورعاً عفيفاً، يسبق إلى المسجد قبل الأذان، يقضي الكثير من الليل في التهجد، عطوفاً على الفقراء وذوي الحاجة، يضاف إلى ذلك أنه شجاع بكل ما تعنيه هذه الكلمة من بطولة وإقدام، يكفي أن يعلم القارىء أن هذا الشخص، وهو حين ذاك الجندي البسيط، وخلال حرب المملكة مع اليمن عام ١٣٥٢هـ، حينما زحف الجيش السعودي بقيادة الأمير فيصل باتجاه اليمن، وحصل أول

صدام بين الجيش السعودي وبين جيش اليمن، بقيادة حاكم مدينة (ميدي) اليمنية التي هي أول ميناء يمني يلي ميناء جازان السعودي، كان يوجد ضمن القوة السعودية سيارة لوري، رُكِّب على ظهرها مدفع رشاش، هو الوحيد مع القوة، وكان سعيد كردي رحمة الله عليه هو قائد هذه القوة، التي اشتبكت مع القوة، التي يقودها أمير مركز ميدي، المدعو السياري، أصرَّ حمد الهندي على أن يتولى بنفسه إدارة المدفع الرشاش، وفعلاً تمَّ ذلك، وعندما هرب السياري منهزماً، كان هو الشخص الوحيد الذي لحق به، وأسره قبل أن يصعد إلى اللنش، الذي كان يرسو على مقربة منه على الشاطىء.

كان حمد الهندي هذا معروفاً بأن لديه قلباً قُدَّ من الصخر، لا يبالي بالخطر، ولا يقيم له أي وزن، كان يشاركني باستمرار مع بقية الإخوان في الاستماع إلى الأخبار، التي كانت تُذاع من الراديو كل يوم، وكانت تعليقاته على ما يذاع، واستنتاجاته بمنتهى السداد والحكمة، كنت أناقشه، وأنا الشخص الذي أزعم نفسي مثقفاً بالنسبة له، وأتصور خريطة العالم أمامي، ومع ذلك فقد كنت كثيراً ما أقتنع بوجهة نظره حينما يحتد بيننا النقاش، وكأنه يحمل أرقى الشهادات.

طرائف حمد الهندي:

هذا الإنسان الذي أجملت وصفه، حدثت منه طرائف أرى من الضرورة بمكان تسجيلها، لما فيها من الطرافة والمتعة وبما فيها من خطر أيضاً، وإيضاحاً لذلك أُجمل بعضاً منها فيما يلي:

١ ـ قصة الإتريك:

في أحد الأيام كنا متحلِّقين حول جهاز الراديو، في مكتب الجمرك، وذلك عام ١٣٦٠، والحرب العالمية الثانية في أولها. كان الوقت شتاءً، والبرد قارصاً بمركز (أم رضمة)، وكان بجوارنا (إتريك جَلاَّسي)، لإضاءة الغرفة، وكنا نضع في الإتريك بنزيناً بدلاً من الجاز، وكان الإتريك كما هو

معروف، ينتهي بماسورة، تنتهي بصامولة صغيرة تسمى (المامه)، وحدث وكنا منصتين للأخبار أن صعدت من جوف الإتريك هذا وسخة صغيرة ارتفعت إلى رأس الماسورة، فسدت (المامه)، فأحدث ذلك صوتاً أشبه بكلمة (بَخْ)، وإذا بحمد الهندي يقول مخاطباً الإتريك: قل الحمد لله. فما كاد ينطق هذه الكلمة حتى انفجر الإتريك فجأة، والتهبت الغرفة بأكملها، وأسرعنا نتراكض خارج الباب، وقد علقت النار بكل شيء.

أسرعنا نكافح النار بالتراب والماء حتى أخمدناها. بعد أن هدأ روعنا والتقطنا أنفاسنا، وجَّهنا جميعاً أنا وابن عمار والصايغ، كل ما نملكه من شتيمة وتوبيخ لأخينا حمد هذا.

عندما سألناه: ما الذي فعلته؟ أجاب بقوله: إن الإتريك عندما ارتفع صوته بكلمة (بخ)، تصورته رجلاً قد ملأ بطنه، فتغر (تكرَّع) نتيجةً للشبع، فقلت له: قل الحمد لله، وهكذا أصابته العين.

٢ - قصة الظبيين:

كنت في ذلك العام قد اقتنيت مجموعة من الظباء الصغار (جآذر)، كان البدو من الصَّلَب بخبرتهم الطويلة، يعرفون مواسم مواعيد توالد الظباء، فيعمدون متخفين إلى أماكن تواجدها، فما تكاد أنثى الظبي تقذف بمولودها حتى يسرعوا إليه قبل أن تمضي عليه دقائق، يمسكونه ويغذونه على حليب الأغنام ثم يعرضونه للبيع.

كنت أقتني من هذه الظباء عدداً لا يقل عن عشرة، ومن أجل ذلك اقتنيت خمساً من الشياه، ومثلها من الماعز، لا لشيء إلا لكي أغذي على ألبانها هذه الظباء الصغيرة، كان هناك شخص يتولى إخراج الأغنام كل صباح مع أغنام السكان الآخرين، يذهب بها بعيداً عن المركز إلى حيث الرعي، وقبيل غروب الشمس من كل يوم يعود بها إلى القصر، فما تكاد تدخل هذه الأغنام القصر، وأثداؤها طافحة باللبن، حتى تتراكض هذه الظباء الصغيرة نحوها، كل واحدة ممسكة بثدي عنز أو شاة، وكانت هذه الماعز والشياه قد عطفت على هذه الظباء الصغيرة، فكانت تقف لها وتتركها ترضع

حتى ترتوي، وحيث إن تلك الأغنام تظل بعيدة عن السكن طيلة النهار فإنَّ هذه الظباء الصغيرة تحس بالجوع، وبالتالي تترقب عودة هذه الأغنام.

كانت الظباء العشر هذه متروكة في ساحة القصر، لأنَّ بابه دائماً مغلق تسرح وتمرح حيث شاءت، كنت والأخ حمد وابن عمار في طريقنا إلى المسجد لأداء صلاة المغرب، وكان الراعي قد تأخَّر وصوله، فوقفنا في ساحة القصر ننتظر الآذان، وكانت الظباء هذه على مقربة منا مجتمعةً تتراقص فيما بينها، تقفز إلى أعلى ثم تهبط، كنا نشاهدها في منظر ملفت للنظر، وهي تقوم بقفزات رشيقة ممتعة، وبينما كان اثنان منهما قد قفزا إلى أعلى، فالتفت إليَّ حمد هذا قائلاً: ضع في القدر ملح، وإذا بهما يسقطان على الأرض، وقد كُسرت يد كل منهما: ومعنى عبارته هذه أنَّ القدر حينما يوضع على النار، ويصل إلى درجة الغليان يظل ما بداخله من الماء يفور، أي يرتفع وينخفض، وعندما تقذف بقليل من الملح في القدر يكف عن الفوران للحظات، فهو شَبَّه قفزاتها صعوداً وهبوطاً بقدر يغلي على الماء.

٣ ـ قصة البيض:

بعيد زواجي بنحو أسبوع، وكنت قد جلبت من البصرة بواسطة المرحوم السفير محمد الحمد الشبيلي (أبو سليمان رحمة الله عليه) أربع دجاجات وديك، كلها من النوع الضخم، الذي يكاد أن يبلغ في حجمه ما يقارب الديك الرومي، أرسلهم إليَّ عن طريق الأخ محمد الرويجح في الكويت، وكان صاحب مكتبة أتعامل معه في تزويدي بالكتب والصحف يرسلهما على إحدى السيارات القادمة إلى (أم رضمة).

كان ذلك النوع من الدجاج ينتج نوعية من البيض كبيرة الحجم، بشكل متميِّز عن بقية الدجاج، كنت قبل أن أتزوَّج تاركاً هذه الدجاجات داخل القصر، وكان في الغالب الأكثر ما يسطو الأخ حمد على إنتاجهما من البيض، سواءً رضيتُ أو كرهت، ولا يستطيع الحارس المدعو عارف وزميله مبارك ولا الطبَّاخ خادمي الخاص راشد الدويد، أن يحولوا بينه وبين

اغتصاب هذا البيض؛ لأنهم يخافون منه، وبطبيعة الحال، فإن الأمر استلزم نقل هذا الدجاج إلى البيت الذي بنيته كما أسلفت، وبالتالي فقد حرمته مما كان يسطو عليه، ومع ذلك فقد كنت ألبي طلبه ولا أتأخر حينما يطلب بعضاً من البيض، ولكن يحدث أن يكون البيض قد استنفد فطوراً أو عشاء لي ولمن معي في البيت، فأعتذر منه، وبما أنه لا يستطيع اقتحام البيت، فقد أخذ يهددني ويتوعدني بأنه سينتقم مني إذا لم ألبي له ما يطلب، وكان ذلك يتم بطريقة ضاحكة ملؤها الود والمحبة والصفاء، وكنت أتحداه بقولي: لن تذوق البيض بعد اليوم (واركب أعز خيلك)، وكان ابن عمار يسمع هذا التهديد منه، كنا نضحك جميعاً ونعلق بسخرية على هذا التهديد، وفي أحد الأيام، وقبل أن يمر أسبوع أو عشرة أيام على زواجي، ومعروف أن الإنسان في مستهل حياته الزوجية، خاصة وهو في عنفوان شبابه، ومبتهجاً مسروراً بهذا الزواج. كان يترقّب حلول الليل، بكل لهفة، ليأوي إلى فراشه، وكالعادة ما كدت أضطجع على فراشي، وبجواري أهلي حتى أحسست أنني مثلهم سواء بسواء، وسحبت نفسي من الفراش، وخرجت إلى ساحة الحوش أتمشى، ثم غادرت البيت على غير عادة، وقد دهشت زوجتي من هذا التصرف، فأسرعت إليَّ إذ رأتني واجماً ساهماً غارقاً في التفكير تسألني بفزع: ما الذي تحس؟ قلت: لا شيء.

ثم تذكّرت مقولة حمد الهندي وتهديده، فأسرعت خارجاً من البيت، وكان الوقت آنذاك بعد صلاة العشاء بنحو ساعتين، كان باب القصر قد أغلق، ولكن كان بجواره حارس جندي موكّل بفتح الباب وإغلاقه.

فتح لي الحارس باب القصر، بعد أن تعرف على صوتي، فأسرعت إلى حيث يسكن حمد الهندي، فوجدته مضطجعاً على الفراش، وبمجرد أن رآني أخذ مستغرقاً في الضحك بأعلى صوته، وقال لي بكل شماتة: لقد سبق أن حذرتك، ولكنك عنيد لم تتعظ، وكأنَّ قصة الإتريك والظباء لم تقنعك، فأسرعت أكيل له الشتائم، وهو مستغرق في الضحك، مضيفاً إلى ذلك قوله: لقد كنت أطلب منك البيض فقط، أما الآن وقد علقت السنارة فلن أقبل منك أقل من الديك، تعطيه محمود (وهو طباخ لديه)، لأتغدى

عليه، فوعدته بذلك، شربنا الشاهي والقهوة سوياً، وأخيراً قال لي: عد كما كنت، عدت فعلاً كما قال، وعدت كما كنت.

٤ ـ قصة الناقة السمينة:

في شهر ربيع أول عام ١٣٦١هـ تأخَّر نزول المطر في المنطقة الشمالية، ومن ضمنها منطقة (أم رضمة)، ونتيجة لذلك رحلت البادية المتواجدة في مناطق (أم رضمة)، ارتحلت إلى حيثُ يوجد الربيع في المنطقة الشرقية، وخاصةً في منطقة (أبو حدرية)، التي تبعد جنوباً عن مدينة الخفجي بنحو ثمانين كيلومتراً جنوباً، وبرحيل البادية حُرمنا نحن سكان مركز (أم رضمة)، من الحصول على اللحم أكثر من شهر.

كانت العادة أن أخرج أنا وصديقي حمد الهندي بعد صلاة العصر مباشرةً من كل يوم، نتجول على آبار (أم رضمة)، ثم نعود قبيل المغرب، تسلية وترويحاً عن النفس، نتجاذب أطراف الحديث، ونتبادل النكت، ونستعيد الذكريات، وفي أحد الأيام شاهدنا مجموعة من الإبل واقفة أمام أحد أبيار (أم رضمة)، وهو يُعرَف ببئر (هداج) لغزارة مائِه سمي باسم هدَّاج، البئر المعروفة في تيماء، التي يضرب المثل بغزارة مائِهِ، والواقع على مقربة من آثار قصر السموءل بن عادياءَ. ما كدنا نلمح وجود إبل على البئر حتى أسرعنا الخطى إليها، فرحين، ومؤملين أننا سنشتري منها بعيراً لا محالة، أي مهما بالغ صاحبها في القيمة.

كانت الإبل في حدود عشرين رأساً، وكلها بدينة مشحمة، يعلو ظهر كل واحدة منها سنام لا يقل عن نصف متر، لا تكاد تمشي من كثرة الشحم، كان يشرف على هذه الإبل شخص أسود فارع الطول، مفتول العضلات يفترش أنفُه مقدمة وجهه، حتى يكاد أن يصل أذنيه، تدل هيئته على أنه عبد مملوك، واضح ذلك من لهجته، ولكنته في التعبير، يرافقه صبي صغير عمره في حدود العشر سنوات.

وقفت وحمد على صخرة كبيرة قريبة من موقع الإبل نشاهد ما يحدث، أناخ العبد أحد الجمال، ووضع عدة السقي على حافة البئر، ثم

وضع الدلو، وربط الرشا على ظهر هذا البعير، بعد أن وضع حوضاً كبيراً من الجلد على مقربة من فوهة البئر، ثم أركب الطفلَ على الجمل الذي أناخه، وشرع في جلب الماء من البئر بواسطة الدلو، ومن ثَمَّ إفراغه في حوض الجلد، الذي تحلَّقت حوله الإبل، ظناً منه بأن الإبل ظمأى وبحاجة إلى الماء، بيد أن الذي حصل هو العكس، إذ إن الإبل بعد أن تجمعت حول الحوض الذي امتلأ بالماء، يضع البعير خراطيمه في الحوض، ويمتص منه قليلاً من الماء فقط ثم يرفع رأسه نافضاً له، ويبتعد قليلاً مُديراً ظهره للحوض، إشارةً لعدم رغبته في شرب الماء.

كنت اتفقت والأخ حمد على أن يتولّى هو التفاهم مع هذا العبد على شراء أحد هذه الجمال، وكان نظرنا قد وقع على ناقة مسنة، مكتنزة الشحم، على أساس أن مثل هذا النوع من الإبل يكون غير مرغوب، لدى البدوي، لأنه في هذا السن يكون قد توقف عن الإنتاج، وكان البدوي عادةً لا يبيع من إبله إلا مثل هذه (الفاطر)، أي الناقة السمينة. وقف الأخ حمد على مقربة من هذا العبد الضخم، ودار بينهما الحديث الآتي:

- من أين الأخ قادم؟ وإلى أين أنت ذاهب؟ ولمن تعود هذه الإبل؟

أجاب: أنا قادم من (لينة)، في طريقي إلى أبوحدرية شرق المملكة، وصاحب هذه الإبل هو جزاع بن مجلاد، أحد أفراد أسرة آل مجلاد، رؤساء الدهامشة من قبيلة عنزة.

وجزاع هذا معروف لدينا، وكثيراً ما حضر لدينا في القصر.

حاول حمد أن يرشي العبد، فقال له: ما رأيك أن تأتي معنا الآن إلى القصر، تتعشى معنا وتشرب القهوة؛ لأنك ضيف، والضيف واجب إكرامه.

أجاب العبد بقوله: ما نقدر، عمنا أمرنا بعدم التوقف، وهنا بادره حمد بقوله مشيراً إلى الناقة المقصودة: ما رأيك في هذه الفاطر التي شابت الآن، ولا فائدة من بقائها لأنها لن تلد بعد الآن؟ ما رأيك أن تبيعها لنا، ونحن ندفع لك الثمن الذي تطلبه وعمك سيرضى عنك بدون شك، لأن الثمن الذي سندفعه لك أكثر مما تساويه في السوق لو باعها هناك.

أجاب العبد في نبرة فيها حِدة: ما نقدر عمنا لا يسمح. وهنا أخذ حمد يلاطفه، ويحاوره أملاً في إقناعه بيد أنه امتعض، وأجاب بعبارة جافة: أقول لك: ما نبيعو ما نبيعو.

كان العبد أثناء ذلك يطوي الدلو والمحالة ويضعها على الجمل، الذي كان (سانيةً)، ثم يريق ما في حوض الجلد من ماء على الأرض، ويضعه على الجمل أيضاً، ثم يركب ذلك الجمل وخلفه الصبي، الاثنان معاً على ظهر الجمل.

كانت الإبل، كما ذكرت، متحلقةً حول الحوض، وعندما سار العبد على الجمل ابتدأت هذه الإبل تتبعه الواحدة إثر الأخرى. كنت خلال ذلك أسخر من الأخ حمد وأنكّت عليه أقول له: أين وعدك؟ وأين سباعتك؟ وهنا التفت إليَّ ضارباً بإبهامه على جبهته وممسكاً بيده الأخرى يدي، يسحبني بعنف ويقول: أسرع أسرع فسوف أدسِّم شواربك هذه الليلة، وإلا فلست بحمد الهندي.

اتجهت وإيَّاه نسير مسرعين نحو القصر، تاركين العبد وجماله خلف ظهورنا، كان الوقت قبيل المغرب بنحو ربع ساعة، وكان أمير القصر وبعض خوياه جالسين على الدكة بجوار بوابة القصر، وهنا خاطب حمد الهندي الأمير قائلاً له: الآن سيأتيك عبد يسأل عنا، فأنت قل له: لا أعرفهم، ولم يدخل القصر أحد وسيعرض عليك شراء أحد جماله، فأنت قل: لا حاجة لنا بها، حتى يضطر أن يبيعها لك بأبخس ثمن ممكن.

دخلت وإياه داخل القصر، وذهبنا إلى إدارة اللاسلكي عند الأخ ناصر الصايغ، وفعلاً تمَّ ما توقعه الأخ حمد، فلم تمض ربع ساعة حتى جاء العبد راكضاً إلى القصر، وسأل الأمير قائلاً: أين الرجلين اللذين دخلا القصر منذ لحظات، أجابه الأمير بقوله: لم يدخل القصر أحد. وهنا قال العبد مخاطباً الأمير ابن عمار: يوجد لدينا ناقة سمينة طيبة نريد بيعها، أجابه الأمير بقوله: لا حاجة لنا فيها، لأنَّ اللحم عندنا موجود. أجابه العبد بأنها سمينة وكبيرة وثمنها رخيص.

وهنا طلب الأمير من أحد خوياه أن يذهب مع العبد إلى حيث توجد الناقة، ليراها ويخبره عنها، وهنا دخل علينا ابن عمار ضاحكاً موجِّهاً كلامه لحمد الهندي: كفانا الله شرَّك! ماذا عملت للرجل؟ أجابه: ليس هذا وقته، ولكن ما الذي فعلته مع العبد؟ قال: أرسلت معه أحد الخويا لينظر إلى الناقة ويفيدني، وهنا تمَّت المفاهمة بين ابن عمار وحمد بأن لا يدفعوا للعبد أكثر من ربع قيمتها، على أساس أنه مضطر إلى بيعها بأي ثمن، ولكن حمد بدافع من ورعه أصرَّ بأنه لا بد أن ندفع له ربع القيمة على الأقل، بينما كانت رغبة ابن عمار ألا يدفع له إلا جزء يسير جداً.

اتُفِق على أن يدفع له مبلغ خمسة وعشرين ريالاً فرنسياً، وقد تم ذلك بواسطة ابن عمار، ورحل العبد مع بقية جماله. وبعد صلاة العشاء ذهبنا جميعاً ابن عمار وحمد الهندي وأنا ومعنا جزار الأمارة ومجموعة من الخويا إلى حيث توجد الناقة، طريحة الأرض مكسورة اليمين، وعندما ألححنا على حمد بشرح ما حدث لهذه الناقة التي انكسرت يدها اليمنى فجأةً، وبدون أي سبب، أجاب بقوله: عندما كانت مجموعة الإبل متحلقة حول حوض الماء ثم سارت واحدة بعد الأخرى تتبع الجمل، الذي عليه العبد، شبهتها في خاطري بسبحة تكروني، منتظمة العقد، ثم انقطعت هذه السبحة، وانتثرت حباتها حينما سارت منفردة واحدة إثر الأخرى، شبهت هذا المنظر بانفراط السبحة، وتناثر حباتها. وفي الواقع أننا جميعاً سكان القصر قد نعمنا عدة أيام بلحم شهي، نتيجة لعين هذا الرجل أبو فيصل، حمد الهندي.

٥ ـ قصة ديجوري:

في مستهل عام ١٣٦١هـ، أي بعد مضي ثلاث سنوات على قيام الحرب العالمية الثانية كانت طرق المواصلات البحرية قد توقفت، نتيجة للحرب، وانتشار الغواصات التي كانت تتصيَّد البواخر في مختلف البحار من كلا الخصمين المتحاربين، نتيجةً لذلك توقف جلب قطع غيار السيارات التي كانت المملكة في أحوج ما تكون إليها، خاصةً متى علمنا أنها قد وضعت خطاً يبتدىء من (قرية) إلى الشرق، وينتهي بمدينة (حقل) من جهة الغرب

على الحدود المتاخمة للأردن والعراق، تنتشر على امتداد هذا الخط مراكز حكومية أُمّن كل مركز منها بعدد من السيارات، يتناسب عددها قلة وكثرة مع أهمية المركز الذي توجد فيه، التي كانت تقوم بمهمة الدوريات باستمرار على الحدود المتاخمة للمملكة من جهة الشمال، بدءاً بحدود الكويت فالأردن فالعراق.

كانت تلك السيارات الموجودة في تلك المراكز قد توقفت كُلياً عن الحركة، لما لحقها من خراب وفقدان القطع اللازمة للإصلاح، ولأهمية حركة هذه السيارات، فقد رأى الملك عبدالعزيز الاتفاق مع الحكومة البريطانية على أن تؤمّن له جميع قطع الغيار المطلوبة، ولكي تؤمن تلك القطع فقد استلزم الأمر حصر عددها، وبيان أنواعها، لذا فقد وردت من الديوان في شهر محرّم عام **١٣٦١هـ** برقية مستعجلة، معمّمة على جميع أمراء المراكز تتضمن ما يلي:

سيصل إليكم يوم كذا المستر (ديجوري)، وهو مهندس كبير من طرف المعتمد البريطاني في الكويت، عليكم استقباله وإكرامه وتلبية طلباته، وتمكينه من الوقوف على السيارات الموجودة لديكم، لكي يفحصها ويتفقد نواقصها، ويسجل أعدادها وماركاتها، كما أن على كل أمير مركز أن يبرق فور وصول ديجوري إليه إلى المركز الذي يليه، مُحدداً موعد مغادرة ديجوري، لكي يقوم أمير المركز باستقباله حال وصوله.

في صباح ذلك اليوم، بعد شروق الشمس بنحو ساعة، حضر إلى مركز (أم رضمة) المستر (ديجوري) في سيارة بوكس صفراء مصندقة جديدة. كان أمير المركز ابن عمار في انتظاره وفور وصوله طلب منه الاستراحة، ليشرب القهوة ويستريح من وعثاء السفر، وبينما كانت تهيأ القهوة للضيف أسرع ابن عمار إلى مركز اللاسلكي، وكان على الجهاز الأخ ناصر الصايغ، فأملى عليه برقية موجهةً باسم أمير الحفر صالح العبدالواحد، مفادها أن (ديجوري) وصل الآن في (أم رضمة) وسيغادرها هذا الصباح في طريقه إليكم، ثم عاد ابن عمار إلى حيث يوجد الضيف.

ولسوء حظ ابن عمار فإن مدير اللاسلكي ناصر الصايغ ما كاد يتصل بمدير لاسلكي الحفر عثمان العيوني، ليملي عليه البرقية إذا بماطور لاسلكي (أم رضمة) يتوقف فجأةً عن العمل، ورغم محاولة المهندس عبدالقادر تركي إصلاح الماطور فقد تعذّر عليه ذلك، نظراً لخراب إحدى القطع الرئيسة فيه وهي غير متوافرة، ويستلزم طلبها من المركز الرئيس للاسلكي بمكة المكرمة، وكانت آنذاك من مسؤولية إبراهيم سلسلة وعبدالله كامل.

هنا أسقط بيد ناصر الصايغ، وكان ابن عمار ساعتئذ واقفاً مع الخواجة (ديجوري) أمام السيارات، وهو يتفقدها ويسجل احتياجاتها، كانت صدمةً عنيفةً لإبراهيم بن عمار لم تتحملها أعصابه عندما علم أن البرقية لن تسحب، فأسرع إلى المهندس عبدالقادر تركي، ليبذل كل ما في وسعه لإصلاح الجهاز، ولكن عبدالقادر أفهمه أن لا سبيل إلى ذلك لأنَّ إصلاح الماطور يحتاج إلى قطعة غير موجودة، وهنا وقع إبراهيم بن عمار في مأزق ما بعده مأزق، أو كما يقول المثل: وقع في حيص بيص، كان يقلب يديه واضعاً إحداهما على الأخرى بعصبية وعنف، مدخلاً شعرات ذقنه مع شفته السفلى داخل فمه، وقد لاحظ الأخ حمد الهندي الحالة التي طرأت على صديقه ابن عمار، وكان حمد قد قام من عندي لتوه من إدارة الجمرك، كانوا على مقربة مني على بعد نحو عشرة أمتار لا أكثر ولا أقل.

كان (ديجوري) يتنقّل من سيارة إلى أخرى، وقد لاحظتُ الحركة غير العادية، والحركة المنفعلة من ابن عمار وهو يخاطب الأخ حمد، فأسرعت إليهما لأكتشف الخبر، وإذا بالأخ ناصر الصايغ ينضم إلينا، ويفهمنا بحقيقة الأمر، مُبدياً أسفه الشديد لعطل الجهاز المفاجىء.

كان لا يوجد في المركز سوى سيارة واحدة شغالة وهي سيارة قديمة جداً وكثيرة الخراب ولذلك فهي قاصرة على خدمات القصر فقط. كان (ديجوري) في تلك اللحظة قد انتهى من مهمته، ومرَّ بنا مودِعاً باتجاه سيارته البوكس الواقفة أمام باب المركز، مغادراً إلى مركز الحفر.

كان ابن عمار ـ رحمة الله عليه ـ يكاد يسقط من الإعياء والارتباك،

بعد أن شاهد (ديجوري) يغادر القصر بسيارته الجديدة، وبما أن حمد يعرف جيداً الود المفقود بين ابن عبدالواحد أمير الحفر وبين ابن عمار، فقد هزَّته النخوة وأسرع إلى صديقه ابن عمار يطمئنه، ويهدىء من روعه قائلاً له: كن مطمئناً فلن يصل هذا (الديجوري) إلى الحفر إلا بعد أن نكون قد أحطنا العبدالواحد علماً بذلك. وفي الحال جهزت سيارة الأمارة بالبنزين اللازم وغادرت القصر في طريقها إلى الحفر وعليها حمد الهندي.

بعد مغادرة حمد للمركز بنحو أربعين كيلو باتجاه الحفر وجد (ديجوري) الذي سبقه في الرحيل، واقفاً بسيارته على الطريق، فوقف أمامهم وسأل سائق السيارة عن سبب التوقف: هل هو للاستراحة؟ أجاب السائق لا وإنما السيارة تعطلت فجأة، وحاولنا تشغيلها، ولم نوفق ولا نعرف سبب تعطلها وهي سيارة جديدة، فأخبرهم حمد بأن لا يقلقوا لأنه الآن في طريقه إلى الحفر، ليحضر لهم مهندس السيارات الموجودة هناك مع معداته لمساعدتهم.

وقف (ديجوري) مقيماً في مكانه، بينما واصل حمد سيره إلى الحفر واتصل على الفور بالأمير صالح العبدالواحد وأخبره أن (ديجوري) في طريقه إليه خلال مدة لا تزيد على ثمان ساعات: عِلماً بأنَّ المسافة ما بين الحفر و(أم رضمة) هي مائة وخمسون كيلومتراً.

عاد حمد من فوره إلى (أم رضمة)، ولدى وصوله إلى سيارة (ديجوري) أظهر لهم بأنه لم يجد المهندس، ثم أخذ مفتاح السيارة من السائق على أساس أنه يحاول تشغيلها، وفعلاً تصنَّع نحو ربع ساعة يفتح كبوت السيارة، ويتفقد البواجي وهي كلها جديدة، ثم يقفل الكبوت ويعود إلى عجلة القيادة فما هي إلا لحظة، وهو يدير مفتاح السيارة فإذا بها تشتغل، ثم يصافحه (ديجوري) بحرارة مُهدياً له الناظور الذي يحمله، وهو لا يعلم أن البلاء منه، أي: من حمد.

عاد حمد إلينا في (أم رضمة)، وزفَّ البشرى إلى ابن عمار الذي أسرع إلى تقبيل رأس حمد، وأخذه بالأحضان بعد أن روى له القصة. أما

انزعاج ابن عمار، وخشيته من وصول (ديجوري) إلى الحفر، دون أن يصل عبدالواحد علمٌ عن موعد حضوره، فسببه أنَّ هناك عداء مستحكم بين الرجلين، إذ إن ابن عبدالواحد يرتبط بالملك عبدالعزيز رأساً في أعماله الإدارية، وهو ذو دالة وحظوة لدى الملك، بينما ابن عمار هو أحد خويا الأمير عبدالعزيز بن مساعد بن جلوي، شأنه شأن بقية الأمراء الآخرين، ومن المؤكد أنَّ (ديجوري)، لو قُدِّر أن يصل الحفر دون أن يعلم ابن عبدالواحد مسبقاً عن موعد وصوله، فإنه سيشكو ابن عمار لجلالة الملك عبدالعزيز، وبهذا قد يتسبب في إلحاق الضرر بابن عمار: بعزله عن منصبه حينما يعلم رئيسه الأمير عبدالعزيز ابن مساعد بهذا القصور.

٦ـ قصة الحليب، وحسد حَمد الهندي لنفسه:

حادثة أخرى للأخ حمد: في عام **١٣٦٢هـ**، وقبل زواجي بنحو شهر تقريباً، كانت منطقة (أم رضمة) في ذلك العام قد حظيت بهطول أمطار غزيرة متوالية، مما نتج عنه أن أمرعت تلك المناطق بشكل لم تشهده منذ أكثر من خمسين عاماً، كما فهمت من أحد سكانها من البادية، وكنا سكان (أم رضمة) من الموظفين في المركز، قد اقتنينا مجموعة من الضأن بقصد الحليب.

كانت المسافة التي تفصل بين إدارة الجمرك مع غرفة نومي عن المكان الذي ينام فيه الأخ حمد لا تزيد عن عشرين متراً تقريباً.

كان من عادته أن يكلف خادمه الخاص المعروف بـ (دُبَيَّان)، وهو جندي من ضمن جنوده، يكلِّفه بأن يحلب له من هذه الأغنام طاسة يلمؤها ثم يضعها في وجار القهوة، بجوار الدلال يضعها مغطاة غير بعيدة من رماد الجمر.

كانت عادة حمد عندما ينتهي من سماع الأخبار، معي ومع ابن عمار، يذهب إلى سكناه يلتحف بـ (بيدي)، وهو عباءة من الصوف السميك المعروف عند إخواننا الغُمَّد والزَهَارين. يلتحق بهذا البيدي، ثم يضطجع في المحكمة، وهي الموضع الملاصق للوجار، وهو عادةً موضع جلوس من يتولى حمس القهوة وتهيئتها للضيوف.

يضطجع في هذا المكان ملتحفاً بالبيدي، بعد أن يكون قد أفرغ في جوفه ما في هذه الطاسة الملأى بالحليب، الذي قد لا يقل عن كيلوين.

كنا في تلك الليلة، نعلق ونتناقش في خبر أذاعته محطة أنقرة، وهو أنَّ الألمان قد استطاعت غواصاتهم اصطياد أكبر سفينة بريطانية، وهي المسماة بجورج الخامس، وإرسالها إلى قاع المحيط، لتستقر فيه بمن فيها.

كان الوقت آنذاك قد أشرف على الساعة الرابعة ليلاً بالتوقيت العربي. انصرف ابن عمار راكباً سياراته، متجهاً إلى عائلته على بعد نحو كيلوين خارج القصر، ثم أعقبه حمد ذاهباً إلى سكنه، لينام كما هي عادته، وبقيت أنا أدوّن في دفترٍ معي مجمل أخبار تلك الليلة مع خلاصةٍ لمناقشتنا حول حادث الباخرة. لم أشعر بعد أن ذَهَبَ عني حمد بنحو ربع ساعة، إلا وخادمه الخاص دبيان، يفاجئني واقفاً على رأسي، يعلو وجهه الذهول والارتباك قائلاً ما نصه: عمي حمد لم ينم كالعادة، وحالته غير طبيعية، فهو يضطجع تارة ثم يقعد من جديد ويقوم بحركات عصبية غير مألوفة، وقد حاولت أن أفهم منه ما حلَّ به، ولم يجبني، ولكن كنتُ ألاحظ أنه كلما قعد من اضطجاعه وضع يده على بطنه.

لم أهتم شخصياً بالموضوع، وقلت له مازحاً: ربما يكون عمك اليوم قد دحاها. وأعني بذلك قد أكل أكثر من اللازم، فانتفخت بطنه، فغادرني عائداً إلى حيث يوجد عمه، وبعد نحو خمس دقائق إذا به يعود مسرعاً، ويطلب مني بعنف وانفعال أن أصطحبه لأرى ما جرى لعمه فلم يسعني إلا الإجابة، ذهبت إلى حيث يوجد حمد بجوار الموقد الذي هو الوجار، وقفت على رأسه قلت له: ما لك لم تنم؟ أجابني بقوله: هات يدك. مددتُ له يدي، فوضعها على بطنه، وإذا البطن يعلو رويداً رويداً كما يعلو جلد الكرة خلال نفخها. سألته ماذا فعلت؟ هل أكلت شيئاً. قال: أبداً، وكل ما في الأمر أنني شربت الحليب كالعادة، ومن الواضح بأنَّ الحليب هو عبارة عن ماء لا يمكن أن يكون سبباً في انتفاخ البطن بصورة متلاحقة. خطر ببالي أن نسعفه بمُسْهِل أملاً في أن يخفف ما في بطنه، فلم نجد لسوء الحظ مسهلاً في جميع القصر، وكانت اللحظات التي تمر تزيد الأمر

خطورة، وكان أحد سائقي القصر قد أسرع إلى الأمير ابن عمار فأحضره من عند أهله.

وصل إلينا ابن عمار مندهشاً ومرعوباً قائلاً: ما الخبر؟ قلت: لا أعلم ها هو حمد أمامك إسأله. وكان حمد ساعتئذ في منتهى الوجل والحيرة والارتباك، فلم ينبس ببنت شفة، مكتفياً بمد يده إلى يد ابن عمار واضعاً كف ابن عمار على بطنه المنتفخة والمستمرة في الانتفاخ، وإذا بيد ابن عمار ترتفع رويداً رويداً مع ارتفاع بطن حمد نتيجة لتواصل الانتفاخ.

وقفنا جميعاً نتناقش في ذهول ورعب وارتباك: ما الذي يمكن أن نفعله لإنقاذ حمد مما هو فيه؟ ولم يكن متوفراً لدينا أي وسيلة لإنقاذه، فلا المُسهل موجود، ولا طبيب لدينا، والمسافة بيننا وبين الحفر مائة وخمسين كيلومتر. وقفنا حيارى واجمين، وكان الموظفون والجنود المتواجدون داخل القصر قد حضروا، وانضموا إلينا يشاهدون المنظر، الذي أخافنا وأفزعنا جميعاً، وكان بطن حمد آنذاك يكاد أن ينفجر، وهو أشبه بالقربة الكبيرة المنفوخة، يتمتم بكلمات، ويتشهد، وكأنه يرى الموت عياناً.

كان بجواره طاسة في الوجار، بجوار دِلاَل القهوة، فيها كمية من الماء لغسل الفناجيل، وفجأة إذا بحمد يقفز كالملسوع ممسكاً بالطاقية التي كانت تعلو رأسه، غامساً إياها في الماء الذي في الإناء، ثم مفرغاً ماء ذلك الإناء في جوفه، وإذا بنا فجأة نسمع ما يشبه دوي الصاعقة منفجراً من الأسفل، فابتعدنا عنه تفادياً لما يقذف به من أسفل، وإذا به يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وإذا ببطنه يضمر رويداً رويداً حتى عاد إلى وضعه الطبيعي خلال ربع ساعة تقريباً وأخذ يكرر قوله: الحمد لله الحمد لله، تركناه حتى عاد إليه هدوءه، وسكن عنه روعه، عندئذ سألناه: ما الخبر؟ فقال: كدت أقتل نفسي بنفسي.

كيف؟ قال: عندما رفعتُ طاسة الحليب إلى فمي، وشرعت أشرب منها، خَطَرَت ببالي صورة شعيب مزبد، أي مجرى ماء ممتلىء بالماء يعلو جوانبه الزبد، كما هي حال الأودية في حال فيضانها، شبهت رغوة الحليب التي كانت تعلو الإناء شبهتها بالزبد الموجود على جوانب الوادي عند

جريانه، ولم يعلق هذا الخاطر بذهني، إلا بعد أن أوشك بطني أن ينفجر من الانتفاخ، عندئذ أخذت طاقيتي وغمستها في الماء بسرعة وشربتها، فكانت الفرج والترياق.

ظاهرة الحسد:

قد تبدو للقارىء، لأول وهلة هذه الحادثة ضرباً من الخيال، أو أن نسبة الخيال على الأقل فيها عالية جداً، ولكني أقسم غير حانث أنَّ هذا هو عين ما وقع، ولست بمستطيع أن أبرِّر هذه الظاهرة: ظاهرة الحسد، وأن يبلغ الأمر بصاحبها إلى أن يقتل نفسه، فهو بالفعل حَسَدَ نفسه، فلولا تذكره في اللحظة الحرجة الأخيرة ما خطر بباله عند بدء شربه للحليب، وبالتالي شرب ماء الطاسة بعد أن غمس فيه أَثَرَه، أي طاقيته لو لم يفعل ذلك لانفجرت بطنه.

قد يكون لعلماء النفس المختصين والأطباء، تعليل لهذه الظاهرة، وتفسير لها، أما أنا فحسبي أني شهدت الحوادث الست التي سردتها في هذه الخواطر، التي كان آخرها حادثة قرب الانتحار هذه ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

ونظراً للصداقة الحميمة التي كانت تربطني بالأخ حمد، إذ كنت دائم الاتصال به، فقد سألته أكثر من مرة عن هذه الظاهرة، التي يتميز بها، وهي ظاهرة العين، فكان يقسم لي بأغلظ الأيمان بأنَّ ذلك أمر خارج عن إرادته لا حول له فيه ولا قوة، وأنه لولا أنه يذكر اسم الله، كلما وقعت عيناه على شيء، لكان أبناؤه أول الضحايا لهذه الظاهرة، ولكنه دائماً كان يكرر ذكر الله على لسانه بصورة متكررة ومتواصلة، وهو كما يقول يتألم أشد الألم لأن يقع مثل هذا منه، ولكن لا حيلة له في ذلك.





وفاة سلمى

بدء المأساة:

سارت حياتي رخيةً هانئة، تغمرها السعادة والرضا والاطمئنان، كان كل يوم يمر عليَّ أحس بأني في عالم جديد، أفضل مما كنت عليه في أمس، حياة لا يشوبها كدر ولا تنغيص، وكأنها السعادة جُسِّمت في روض علوي تحتضن كل ما تشتاقه الأنفس، وتلذ منه الأعين. مضت شهور ثمانية تقريباً، وجاء شهر رمضان، وفي اليوم الخامس والعشرين منه على التحديد من عام ١٣٦٢ هـ كان ذلك اليوم بدء مأساة، أو بدء الإعصار، أو قل على الأصح: بدء الكارثة والزلزال المدمر بالنسبة لي، أعلمتني زوجتي سلمى في ضحى ذلك اليوم بأنها تحس بحرارة في بدنها غير مألوفة، فطلبتُ منها أن تفطر إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وليس على المريض حرج، بيد أنها هوَّنت عليَّ الأمر، وأجابت بأنها لن تفطر مهما بلغت الحرارة.

كان ذلك يوم خمسة وعشرين، وفي اليوم التالي ازدادت الحرارة معها أكثر فأكثر، فألححتُ عليها بوجوب الإفطار، ولكنها أيضاً رفضت بإصرار وعنف، قائلةً ـ وكأنها تنظر إلى وراء سجف الغيب ـ: دعني أكمل صومي فلن تحاسب عني، مضى ذلك اليوم، وتركتها بعد أن يئست من إقناعها.

وصفة طبية:

في صباح ٢٧ من رمضان مرَّ بنا الدكتور ناصر بن حمزة غوث قادماً من الحدود الغربية، في مهمة كلف بها من قبل وزارة الصحة في أن يمر

على المراكز، ويحاول إسعاف وتطبيب من هو في حاجة إلى العلاج. حضر إلينا المذكور في أمسية ذلك اليوم، وعندما كنت وإياه في مجلس الأمير، وفهمت مهمته أخبرته بوضع عائلتي، وأنها تشكو من حرارة منذ ثلاثة أيام، فاكتفى بإعطائي بضعة حبوب من شنطته اليدوية وكانت هذه الشنطة هي كل ما يحمله لمعالجة المراكز.

أعطاني الحبوب قائلاً لي: أعطها حبتين، وبعد ست ساعات مثلها، وستهبط الحرارة، وينتهي الموضوع. كان ذاك في مساء ٢٧ من الشهر، كما ذكرت، وكان الوقت مساءً أي بعد صلاة العصر.

لقائي بالصديق أحمد عبيد:

وما كاد يغادر القصر بسيارته التي قدم عليها، متجهاً إلى (الحفر) حتى ذهبت إلى بيتي أحمل معي الحبوب، فما كدت أصل الباب حتى رأيت سيارة متجهة إليَّ، فوقفت ووقفت السيارة، وكانت سيارة فورد لوري، وإذا بالصديق القديم السيد أحمد عبيد ينزل منها فنتعانق معاً، ويأخذ كل منا أحضان الآخر، وكانت تربطني به صداقة ود واحترام متبادل، فقد عُين مفتشاً لمالية قرية وجمارك الحدود، في عام ١٣٦٠هـ، وهي الوظيفة التي كان يشغلها يوسف خلاوي، كانت هذه الوظيفة، ومقرها (قرية) عبارة عن إدارة رئيسة، ترتبط بها جميع مراكز الحدود الحفر، أم رضمة، لينة، لوقة، دويد، فهي تشرف على هذه المراكز، تراقب أعمالها وتوجه إليها الأنظمة والتعليمات، وتؤمن جميع مستلزماتها من رواتب وغيرها، وبحكم أني أرأس واحداً من تلك المراكز، وهو مركز (أم رضمة)، فقد كنت مغتبطاً به، وبالتالي فهو رئيسي.

وخلال تبادل البرقيات والخطابات الرسمية والمعاملات، التي كانت تتم بيني وبينه، نما بيننا ود متبادل أخذ ينمو يوماً إثر يوم حتى آل الأمر أن نتبادل الكتب الخصوصية فيما بيننا، التي لا تمت إلى العمل الرسمي بصلة ثم قدِّر لي في أواخر عام ١٣٦١هـ أن أذهب إلى (قرية) في مهمة تتعلق بالعمل الرسمي، كان موضوعها يستلزم المفاهمة المباشرة مع السيد أحمد عبيد.

سفري إلى (قرية):

وقد كان في الوسع أن يتم إنهاء هذا الموضوع دون أن أتكبد مشقة السفر إلى قرية، التي تقرب مسافتها مما لا يقل عن ثلاثمائة كيلومتراً تقريباً، في طرق وعرة ووسائل قديمة، بيد أن الرغبة مني ومنه كانت شديدة في أن يرى كلٌّ منا الآخر، ولذا اتخذنا هذا الموضوع غطاءاً فقط يبرر تغيبي عن العمل في (أم رضمة) لمدة أسبوع.

كان التقدير مني أن أقضي في (قرية) يوماً واحداً، ثم أعود، بيد أنه أنزلني في ضيافته، وأصرَّ عليَّ بالبقاء مدة أسبوع ضيفاً عليه، كانت الأيام السبعة التي قضيتها بجواره كلها ساعات ملؤها السعادة، كل منا يزداد إعجاباً بالآخر، كانت أحاديثنا دائماً خارج الدوام نقضيها في الأحاديث، متجولين في زوايا التاريخ وبين أحضان الكتب، التي كانت تحتويها مكتبته الصغيرة، والتي لا يستغني عنها لحظة كما كان يقول، فهي بالنسبة له ثالثة العناصر التي تضمن استمرار الحياة، وهي الماء والهواء والقراءة.

كانت مكتبته تلك تحتضن ما لا يقل عن خمسين كتاباً، ثلاثة أرباعها تقريباً في التاريخ، وخاصةً في العصور الأول للإسلام، وللعصور الذهبية بأسبانيا.

من عبر التاريخ:

كنا نتناقش باستمرار عن أحداث التاريخ، كيف انهارت الدولة الأموية، وكيف قامت، كيف قوضت أركانها، بعد أن وطأت حوافر خيولها أرض الصين شرقاً، ومدينة تولوز غرباً في فرنسا، كيف قوضت هذه الدولة على يد الفارسي المسلم أبي مسلم الخراساني، رغم أن آخر خلفاء هذه الدولة، وهو من أقدر الرجال في ساحات الحرب والسياسة، وهو محمد بن مروان، المعروف (بالجعدي) نسبة إلى معلمه، أو (الحمار) بالنسبة لصبره. ولكنه تولى الأمر، وقد قوضت أركان الدولة من مختلف أركانها نتيجةً للعبث والانغماس في اللذات، وتحكيم النزعات والشهوات في تصريف الأمور.

دولة بني العباس:

نتحدث سوياً كيف ورث بنو العباس أمجاد هذه الدولة، رغم أن الثورة على الدولة الأموية كان شعار دعوتها (الرضا من آل محمد)، ويعني ذلك أن الأمر سيعود إلى العلويين من سلالة الخليفة الرابع علي بن أبي طالب، وكان رئيس هذه الدعوة وهو (أبو سلمة الخلال) أحد الشخصيات الإسلامية البارزة، التي كانت تعمل لإعادة الأمر إلى العلويين بيد أن الذي حصل عندما استطاع أبو مسلم الخراساني أن يصل الكوفة بعد أن سيطرت جيوشه وأنصاره على شرق الدولة الإسلامية من الكوفة حتى حدود الصين، أنَّ هذا الرجل، في الساعات التي كان يُعِد فيها الأمر لقيام الدولة العلوية، إذا به يغدرُ به ويقتله، ويعلن قيام الدولة العباسية مُنَصِّباً خليفتها الأول الخليفة السفاح.

طارق بن زياد ومولاه موسى بن نصير:

كنا نتناقش عن طارق بن زياد، ومولاه موسى بن نصير، وعبدالرحمن الغافقي شهيد بلاط الشهداء، كيف استطاع طارق أن يقتحم بجندٍ لا يتجاوزون اثنا عشر ألف مقاتل، سلاحهم القسي والنبال والسيوف والرماح، صدورهم عارية مكشوفة إلا من دروع الإيمان. كيف استطاع هذا الجيش أن يصمد أمام جيش لذريق ملك أسبانيا آنذاك، الذي كان يقود أكثر من مائة وخمسين ألف جندي، مدجَّجين بالدروع والسلاح، معهم ألوف الخيل، ومعدات الحرب بمختلف أنواعها، كيف استطاع الجيش العربي الصغير أن يصمد لهذا الجيش الضخم، بل يمزِّقه شرَّ ممزق، ويشتِّت فلوله في معركة هي في نظر التاريخ على مدار الدهر معجزة المعجزات، نرى هذا الجيش الصغير، إثر المعركة يتَّجه كالإعصار الهائج، مكتسحاً مدن إسبانيا واحدة تلو الأخرى حتى لم تمض أسابيع حتى كانت كبريات المدن الإسبانية آنذاك قد تهاوت تحت سنابك خيله، وسلَّمت زمام أمورها إليه، الأمر الذي حمل مولاه موسى بن نصير أن يبعث له رسولاً خاصاً على جناح السرعة يأمره بالتوقف، وعدم التقدم خطوة واحدة، مشعراً إياه بأنه في طريقه إليه، ليقوم

هو الآخر بإكمال الفتح في جميع الأراضي الإسبانية، فلم يسع طارق إلا الإذعان لمولاه.

والسرُّ في ذلك: أن موسى بن نصير هذا، وهو حاكم شمال إفريقيا كلها آنذاك من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك، قد عزَّ عليه أن يتفرَّد مولاه طارق، ويختص وحده بأمجاد هذا الفتح العظيم، ولكي لا ينسب الفتح إلى طارق وحده أمره بالتوقف، وأسرع إلى النزول بجيشه، والاتجاه إلى النواحي الأخرى التي لم تصلها جنود طارق بعد، حتى تم لهما إخضاع إسبانيا بأكملها، وحتى طارد فلول المقاومة الإسبانية، التي بقيت شراذم قليلة تفر من وجه الجيش الإسلامي، الذي ظلَّ يلاحقها حتى لم يبق من شراذم هذه المقاومة سوى أربعين رجلاً، لاذوا في مغارة تقع في أقصى الزاوية الشمالية الغربية من أرض إسبانيا مطلة على المحيط الأطلسي. هذه المغارة تعرفها كتب التاريخ باسم مغارة (كاندوجوفا)، هي مغارة في سفح الجبل، تقع في أقصى واد سحيق منخفض عن مستوى أرض إسبانيا بمسافة لا تقل عن عشرة أمتار، أرضها عبارة عن غابات كثيفة تملؤها الأشجار والوحوش والأفاعي.

من تاريخ المسلمين في الأندلس:

ظل المسلمون في هذا الوادي ستة أشهر محاصرين لهذه المغارة لم يستطيعوا اقتحامها لأنها مرتفعة، يستطيع من يوجد فيها منع أي إنسان يحاول الصعود إليها. قاسى المسلمون في ذلك الموضع من المشقة والعنت والبرد القارس والثلوج المتراكمة ما لا يحتمل. وبعد أن دبت بينهم الأمراض نتيجةً للجو الموبوء الذي كانوا يعيشون فيه، أمر قائدهم بالارتحال، ومغادرة المكان على أساس أنَّ هؤلاء الأربعين من الإسبان لا قيمة لهم ولا أهمية مهما كانت قوتهم، وقد أثبتت مجريات التاريخ أنَّ هؤلاء الأربعين الذي كانوا في مغارتهم كالحيَّة في جحرها، أثبتت أحداث التاريخ أن هؤلاء كانوا بؤرة سرطان، أخذت تنمو رويداً رويداً، وبكل ثقة وهدوء حتى آل أمرها إلى أن تتكون منها دويلة سميت دولة (آراغون)، ثم

لحقت بها دويلة أخرى تعرف بدولة (قشتالة) وبدءاً من تفكك عرى الدولة الأموية في الأندلس عام ٤٠٠ من الهجرة على إثر وفاة القائد المشهور المنصور بن أبي عامر، إذ أخذ أمراء المقاطعات وحكامها كل منهم ينصب نفسه حاكماً على مقاطعته منفصلاً عن العاصمة (قرطبة)، ذات الأمجاد الخالدة، وهنا بدأ التناحر بين حكام المقاطعات كلٌ منهم يحقد على الآخر ويحسده ويحاول اقتطاع بعض من أراضيه، وبذلك أتيحت لهاتين الدويلتين (آراغون وقشتاله)، أن تنموا وتتوسعا على أراضي هؤلاء الأمراء المسلمين المتناحرين الذي أوجد كل منهم لنفسه بلاطاً وتاجاً وصولجان بلاط تملؤه الغواني والملذات.

كانت طريقة الإسبانيين أن يترقبوا الفرص، فرص تقاتل هؤلاء الأمراء فيما بينهم، فيعمدون إلى المهزوم منهم فيغرونه بأنهم سيساعدونه على الانتقام من خصمه، واسترداد ما اغتصبه من أرضه، مقابل أن يعطيهم هذا الأمير المهزوم القلعةِ الفلانية، أو الحصن الفلاني، بما يتصل به من أراضٍ زراعية شاسعة كانت هذه القلاع والحصون قد أقامتها الدولة الإسلامية في فجر شبابها، حينما استولت على الأندلس، وهكذا تحقق قول الشاعر العربي:

ألقابُ مملكةٍ في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ

وكانت النتيجة المعروفة أن طُويت صفحة الإسلام من الأندلس، كأن لم تطأها قدم مسلم، فلم يرتفع في سمائها صوت مؤذن.

كانت هذه المساجلات التاريخية بيني وبين الصديق السيد أحمد عبيد قد أوجدت بيننا صلةَ ودٍ، استمرت حتى انتقاله إلى رحمة الله، لذا فلا عجب أن فرحت بمقدمه وتشريفه لي بزيارته في تلك الليلة من يوم ٢٧ رمضان ١٣٦٢هـ في طريقه إلى الجوف في جولة تفتيشية كلف بها من قبل الملك عبدالعزيز.

مكث عندي سحابة ذلك النهار، ثم تناولنا الإفطار، ثم العشاء، ثم واصل سيره مساءً في طريق مهمته.

بعد مغادرة أحمد عبيد حضرت إليَّ الخادمة حميدة طالبة حضوري عند عمتها سلمى، فذهبت إليها، وكانت مضطجعة أخبرتني بأنها تناولت حبتي الدواء بعد أن أفطرت وأشعرتني بأنها بحاجة إلى وجود أم الخادمة حميدة، لتكون بجوارها، فأمرت الخادمة بأن تذهب إلى والدتها فوراً، فحضرت إليها بعد نحو ربع ساعة.

آلام المخاض:

كنت جالساً في الحوش أنصت إلى الراديو، وكانت سلمى في حجرتها جاءت إليَّ والدة حميدة مُخبرةً إياي بأن سلمى في حالة ولادة، ففرحت بذلك أيما فرح، رغم أن الجنين لم يتم أكثر من ثمانية أشهر في بطنها، بقيت في مكاني مبتهجاً أترقب بلهفة بشرى إخباري بالمولود ذكراً هو أم أنثى، أنتظره من والدة حميدة، وإذ كنت على هذا الوضع كانت إذاعات الحلفاء تعلن نزول جيوشهم في مدينة باليرمو في جزيرة صقلية الإيطالية.

منام أفزعني:

خلال ذلك أخذتني سنة من النوم، لا أعرف كم استغرقت من الوقت، ولكن الذي أعرفه أني استيقظت مذعوراً مرعوباً حزيناً كئيباً، لرؤيا رأيتها في ذلك المنام، هي أنه صوَّب إليَّ من الخلف على العامود الفقري رصاصة، اخترقت ظهري وخرجت من مقدمة بطني ومعها أمعائي متناثرة، وكأنني أنظر إلى دخان الرصاصة يخرج مع الأمعاء.

قفزت واقفاً مذعوراً، أحوقل وأبسمل وأستعيذ بالله، وإذا بأم حميدة تطلُّ عليَّ من بعد وتقول لي: سلمى بخير، وقد رزقك الله بمولود ذكر. لم تثر هذه البشرى في نفسي أي تأثير أو انفعال، وإنما بقيت مصعوقاً واجماً أكاد أرتعش من هول الصدمة.

سلمى بخير:

بعد مضي نحو ساعتين وأنا في موقفي في مكاني هذا كانت والدة حميدة تطلُّ عليَّ ما بين فترة وأخرى مكررة عبارتها: اطمئن أبشرك سلمى

بخير، تكررت هذه العملية منها أربع مرات تقريباً خلال فترة قد لا تقل عن ثلاث ساعات.

ابتدأت أتوجس من عبارتها هذه التي كررتها عدة مرات (اطمئن سلمى بخير) فابتدأ الشك يدبُّ إلى نفسي، وطلبت أن أدخل لأراها، فمنعتني معتذرةً بقولها: إنها لا زالت في حالة نفاس، ولا بد من مضي بعض الوقت حتى تنظف ما حولها، وتأخذ قسطاً من النوم بعد عناء الولادة.

تحقق الرؤيا:

صبرت على مضض وانتظرت نحو ساعة، ثم حاولت دخول الغرفة، وإذا بأم حميدة تقف في وجهي، وتدفعني دفعاً مكررةً مقولتها الأولى نفسها، رجعت قليلاً إلى الوراء، ثم صمَّمت بحالة لا شعورية أنه لا بدَّ لي من رؤيتها على أي وضع كانت عليه، فاندفعت بعنف نحو الغرفة وحاولت المرأة أن تمنعني، ولكني دفعتها بعنف، وهنا أمسكت بثيابي من الخلف بكل قوة قائلة: استعوض الله يا إبراهيم في سلمى.

سقطت على الأرض بغير وعي ثم قمت فجأة كالمخبول، وكأني أرى دخان الرصاصة التي مزقت أحشائي، كأني أراها تعود أمامي مرة أخرى.

كان البيت الذي أسكنه لا يبعد عن المركز إلا حوالي مائتي متر، أسرعت راكضاً إليه في حالة ذهول فتح لي الحارس بعد أن عرفته باسمي، وكان ذلك في الهزيع الأخير من الليل.

أسرعت إلى أخي حمد الهندي، فأيقظته من نومه، وأخبرته بما حدث، وقلت طالباً منه أن يتخذ ما يلزم نحو تجهيز سلمى من غسل ودفن وصلاة، مستعيناً بنساء الأمير ابن عمار، وبنساء البادية الساكنة حول منزلي، وأنَّ عليه ألا ينتظر مني القيام بأيِّ شيء في هذا الموضوع، ثم تركته وأنا متبلد الحس في حالة ذهول كامل.

طلب مني البقاء فقلت: لا أستطيع، وإذا فرغتم فستجدني في غار الجبل الذي اعتدت التواجد فيه للقراءة كل يوم.

تركته وأسرعت الخطى في ذلك الظلام الدامس، وكانت كلاب البدو تلاحقني وتحاول أن تنهش عراقيب رجلي.

وصلت الغار لم أستطع حتى الجلوس، إذ أحسستُ كأن قطعة من نحاس، أحميت بالنار، ووضعت على كبدي، فأسرعت أنتقل من مكان إلى آخر، بطريقة دائرية تبعد عن (أم رضمة) بنحو كيلوين تقريباً. كلما أعياني التعب جلست إلى الأرض، مشدوهاً مسلوب الإحساس، ولقد غلبني النوم في النهاية بجوار جبل عال، يسمى (بالعليا)، يقع في الجنوب الغربي من قصر (أم رضمة) بنحو خمسمائة متر، غلبني التعب والإعياء، وارتميت تحت صخرة في حضن الجبل، ومن المصادفات الغريبة أن في سفح هذا الجبل الذي ارتميت في سفحه على الأرض من الجانب الآخر، كان الأخوان حمد الهندي والأمير ابن عمار، وبقية أهل القصر يحفرون قبر سلمى، في ذاك المكان، ويدفنونها.

وفي منصرفهم من الدفن، في طريق عودتهم إلى القصر عن طريق المكان، الذي كنت نائماً فيه ولم أشعر إلا بمن يمسك بعضدي، وينهضني قائماً، وإذا به حمد الهندي ومعه إبراهيم بن عمار أمير المركز وناصر الصايغ ويعقوب جوهر، وبقية موظفي المركز، أمسكني بعضدي بينما أمسك بعضدي الآخر يعقوب جوهر، وكان يعقوب جوهر هذا هو المهندس المسؤول عن إصلاح أجهزة اللاسلكي الموجودة ضمن مراكز الحدود، وهو من أهالي حائل، مشوا بي، وكانت رجلاي تسحب على الأرض، حتى وصلنا إلى داخل القصر، فحُجِزْتُ هناك، ومنعت من الخروج، ثم تُرك عندي حارساً، حمد اليحيا، عريف العسكر، ومطلق الوقيب، وطَلب منهما حمد الهندي بألا يسمحا لي بمغادرة المكان. وحين عودتهم من الدفن، علموا بأن المولود قد توفي كذلك، فأتموا إجراءاته، وحفروا له قبراً بجوار والدته، دفن فيه في حضن جبل العليا مما يلي الشمال الشرقي.





العيش على ذكرى سلمى:

مرَّ على هذا الحادث ما يقارب الشهرين من الزمن، كنتُ أقضي أوقاتي خلالها أشبه بالمشدوه الفاقد الذاكرة، أهيم على وجهي، لا أستقر في مكان، كان الأخ الصديق حمد الهندي يلاحقني، حيثما ذهبت، محاولاً التسلية عني، بكل ما يملك من وسائل الإقناع، كانت من أبرز أياديه عليَّ، بعد الله أنني عندما أنفلت من مراقبته، موهماً إياه بدخولي لمسكني، لينصرف هو إلى حيث يسكن.

كنت أترقب بعده عني، وخاصة بعد صلاة العشاء، فأسارع إلى جبل العليا، الذي سبق أن مرَّ ذكره، والذي يرقد في سفحه جثمان سلمى ووليدها، كنت أسارع إلى القبر، فأجثو عليه باكياً حزيناً، وأناجيها بحرقة وحزن، كما لو كانت شاخصة واقفة أمامي، فكنت لا أشعر إلا والأخ حمد واقفاً على رأسي ممسكاً عضدي بعنف، رافعاً جسمي إلى أعلى، وثم يصطحبني معه على غير إرادتي.

كنتُ خلال ذلك، حينما أتجه إلى بيتي، وأجتاز عتبة الباب أحس كأنني أدخل أتوناً من اللهب، وكأن يداً جافة غليظة، تعصر قلبي، وتكاد تسحبه من تجويف صدري، فأرتد مذعوراً، وأقضي ليلتي بعد أن يكون قد أنهكني التعب والألم في المكان المخصص من البيت للضيوف، والذي يمتاز بأن له باباً إلى خارج البيت.

كثيراً ما ذهبت مشياً على الأقدام إلى المكان الذي جرى فيه العرس، وهو (فيضة الهراره)، وكانت تحتوي على الكثير من أشجار الطلح الضخمة، كنت أتفيأ ظلالها، مستعرضاً ذكريات تلك الليلة مشخِّصاً لأحداثها في ذاكرتي، فأرى سلمى أمامي، أراها لأول مرة فتتفجر الشجون وأبكي ما شاء الله أن أبكي. كنت أصطحب معي أوراقاً حينما أذهب إلى هذا المكان فأسجل ما يجيش بنفسي من لواعج الألم وفواجع الحسرة، وكان عنوان ما كنت أكتبه بيت الشعر الجاهلي:

ألا يا منزِلَي سلمى سلام عليكما هل الأزمن اللائي مضين رواجع؟

ثم يليه عنوان (قلب يحترق)، وأخال أن هذه المذكرات، أو هذا الأنين، أو هذه الزفرات الحرّىٰ موجودة ضمن أوراق مكتبتي في عرعر.

كان الصديق حمد الهندي، ومعه الصديق إبراهيم بن عمار وناصر الصايغ، يحاولون جميعاً أن أقضي أكثر وقت ممكن معهم، رغبةً في تسليتي، وأملاً في أن أنسى ما كنت أعانيه من حزن وموجدة، وكانوا يرون أنني كنت آنذاك كذبالة الشمعة تذوب رويداً رويداً، وفي الواقع أن وزني قد نقص خلال تلك الفترة بما لا يقل عن خمسة كيلو نظراً لعزوفي عن الطعام، فكنت أحس دائماً كأن قطعة من الحديد أحميت بالنار ووضعت على كبدي.

وخلاصة الموضوع: أنه لولا عناية الله ولطفه، بأن سخر لي هؤلاء الرفاق المخلصين، وبالأخص حمد الهندي، لكان مصيري بدون شك دار العقلاء (أعني المجانين).

البحث عن بديل لسلمى:

عندما ابتدأت أتماثل رويداً رويداً للشفاء من الوضع المأساوي، الذي كنت أعانيه، كان هؤلاء الصحب يشيرون عليَّ باستمرار، أنه لكي أتخلص من هذه الحالة النفسية، يتوجب عليَّ أن أسعى لإيجاد امرأة تسكن هذا البيت، لتملأ فراغ سلمى، وذلك بالطبع بالتزوج من جديد، من امرأة

أخرى. موضحين لي بأن وجود مثل هذه المرأة في البيت من شأنه أن يجعلني أستقر نفسياً على توالي الأيام بوجود هذه المرأة، تمشياً مع مدلول الآية الكريمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ صدق الله العظيم.

وفعلاً، فمن الواقع الملموس أنَّ المرأة إذا قدر أن يكون هناك توافق بين الزوجين، من حيث الطباع والانسجام، فإن الرجل يحس آنذاك بسكينة هانئة، واطمئنان نفسي، وهدوء يملؤه الود والرحمة.

كانت نظريتهم هذه تأخذ من نفسي مأخذ الجد والتفكير، وفعلاً وافقت على طلبهم مكلفاً إياهم - وخاصةً الأمير ابن عمار والأخ حمد - بأن يبحثوا لي عن المرأة التي يرون أنها مناسبة، وترضى بي في الوقت نفسه، خاصةً أننا في محيط بادية نساؤه لا يُقِمن للإنسان الحضري أي وزن.

بعد عدة أيام أخبرني الأخ حمد بقوله: لقد وجدتها، لقد وجدت ضالتك المنشودة، أجبته: من تكون؟ قال: هي عندك وفي متناول يدك، إنها ابنة الجندي سعود الحربي، وهي تسكن بجوار داركم، وأنت تعلم عنها، وقد فاتحت أباها عن الموضوع، فوافق.

هنا استعدت ذاكرتي عن هذه الفتاة، التي أشار إليها، وهي فعلاً تقطن مع والدتها وأبيها على بعد بضعة أمتار من داري، وهي فتاة في حدود الخامسة عشرة وجميلة الصورة فعلاً.

خلاصة الموضوع: أنَّ الإجراءات الخاصة بموضوع كهذا قد تمت خطواتها بسرعة، كانت تتم عن طريق عائلة الصديق إبراهيم بن عمار أم سعود. كنت أقول لنفسي حينما وافقت على هذا الاقتراح عسى ولعل أن يكون وجود هذه الفتاة سبباً يُسدل الستار على هذه المأساة النفسية التي أعانيها.

زواجي الثاني:

تمَّ عقد الزواج في مدينة (حفر الباطن)، التي تبعد عن (أم رضمة) مائة وخمسين كيلومتراً، تمَّ عقد الزواج بيني وبين والدها، وشهود العقد

الأخ حمد الهندي، وكاتب محكمة الحفر على يد فضيلة قاضي الحفر آنذاك الشيخ الحميدي بن رديعان.

كانت حفلة الزواج بطبيعة الحال متمشيةً مع واقع الظروف النفسية التي كنت أعيشها فلم تكن هناك حفلات للزواج كما هو المعتاد، وإنما اقتصر الأمر على وليمة أقيمت ليلة الزفاف، دُعي إليها سكان قصر (أم رضمة).

كانت الفتاة هادئة وبسيطة، وعلى فطرتها الساذجة، يمكن للإنسان أن يصوغها في القالب الذي يراه، ولكن مع ذلك فقد كنت حينما أنظر إليها أتصور سلمى واقفة خلفها، فتصبح هي في نظري لا قيمة لها، وبالتالي فإن علمي بأنه من المستحيل إبقاءها معي لأمور كثيرة، لعلها لن تقبل باستبدال حياتها التي درجت ونشأت عليها بحياة جديدة، وجوٌ مختلف، ومع هذا كله فقد كنت أضغط على نفسي، وأحاول أن أكيفها بأن ترضى بالواقع الجديد، والتعايش مع هذه الفتاة زوجة شرعية، تشاركني الفراش.

مرت عدة شهور دون أن تكون لديّ أي رغبة في معاشرتها كزوجة، وخلال ذلك ابتدأت حالتي النفسية تهدأ وتعود، وأستردُ وضعي الطبيعي السابق، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، فبينما شعرت أنني قد ابتدأت أحس بميل نفسي إليها كزوجة، وكان أكثر ما يظهر ذلك حين أكون خارج البيت فأحس بأنني أصبحت كعهدي السابق رجلاً كامل الرجولة، ولكن عندما يجمعنا الفراش كنت أجد نفسي مساوياً لها، وبالتالي انعدمت أية رغبة في الاقتراب منها، مع أنها لم تبد أي مقاومة أو تمنع، وقد مرَّ على هذا الوضع أكثر من شهر وكنت أفكر جدياً في السرِّ الكامن وراء هذه الحالة التي أصبحت أعانيها: رجلاً كامل الرجولة خارج البيت، فاقداً لتلك الرجولة داخله.

عندما اكتشفت أني مسحور:

وبينما كنت أفكر في ضرورة السفر إلى الكويت، أو غيرها أملاً في اجتلاء هذا السر، ومعرفة أسبابه، إذا بي أفاجأ بأن مفتاح هذا السر يقع في يدي واضحاً مكشوفاً، فجأة وعلى غير انتظار، ذلك أننا كنا في وقت

الصيف وهو وقت تشتد الحرارة فيه، وكانت لي غرفة خاصة تقع في جانب البيت من الداخل تحتوي على فراش بمخدات فقط.

كنت آوي إليها منتصف نهار كل يوم، لآخذَ قسطاً من النوم قبيل آذان الظهر. كانت الحجرة خالية من الفرش عدا المرتبة التي كانت مطروحة على الأرض، وتحتها سجادة مساوية لها في المساحة.

كانت أرضية الغرفة أرضاً صلبة، يقوم الخدم بكنسها كل يوم من الغبار، فلا يوجد فيها أي كمية من التراب، في ذلك اليوم آويت إلى الفراش كعادتي، عندما اضطجعت على المرتبة كانت بيدي اليمنى سبحة أقلبها بين أصابعي، وفجأة انقطع الخيط فتناثرت حبات السبحة، فاستويت قاعداً أجمع تلك الحبات. تم جمعها ما عدا حبة واحدة، فبحثت عنها فإذا هي في وسط كمية ضئيلة من التراب تحت المرتبة. أخذتها، ولكني لاحظت أن تحتها حفرة صغيرة مليئة بالتراب فغرزت أصبعي في هذه الحفرة لأكتشف عمقها، فإذا بي أجد مسلةً مدفونةً في هذه الحفرة، والمسلة هي المِخْيَط الذي تخاط به الأكياس والخيام والقلع وما شابهها من الأشياء السميكة، وإذا بهذا المخيط قد وضع على شكل غريب مُلفِتٍ للنظر، فالمعروف أن المِخْيط يحتوي في طرفه الأعلى على فتحة صغيرة وهي التي يدخل فيها الخيط، وطرفه الأسفل محدد رفيع، لكي ينفذ في المَخِيط الذي يراد خياطته.

هذا المخيط وجدته مستديراً على هيئة أسطوانة، بحيث أدخل طرفه الأسفل المحدودب الرفيع في فتحته الواقعة في أعلاه، والتي هي مكان الخيط، وهنا كانت المفاجأة، فالحفرة كانت محفورة عن عمد، وهذا المخيط وضع كذلك عن عمد، واختيار مكانه تحت المرتبة التي أنام عليها مع زوجتي أيضاً تم بدون شك عن قصد.

كتمت الأمر بيني وبين نفسي، ولكن هذا الحادث الصغير أيقظ غفلتي وإحساسي بأن هناك شيئاً ما، وأن هذا الشيء لا بد وأن يكون من داخل البيت، وسكان البيت معروفون هم ابن أختي محمد الهزاع ـ وكان ابن أختي

هذا محمد الهزّاع قد وصل إليَّ في (أم رضمة) مرسَلاً من والدته بعد أن تُوفي والده وأصبح يتيماً، وكان في حدود العاشرة من عمره، وذلك بعد زواجي الأول بثلاثة أشهر ـ ومطلق البزيز الشمري، والفتاة حميدة، وكلهم بطبيعة الحال لا يفقهون أمثال هذه الأمور، وبالتالي لا يمكن أن يكونوا مظنة لإيجادها. إذاً من يكون المسؤول؟ سألت زوجتي الجديدة سارة بعد أن أحضرتها عندي، وأريتها الحفرة والمخيط، فأنكرت علمها بها جملةً وتفصيلاً، وواضح من لهجتها أنها صادقة وبريئة، سألتها: من الذي يقوم بترتيب فراشي هذا كل يوم، هل يوجد أحد غيرها يقوم به؟ أجابت بأنَّ أمها تقوم في بعض الأحيان بترتيب الفراش هذا بدلاً عنها.

عرضت الموضوع على الصديق حمد الهندي والصديق إبراهيم بن عمار أمير المركز، وسألنا أحد أفراد البدو الصلب المتواجدين على مقربة من القصر، وهو المدعو مسباح، وهو رجل طاعن في السن، وبمجرد أن رأى شكل المخيط قال: هذا سحر.

وبتحري الموضوع عن طريق عائلة الأمير أم سعود اتضح أنَّ والدة زوجتي الجديدة لم تكن راغبة في زواجها مني، ولكنها أذعنت تحت إصرار وتهديد زوجها، وأن هناك رجلاً يدعى غايب وهو شاب وسيم الطلعة في حدود الخامسة وعشرين عاماً من عمره، يعمل جندياً عند حمد الهندي مع والد الفتاة سعود الحربي، وأن والدتها كانت ترغب في أن يكون غائب هذا هو زوج ابنتها، لأنه من قبيلتها حرب من جهة، ولأنه فوق ذلك شاب وسيم الطلعة، وأنه كثيراً ما كان يحضر في السابق مع والدها سعود إلى بيت الشعر الذي يقيمون فيه، وذلك لتناول القهوة سوياً بحكم أنهم زملاء في العمل، وبحكم أنهم من قبيلة واحدة (ولأن جحا ـ كما يقول المثل العامي ـ أولى بلحم ثوره).

تطليق ابنة الحربي:

كانت هذه الحادثة هي القشة التي قصمت ظهر البعير ـ كما يقول المثل ـ فقمت في اليوم الثاني بإشعارها ـ أي: سارة ـ بأن تعود إلى بيت

أهلها، لتقيم فيه لأنَّ علاقتها بهذا البيت قد انتهت، وأن لها أن تأخذ ما تشاء من مفروشات من قطع السجاد الموجودة أو الأواني أو أي شيء ترغب فيه.

كان ذاك في صباح أحد الأيام عند خروجي من البيت متوجهاً إلى القصر، حيث اتصلت بوالدها، فاستدعيته عندي في المكتب، وسلمته ورقة طلاقها، معتذراً له بأنَّ الله سبحانه وتعالى لم يرد أن تستمر علاقتي بابنته رغم أنها مكثت عندي قرابة خمسة شهور، ولكن مع ذلك لم يكن هناك بد من الافتراق.

شكرته على تقديره، وحرصه، وتلبية طلبي حين طلبت يد ابنته، مبدياً كل ترحيب، عاد البيت إلى الخواء فلا يوجد فيه الآن سواي وابن أختي والخدم، ولكن الشيء الذي لا مجال لنكرانه هو أنه فعلاً كانت ابنته مدة وجودها في منزلي سبباً في أن آلف البيت، وأرتاح إلى وجودي فيه، مع أنها خرجت منه كما دخلت إليه لم تمس.





البرقية التي وجهتني إلى الكويت:

في منتصف شهر ربيع الثاني من عام ١٣٦٠هـ تلقيتُ برقية من مدير عام الماليات والجمارك آنذاك المرحوم زكي عمر مفادها أن الزميل حمد العلي (وهو أحد مديري جمارك المنطقة الشرقية) في طريقه إليّ في (أم رضمة) لاستلام عملي، وأنَّ عليَّ، فور انتهاء دور الاستلام والتسليم أن أتوجه إلى الكويت مروراً بحفر الباطن فقرية، حيث سأجد في قرية تعليمات محددة من قبله لدى مدير جمرك قرية، وأن عليَّ تنفيذ مضمون تلك التعليمات، ثم التوجه إلى الكويت.

في اليوم الثاني من ورود هذا الأمر البرقي وصل الأخ حمد العلي، وتم إجراء الدور والتسليم بيني وبينه، خلال يومين فقط، ثم اتجهت إلى (قرية) على إحدى السيارات الدورية، وهناك وجدت ظرفاً مغلقاً لدى مدير الجمرك معنوناً باسمي، كانت محتويات الظرف تقضي بتنفيذ الآتي: أن أراجع سجلات جمرك (قرية)، لأخرج بيانات بأرقام وتواريخ منافستوات البضائع التي صُدِّرت من المكتب التجاري السعودي في الكويت إلى جمرك (قرية)، شاملةً تلك البيانات لجميع الإيضاحات المطلوبة، كأنواع البضائع وأعدادها ومالك البضاعة وواسطة النقل واسم السائق، إلى آخر تلك البيانات، ومن ثم أصطحبُ هذه البيانات معي لأتجه بها إلى الكويت لكي أقوم بالمطابقة بين هذه البيانات التي رُسِّمت فعلاً في جمرك (قرية) وبين البيانات المثبتة في سجلات المكتب التجاري في الكويت، معنونة باسم

جمرك قرية، والغرض من ذلك التأكد إذا كانت بعض تلك البضائع قد هُرِّبت إلى داخل المملكة، دون أن تمر على جمرك قرية، وبالتالي دون أن يُستوفى عليها الرسوم الجمركية المستحقة.

في الكويت:

بوصولي إلى الكويت نزلت بدار الشيخ المرحوم عبدالله قاضي، وهو الشخص الذي اختارته الدولة رئيساً لهذا المكتب، عندما تمَّ إنشاؤه في مستهل محرم ١٣٥٩هـ، يعاونه الأخ الصديق محمد بن ضاوي مع مجموعة من الموظفين.

نزلت بدار المذكور في أول يوم وصولي، فلم تكن ثمة فنادق موجودة، وعلى أمل أن أشرع في البحث عن مكان أستأجره للإقامة فيه مدة وجودي، بيد أنَّ الرجل بدافع من كرمه ونبله وأريحيته، أقسم عليَّ بأن لا أترك منزله على أساس أن المنزل واسع جداً، فيه غرف متعددة للضيوف وهو واقع على ـ سيف البحر ـ من الجهة الشمالية للكويت.

لم أجد بُدّاً من الرضوخ لرغبته، إذ لا يأبى الكرامة إلا لئيم، وقد ضاعف من رغبتي في الإقامة لديه أن وجدتُ عنده الصديق المرحوم السيد علي فدعق قادماً من بغداد، فقد كان يدرس هناك كما فهمت منه.

ثورة رشيد الكيلاني:

قبيل وصولي الكويت بثلاثة أيام، أذاعت وكالات الأنباء عن قيام البطل رشيد عالي الكيلاني رئيس وزراء العراق آنذاك، بثورة مسلحة ضد الإنكليز، الذين كانوا يتحكمون في مصائر العراق في ذلك الوقت، على أساس المعاهدة التي سبق أن أبرمت بين لندن وبغداد عام ١٩٣٧م، التي كانت كل بنودها قيود وأغلال، كَبلت الشعب العراقي، وبسطت بريطانيا يدها على جميع خيراته وطرق مواصلاته، مسخرةً إياها لمصلحة بريطانيا وحلفائها.

كانت دول المحور آنذاك في أوج انتصاراتها، وكانت لبنان وسوريا، اللتان تداران من قبل حكومة فيشي في فرنسا، هي أداة طيعة بيد الألمان، فحرص القادة الألمان أن يطعنوا بريطانيا من الخلف، وذلك بتشجيع العراق على إعلان الثورة المسلحة ضد الإنكليز وحلفائهم من الحكام العراقيين الذين كانوا يسبحون في فلك بريطانيا، وعلى رأسهم الوصي على العرش العراقي: عبد الإله - وهو نجل الملك علي بن الحسين ملك الحجاز السابق - ورئيس وزرائه نوري السعيد.

كان الوزير الألماني المفوض آنذاك في بغداد، ويدعى الهر (جروبا)، هو الواسطة بين رشيد عالي الكيلاني وزملائه من الضباط الأحرار، الذين كانوا حانقين على نفوذ الإنكليز في العراق، ويتطلعون إلى الفرصة الذهبية للتخلص منه، وهذه الفرصة قد سنحت فعلاً إذ وعدهم (جروبا) هذا بأن الطائرات الألمانية ستملأ سماء بغداد، وتضرب معسكرات الإنكليز في الشعيبة وأبو غُريب حالما يطلقون أول طلقة.

أُعلنت الثورة فعلاً، وهرب الوصي عبد الإله في جنح الظلام إلى البصرة في حماية الإنكليز، ومعه الساسة العراقيون الممالئون لبريطانيا وعلى رأسهم نوري السعيد.

قامت الثورة فعلاً، واصطدم الجيش العراقي بجنود المعسكرات البريطانية الموجودة على أرض العراق. استمرت المعارك دائرةً بعنف نحو أسبوعين تقريباً، ثم فشلت الثورة، واضطر قادتها إلى الهرب كرشيد الكيلاني وبعض زملائه، بينما قبض على القادة الآخرين كالصباغ ومحمد سعيد وغيرهم، ثم أعدموا رمياً بالرصاص في ساحات بغداد، بعد أن عاد الوصي إلى بغداد تحت حراب الإنكليز.

لماذا فشلت الثورة؟

كان من أبرز أسباب فشل الثورة هو تأخر وصول الطائرات الحربية الألمانية، التي سبق أن وعد بها المفوض الألماني (جروبا)، تأخر وصولها

عن الوقت المحدد، فأتاح هذا فرصة للسلاح الإنكليزي الموجود في العراق بأن يلحق بالثورة أضراراً مميتة، خاصةً وأنه لم تكن هناك آنذاك وسائل دفاع لمقاومة الطائرات البريطانية، يضاف إلى ذلك نفاد العتاد الحربي من أيدي الجنود العراقيين، وكانت مأساة، وأي مأساة لكل حرٍّ من أحرار العرب، كان يتمنى أن يتخلص من الأخطبوط الإنكليزي، الذي كان جاثماً على أنفاس الأمة العربية، سواء في العراق أو خارج العراق.

لجوء الكيلاني للسعودية:

حوكم قائد الثورة، رئيس مجلس الوزارة رشيد عالي الكيلاني، غيابياً، وصدر عليه الحكم بالإعدام، وظل مختفياً نحو أربع سنوات تقريباً، وكانت بريطانيا قد بذلت كل ما تستطيع من تسليط الجواسيس والعيون للبحث عنه، وإحضاره حياً أو ميتاً، بعد أن رصدت جائزةً ضخمة لمن يحقق لها ذلك، بيد أنها لم تُفلِح إذ استطاع رشيد الكيلاني أن يتسلل إلى المملكة العربية السعودية بعد أربع سنوات من فشل الثورة، بعد أن غيَّر شكله وزيه، متنكراً بزي بدوي وتمكن من الوصول إلى الرياض والاتصال بجلالة الملك عبدالعزيز، وكان متنكراً كما ذكرت، لم تعرف هويته إلا وهو في بلاط الملك عبدالعزيز، حيث أعلن الديوان الملكي عن وصوله، مضيفاً الديوان أنه أصبح الآن في حماية المملكة طالما لجأ إليه.

أرعدت بريطانيا وأزبدت، وقامت بالتهديد والوعيد طالبةً تسليم المذكور إليها أو إلى حكومة العراق، ولكن الملك عبدالعزيز وقف موقفاً صلباً، مستعداً أن يدفع لبريطانيا أحد أبنائه، ولكنه غير مستعد لتسليمه. وهذه القصة ظلت أسابيع، وهي حديث وسائل الإعلام في الغرب والعالم العربي، وكان رئيس الوزراء البريطاني آنذاك هو السياسي المشهور ونستون تشرشل.



مباشرة عملي في الكويت:

في اليوم الثاني لوصولي الكويت باشرت عملي في المكتب، وكان المكتب هذا يقع على مقربةٍ من ساحة الصفاة في الكويت، والصفاة هذه هي مقر الحكم في الكويت آنذاك، المبنى وسيع، وترتبط به مجموعات ضخمة من المستودعات الواسعة والكبيرة الموجودة على مقربة من ميناء الكويت، وتستقبل ما تحمله البواخر من أرزاق وبضائع باسم المملكة.

في خلال أسبوع تقريباً أكملت مهمتي، مضيفاً إليها قيامي بإخراج بيانات تفصيلية لجميع ما صُدِّر إلى المملكة من هذا المكتب، من بضائع وأرزاق، سواء كانت صدرت إلى جمرك قرية أو إلى جمرك حفر الباطن، وهما المنفذان الوحيدان اللذان يستقبلان ما يصدَّر من الكويت إلى المملكة، وسواء كان ما صُدِّر على شاحنات، أو على ظهور الجمال.

وقد اتضح أن هناك نسبة، قد لا تقل عن ٣٪، مما صُدِّر لم تمر على الجمارك، أعني جمرك الحفر وجمرك قرية، ومعنى ذلك أنها هُرِّبت، وبالتالي لم تستوفَ الرسوم المستحقة عليها، وكانت الدولة آنذاك حريصة ألا تفرِّط في قرش واحد لها.

ومن الواضح أنَّ خروج البضائع، أو بالأصح وسائل النقل التي تحمل هذه البضائع بمجرد أن تغادر (دروازة) الكويت، أي باب السور الواقع في الجهة الجنوبية الشرقية لمدينة الكويت، وبجواره من الداخل جمرك الكويت الذي كان يرأسه آنذاك مرزوق الطحيح، تنتشر عبر صحاري واسعة، تمتد إلى مئات الكيلومترات، دون أن تكون محكومة بطرق معينة، مما ييسر لها تخطي المراكز الجمركية سواء في الحفر أو في قرية، مواصلة سيرها عبر ظلام الليل إلى داخل المملكة.

في ضيافة عبدالله القاضي:

كانت هذه الأيام التي قضيتها في الكويت في ضيافة هذا الرجل الفاضل عبدالله قاضي متعة فكرية بالنسبة لي، لقد كان الرجل على مستوى

عال من عمق التفكير وبُعد النظر، رزيناً هادئاً، لا تخرج الكلمة من فيه إلا بعد تأمل وأناة، كان على جانب كبير من سعة الإطلاع، خاصة بالتاريخ، والأحداث السياسية، وأحوال الدولة العثمانية، الذي كان الحجاز أحد أجزائها، وعاصرها في الجزء الأكبر من سني حياته، فقد ولد في الطائف كما يقول في حدود ١٣٢٥هـ، كان من أعيان الطائف ومن أبرز أسرها الموفورة الحال، كان في العهد السابق للعهد السعودي يزاول التجارة في مدينته الطائف، وما إن دخلت الحكومة السعودية حتى اختارته موظفاً مرموقاً موضع ثقة ويكفي أنها أرسلته إلى مالية جازان رئيساً.

ثم اختارته الحكومة عندما نشبت الحرب العالمية الثانية، وتقرر أن تكون جميع مستوردات المملكة العربية السعودية من أرزاق وبضائع وغيرها ينحصر توزيدها عن طريق الكويت فقط، ثم يتم نقلها على شاحنات إلى المملكة عن طريق جمركي قرية وحفر الباطن، فأنشأت مكتباً لهذا الغرض، لاستلام تلك البضائع والإشراف على ترحيلها إلى المملكة، وعلى ذلك تَمَّ اختيار هذا الرجل، عبدالله قاضي، ليكون أول مسؤول في هذا المكتب، والحق أن هذا الاختيار من الدولة قد أحسنت فيه صنعاً إذ أعطت القوس لباريها.

إتمام المهمة والعودة إلى الحدود السعودية:

أتممتُ مهمتي لديه في المكتب، فقد قمت باستخراج بيانات بما صُدِّر إلى المملكة عن طريق هذا المكتب منذ تأسيسه حتى منتصف عام ١٣٦٠هـ سواء كان التصدير إلى جمرك قرية، أو كان إلى جمرك الحفر، ثم حزمت حقيبتي واستسمحته بأن يأذن لي بالعودة بعد أن أتممت مهمتي.

خلال أسبوعين كنت أتصل بين آونة وأخرى بابن العم العزيز إبراهيم العبدالعزيز الحسون، ووالده شقيق والدي، كنت أزوره في بيته المتواضع أثناء إقامتي في الكويت الواقع في الشمال الشرقي من السوق الكبير، وهو السوق التجاري الوحيد في الكويت آنذاك، ويعرف بهذا الاسم: (السوق الكبير).

كان البيت مبنياً من الطين، متواضعاً في أثاثه وفي مساحته، وكان ابن العم إبراهيم العبدالعزيز يعمل مع زوج أخته والد أحمد القضاع أحد تجار الكويت البارزين آنذاك، وكان يقع دكانه في الجزء الجنوبي الشرقي من السوق الكبير، وكانت تجارتهم في المواد الغذائية كالأرز والدقيق والقهوة والشاهي والسكر، وكلها تصدَّر إلى المملكة.

لمحة عن تجار الكويت والسعودية:

وهنا لا بد أن أسجل ظاهرة محببة إلى النفوس، لأنها من تراث الماضي، ولأنها تمثل الأمانة والثقة في أصدق معانيها وأعمق مدلولاتها، تلك الظاهرة هي أنَّ تجار الكويت البارزين آنذاك يُصَرِّفون ما يقارب ٩٠٪ مما يستوردونه من بضائع بتصديره إلى المملكة، وكان ذلك يتم كالآتي:

يفد القادم من المملكة، وبالدرجة الأولى من مدن القصيم، إلى الكويت خالي الوفاض صفر اليدين، فيتصل بالتاجر الكويتي ويعرّفه بنسبه وبموطنه، ومكان تواجده وأسرته التي ينتمي إليها، ثم يطلب منه أن يُبضِّعه أي أن يعطيه بضاعة، بمعنى أن يقوم هذا التاجر بشراء مجموعة من الإبل يقل عددها أو يكثر حسب الاتفاق، ثم يحمِّل هذه الإبل بما هو موجود لديه من بضائع، سواء كانت مواداً غذائية أو أقمشة أو خلافه، يسجل التاجر أقيام هذه الإبل التي اشتراها، مضافاً إليها أقيام البضائع التي حمَّلها، ثم يسلمها لهذا الشخص القادم من المملكة بعد أن يكون قد أتم تدوين اسمه وأسرته وموطنه، على أن يقوم هذا الشخص بتولي هذه الإبل وحمولتها بعد أن يكون قد استأجر شخصاً أو شخصين، معاونين له في التحميل والتنزيل.

يتجه بهذه الإبل وما عليها إلى داخل المملكة، قاصداً البلد التي يعتقد أنَّ أسواقها أكثر رواجاً لتصريف بضاعته، وهناك يتم بيعها، وقد يشتري هذا الوافد بضائع محلية كالسمن ونحوه، ويتجه بها إلى الغربية كما كانوا يسمونها آنذاك ويقصد بها أسواق بغداد، أو أسواق مدن فلسطين، أو

أسواق مصر مروراً بفلسطين، ثم يصفي أقيامها ويستبدلها ببضائع رائجة التصريف في أسواق المملكة، وبالاختصار فإن هذا الشخص يقوم بتنمية هذه البضاعة حسب ما يرى فيه المصلحة، وقد يظل سنةً أو سنتين أو أربعاً يقوم بمثل هذا العمل، يبيع ويشتري، ثم يتجه بعد ذلك إلى مموله التاجر الكويتي، فيقدم له بياناً بالنفقات التي صرفها خلال هذه الفترة، سواء كانت أجوراً للعمال، أو نفقات متفرقة، ثم يحسم ذلك من حصيلة المبلغ الموجود، وهناك يحسم التاجر الكويتي صاحب رأس المال قيمة ما سبق أن دفعه قيمة للإبل أو قيمة البضائع التي حُمِّلت عليها، يحسم من أصل المتبقى بعد النفقات، ثم ما يتبقى بعد ذلك يتم اقتسامه مناصفةً بين التاجر وعميله.

قد تبلغ قيمة البضاعة عدة آلاف أو أكثر من الروبيات، التي كانت هي العملة السائدة في الكويت، وكانت الروبية تعادل حوالي ثلاثة أرباع الريال. ومن الواضح أن المائة روبية في ذلك الوقت تساوي من القيمة الشرائية ما يعادل ثلاثين ريال في وقتنا الحاضر. والنقطة المهمة في هذا الموضوع هو أنَّ التاجر الكويتي لم يأخذ أي سند على الشخص الذي سلمه تلك الأموال، ولم يُشهد عليه أي مخلوق، وإنما اكتفى فقط بتسجيل اسمه وأسرته ومكان إقامته في المملكة، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدل على طهارة الذمة ونقاء السريرة والأمانة اللامحدودة، سواء من قبل التاجر أو من قبل المستفيد، وهذا نموذج من المثل العليا السامية، والأخلاق الرفيعة الفاضلة التي توشك أن تخلو منها الساحة اليوم، وأصبح موضوعها أشبه بالعنقاء.





رحلة العودة من الكويت

بعد تمنع وإباء من الأخ الكريم المُضيف الشيخ عبدالله قاضي - رحمة الله عليه - برفضه طلبي العودة إلى عملي في المملكة، اضطر تحت إلحاحي المتكرر السماح لي على مضض. كان ذلك يوم خميس، وكان المتبع أنَّ المكتب يقفل أبوابه يوم الجمعة عطلة رسمية، بمعنى أن يتوقف عن العمل طيلة يوم الجمعة، ذهبت إلى المكتب حاملاً شنطة ملابسي الصغيرة، وكان المكتب يبعد عن دار الشيخ عبدالله قاضي بحوالي كيلو ونصف تقريباً، قطعتها مشياً على الأقدام، وصلت المكتب قبل غروب الشمس بنحو نصف ساعة، وكان الموظفون يتهيؤون لإقفال المكتب، وبأيديهم أوراق منافست يكملون إجراءاتها لشخص واقف في المكتب أمامهم، كان المسؤول في المكتب في تلك اللحظة هو المرحوم محمد بن ضاوي، وكان قد نشأت بيني وبينه صحبة ومودة خلال عملي في المكتب في كل يوم أثناء المدة التي قضيتها.

سألته عن السيارات المتجهة إلى قرية، أجابني بأنَّ جميع السيارات قد أخذت أوراقها، وغادرت الكويت إلى قرية قبل عصر هذا اليوم، ولم يبق سوى سيارة واحدة، وهذا الواقف هو سائقها، وأوراقها بين الموظفين سيكملون إجراءاتها الآن، وهذه السيارة متجهة إلى قرية ثم الرياض ثم جدة، لأنها تحمل ستة براميل ديزل كبار، وأربعين كيس طحين، وعشرين عود قندل خشب لزوم البناء، ونحو عشرين بارية، والبارية هي الحصير الذي يستخدم في تسقيف البيوت.

ثم سألني قائلاً: هل رأيت السيارة؟ قلت له: لا. وكان قد أمر السائق الواقف أمامي بعد أن عرّفه، بأنني موظف حكومي، قدمت في مهمة رسمية، وقد انتهت المهمة بأن يأخذني معه إلى قرية، فرحب الرجل ولم يبد أي اعتراض بيد أنه أردف قائلاً: بأن هذه السيارة لا تصلح لركوب أمثالي، لأنها سيارة فورد قديمة، وحمولتها ديزل وأخشاب وخلافه، وهنا التفت إليَّ الصديق محمد بن ضاوي قائلاً: إني أفضل أن تنتظر وتؤخر سفرك إلى يوم السبت ففي الكويت سيارة بوكس صفراء جديدة مصندقة، ليس فيها غير سائقها فقط، مرسلة إلى الأمير فيصل بن عبدالعزيز في جدة، وسيكون سفرك فيها مريحاً بدلاً من هذه السيارة التي أوضح لك سائقها عن وضعها، إلا أني رغم ذلك، أصررت على وجوب السفر في هذه السيارة.

كان السائق ساعتئذ قد تسلم من الموظف المختص أوراق المنافست، الذي يشمل حمولة هذه السيارة، وهنا ودعت الصديق محمد بن ضاوي، وذهبت مع السائق دون أن أعرف اسمه، سرنا مشياً على الأقدام نحو ثلاثمائة متر تقريباً، وإذا بالسيارة واقفة في ساحة تسمى (الصفاة)، وقد مرَّ ذكرها فيما سبق، وكان هناك شاب في حدود العشرين من عمره اتضح أنه معاون للسائق. صعد السائق فصعدت وجلست إلى جواره، بينما صعد المعاون إلى سطح السيارة.

كانت الشمس قد غربت آنذاك. خرجنا من دروازة الشامية، أي الباب الشرقي لمدينة الكويت، بعد أن مررنا على الجمرك الكويتي الواقع بجوار هذا الباب من الداخل على يمين الخارج من الباب، فقام مدير الجمرك الكويتي منصور الطحيح بإتمام إجراءات التسجيل لديه وفق أوراق المنافست وسمح لنا بالخروج.

كان الظلام قد ابتدأ يغشى الأفق، ولم تكن توجد إنارة آنذاك إلا الفوانيس والأتاريك في المقاهي ونحوها، وعلى بعد نحو مائة متر خارج الدروازة يقع منخفض من الأرض تبلغ مساحته في حدود مائتي متر تقريباً،

على بعض جوانبه بعض الأشجار الكبيرة من الأثل والطلح، وأنواع أخرى لا أعرفها، وفي وسط هذا المنخفض تقع حفرة مملوءة بالماء، وماؤها على ما يظهر من بقايا أمطار إلا أنه مشوب بملوحة الأرض التي هي قريبة من البحر، وطعمه إلى الملوحة أقرب، ولا يشربه إلا المضطر.

وقفت السيارة على بعد أمتار من هذه الحفرة، ونزل المعاون ممسكاً بإحدى يديه قربةً من الجلد كبيرة، وبالأخرى طاسة، وقد نزلت معه لأعاونه من جهة، ولأكتشف عمق الماء من جهة أخرى، ومعرفة عذوبته من عدمها. كان عمق الماء لا يتجاوز نصف متر تقريباً كنت أمسك بالقربة فاتحاً فمها، بينما كان يقوم المعاون بتعبئتها بالماء، بواسطة الطاسة، التي كان يحملها. امتلأت القربة فأحكمنا وكاءها، ثم حملناها معاً وعلقناها على جانب السيارة، ثم ركبنا بعد أن اختلط الظلام، مواصلين السير باتجاه قرية.

حادث انقلاب سيارتنا:

كان الظلام حالكاً في تلك الليلة، وكانت ليلة ٢٧ من شهر ربيع الثاني عام ١٣٦٠هـ. واصلنا السير باتجاه الجنوب في طريقنا إلى قرية، كانت الساعة آنذاك حوالي الثانية ليلاً بالتوقيت العربي، أي الثامنة بالتوقيت الحالي، كنت أجلس عن يمين السائق بينما كان المعاون على سطح السيارة.

قطعنا نحو ثلاثين كيلومتراً، فوصلنا منطقة أشجار الحمض، وهي منطقة تحيط بالكويت على شكل هلال.

لم نتحدث طيلة هذه الفترة إذ لم يكن هناك مجال للحديث، فكل منا لا يعرف اسم الآخر، وفجأة أحسست باهتزاز في السيارة، وكأنها تميل إلى جنبها الأيسر فالتفت إلى السائق، وكان ذلك يوحي بأنه لم يكن يقظاً خلال السير، قلت له: يبدو أنك متعب ومن الأفضل أن توقف السيارة على أحد جانبي الطريق بعيداً عنه قليلاً لكي تأخذ قسطاً من الراحة، فنفى ذلك مبدياً أنه بكامل يقظته ووعيه، معقباً في الوقت نفسه بأنه فعلاً قد سهر في الليلة

السابقة، وأنا أفهم نتيجة لما سمعت في الكويت أن هناك أماكن في مدينة الكويت قد تجذب السواقين وأمثالهم إلى السهر.

واصلنا السير بعد أن ساد الصمت بيننا، ولم أر موجباً للتعقيب على كلامه. ما كدنا نقطع منطقة أشجار الحمض حتى حدثت المفاجأة إذ لم أشعر إلا وقد انقلبت السيارة رأساً على عقب ظهرها على الأرض وعجلاتها إلى السماء، كان الموقع الذي وقع فيه الحادث أرضاً ترابية هشة، وكان بفعل كثرة السيارات التي تمر قد أصبح الطريق عبارة عن خندقين متجاورين يفصل بينهما كثيب من التراب هو مسافة ما بين عجلتي السيارة.

بعد صدمة المفاجأة، صرت أدفع بقدمي التراب الواقع بين عجلتي السيارة، كما ذكرتُ، فأحسست بأن التراب ينداح عني نظراً لهشاشة الأرض، وغزارة التراب فصارت قدماي كأنهما آلة حفر، تقومان بإيجاد فجوة تمكني من الانسلال من تحت السيارة. وفعلاً لم يمض كثير وقت على المحاولة حتى تمكنت من الانسلال إلى الخارج. وقفتُ في تلك اللحظة لأتأكد من أنني سليم لم يلحقني سوء، ومشيت خطوات للتأكد من ذلك، وفعلاً وجدتني كذلك بفضل الله ورحمته، وإن كنت شعرت ببرودة على صدري ورقبتي وكأن شيئاً من الماء أفرغ عليها، وحيث لم يكن معي ماء عندما كنت في داخل السيارة فقد تبادر إلى ذهني أن ذلك دمٌ ينزف من جسمي، وفعلاً كان ذلك، إذ أنني حينما كنت أقوم بعملية سحب جسمي رويداً رويداً من تحت غمارة السيارة كان زجاج الغمارة المتهشم أشبه بمشط مرَّ على صدري وأسال منه الدماء، ولكن دون أن يحدث كسراً أو نحوه.

في عراء الصحراء:

حمدت الله وشكرته، وقد كان ثوبي ممزقاً، وخاصة ما كان من جهة الصدر. مكثت دقائق أذهب جيئةً وذهاباً للتأكد من سلامة جسمي. هناك أخذت أفكر ما العمل؟ ماذا يتوجب عليَّ أن أعمل؟ الظلام حالك جداً، ولا ينير الفضاء إلا بريق النجوم تلمع في أقاصي الفضاء السحيق، كنا في أرض

(الدِّبدبة)، وهي أرض صلبة يعلو سطحها حبيبات من الأحجار الصغيرة، مستويةَ السطح، لا يوجد فيها نتوء، ولا منخفضات، ولا أي عود من الشجر أو غيره، وتمتد مساحة هذه المنطقة حوالي مائة كيلومتر، كان الوقت في جمرة القيظ وكانت الليلة ليلة جمعة، وعادةً يوم الجمعة يتوقف سير السيارات على الخط، سواء القادمة من قرية إلى الكويت أو الخارجة من الكويت إلى قرية.

مكثت غير بعيد بجوار السيارة حائراً مذهولاً لا أعرف كيف أفعل، فالسائق لا أعرف اسمه، وكذلك المعاون، وهنا خطرت لي فكرة هي أن أستعرض ما أعرفه من الأسماء فأنادي بها أخذت أنادي: يا عيسى، يا صالح، يا محمد، يا أحمد، إلى كل ما خطر على بالي من الأسماء، أملاً في أن يصادف أحد منها اسم السائق، فيجيبني، ولكن لم يُجدِ ذلك شيئاً وهنا أخذت أسحب التراب من المنفذ الذي خرجت منه أسحب التراب إلى الخارج واستمررت في ذلك نحو نصف ساعة تقريباً، حتى استطعت أن أصل إلى جسم السائق بعد أن سحبت جميع التراب الذي كان تحته.

هناك وصلت إلى رأس السائق ومنكبيه، ثم أخرجت يديه إلى الأمام وهو منكب على وجهه، ظللت أسحبه كما تسحب الذبيحة بدون أن يتحرك أو ينبس ببنت شفة، وبعد جهاد مضنٍ وعنيف استغرق مني أكثر من ساعتين، استطعت بعون من الله وتوفيق منه، أن أسحب السائق على بعد نصف متر تقريباً بعيداً عن غمارة السيارة، ومتى علم القارىء أن هذا السائق كان من الوزن الثقيل إذ كان ضخم الجثة، وقد لا ينقص وزنه على مائة كيلو، بينما كنت نحيل الجسم، ضعيف البنية لا يزيد وزني عن **٥٢** كيلوجراماً، أدرك أيُّ فضل وأيُّ عون، أمدني الله به، وأسبغه عليَّ، حتى تمكنت من إخراج هذا الجسم الضخم.

بعد دقائق من أخراجه سمعت أنيناً خافتاً، وكأنه ينبعث من قعر بئر، ففرحت على أمل أن يجيبني أو يتمكن من الحديث معي، ولكن هذا الصوت الخافت كان متقطعاً يفصل بين مراته ما لا يقل عن دقيقتين أو

أكثر، أعدت مرة أخرى مناداته وأنا جالس بجوار رأسه واضعاً يدي على صدره أناديه، ولكن بدون جدوى.

هنا أدركت بأنه لا فائدة من حمله على النطق، وهنا أسرعت إلى القربة التي سبق أن ذكرت أنها وضعت على جانب السيارة، أسرعت إليها لأتأكد على أمل أنها سليمة، وإذا بي أجدها قد تمزقت ولم يبق فيها من الماء إلا كمية محدودة مختزنة في فم القربة، بحثت عن الطاسة فوجدتها على مقربة من السيارة، وهنا أفرغت الكمية القليلة من الماء في هذه الطاسة.

سهرت تلك الليلة بين عاملين من الخوف: العامل الأول هو أن تلك الأرض مُسبعة، أي كثيرة الذئاب، وأنا لا سلاح معي، ومن الممكن أن أكون صيداً سهلاً لها، أمّا الثاني فإنني سأموت عطشاً إذا قدرت سلامتي من الذئاب، لأن كمية الماء الموجودة لا تغني شيئاً، ومع ذلك فقد ظللت مطمئن النفس أتلو ما أحفظه في صدري من كتاب الله.

انبلاج الصباح:

انبلج الصبح فأديت الفريضة، ثم أشرقت الشمس وما هي إلا أن ارتفعت قليلاً عن مطلعها، آخذة في كبد السماء إلا وبدأت أحس ببدء حرارة الجو، فأخذ حلقي يجف شيئاً فشيئاً، وأخذت أحسُّ بالظمأ، وهنا خطرت لي فكرة هي أن أمسك بطرف غترتي فأضعه في الكمية المحدودة من الماء، ثم أدخله في حلقي وأمصه، ثم أفعل ذلك مرة أخرى بالنسبة للسائق حيث كنت أفعل معه الشيء نفسه.

مقاومة اليأس:

ظللتُ أقاوم العطش، وأقاوم اليأس، وأتعلق بالأمل، وبالقدرة على الصمود والمقاومة، إلا أنَّ ذلك كله قد تلاشى عندما نفدت كمية الماء المحدودة، وهنا أخذت أحسُّ بالواقع المر الذي لا مناص منه، كان الوقت ظهراً، وكان السموم الحار يلفح وجهي وجسمي وكأنه لهب ينبعث من فوهة تنور.

كنت أستظلُّ تحت السيارة ثم زال الظل عندما توسطت الشمس ظهراً، فحفرت بجانب السيارة لكي أتقي لفح السموم على الأقل.

انتظار الموت:

كان الوقت آنذاك بعد صلاة الجمعة، فأَخَذَتْ الشمس تميل إلى جهة الغروب، وكنت خلال ذلك قد ابتدأت أشعر بالوهن يدب إلى جسمي، وبأن لساني أشبه بقطعة خشب في حلقي، وأصبحت أذناي تعجان بضوضاء لا أستطيع تمييزها، ولا تمكني من سماع أي شيء، ثم أصبح نظري يغشاه كثير من الضباب، وهنا أيقنتُ بالقدر المحتوم، فعمدت إلى حفر مكان منخفض بجوار السيارة من الجانب الشرقي، الذي ابتدأ ظِل السيارة المقلوبة ينعكس عليه، وهناك بعد أن خارت قواي، اضطجعت في هذه الحفرة واضعاً وجهي باتجاه القبلة، مردِّداً ما أستطيع الهمس به في أعماق نفسي، ثم أصبحت شيئاً فشيئاً أحس بأن الموت على خطوات مني.

الفرج بعد الشدة:

كان الوقت آنذاك بعد المغرب تقريباً، وفجأة يحدث ما لم يكن في الحسبان، إذا بي أسمع صوتاً خافتاً، يقول: إبراهيم الحسون، إبراهيم الحسون، وإذا بنور مجهر (كشاف يد) يسلَّط على وجهي، كنت آنئذ أحس ذلك وأعيه، ولكني غير قادر على النطق، ثم حملني أشخاص من مكاني، وأخذوا يفرغون في حلقي قطرات من الماء شيئاً فشيئاً، حتى ابتدأت أستعيد وعيي وأعود إلى حالتي الطبيعية.

كيف تمت النجاة؟

والذي حصل هو أنه كانت عائلة المرحوم الشيخ عبدالله قاضي، الذي كنت ضيفاً لديه في الكويت، قد جلبها من الطائف، لتقيم عنده في الكويت، كانت الأسرة تتكون من مجموعة من الرجال والنساء، وفي مقدمتهم ابناه بكر عبدالله قاضي، وهو الأكبر، وأخيه عمر عبدالله قاضي

أمين العاصمة المقدسة سابقاً، وكان بكر هذا قد قابلته يوم وصولي الكويت في بيت والده، وتوجَّه في ذلك اليوم إلى الطائف، بإيعاز من أبيه، لإحضار الأسرة. لذلك عرفني فور أن سلَّط على وجهي ضوء الكشاف، فعلوا مع السائق الشيء نفسه وقد أفاق واسترد وعيه، وعرَّف بنفسه، أنه يُدعى محمود بن ناصر من أهالي الحجاز، وكانت إصابته في هذا الحادث تنحصر في كسر أربعة من أضلاعه في قفصه الصدري من الجهة اليمنى، عند ذلك سُئل عن المعاون، فذكر أن اسمه حسين. هنا نادى بكر بأعلى صوته بقوله: يا حسين، وعلى الفور سمع صوتاً يقول: نعم نعم. وكان الصوت منبعثاً من سطح السيارة الذي أصبح تحت التراب، وظهر أن هذا المعاون قد شملته رعاية الله فحفظته، إذ كونت قنادل الخشب المحمَّل على ظهر السيارة سياجاً، حال دون وصول أي أذى إليه، بذلوا جهداً مشكوراً، وأحضروا حبالاً ربطوها بالسيارة، واستطاعوا أن يقيموها من حالتها، ويعيدوها إلى وضعها الطبعي، ثم تركوها في مكانها، ثم اصطحبونا معهم إلى الكويت، أما السائق فقد أدخل مستشفى الصباح في الكويت وأجري له العلاج اللازم، وظلَّ في المستشفى بضعة شهور، أما أنا فقد مكثت في الكويت أربعة أيام، إذ لم أُصَب بأيِّ شيء يستوجب دخولي المستشفى، وإنما ينحصر كل ما لحقني في جروح بسيطة نتيجة لآثار الزجاج المتهشم.

عناية الله وألطافه الحانية:

بعد أربعة أيام من مكوثي في الكويت عدت إلى (قرية) على إحدى السيارات، وهنا لا بد لي من كلمة حول هذا الحادث وملابساته.

لست بمستطيع أن أصوِّر الحالة النفسية التي مررت بها في ذلك اليوم الكئيب، كيف مرَّت لحظاته ودقائقه وساعاته، شيء أكبر من أن يصوِّره الحرف أو يشخصه الفكر؛ في الدبدبة في أرض بلقاء لا ماء ولا شجر ولا ظل، لا حركة ولا أنيس، يصب سموم القيظ سوط لهبه على الجسم، فيُحيله إلى وضع يجعله أشبه بمن يعيش داخل تنور. سيارة تحمل هذا

الحمل الثقيل من براميل ديزل وقنادل خشب تنقلب رأساً على عقب، ومع ذلك ينجو جميع راكبيها!!

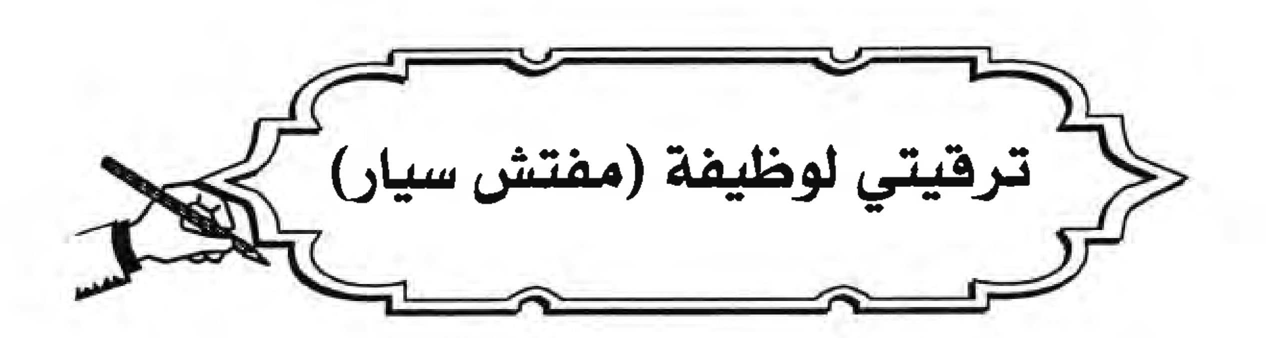
لحظات تمرُّ على المرء، حينما يجد نفسه على جرف هارٍ من الحياة، يودعها مرغماً كارهاً، لا أمل له في العودة، لأنَّ ما لديه من منافذ النجاة هما طريقان، أياً منهما سلك، فسيلاقيه الموت في نهايته، وهنا يتجلى اللطف الإلهي بأوسع صوره، وأبهى معانيه، فتمتد ألطافه الحانية برفق وهدوء فييسر من الأمر ما لا يخطر ببال.

النجاة من المخاطر:

من الواضح أنَّ مجيء هذه الأسرة في تلك اللحظات كان عناية ربانية، بدون شك، فلو قدر أنها لم تصل، أو قدِّر أنها تأخرت بضع ساعات لكان الأمر بالنسبة لي قد انتهى.

هذا الموقف أو هذه العناية الربانية التي انتشلتني من براثن الموت، من بعد أن أصبح مني قاب قوسين أو أدنى لم تكن هي الأولى من نوعها، وإنما قد سبقتها حالة هي أعظم وأخطر من هذه الحادثة، فقد صافحت الموت يداً بيد. اشتبكت بيننا الأيدي، وفي اللحظة التي أوشك أن يسحب فيها الموت آخر نفس مني، امتدت يدُ العناية فأنقذتني منه، وسوف أعود إلى شرح هذه الحادثة مفصلاً، إن أمدني الله ببقية من العمر، سأشرحها مفصلاً في هذه الخواطر، مع حادثة أخرى، هي الثالثة أيضاً، عندما أتمكن بفضل الله من إنهاء هذه الخواطر، علماً بأنَّ الأولى قد وقعت لي وعمري سبع سنوات في مزرعتنا بعنيزة، كما وقعت الثالثة في مصح (بحنس) في عام ١٣٧٢هـ بلبنان.





في مستهل جمادى الآخرى عام ١٣٦٣هـ تلقيتُ أمراً برقياً من المدير العام للماليات والجمارك بالأحساء زكي عمر، مفاده كالآتي:

١ - ترقيتي إلى وظيفة مفتش سيَّار لجمارك الحدود، على أن يكون مقر عملي (قرية).

٢ - أقوم بتسليم أعمال مديرية جمرك (أم رضمة) إلى زميلي الأخ أحمد حِمدي (الذي كان يشغل مدير جمرك لوقة)، وهو من أهالي جدة ووالد عبدالله حِمدي الذي يعمل مخلصاً جمركياً لدى المرحوم محمد أحمد بن حِمْد وكيل مكائن سنجر في جدة.

٣ - التوجُّه فوراً حال انتهاء التسليم إلى مقر عملي الجديد بقرية، كان الترفيع معناه أن راتبي سيصبح ألفين ومائتين قرش سعودي، أي: عن مائتي ريال باعتبار الريال أحد عشر قرشاً أميرياً أي اثنين وعشرين قرشاً عادياً، ومعنى ذلك أن راتبي قد ارتفع من مائة واثنين وثلاثين ريالاً إلى مائتي ريال أي بزيادة ثمانية وستين ريالاً.

في اليوم الثاني وصل إليَّ في (أم رضمة) الزميل أحمد حمدي، وأتممنا إجراءات الدور والتسليم، خلال يومين من وصوله، ثم غادرت أم رضمة متوجهاً إلى قرية. كانت التعليمات التي تَقَرَّرَ أن نعمل بموجبها في عملي الجديد تتلخص في الآتي:

١ - القيام بجولة تفتيش في نهاية كل شهر، تبدأ من قرية فالحفر فأم

رضمة فلينة فلوقة فالدويد، ثم العودة إلى قرية، على أن يتم في خلال هذه الجولة مراقبة أعمال هذه الإدارات الجمركية، وجرد صناديقها ما بين وقت وآخر للتأكد من مطابقة موجوداتها بالسجلات الموجودة، ومراقبة سلوك الموظفين، والتأكد من أنَّ أعمال الجمرك تتم وفقاً للنظم والتعليمات المقررة.

٢ ـ اصطحاب المبالغ الكافية لتغذية صندوق مالية الحفر، لكي يستطيع أن يسدد رواتب موظفي هذه المراكز، التي مرَّ ذكرها، سواء كانوا مدنيين أو عسكريين.

بدأتُ العمل اعتباراً من شهر رجب ١٣٦٣هـ. كنت أغادر قرية ومعي كاتب خاص سكرتيراً يدعى عبداللطيف الجبر، وهو من أهالي الأحساء، كان جميل الخط، سريع الكتابة، ولم تكن توجد آنذاك آلة كاتبة، في أي دائرة من دوائر الحكومة.

كنا نغادر قرية بعد صلاة العشاء مباشرةً في أول يوم من الشهر، نحن الاثنين ثالثنا السائق إسحاق الهندي على سيارة جيب ماركة ويلز.

عند اقترابنا من جمرك (الحفر)، وهو يبعد مائة وثلاثين كيلومتراً عن قرية، نأخذ قسطاً من الراحة على جانب الطريق، وفي الصباح الباكر يكون دخولنا الجمرك مع دخول الموظفين. وعلى الفور نباشر مهمتنا، فما يكاد ينتهي الدوام حتى نكون قد أنهينا مهمتنا في هذا المركز، وبعد صلاة العصر نواصل سيرنا باتجاه المحطة التالية: (أم رضمة) فنصلها قرب العشاء، فنستريح فيها، ومن ثم نباشر مهمتنا في صباح اليوم الثاني، وهكذا بقية المراكز، وقد نضطر إلى البقاء في مركز أكثر من يوم أو يومين، خاصةً إذا كان فيه مشاكل، أو نزاعات بين الموظفين. كانت مرحلتنا هذه في كل شهر تتراوح مدتها ما بين ثمانية أيام إلى اثني عشر يوماً تقريباً.

استلامي جمرك حفر الباطن:

في نهاية شعبان من ذلك العام ١٣٦٣هـ كلِّفت باستلام جمرك الحفر، لكي يمكن تنحية مديره الصديق أحمد الجابر، وإجراءات التفتيش على

أعماله خلال المدة التي قضاها رئيساً لهذا الجمرك، وفي الوقت نفسه كُلِّف كل من الأخ علي دَفَّع، وكان قادماً من جدة لتوِّه، والأخ علي خجا، من أهالي المدينة، وكان يعمل بجمرك (قرية)، بالشخوص إلى الحفر وأحيلت إليهم جميع سجلات الجمرك، ومخابراته، ليتولوا تدقيقها، ومراجعتها، حسب الأمر، بينما أقوم أنا بإدارة الجمرك نهاراً، وأشترك معهم في المراجعة والتدقيق ليلاً، وقد بوشرت هذه المهمة ابتداء من ١/٩/ ١٣٦٣هـ، وكان كل ذلك بأوامر برقية من زكي عمر.

أنهت الهيئة مهمتها، واتضح نتيجة للتحقيق والمراجعة، أن مدير الجمرك أحمد الجابر كان بريئاً مما نُسب إليه، وأن إجراءاته في عمله سليمة لا غبار عليها. عندئذ صدر الأمر بعودته إلى مركزه مديراً لجمرك (الحفر) وعودتنا نحن علي خجا وعلي دفع وإبراهيم الحسون إلى (قرية).

بعد ذلك بشهرين، أي في ٥/١١/ ١٣٦٣هـ وصل زكي عمر ومعه ثمان سيارات لواري كبار، وأربع سيارات صغار، أما السيارات الكبار فجميعها محملة بأرزاق وكفرات وبِيَط (والبيطة عبارة عن رشا ضخم يبلغ طوله ثلاثين متراً تستخدم في متح الماء من آبار المراكز)، وكان مخصصاً لكل أمير مركز بيطة ودلو جلد في كل ستة أشهر.

كانت السيارات الأربع الصغار تحمل زكي عمر ومرافقيه ومعهم مجموعة من الموظفين، بعضهم قادم من الحجاز، وبعضهم قادم من الإحساء. وصل زكي بهؤلاء إلى مركز الحفر، وقد أمرني باللحاق به هناك. مكث في (الحفر) ثلاثة أيام بعد أن زوَّدني بمذكرات رسمية تتضمن تعليمات محددة، عليَّ أن أنفذها. ومجمل مضمون تلك المذكرات كالآتي:

أ ـ أن حمولة هذه السيارات عليَّ أن أوزعها على بقية المراكز، بموجب البيان الذي حدد ما يخص كل مركز من هذه الأنواع.

ب ـ مجموعة من أكياس النقود، وهي أكياس قلع مغلقة، تحتوي على ثلاثمائة ألف ريال فضة سعودي، هي مجموع رواتب متأخرة لموظفي

تلك المراكز: أم رضمة ولينة ولوقة والدويد لمدة أربعة شهور إذ لم تكن صرفت لهم.

جـ - تغيير جميع موظفي المراكز من مراكزهم، التي كانوا يشغلونها في تلك المراكز إلى مراكز أخرى، وذلك بأن ينقل موظفو جمرك لينة إلى جمرك لوقة، ويؤتى بموظفي جمرك لوقة إلى لينة، وأن نضعَ الموظفين اللازمين لتأمين العمل في حالة نقصهم عن تأمينه ببعض الموظفين المستجدين، الذين سأصطحبُهم معي من الحفر، ولا يقل عددهم عن أربعة عشر موظفاً.

كانت المهمة شاقة، بدون شك، ولكن لا بد من تنفيذ الأمر، ظللنا في (الحفر) تلك الليلة حتى ما يقرب من الساعة السادسة ليلاً، بالتوقيت الغروبي، مجتمعين في خيمة زكي على مقربة من قصر الحفر، وكانت الخيمة مضاءة بالأتاريك، وكان مجموعة من مرافقي زكي من الموظفين، وعلى رأسهم الصديق طه ضليمي، يقومون بتحرير المذكرات الرسمية، والتعليمات التي سأعمل بموجبها بعد توقيعها من زكي.

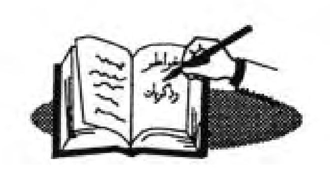
في صباح اليوم الثاني توجَّه زكي بسياراته الأربع الصغار التي تحمله وموظفيه إلى قرية، وتوجهت بدوري بالسيارات اللواري الثمان باتجاهنا إلى (أم رضمة)، بعد أن كلفت الأخ عبداللطيف الجبر واثنين من الحراس الذين اصطحبتهم من جمرك (الحفر)، ليحافظوا على أكياس النقود، ويكونوا مسؤولين عنها. عند قيامنا من (الحفر)، وصل إلينا ثمانية أشخاص يرافقهم أحد خويا ابن عبدالواحد، أمير (الحفر)، طالباً منا أن نحملهم معنا على هذه السيارات لأنهم جميعاً جنود حكوميون يعملون في تلك المراكز التي نحن متجهين إليها، فلم يكن في وسعي الاعتراض، طالما أنهم جنود حكوميون، والسيارات حكومية، وكان الواحد منهم لا يحمل سوى بندقيته، معنى ذلك أنهم سيكونوا عبأً علينا في الأكل، ولكن هذا لا يهم.

واصلنا السير حتى وصلنا (أم رضمة)، فمكثنا فيها يومين، أتممنا فيها إجراءاتنا، وسلمنا مسؤوليها سواء في الأمارة أو في اللاسلكي، أو في

الجنود أو في الجمرك ما يخص كلاً منهم من رواتب وأرزاق، ثم واصلنا السير بعد أن أضيف إلى الركاب الذين معنا ثلاثة آخرون من قبل أمير (أم رضمة) للسبب والعذر نفسه.

واصلنا السير، حتّى وصلنا (لينة)، كان أميرها آنذاك سليمان الشنيفي، وهو من أكبر أمراء المراكز، وأوسعهم نفوذاً، وأرفعهم منزلةً، سواء لدى الملك عبدالعزيز، أو عند رئيسهم المباشر الأمير عبدالعزيز بن مساعد في حائل، ولديه من الخويا ما لا يقل عن أربعين خوياً. وكان كثيراً ما يُكلَّف بالتفاوض مع الحكومة العراقية مندوباً عن الحكومة السعودية فيما يتعلق بالنزاعات والخلافات، التي تقع بين القبائل المنتشرة على امتداد تلك المناطق وخاصة قبائل شمر والضفير وغيرها، وكان دائماً موفَّقاً في جميع مهماته، كان الأخ الفريق علي الشُّهيِّب ـ أمد الله في حياته ـ آنذاك موجوداً مع نحو عشرين جندياً في قصر لينة، مع الأمير سليمان الشنيفي بالإضافة إلى موظفي الجمرك ورئيسيهم سعد بن سَبرًا، ومدير اللاسلكي حسن مهنا.

مكثنا في (لينة) خمسة أيام حتى أتممنا مهمتنا، وأجرينا التبديلات اللازمة في موظفي الجمرك كما سبق فعله في جمرك (أم رضمة).





بدء الرحلة:

كانت عادتي في جميع سفراتي أنني عندما أصل إلى مركز من هذه المراكز أبرق للمركز الذي يليه، وأنا في طريقي إليه لأقول: إنني سأتوجه إلى ذلك المركز في الوقت كذا من يوم كذا، إشعاراً لهم بأنه إذا مضت المدة المعتادة لقطع المسافة ما بين هذين المركزين، فإن معنى ذلك أن سيارتنا قد تعطلت وأنَّ عليهم أن يرسلوا لنا سيارة إنقاذ.

كانت هذه طريقتي، وكانت وسيلة للإطمئنان بالنسبة لي، لأني لو قُدِّر توقفي عن السفر نتيجةً لخراب السيارة، فإني مطمئن أن الإسعاف سيصلني من المركز الآخر، هذه الطريقة أهملتها وأنا في (لينة) على أساس أنَّ معي ثمان سيارات، وأنه لو قُدِّر أن خربت واحدة أو اثنتين أو أكثر فإنه مع ذلك سأصل إلى (لوقة) على بقية السيارات الأخرى.

كان ذلك غروراً مني، وقِصَر نظر، وكأن لسان حالي يكرر مقولة أحد المسلمين في غزوة حنين، عندما شاهد الجيش الإسلامي البالغ تعداده اثني عشر ألفَ مجاهد، قال قولته المشهورة: «لن نغلبَ اليوم من قِلة» وكانت نتيجة ذلك الهزيمة المنكرة، التي لاقاها المسلمون عند أول صدام في تلك المعركة، إذ فروا على وجوههم هاربين لا يلوون على شيء، وبقي سيد الخلق ﷺ وقلة من أصحابه، وعلى رأسهم عمه العباس ثابتاً في المعركة يكرر قوله: أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب.

حتى أنزل الله النصر على المسلمين، فأعاد لهم الكرة على أعدائهم من هوازن وغطفان.

لم أبعث برقيةً لأمير (لوقة)، للسبب الذي شرحت، وعلى ذلك غادرنا (لينة) بعد صلاة العَصر من ذلك اليوم. كان الطريق وعراً والسيارات مثقلة بالحمولة، كان سيرها بطيئاً، وكان اتجاهنا نحو الغرب باتجاه الشمال الغربي، واصلنا السير حتى اجتزنا الطريق السلطاني الذي يبعد مسافة ثلاثين كيلومتراً غرب (لينة)، وهو الطريق الذي أنشأته المحسنة البارة أم الأمين زبيدة زوجة هارون الرشيد بحوالي ١٩٠ من الهجرة، ويمتدُّ من بغداد في الشمال، ثم يتجه إلى الجنوب قاطعاً النفود، ثم ينحرف قليلاً للجنوب الغربي حتى يتصل بمكة.

الوقوف في الطريق للصلاة:

كان اجتيازنا لهذا الطريق مع غروب الشمس، فأوقفنا السيارات بعد أن غاب قرصها، وتيمَّم البعض وتوضأ البعض الآخر، بعد أن وقفت سياراتنا بعضها بجوار بعض، على جانب الطريق، بجوار ربوة مستوية السطح، ترتفع عن الأرض بنحو ثلاثة أمتار تقريباً.

أذَّن المؤذن، ثم أقيمت الصلاة، كان مجموعنا ما بين الخمسة والثلاثين إلى الأربعين شخصاً. عندما كبَّر الإمام في ركعته الأولى كنا نشاهد على مغرب الشمس غيمة سوداء ضئيلة الحجم، قد لا يزيد حجمها في نظر الرائي عن أكثر من متر أو مترين، أتممنا الركعة الأولى ثم وقفنا للركعة الثانية وإذا بهذه البقعة السوداء، يمتد من مختلف جوانبها غبار أشبه بالإعصار، ينتشر بالأفق محدثاً ظلاماً ملفتاً للنظر، كنا قد أكملنا الركعة الثانية وأكملنا التحيات، وبمجرد أن وقفنا للركعة الثالثة إذا بهذا الإعصار المدمِّر قد وصلنا، ويكاد يقتلعنا من الأرض، وإذا السماء تنفجر بماء كأفواه القرب، فتركنا الصلاة، وتراكضنا مذعورين نحو السيارات، نطلب النَّجاة، ولكن هيهات ما كدنا نصل إليها حتى أحسسنا بأننا داخل طوفان، فقد كانت السيارات في منخفض فإذا الماء في بضع دقائق يصل إلى غمارات

السيارات، فأسرعنا بالقفز إلى قمة الربوة ووقفنا بعضنا يرص بعض على قمة الربوة، وما هي إلا دقائق حتى انجلى الظلام، وتوقف المطر، وإذا الماء قد غطى السيارات كلها.

الوقوف الاضطراري، والليلة الليلاء:

وقفنا مذهولين، وحمدنا الله على سلامتنا، ولا تسأل كيف قضينا تلك الليلة مجموعة من البشر لا يقل عددهم عن أربعين شخصاً، يرتعشون من البرد والماء الذي بلل ملابسهم. كان كلٌ منا يلتصق بظهر الآخر أملاً في الدفء.

مضت تلك الليلة، ونحن على هذا الوضع مذعورين، نضرع إلى الله أن يكشف عنا تلك الغُمَة، بأن لا يأتي بسحابة أخرى كتلك السحابة، ومن فضله وإحسانه فقد لطف بنا إذ انجلى الظلام، وتمزَّق السحاب، وأصبحت السماء صافية تتلألأ نجومها، لم نذق جميعاً لذة النوم في تلك الليلة، أمضيناها ساهرين جائعين، ننتفض من البرد: «كما ينتفض العصفور بلله القطر» كما يقول الشاعر.

انبلاج الصباح:

شيئاً فشيئاً انبلج الصبح، ثم أشرقت الشمس، وكنا جوعى بشكل لا يوصف، وقد كان الرعب الذي عانيناه له نصيب في هذا الجوع.

كان الماء كما ذكرت قد طغى على السيارات بحيث غطّاها جميعاً، ولكن ما كاد الصبح ينبلج، وتشرق الشمس حتى كان الماء قد غاص قليلاً، وانكشف عن سطح السيارات، إذ كانت الأرض على ما يبدو عطشى، وهنا أسرعنا إلى قَلَّة من التمر، تزن في حدود ٥٦ كيلو، أخرجناها من أقرب سيارة، وما هي إلا لحظات حتى لم يبق منها إلا بضع تميرات، وكان النوى مكدساً تحت أرجلنا، بعد ذلك، عندما امتلأت بطوننا، أحسسنا بالدفء، لشروق الشمس ولملأ البطن، وأحسسنا بالنشاط، وتبدلت كآبتنا ورعبنا مَرَحاً، وتبادلاً للنكات والطرف.

وأحسسنا بالنشاط، فأخرجنا إحدى الخيام التي معنا، نصبناها على الربوة، ثم أخرجنا أحد أكياس الدقيق، فأخرجنا من جوفه كمية من الطحين التي لم يصل إليها الماء، ثُمَّ عَجَنَها أحد الجنود، الذي رافقنا من (الحفر)، ويدعى هادي بن صناحي، وهو نجراني من قبيلة يام، كان مفتول العضلات، فاره الطول، يبدو أنه كان متمرناً على مثل هذه الأمور.

كان لحسن الحظ يوجد معنا على السيارات كمية من حطب السمر، اصطحبناه معنا من (لينة)، فأشعلنا النار، ثم أحضر لنا أحد السائقين، ويدعى ياسين غزاوي أخاله من أهالي الطائف، تنكةً، فارغة شَقوها، وجعلوها على هيئة مسطحة، وضعوها فوق النار، وخبزوا عليها العجين.

إخراج سيارة من الوحل:

مكثنا ثلاثة أيام في هذا المكان، وعلى الوتيرة نفسها نأكل من قلال التمر، ويخبز لنا هادي خبزاً على تلك الصفيحة. في صباح اليوم الرابع كانت الأرض قد جفت بشكل ملحوظ، ولم يبق في المنخفضات من ماء إلا مقادير ضحلة، ولذلك طلبت من الموجودين أن يربطوا بأقرب سيارة تلي خيمتنا حبلاً قوياً، ومن ثَمَّ تعاونا جميعاً على سحبها من موضعها بعد أن أنزلنا حمولتها على الأرض.

تمكَّنا من إخراجها بعد جهد من موضعها، وأوقفناها على أرض صلبة غير قابلة للتغريز، تبعد عن الخيمة نحو عشرة أمتار تقريباً. قام سائق السيارة ياسين غزاوي بتشغيل ماكينتها، وهي واقفة، للتأكد من سلامتها من العطل نتيجة للماء الذي سبق أن غطَّى الماكينة، وبعد مرور نحو ساعتين وهو يقوم مع رفاقه السائقين بتنظيف الماكينة والبواجي والديلكو من مخلفات المطر، استطاعوا أن يعيدوها لوضعها الطبيعي، كأنما لم يمسها الماء، وأخبروني أنها أصبحت صالحة للسير على أكمل وجه. عندئذ قمت بنقل أكياس النقود أولاً، ووضعها في غمارة السيارة في المقدمة، وبعض منها فوق السطح، ثم طلبت بأن تحمَّل هذه السيارة وبأربع قلات من التمر، وبكيسين من الطحين وأن يركب الموظفون والمرافقون، مع أمتعتهم على سطحها، على أن يبقى

سائقو السيارات السبع في مكانهم، وأن ينصبوا إحدى الخيام الموجودة معهم ليتقوا بها البرد مدة وجودهم، على أن يلحقوا بنا إلى (لوقة) متى يبست الأرض بصورة كاملة ومتى استطاعوا إخراج سياراتهم من مكانها.

توجهت بهذه السيارة، ومعي الموظفون والمرافقون متجهين إلى (لوقة). كان الوقت آنذاك حوالى الظهر، سرنا متجهين إلى الغرب بانحراف قليل إلى الشمال على خط السيارات التي تسلك ذلك الطريق ما بين المراكز. بعد أن قطعنا من المسافة ما يقرب من ستين كيلومتراً عن موضع رفاقنا، وأصبحنا على مشارف الوادي الكبير، وهو (شعيب رُميلان)، أحد أودية الجزيرة المشهورة منذ القدم، والذي يفيض سيله من الجنوب إلى الشمال، والذي سبق أن أشار عنه الهمذاني في كتابه «صفة جزيرة العرب»، وهو واد يبلغ عرضه في حدود ثلاثين متراً في عمق ثلاثة أمتار في بعض النواحي، وقد يكون الاتساع والعمق أكثر من ذلك في أماكن أخرى، نظراً لكميات المياه الهائلة التي تسيل من هذا الوادي في مواسم الأمطار.

تغريز سيارتنا الوحيدة:

كنا نسير على الخط يفصلنا عن هذا الوادي نحو ألفي متر تقريباً، وإذ كانت سيارتنا تمر على حافة إحدى الفياض، (الأرض المنخفضة)، الجنوبية، وكان مظهر الأرض يابساً، إذا بسيارتنا تغوص فجأة في بحر من الطين اللزج، أي أن قشرة الأرض اليابسة تخفي تحتها تربة لم يجف الماء عنها. حاول السائق إخراجها، ضاغطاً على البنزين، أملاً في أن تنجو من هذا الفخ، ولكنها كانت تغوص أكثر فأكثر، ثم أعقب ذلك توقف ماكينة السيارة عن العمل. لم يكن ثمة مجال غير أن نخضع للأمر الواقع، وأمرُنا لله.

تركنا السيارة في موضعها، ونقلنا أمتعتنا على ربوة مجاورة لها تبعد عن موضع السيارة بنحو عشرة أمتار، وترتفع عن سطح الأرض بنحو مترين أو نحو ذلك. نصبنا الخيمة على سطح هذه الربوة، ثَمّ رتبنا أمتعتنا وحقائبنا داخلها، مستسلمين للأمر الواقع، مؤمّلين بأننا لن نبقى في هذا المكان أكثر

من أيام معدودة، إذ لا بد أن تصل إلينا سياراتنا خلال هذه الفترة، ولذلك فقد كان الأمل باعثاً لنا على أن نستبدل الوجوم بالمرح وعدم المبالاة.

كان مجموعنا في حدود الأربعين شخصاً، معنا أربع قُلاَّت من التمر، ومعنا كيسا طحين، ومعنا الصفيحة التي كان هادي يخبز لنا عليها، بعد أن صيرها أشبه بالصاج.

الربيع في تلك الأرض:

كانت الأرض قد ربت وابتدأت أزاهير الربيع تتفتح يوماً إثر يوم، يفوح منها عبير الأقحوان والخزامى والنَّفَل، وغيرها من نباتات الربيع، ذات الروائح الزكية المنعشة. كان الفضاء الواسع الذي تمتد إليه أبصارنا على امتداد جوانب الأفق الأربعة تقع على هذا البساط السندسي، الذي أبدعته يد الخالق جلَّت قدرته، والذي يطرب النفوس ويبهج القلوب، وخاصَّةً عندما يبصر الإنسان مئات الألوان المتنوِّعة التي تحملها تلك الزهور، وكأنها نُسِّقت بريشة فنان مبدع، فسبحان الخلاَّق مبدع الكون وبارىء النِّسم.

مضت الأيام الأولى، ونحن في غاية البهجة نسرح ونمرح، ونتبادل النكات والضحكات، وكلنا ثقة أنه لن يطول مكثنا في هذا المقام، إذ كنا ننتظر الفرج ما بين حين وآخر، سواء بقدوم سياراتنا التي خلفناها، أو بمرور إحدى سيارات الدوريات التي يبعثها أمراء المراكز تجول في الصحاري بحثاً عن التهريب.

كانت تلك السنة فريدة في نوعها من حيث وفرة الخصب، وشموله جميع أراضي المملكة تقريباً، إذ أخذت الأمطار في تلك السنة، في كثير من بقاع الجزيرة، تتوالى أسبوعياً بطريقة رتيبة، حتى إن بعض الصحاري قد نما فيها العشب، حتى أصبح يكوِّن حقولاً، أشبه ما تكون بمزارع البرسيم، مما نتج عنه أن انحازت البادية، التي كانت عادة تتواجد في هذه البقاع إلى أماكن تلك الأرض، التي تفوقت بوفرة الخصب، والتي كانت في عمق النفود الذي يفصل منطقة حائل عن المكان، الذي كنا فيه، بحيث لم نشاهد

طيلة مكثنا في ذلك المكان الذي امتدت ما يقرب من الشهر، لم نلاحظ أي مخلوق من أفراد البادية، أو من المواشي الضالة، أو حتى من السباع أو الذئاب.

مرَّت الأيام علينا، وكأنها حلم، فنحن نهاراً نتجول على هذا البساط السندسي الأخّاذ الرائع، وليلاً تحتضننا هذه الخيمة، وكانت واسعة ذات عمودين نلعب البلوت، وننصت إلى المذياع، الذي لم يرافقنا أكثر من ليلتين مع الأسف إذ كان تشغيله يتم على بطارية السيارة وقد توقفت البطارية لخراب الدينمو.

وجبات طعامنا:

لم نحس في بادىء الأمر بأيِّ ملل أو سآمة، ولم نشعر بأيِّ ضيق أو حرج، كنتُ كلفت أحد الموظفين القادمين من الأحساء، وهو يوسف السويلم، الذي وضعته بعد ذلك في جمرك الدويد، بأن يكون مسؤولاً عن التموين، وبالأخص عن التمر بحيث تكون وجباتنا كالآتي:

في الصباح كمية محدودة من التمر، وفي الضحى أي حوالى الظهر كمية الغداء من التمر أيضاً، أما في المساء ففي سواعد هادي - بارك الله فيها - ما يؤمن لنا العشاء، خبزاً على الصفيحة. ومعنى ذلك أن يظل دائماً بقرب الخيمة، فلا يسمح لأي إنسان بأن يقترب من قلال التمر، أما الماء فقد أدركنا الله بلطفه، فما كدنا نبيت ليلتنا الأولى في ذلك المكان، حتى فوجئنا في الهزيع الأخير من الليل بالمعصرات (السحاب)، تمر علينا واحدة إثر الأخرى دافقةً علينا من مائها ما شاء الله أن تدفق، فعادت المنخفضات والغدران والفياض ملأى بماء المطر العذب الفرات. كنا نعبث بالغدران، ونسبح ونمرح ما شاء لنا المرح، فقد كان الوقت في أوائل الربيع.

البحث عن صيدٍ يمدنا باللحم:

مرت الأيام يتلو بعضها بعضاً، ولكن لا حس ولا أنيس. اشتقنا إلى اللحم، ولم يكن متوقعاً وجود أي نوع من الماشية، سواء ضأناً أو ماعزاً أو

إبلاً، فقد طلبت من هادي ورفاقه من الجنود، الذين كانوا يحملون أسلحتهم، أن ينتشروا كل صباح في هذه الوهاد الواسعة، وأن يبحثوا لنا عن أرانب يصطادونها، ولهم على كل رأس يحضرونه خمس ريالات فضة.

كانوا يذهبون صباحاً وعند قرب موعد الغداء، ويعودون إلى الخيمة، يتناولون الغداء معنا، ثم يعودون للانتشار مرة أخرى حتى المساء، ويعودون أخيراً زاعمين أنهم لم يجدوا صيداً، مع أنَّ هذا يكاد يكون مستحيلاً؛ لأنَّ الأرض معشبة وهي صحاري نائية عن العمران، ومظنة لتواجد الأرانب بشكل كثيف جداً، وقد علمت بعد ذلك أنهم كانوا يصطادون أرانباً، كل منهم بطلقة واحدة، مما معهم من رصاص محسوب عليهم بعددها، ولذا يكتفي كل منهم بطلقة واحدة يصطاد فيها أرنباً، وبدافع من الأنانية والخبث يتولى شويها وازدرادها بعيداً عنا، نظراً لوفرة الحطب في كل مكان، وقد علمت ذلك بعد مدة، أي بعد وصولنا إلى (لوقة)، وتفسخت جلودنا، وصارت دار الصديق محمد الطيب مستشفى لنا.

علماً بأن هؤلاء الجنود كانوا عبئاً علينا، وكانوا يشاركوننا مدخراتنا من القوت، وكان أيسر الأشياء عليهم أن يردوا إلينا بعض الجميل، فقد أحسنَّا إليهم بإركابهم معنا، والسماح لهم بمشاركتنا طعامنا، إذ لم يكن أياً منهم يحمل أي شيء معه سوى بندقيته.

(رجمْ) الحسون:

بعد مضي عدة أيام، ونحن في مكاننا، رأيت من العبث إضاعة وقتنا فارغاً بدون جدوى، وكانت على مقربة منا ربوة مرتفعة توجد على قمتها مجموعة من الأحجار المتناثرة، بعض منها مستطيل وبعض منها مربع، فأخذت مع بعض الإخوان نجمع هذه الأحجار، ونقيم بعضها على بعض بطريقة تمكن من تماسكها، فتظل صامدة مدة سنين وسنين، وأخذنا في بنائها حجراً فوق حجر، حتى أصبح ارتفاعها يقارب المترين، وأصبح معلماً للسائرين والتائهين في بيداء الصحراء، وهو ما يطلق عليه أهل البادية (رِجِمْ) أي معلم يستدل به على تحديد الأماكن القريبة من حوله، ويجيب البدوي

أخاه إذا سأله عن مكان إبله مثلاً بقوله: تقع في الفيضة الفلانية جنوب أو شمال أو شرق أو غرب (رِجِمْ شعيب رميلان)، وهكذا حدد الموقع.

وقد اخترت بضعة من ألواح الأحجار الملساء، فسجلت عليها بقلم الرصاص قصة إنشاء هذا الرِّجَم وتاريخه، وقصة وجودنا في هذا المكان مع تسجيل أسمائنا فرداً فرداً عليه، ووضع التاريخ في أعلاه، معنوناً باسم (رجم الحسون)، وقد مررت في عام ١٤٠٤هـ أي بعد مرور واحد وأربعين عاماً خصيصاً بسيارتي، منطلقاً من (لوقة) باتجاه (لينة) سالكاً الطريق نفسه، مررت بالرجم المذكور، لأتأكد من بقائه، فإذا هو قائم كما تركته لم تؤثر فيه عوامل التعرية من الرياح والمطر، لأنه من الحجر الصوان، وإن كانت بعض الأسطر من الكتابة ابتدأت تنمحي.

نفاد المؤونة:

مرَّ الأسبوع الأول، وتلاه الثاني، وإذا بنا ندرك فجأةً أن تموينِنا قد أوشك أن يصل إلى الصفر، وهنا طلبت من الموظفين الجدد القادمين من الحجاز، أن يخرج لنا كل منهم ما قد يوجد معه في شنطته، من خضار ناشفة مصبرة أو نحوها، وفعلاً أخرجوا ما لديهم وهي بعض صرر من الملوخية الناشفة، ومثلها من الفاصوليا البيضاء، وبعض قطع من الأجبان، ولكن كل ذلك لم يفد شيئاً، لأنه لا يوجد لدينا قدر لطبخ الملوخية أو الفاصوليا، كما لا يوجد لدينا خبز فيما لو طبخناها.

مر بنا اليوم الأول بعد نفاد الزاد، وكان قد مرَّ علينا نحو سبعةً وعشرين يوماً منذ أن تعطلنا؛ أحسسنا بالجوع في ذلك اليوم، وكنا نتجلد، ونمني النفس بالأماني، ونعللها بأن تطل علينا ما بين ساعة وأخرى سياراتنا، أو إحدى سيارات الدوريات، ولكن لم يحدث شيء من ذلك.

عندما أسعَفَنا النَّبْق (ثمر شجر السدر):

كان على حافة شعيب رميلان، الذي يقع مكاننا على مقربة منه، كما أسلفت، توجد على بعد كيلومترين من موقعنا بعض أشجار الطلح والسمر

الضخمة الموجودة على جوانبه، ولم نكن نعلم عنها، وحدث في صبيحة ذلك اليوم، الثاني لنفاد طعامنا أن ذهب الأخ عبداللطيف الجبر، وهو سكرتيري الخاص، وكنت خلال المدة كلها حريصاً على أن لا أغادر الخيمة، حفاظاً على أكياس النقود. استمر عبداللطيف في سيره، حتى وصل إلى تلك الأشجار الضخمة، التي كان يحجبها عن رؤية من كان في موضعنا مجموعة من التلال والروابي، وصل إلى تلك الأشجار، وإذا به يجد المفاجأة العظمى، وهو وجود كميات ضخمة من حبات النِبق، تملأ جوانب جذوعها، فضلاً عن النبق الذي ما زال في أغصانها، فما كان منه إلا أن فرش غترته، وملأها بما استطاع من حبات النبق تلك، وأسرع بها إلينا يزف البشرى، فما كدنا نلحظه وهو يحمل ذلك على ظهره، حتى وقفنا مشدوهين في انتظاره، وإذا به يصرخ قائلاً: «أبشروا أبشروا».

هنا وضع غترته داخل الخيمة، فأسرعنا نتخاطف حبات النبق بشره ونهم، نتيجةً للجوع الذي كان يلوي أمعاءنا، فما هي إلا لحظات حتى أتينا على كل ما جمع، وهنا ذهب الجميع معه عائدين إلى تلك الشجرة، حيث غابوا نحو ساعة، وعادوا بعد ذلك يحمل كل منهم كمية هائلة من النبق في غترته، وضعناها بجانب الخيمة على هيئة كومة وأكلنا حتى شبعنا.

مضت أربعة أيام على حصولنا على كميات النبق، واستمرارنا في تناولها غذاءاً وحيداً، لا نملك غيره. كان من عادتي يومياً أن لا أعود إلى فراشي بعد صلاة الصبح، وكنت أجلس على الربوة بجوار الخيمة المجاورة للرجم، وأسرُح نظري على امتداد الأفق، لاجتلاء المنظر الرائع واستنشاق الروائح الزكية، أستنشق شذاها وعبيرها، خاشعاً لعظمة البارىء التي أبدعت هذا البساط السندسي، شأنها في الإبداع كسائر إبداعها في كافة المخلوقات.

ما فعله النبق فينا بعد أربعة أيام:

أخذت الشمس ترسل أشعتها الذهبية ممتدةً على جوانب الأفق، مؤذنة بالإطلال على هذا الكون الفسيح، كان رفاقي جميعاً يغطُون في نومهم أسرعتُ إلى أدوات الحلاقة أخرجها لكي أحلق، كما هي عادتي بين حين

وآخر، ما كدت أركز المرآة على الأرض حتى أبصرت خلالها ما أثار فزعي، حيث شاهدت أن وجهي قد انتفخ من الجانبين بشكل مزعج ومفاجىء، مما جعلني أصاب بذهول، خاصةً بعد أن رأيت أن يدي ورجلي قد أصيبت بالعارض نفسه، علماً بأنني لم أحس بأي مرض، هنا أسرعت بإيقاظ رفاقي: يا يوسف السويلم، يا عبداللطيف الجبر، يا هادي سالم، يا محمد السليمان البسام، يا عبدالعزيز الخليف، يا حمزة هاشم، والأخير من أهالي المدينة، أيقظتهم جميعاً وكنت أسحب الغطاء بعنف من فوق من يتلكأ منهم في القيام.

كانت الشمس ساعتئذ قد خطت خطواتها الأولى في الأفق، وهنا ما كاد ينظر كل منهم لوجه الآخر حتى أصيبوا بنوبة هيستيرية، ممزوجة بالانزعاج والضحكات البلهاء، ثم اتفق رأي الجميع أن هذا بفضل النبق الذي تغذينا منه طيلة أربعة أيام.

اقتراحي ينفذه الجندي النجراني أخيراً:

كان الجندي هادي سالم النجراني، كما سبق أن ذكرت، فاره الجسم مفتول العضلات، بديناً في غير إفراط، مستدير الوجه، كان منظر وجهه مضحكاً للغاية، لأن أنفه وعينيه كادت أن تختفي، نتيجةً لانتفاخ خديه، وبقية أجزاء وجهه، وقف واجماً يحوقل، فاغتنمت الفرصة، للتشفِّي منه، والسخرية مذكِّراً إياه بأن قبورنا ستكون هنا لا محالة، وما نشاهد من أعراض على أجسامنا سيتضاعف ويتضاعف إلى أن تكون النهاية.

أردفت قائلاً: لقد طلبت منك مراراً القيام بإسعافنا بالذهاب إلى (لوقة) أو العودة إلى (لينة) سيراً على الأقدام، وأفهمتك بأنني مستعد لتنفيذ كل طلباتك، ولو كنت فعلت لكنا الآن في (لوقة)، ولَمَا حلَّ بنا ما حل الآن، على كلٍّ منا أن يحفر قبره.

كان الجميع يتضاحكون بشيء من المرارة والألم، بل والخوف، أما هادي فقد ظلَّ كما ذكرت يحوقل، ثم ظل صامتاً مكتئباً، مرت دقائق على

هذا المشهد، وإذا به يفاجئني قائلاً: أنا مستعد الآن للذهاب إلى (لوقة)، ولكن بشرط، قلت له: اطلب، أجاب بقوله: أولاً أعطني مائتي ريال نقداً، مضافاً إليها فروتك التي تلبسها الآن والشال الصوف والشراب الصوف الذي تلبسه، نفَّذت جميع طلباته في الحال، وعلى الفور لبس الفروة، وكانت ثمينة جداً، وغادرنا في الحال واضعاً بندقيته على كتفه متجهاً جهة الغرب باتجاه لوقة.

«صحيح إنَّ البحر مالح، ولكنَّ العطش قَتَّال»:

أمضينا ذاك اليوم على أن نجتنب أكل النبق، مضى النهار بطوله لم يتناول أي منا حبة واحدة منه، ولكن ما كاد يخيِّم علينا ظلام الليل ونحس بوطأة الجوع الناشئة عن البرد، حتى قررنا أن نأكل منه، وليفعل الله ما يشاء، وفعلاً تَمَّ ذلك، وامتلأت منا البطون، وعدنا إلى تبادل النكت والطرائف وكأن شيئاً لم يحدث، ثم أخذ الجميع كل يأوي إلى فراشه، بعد أن أخذت معدته من النبق ما أخذت.

وما هي إلا دقائق أو أكثر حتى أخذ الجميع يغطون في نومهم، ثم لحقت بهم كذلك فأخذت قسطاً من النوم، ولكن في الهزيع الأخير من الليل استيقظت على حين غرة، وحاولت العودة إلى الفراش، ولكن الأرق حال بيني وبين النوم ونتيجة لشدة البرد فقد اضطجعت على فراشي، وتدثرت بالأغطية، أملاً أن يزورني النعاس، ولكن لا فائدة.

الفَرَج بعد الكرب:

كنت يقظاً فوق فراشي، وكان رأسي على المخدة، أخذت ألاحظ وأنا مفتح العينين ـ إذ أن وجهي لم يكن يحجبه الغطاء ـ أخذت ألاحظ ما بين فينة وأخرى بأن هناك في أقصى الأفق باتجاه الشرق وميضٌ من النور، يلوح لحظة في أجواء الفضاء ثم يختفي، ثم أخذ هذا الوميض يتكثف شيئاً فشيئاً، ثم أخذت أسمع أزيز صوت ماكينة بعيداً بعيداً، تارةً يعلو الصوت ويتضح، وأخرى يغيب ويتلاشى، ظللت أرقب هذا العارض بكل فضول وتلهف، وما

هي إلا مدة قد لا تبلغ النصف الساعة حتى أخذ الوميض في القرب إليَّ، وأصبح الحس صوت ماكينة لا شك فيه، ثم أعقب ذلك أن أبصرت أن هناك سيارة قادمة من الشرق، تقترب منا رويداً رويداً لأنها تسير على خط سيرنا نفسه.

وصلت السيارة إلى موقعنا، ثم تبعتها السيارات الأخرى وإذا هي جميعاً سياراتنا التي سبق أن خلفناها منذ أسابيع، على طرف الخط السلطاني بعد خروجنا من (لينة)، وهي التي تركناها اضطراراً آنذاك لعدم إمكان إخراجها من مكان تغريزها بفعل الأمطار.

كان الإخوان قد استيقظوا فجأة نتيجةً لصوت السيارات السبع ونتيجةً لأصوات سائقيها: هؤلاء جماعتنا هؤلاء جماعتنا هؤلاء جماعتنا، ولا تسأل عن مقدار بهجتنا واغتباطنا بوصولهم إلينا، فيكفي أن يكون في ذلك أن نسخنا من عقولنا فكرة حفر قبورنا في ذلك المكان.

كنا نعانقهم واحداً واحداً فرحين، ولكنهم صعقوا لرؤيتنا إذ شاهدوا ما اعترانا من انتفاخ أجسامنا، وخاصة الوجوه، وقد شرحنا لهم الأسباب وشاهدوا أكوام النبق في جانب الخيمة، وقد أخذ كل مهم كمية من هذا النبق.

سحب سيارتنا:

اتجهوا إلى سيارتنا المعطَّلة، فسحبوها بواسطة إحدى السيارات التي ربطت خلفها بالحبال، وقمنا جميعاً بدفع السيارة من الخلف، حتى استطاعت سحبها بعيداً عن مكانها التي غرَّزت فيه.

هناك شرع السائقون بتنظيف ماكينة سيارتنا، مما علق بها من وحل وطين، نتيجةً لتوالي الأمطار عليها، وقد استطاعوا أن يشغِّلوها، وكان ذلك وقت العصر من ذلك اليوم، فرأيت أن نقضي الليلة في ذلك المكان ونتناول وجبة طعام من تمر وخبز، مما أحضروه معهم، يعوضنا عن النبق على أن نواصل سيرنا في صباح اليوم التالي بمشيئة الله، وتمَّ ذلك بعد صلاة الفجر

من اليوم التالي، وبعد أن تناولنا الفطور، كميةً من التمور، واصلنا سيرنا على الخط باتجاه (لوقة)، وبعد أن قطعنا مسافة نحو ثلاثين كيلومتراً، إذا بزميلنا هادي يسير أمامنا على الخط، فأخذناه معنا، وكانت مائتي الريال والفروة والشال والشراب الصوف، هدية باردة جاءته هبةً من الله فمن غير المعقول استردادها منه.

حط الرحال في دار محمد الطيب:

وصلنا (لوقة) مع غروب شمس ذلك اليوم، وقد قطعنا ما يقرب من مائة وخمسين كيلو، بين توقف وسير لرداءة الطريق.

كان أمير مركز (لوقة) آنذاك المرحوم محمد بن عرفج، كما كان كاتب الأمارة المرحوم سالم بن الشيخ، وابن عرفج من أهالي ضرما، وابن الشيخ من أهالي حائل، أما مدير اللاسلكي فقد كان أحد مواليد مدينة سُرَابايا بأندونوسيا، ويدعى إدريس كلنتن، وحضر للحجاز طفلاً، وتربى في مكة المكرمة، ودرس، وكان يتميز بخطه الممتاز، الذي كان أشبه بالدر، أما مدير الجمرك فقد كان أحد أبناء حضرموت ويدعى محمد الطيب، كان رجلاً سمح الخلق كريماً، فاره الطول، تحتل النكتة الحيز الأكبر من حديثه.

كان يسكن في بيت من الطين، ذي حوش واسع، وغرف متعددة، أقامه لنفسه لسكناه وعائلته. كان هذا البيت ذا حجرات متعددة، كان يقع على بعد ثلاثين متراً تقريباً من الجنوب الشرقي من قصر (لوقة) على مرتفع من الأرض.

لم يكن في القصر أماكن تؤوينا، وكان الأخ محمد الطيب قد أوضح لنا بأن بيته فيه من الغرف ما يتسع لإيوائنا، فشكرناه على ذلك، ووافقناه على طلبه، مقدِّرين له صنعه شاكرين معروفه.

كان عشاؤنا في تلك الليلة في ضيافة الأمير الأخ محمد بن عرفج، وهو رجل مشهور بالكرم، على ذبيحتين، تحملهما صينيتان ممتلئتان بالأرز،

أكلنا بكل ما نملك من شهوة ونهم، ويكفي أن تعلم أننا لم نذق طعم اللحم منذ أكثر من شهر تقريباً، وقد أوجدت حبات النبق في بطوننا حفراً وأخاديد، ولذلك لا أبالغ إذا قلت: إننا لم نبق من تلك الذبيحتين سوى العظام، ونتفاً قليلة من اللحم.

شكرنا الأمير، ثم ودعناه بعد أن تناولنا الشاي والقهوة، يرافقنا الصديق مدير الجمرك محمد الطيب إلى داره، كنا جميعاً أشبه بمخدرين، يكاد الواحد منا يغلبه النعاس، نتطلع إلى النوم لنأخذ قسطاً من الراحة. وضعت فرشنا داخل الحجر كل غرفة بما تستوعب، ثم أويت إلى فراشي في غرفة خاصة عند مدير الجمرك، وكنت أودعتُ عنده النقود المتبقية معي، ثم أويت إلى فراشي مستأذناً منه، وكذلك رفاقي الآخرون قد أووا إلى فرشهم.

تبدُّل جلودنا بعد الطعام الدسم:

ما كاد ينتصف ليل تلك الليلة حتى أخذنا نستيقظ الواحد تلو الآخر، نشكو من أوجاع في البطن، ومن صداع في الرأس، ومن ارتفاع بالحرارة، لم تكن هناك أي وسائل للعلاج، أو أي نوع من الأدوية، اللهم إلا بعض حبيبات من الاسبرين، التي كان الأخ محمد الطيب يحتفظ بها، ثم أعقب ذلك إسهال شديد لكل فرد منا، يكاد أن يخرج أمعاءه، ثم أعقب ذلك هبوط في الحرارة، ونوم عميق فلم نفق إلا في صبيحة اليوم الثاني، وقد كان صباحاً مفزعاً بدون شك إذ اتضح لنا جميعاً بدون استثناء، أن جلودنا السابقة قد سلخت منا، وظهرت مكانها جلود حمراء تمثِّل البرص بأعمق أشكاله، ثم أعقب ذلك انحطاط في القوى، وعزوف عن الأكل، فلم يكن لدى أيٍّ منا أي رغبة في تناول أي شيء من الغذاء، وإنما كنا نحس بالرغبة الملحة بملازمة الفراش، وقد ظلت هذه الحالة معنا نحو عشرين يوماً.

كان الأخ محمد الطيب وأسرته هم الطبيب المداوي لنا جميعاً، وكان طبهم يتمثل في حبوب الاسبرين، أو سائل من الشربة.

وفود الطبيب ثم تماثلنا للشفاء:

خلال تلك الفترة كان مدير عام ماليات وجمارك الأحساء المرحوم زكي عمر قد بلغه خبر انقطاعنا في الطريق بواسطة أمراء المراكز، ومن الأخ أمير (لوقة) محمد بن عرفج حينما أبرق له بوصولنا، وعلى الفور اهتم زكي عمر بالأمر، غاية الاهتمام، وأرسل على الفور أحد الأطباء من مستشفى أرامكو في الدمام، مزوداً بكميات من الأدوية، ومعدات الإسعاف.

وبالفعل فقد وصل إلينا طبيب هندي، يعمل موظفاً في مستشفى أرامكو، وقد أعطانا العلاجات اللازمة، فظلَّ مقيماً عندنا نحو أسبوع تقريباً، كنا خلالها قد ابتدأنا نتماثل للشفاء، ونعود إلى حياتنا الطبيعة، ثم غادَرَنا عائداً إلى أرامكو، بينما شرعنا نواصل إكمال مهمتنا.

إتمامي لمهمات عملي:

ظللنا نحو عشرة أيام في (لوقة)، بعد مغادرة الطبيب، ثم اتجهنا إلى (الدويد)، الذي يبعد عن لوقة نحو تسعين كيلومتراً، باتجاه الشمال الغربي. أتممتُ هذه المهمة وهي توزيع الرواتب، وتغيير الموظفين، وذلك وفق الخطة التي رُسمت لي، ثم عُدت إلى قرية مقر عملي الجديد، على الخط نفسه، الذي قَدِمت منه، استمر عملي شهرياً على هذا النحو، أي بالقيام بجولات في نهاية كل شهر، تبدأ من واحد في الشهر الجديد، وتنتهي في حدود اليوم السابع أو الثامن حسب طبيعة العمل.

❋ ❋ ❋

نقل يوسف الخلاوي إلى الرياض:

كانت (قرية) ـ وهي كما ذكرت تقع على خط الكويت الرياض ـ الإدارة الرئيسة لمراكز الحدود هذه، أعني الحفر وأم رضمة ولينة ولوقة والدويد. كانت الإدارة وإن كانت تمثل جهتين مختلفتين هما إدارة المالية من جهة، وإدارة الجمارك من جهة أخرى، إلا أنَّ هاتين الإدارتين تعملان

ضمن إدارة واحدة تحمل اسم (مفتشية الحدود)، في بادىء الأمر حتى عام ١٣٦٣هـ، وكان آنذاك يرأسها يوسف خلاوي، تحت اسم مفتش الحدود، وكان ارتباطه مباشرة بزكي عمر، ثم نُقِل إلى الرياض، وعين مكانه الأخ أحمد قاسم فتني، وهو الزميل الذي قدم معي من الحجاز، حين غادرناها لأول مرة عام ١٣٥٧هـ، وعمل معي محاسباً بجمرك (أم رضمة)، حينما بدأت العمل بها في محرم عام ١٣٥٩هـ، فقد تم نقله إلى (الحفر)، بينما عين مكانه في جمرك (أم رضمة) المدعو محمد نور نظمي، من أهالي مكة.

نيابة جمارك الحدود:

عندما نقل الخلاوي إلى الرياض كان أحمد قاسم يعمل محاسباً في المفتشية التي يرأسها الخلاوي، وهنا أُبدِل مسمى الإدارة باسم (نيابة جمارك الحدود) بدلاً من اسمها السابق (مفتشية الحدود)، وأسندت أعمالها إلى الأخ أحمد قاسم، وكان يعمل معه في القسم المالي في هذه الإدارة الأخ عبدالله الجبر، وعبدالله الطامي، وعبدالعزيز المرشدي، وأحمد شعبان، الأول محاسباً، وهو من أهل الأحساء، والثاني أميناً للصندوق، وهو من أهل الجبيل، على ما أظن، والثالث مسجلاً للواردات والصادرات وهو من أهل حائل، والرابع أحمد شعبان يعمل مساعداً لأحمد قاسم، وفي الوقت نفسه ممسكاً بدفتر التصنيف ودفتر السلف، وهو من أهل الوجه، وكان يعمل سابقاً في مالية القريات. وكانت هذه الإدارة تقع في مبنى مستقل في وسط حوش قصر قرية، مكوناً من عدة غرف، كل غرفة يشغلها فرع خاص من أجهزة الإدارة.

فصل جهاز الجمارك عن جهاز المالية:

ظلّ الحال مستمراً على هذا النحو حتى نهاية رجب عام ١٣٦٤هـ، وبطبيعة الحال، فإنني كنت مرؤوساً لأحمد قاسم، بحكم عملي في هذا التاريخ أعني نهاية رجب ١٣٦٤هـ، إلى أن نُحِيَ المرحوم زكي عمر عن

عمله وتم فصل جهاز الجمارك عن جهاز الماليات، وجعل لكل جهاز إدارة مستقلة عن الأخرى: الأولى باسم مدير مالية الأحساء، وأسندت أعمالها إلى المرحوم صالح إسلام، والثانية باسم أمانة جمارك الأحساء وتوابعها وأسندت أعمالها إلى المرحوم أحمد بك لاري، حيث سبق أن حلَّ محله في وظيفته ممثل الحكومة لدى أرامكو، وهي الوظيفة التي كان يشغلها منذ قدومنا معه في ٢١/٧/ ١٣٥٧هـ عند وصولنا للظهران، وقد عُيِّن مكانه المرحوم عبدالله البراهيم الفضل.

إسناد إدارة الجمارك إلى إبراهيم الحسون:

عيِّن أحمد بك لاري مديراً عاماً لجمارك الأحساء، وعلى إثر ذلك صدر الأمر من كل من صالح إسلام وأحمد لاري إلى نيابة الجمارك في قرية، بأن تفصل الإدارة إلى إدارتين مستقلتين، أسندت إدارة الجمارك إلى إبراهيم الحسون، وأسندت الإدارة المالية إلى شخص أرسل من القطيف، يدعى قاسم عيوني، وظلَّ في منصبه هذا إلى عام ١٣٦٥هـ عندما انتدب مكانه الأخ عبدالله العمير، من أهالي القصيم.

سير العمل في إدارة الجمرك:

سار العمل كالآتي: الإدارة المالية تقوم باستقبال إيرادات المراكز الجمركية عن طريق إدارة نيابة الجمارك، التي أصبحت الإدارة الجمركية تحمل اسمها هذا، وكذلك تقوم باستقبال مسيرات موظفي أجهزة الدولة الموجودة على امتداد مراكز الحدود. كانت تقوم أيضاً بتحويل ما قد يتوفر لديها من نقود إلى مالية الأحساء أو إلى مالية الرياض، حسب ما يستلزمه الحال.

ونظراً لأنَّ إدارة جمرك (الحفر)، من حيث وفرة الإيراد الشهري، تأتي بالدرجة الثانية مباشرة بعد إدارة جمرك (قرية)، ونظراً لبعد المسافة ما بين مركز وآخر من هذه المراكز: فقد اقتضت المصلحة بأن تقوم إدارة جمرك الحفر، في نهاية كل شهر، باستقبال مُسَيَّرات رواتب جميع موظفي مركز أم

رضمة ومركز لينة ومركز لوقة ومركز الدويد، بمعنى أنَّ جميع الموظفين الموجودين في هذه المراكز سواء كانوا موظفي جمارك أو لاسلكي أو أمارة أو جنوداً هؤلاء جميعاً ترسل مُسَيَّرات رواتبهم في نهاية كل شهر إلى إدارة جمرك الحفر، فتقوم هذه الإدارة بصرف تلك الرواتب من صندوقها، وتعتبر هذه المسيَّرات بمثابة نقد تبعثها إلى نيابة الجمارك في (قرية)، التي تقوم بدورها بتسليمها إلى مالية (قرية)، ضمن ما تسلَّمُه من نقود، باعتبار أنَّ هذه المسيرات هي مبالغ نقدية، يتحتم على إدارة المالية أن تقابل نيابة الجمارك بإيصالات استلام بواردات المراكز الجمركية، بما فيها (قرية)، التي تقدم لتلك الإدارة في نهاية كل شهر، بموجب بيانات تنظمها نيابة الجمارك، وقد يحدث في بعض الشهور أن لا تفي إدارة جمرك الحفر بتسديد تلك المسيرات، وهنا يطلب مدير جمرك (الحفر) برقياً من إدارة نيابة الجمارك في (قرية) بأنه في حاجة إلى مبلغ كذا من النقود، لكي يستطيع تسديد مبالغ المسيرات الشهرية، وحينذاك تقوم نيابة الجمارك بالطلب من مالية (قرية) بتزويدها بالمبلغ المطلوب نقداً، فتقوم نيابة الجمارك باستلام هذا المبلغ من المالية وبعثه من قبلها إلى إدارة جمرك (الحفر)، ليغطي النفقات المطلوبة منها.

وكان هذا المبلغ النقدي يثبت قيده في صندوق جمرك (الحفر)، ويقطع به إيصال مستقل، تحت اسم الوارد نقداً من مالية (قرية) عن طريق نيابة الجمارك، وقد يتعدد الطلب في الشهر الواحد، وعادةً ما يتراوح مبلغ كل طلبية ما بين ثلاثين إلى أربعين ألف ريال فضة فأكثر.

الإيرادات الشهرية:

في نهاية كل شهر تنظم المراكز الجمركية بيانات بإيراداتها الشهرية توضح فيها أنواعها ومقاديرها وجهات توريدها. ترفع هذه البيانات لنيابة الجمارك، التي تقوم بدورها بإثباتها لديها في سجلات، خاصة كل مركز على حدة، ثم تنظم نيابة الجمارك هذه خلاصة لهذه البيانات، وترسل نسخة منها إلى أمانة الجمارك في الدمام، وترسل النسخة الأخرى إلى مالية (قرية)

لكي يتم تعويض الجمارك عن هذه الإيرادات بإيصالات استلام من مالية (قرية)، تبعث هذه الإيصالات من قبل نيابة الجمارك إلى كل مركز من هذه المراكز بما يخص وارداته، وذلك بعد إثبات تسديد واردات ذلك المركز في السجل الخاص لدى نيابة الجمارك.

كان الجهاز الذي يعمل في أمانة الجمارك يتكون من أحمد حمدي، وقد سبق ذكر اسمه مديراً لجمرك (لوقة)، ثم نقل إلى (قرية) كمحاسب لنيابة الجمارك، وسعود الخنيني كاتب تحرير، وهو من أهل عنيزة، وكان جميل الخط إلى حدٍّ يثير الإعجاب، فضلاً عن السرعة الفائقة في الكتابة. لم تكن آنذاك آلات كاتبة لدى الدوائر كما هو الحال اليوم، وإنما كان التحرير يتم بكتابة اليد، كانت الأوامر والتعليمات تَرِد من أمانة الجمارك في الأحساء أسبوعياً بما لا يقل عن عشرين تعميماً فأكثر، وهذه كلها يتوجب نسخها لتعميمها لكل مركز، وهو عمل شاق مضنٍ، ولكن كان هذا الموظف يقوم به على أكمل وجه.

كان هناك عبداللطيف الجبر وهو من أهالي الأحساء، وكان يعمل سكرتيراً خاصاً لي، وكانت مميزاته الكتابية لا تقل عن مميزات سعود الخنيني، إلا أن الأخير كان أجود خطاً، كان عبداللطيف هذا يقوم بتسجيل الصادر والوارد، واستقبال البرقيات، وتعقيب المعاملات، ومرافقتي في جولاتي التفتيشية على مراكز الحدود، التي كنت أقوم بها في أوقات متفاوتة مفاجئة.

كانت الحرب في تلك الأيام عام ١٣٦٤هـ قد أوشكت على الانتهاء، وكانت الحكومة السعودية قد أوجدت، في جميع المراكز الجمركية الخمسة، أماكن لتموين الموظفين باحتياجاتهم من المواد الغذائية، كالأرز والطحين والسكر والشاهي والهيل والقهوة.

وكانت قد أصدرت تعليمات في مستهل الحرب أي في عام ١٣٥٩هـ، هذه التعليمات حددت الكمية الواجب صرفها شهرياً لكل شخص من موظفي الدولة الموجودين في هذه المراكز، تُصرف له في نهاية كل شهر، من قبل موظف الجمرك في ذلك المركز، كما شرحنا ذلك فيما سبق.

حادثة اختلاس:

في أواخر عام ١٣٦٥هـ كان الأخ علي خُجا يعمل محاسباً في جمرك (قرية)، ثم رُفِّع إلى مدير الإدارة نفسها نظراً لكفاءته. كنت أنيبه بدلاً عني عندما أغادر (قرية) في جولاتي التفتيشية المفاجئة على المراكز.

كنا في شهر ذي الحجة من ذلك العام، وكانت إدارة جمرك (الحفر) كما ذكرنا سابقاً برئاسة المرحوم أحمد الجابر، ويعمل معه محاسباً المرحوم عباس أمين بديوي شحاتة من أهل الوجه، ويعمل عبدالله الغنام من أهالي الأحساء أميناً لصندوق الجمرك.

لم تكن هناك مستشفيات أو مستوصفات صحية في جميع مراكز الحدود، وكان من يمرض في أحد هذه المراكز يذهب إذا كان مستطيعاً إلى الكويت للعلاج.

في اليوم الثاني من شهر ذي الحجة عام ١٣٦٥هـ طلب مني مدير الجمرك في برقية مشفَّرة السماح له برخصة أسبوع، لكي يذهب بزوجته التي تعسَّرت ولادتها لمعالجتها في الكويت، موضِّحاً أنَّ المحاسب عباس أمين بديوي شحاتة سيقوم بعمله، فأجبته بالموافقة.

ويبدو أنَّ زوجته قد اضطرت للبقاء في مستشفى الكويت طيلة ذلك الشهر، وقد تعذَّر عليه مرافقتها، والعودة إلى عمله. وكان قد كتب لي خطاباً مع إحدى السيارات القادمة من الكويت، يشرح لي أسباب تأخره عن العودة. بعد أسبوع من سفره إلى الكويت أصاب فجأة أمين الصندوق عبدالله الغنام برضٌ مفاجيء غشَّى على عينيه، فتعذرت عليه الرؤية، أبرق لي المحاسب عباس بالموضوع مستعجلاً، وأفادني بأنه سيقوم بتأمين عمله، وفعلاً أبرقت له فوراً بأن يتوجه إلى الكويت مع أول سيارة.

أصبح عباس أمين بديوي يقوم بعمل المدير والمحاسب وأمين الصندوق، كانت واردات (الحفر) في ذلك الشهر محدودة جداً، فلم تزد عن عشرين ألف ريال، وقد أبرقت هذه الإدارة لنيابة الجمارك في (قرية) أربع برقيات على فترات متعاقبة، تطلب فيها مبالغ نقدية لكي تغذي

صندوقها حتى يتمكن من تغطية صرفيات رواتب المراكز كما هو متبع شخصياً، وكنت عندما أتلقى برقية الطلب أسحب، في الحال من مالية (قرية) بموجب خطاب رسمي، المبلغ المطلوب، أرسله فوراً إلى جمرك (الحفر)، مرفقاً بخطاب مني يوضح مقدار المبلغ المرسل، واسم السائق، ونوع السيارة، ورقم لوحتها.

كان مجموع الطلبيات التي أرسلت متفرقة خلال ذلك الشهر، وهي أربع طلبيات، بلغ مجموعها مائة وعشرين ألف ريال. كانت العادة المتبعة، في جميع المراكز الجمركية هذه، أنه في اليوم الأخير من كل شهر يتم إغلاق قيد الصندوق في كل إدارة، ومن ثم تنظم برقية توضح مقدار الورادات في ذلك الشهر وأنواعها ومصادرها، ترسل هذه البرقية إلى نيابة الجمارك في (قرية)، وبطبيعة الحال، فإنَّ جمرك (الحفر) بالذات، لأنه وحده الذي يرد لصندوقه مبالغ نقدية خارجة عن وارداته الشهرية، وهي المبالغ التي ترسل إليه من قبل نيابة الجمارك، حسب طلبه، كما أوضحنا آنفاً، وعلى ذلك فإن البرقية التي ترفع منه في نهاية كل شهر توضح فيها أنواع الواردات ومقاديرها ومسمياتها، ثم تذكر المبالغ النقدية الواردة إليه من مالية (قرية)، عن طريق نيابة الجمارك، تذكر هذه المبالغ النقدية بصورة إجمالية.

كانت هذه البرقيات، أعني برقيات الواردات، في المراكز في نهاية كل شهر ترفع إلى نيابة الجمارك في (قرية)، وفي نهاية شهر ذي الحجة من ذلك العام ١٣٦٥هـ قررت بأن أقوم بجولة على المراكز، للتأكد من إقفال القيود لديها والبدء في استعمال سجلات جديدة للعام الجديد، مع التأكد من صحة موجودات المستودعات في كل مركز، والتي يتم تدويرها من شهر لآخر، ومن عام لآخر، كما هي العادة عكس موجودات الصناديق التي تقفل في نهاية كل عام، وترسل موجوداتها إلى مالية (قرية)، عن طريق نيابة الجمارك.

كان وصولي لجمرك (الحفر) في اليوم التاسع والعشرين من الشهر أي شهر الحجة، وقد استلزمت طبيعة العمل أن أبقى في جمرك (الحفر) يومين

آخرين أي يوم ثلاثين من ذلك الشهر واليوم الأول من محرم عام ١٣٦٦هـ.

كانت قيودات (الحفر) قد أقفلت، وأخذت إدارة الجمرك في تنظيم برقية الواردات الشهرية، التي تبعث عادة إلى نيابة الجمارك في نهاية كل شهر، فقد عمَّدتُ القائم بعمل إدارة الجمرك عباس أمين بديوي، كما ذكرت سابقاً، بإعطائي صورة من تلك البرقية.

كنت خلال الأيام الثلاثة أقيم في بيت صهري عبدالله خليف الباني، الذي كنتِ قد اقترنت بابنته (أم البنين) قبل ذلك الشهر بخمسة شهور، أي في شهر رجب ١٣٦٥هـ وقد حدثني صهري، ليلة وصولي، بملاحظة عابرة أبداها حول محاسب جمرك (الحفر) عباس أمين بديوي شحاتة، مفادها أنه لاحظ عليه في الأيام العشرة الأخيرة من ذلك الشهر تغيراً مفاجئاً في مسلكه، وفي مظهر ملابسه، ماثلاً ذلك في شرائه للعديد من قطع الزل الإيراني الثمين، وارتدائه ملابس جديدة، ومشلحاً جديداً، وشرائه لكمية من الأغنام، مُتْبعاً ذلك، بأنَّ عباس هذا كان عادي المظهر متواضع الملبس، حياته دون المتوسط، بل كان مديناً لكثير من أصحاب الدكاكين، سددها لهم خلال هذا الأسبوع.

كان صهري يحدثني بهذه الملاحظات، وكنت أستمع إليها، وأحسُّ بموجات من علامات الاستفهام تملأ صدري وتفكيري، عن ماهية مدلول هذه الملاحظات، فثارت في نفسي شتى الظنون والتأويلات، خاصةً أنه لم تصلني منه بعد صورة البرقية، التي سبق أن أمرته بأن يسلمها لي هنا من برقية وارداته إلى نيابة الجمارك.

كنت قبل سماعي لهذه الملاحظات عاقداً العزم على أن أغادر (الحفر) في الصباح الباكر، مواصلاً سفري إلى المراكز الأخرى، بيد أني نتيجة لما سمعت قررت البقاء، لكي أستجلي حقيقة الخبر، فما كادت الشمس تشرق حتى بعثت عبداللطيف الجبر مرافقي بأن يذهب إلى الجمرك، ويأخذ بخط يده صورة من برقية الواردات التي أرسلها جمرك (الحفر) لنيابة الجمارك في (قرية).

بعد ساعة تقريباً عاد بصورة البرقية. عندما قرأتها وقع نظري على المبلغ النقدي المرسل لجمرك (الحفر) خلال ذلك الشهر، وظهر لي لأول وهلة أن المبلغ أقل بكثير حسب تصوري الذهني من المجموع الكلي من المبالغ المرسلة له.

وهنا أبرقت بالشفرة إلى القائم بعملي في قرية مدير جمركها علي خُجا بأن يصعد إلى مكتبي وسيجد في الدرج الأيمن منه ملفاً يحمل اسم المبالغ النقدية المرسلة إلى جمرك (الحفر)، خلال شهر ذي الحجة من ذلك العام، وأن عليه أن يضع بياناً من واقع هذا الملف، يوضح عدد الدفعات ومقدار مبلغ كل دفعة ورقم الخطاب وتاريخه المرفق بهذه الدفعة واسم السائق الذي حملها معه للحفر ورقم السيارة، ومن ثم يضع ذلك كله في برقية مشفَّرة يبعثها لي في الحال.

ظللت أنتظر ذلك النهار على أحر من الجمر، وقد أوحيت إلى من حولي من الموظفين وغيرهم، أن تأخري عن مواصلة السفر للمراكز كما هو معروف لديهم، كان بسبب عطل لحق بالسيارة أنتظر قطعة غيار لإصلاحها، سترد من (قرية) على سيارة مستعجلة.

في حوالي صلاة العصر من ذلك اليوم حضر إليَّ مراسل لاسلكي (الحفر)، الذي يقوم بتوزيع البرقيات، ويدعى بكر خِيمي - وهو من أهل المدينة - ومعه برقية استلمتها، وبادرت بحل رموزها في الحال، فاتضح أنَّ مجموع الدفعات هي أربع، وأنَّ مجموعها مائة وعشرون ألف ريال، بينما صورة البرقية التي أحضرها عبداللطيف الجبر كانت تحتوي على ستين ألف ريال فقط.

ما بيني وبين أمير الحفر:

كان الوقت مساء، خارج وقت الدوام، وحرصت على تكتم الموضوع، والتعتيم عليه بحكمة وحذر.

ومضت تلك الليلة، ليلة الثاني من شهر محرم ١٣٦٦هـ، وكأنها عام

من الزمن، كانت الأفكار والهواجس تسدُّ عليَّ منافذ حسي، خاصةً أنني أنا المسؤول عن وقوع هذه الكارثة، فقد سمحت لمدير الجمرك بأن يتغيَّب عن عمله، ثم سمحت لأمين الصندوق بأن يتغيَّب أيضاً، ثم وافقت بأن يقوم المحاسب بعمل الاثنين معاً، إضافة إلى عمله، إذاً أنا المدان الأول في هذه القضية فيما لو تسرَّبت أخبارها، أو عُلِم بها.

مواجهة المختلِس:

في صباح ذلك اليوم أسرعتُ إلى إدارة الجمرك، وكانت تقع داخل القصر، وكان الوقت بعد شروق الشمس بنحو ساعة. كان الحارس زايد الحازمي واقفاً أمام باب الجمرك، انتظاراً لحضور الموظفين لكي يفتح لهم الباب، ويباشروا أعمالهم، فأمرته بفتح الإدارة، وكان هناك فسحة من الوقت قبل حضور الموظفين لا تقل عن ساعتين، ثم كتبت معه قصاصة من الورق باسم عباس أمين بديوي أشعرته بأنني الآن في الإدارة، وأنني أطلب فوراً حضوره إليَّ الآن، وكان بيت عباس هذا بيتاً متواضعاً من الطين، مثله مثل بقية بيوت (الحفر).

ما كاد يغادرني الحارس حتى أسرعت إلى دولاب المخابرات في الجمرك، أبحث عن ملف المخابرات المتبادلة بينه وبين نيابة الجمارك في (قرية). ولحسن الحظ وجدتها لأول وهلة، وإذا بي أجد ضمنها خطاباتي الرسمية الموجهة لمدير جمرك (الحفر)، مرفقاً بها بيان تلك الدفع الأربع. أخرجتُها من الملف، واحتفظت بها لديَّ، ومن المضحك أنني قد وجدت على كل من هذه الخطابات الأربع توجيهات بخط عباس أمين هذا وبتوقيعه نصها كالآتي: إلى المحاسب ثم إلى الصندوق لتسجيل المبالغ كالمتَّبع. التوقيع عباس أمين.

بعد نحو ربع ساعة تقريباً عاد إليَّ الحارس قائلاً لي: إن عباس لن يحضر الآن لأنه لم يحن وقت الدوام بعد، وإنه سيحضر للجمرك متى ابتدأ الدوام.

ضبطت أعصابي، وكظمت غيظي، وبعثت له ورقة أخرى مضمونها

بأنه لا بد من حضورك الآن لأمر ضروري على غاية من الأهمية ولا علاقة له بالدوام الرسمي. بعد نحو ربع ساعة أخرى عاد إليَّ الحارس قائلاً لي: بأن عباس أفاده بأنه لن يحضر، وأنَّ عليَّ أن أنتظره حتى يحين وقت الدوام، وأنه لا سلطة لي عليه بصفتي رئيساً للجمارك إلا ضمن الدوام الرسمي.

هنا انفجر بركان غيظي، فكتبت له ورقة ثالثة نصها: إذا لم تحضر الآن فوراً فسأبعث لك بجنود يسوقونك سوقاً، وفعلاً بعد ربع ساعة حضر، وهو يتميَّز من الغيظ، ويكاد الشرُّ يتطاير من عينيه.

كنت جالساً على مكتبه وأمرت الحارس بأن يحضر له كرسياً ليجلس عليه في مقابلتي، ثم أمرت الحارس بأن يخرج ويغلق علينا الباب. كان الأخ عباس يتمتم بكلمات حانقة وعبارات غضبي، وكنت أتجاهل ذلك منه، وعلى الفور طلبت منه أن يحضر أوراقاً بيضاء ثم قلت له: اكتب ما أملي عليك: واحد الخطاب رقم كذا وتاريخ كذا أرسل لكم مع السائق فلان على السيارة رقم كذا وبرفقته كذا من النقود، ثم الكتاب الثاني فالثالث فالرابع، وقد لاحظت بمجرد أن طلبت منه كتابة الخطاب الأول، أنَّ يده أخذت ترتعش، وأخذ كيانه يهتز، وأخذ يتطامن ويتضاءل، وتفارقه تلك العنجهية والغرور، لتحل مكانها سحابة من الذل والانكسار، طلبت منه أن يجمع المبالغ الأربعة، فإذا بها مائة وعشرين ألف ريال، وكنت حينما أمرت بكتابة الخطابات أبرز له كل خطاب منها، وعليها توقيعه إثباتاً بأنها وصلت إليه، وتسلمها.

سألته: كم أصبح المبلغ الإجمالي؟ أجاب: مائة وعشرون ألف ريال، وهنا عرضت عليه البرقية الصادرة تحت توقيعه الموجَّهة لنيابة الجمارك في (قرية)، وسألته: كم المبلغ النقدي الموجود في هذه البرقية؟ أجاب متلعثماً لا تكاد الحروف تخرج من فمه متوازنة بقوله: ستون ألف ريال، هنا كانت الصورة واضحة بالنسبة له وبالنسبة لي أيضاً، وبقي الحسم السريع للموقف.

هنا طلبت منه أن يحرِّر بخط يده، بأنَّ عنده وفي ذمَّته في صندوق جمرك (الحفر) مبلغ ستين ألف ريال، وأنه سيسددها خلال أربعة وعشرين ساعة فقط، أوضحت له أنه إذا لم يفعل ذلك فسأستدعي الشرطة الآن ليودعوه السجن، ولكني أفضِّل بأن يتم إسدال الستار على الموضوع بحيث لا يشعر به أحد (خاصة أمير المركز).

كان أمامي والعرق يصبُّ من جبينه، وكأنه على مقربة من فرن. كتب السند ووقعه، واحتفظتُ به بعد أن أوضحت له بأنني سأنتظره غداً في هذا المكان نفسه ومعه المبلغ، وأنَّ عليه أن يكتم الخبر، لأنَّ أقل إشارة تشي به أو تنبىء عنه سيكون مصيره السجن. غادرنا معاً أنا وإياه مبنى إدارة الجمرك، ولم يعلم أيُّ مخلوق بما تمَّ، وفي مساء ذلك اليوم كان قد أنزل إلى سوق (الحفر) جميع المشتروات التي سبق أن اشتراها منذ أسابيع بما فيها مشلحه الجديد الذي سبق وأن اشتراه، وقد لاحظ صهري ذلك، فأخذ يحدثني عنه في تلك الليلة، ويستفسر عن السبب الذي أجبر عباس على بيع أشيائه ولكني أجبته بأن لا علم لي بذلك.

في صباح اليوم الثاني وفي الموعد المحدد كنت أنتظره في إدارة الجمرك وإذا به يحضر إليَّ ومعه اثنان من البدو أنسابه، كلٌّ منهم يحمل كيساً من النقود أخفاه داخل مشلحه، ما كدت أراهم مقبلين حتى أمرت الحارس بأن يغادر الجمرك، آخذاً منه المفتاح، موضحاً له بأنني سأبقى في الإدارة ريثما يحين وقت حضور الموظفين.

حالَ دخولِهم الإدارة أغلقتُ الباب من الداخل، ووضعوا الأكياس الثلاثة التي بها النقود أمامي على المكتب، ثم أخذنا نعدها، فإذا هي خمسون ألف ريال فضة أي بنقص عشرة آلاف ريال، وهنا أخذ عباس يستعطفني باكياً بأنه قد باع حتى فراش نومه، وأنه يرجو مني أن أمهله بالباقي ريثما يتمكن من جمعه خلال أسبوع بالاقتراض من معارفه وأصدقائه.

وكان مفتاح الصندوق داخل الإدارة بعهدته، فأمرته بفتح الصندوق

وإيداع هذا المبلغ في داخله ثم صرفت الرجلين اللذين قدما معه، ويبدو أنهما لم يكن لديهما أيُّ خلفية عن هذا الموضوع.

حلُّ العقدة الثانية:

انتهت العقبة الأولى وذلك باستحصال الجزء الأكبر من المبلغ المفقود وبقيت العقبة الأخرى، وهي لا تقل عن الأولى خطورةً إن لم تفقها، ذلك أن السجلات الرسمية في صندوق إدارة جمرك (الحفر) قد سبق أن أغلقت في نهاية اليوم الأخير من الشهر، وجرى توقيع الموظفين على هذه القيود إشعاراً بقفلها. كذلك إيصالات الصندوق الرسمية التي تسجَّل عليها المبالغ التي يتم إيداعها في الصندوق يومياً، والتي تحمل أرقاماً متسلسلة، قد شُرح على أرومة الإيصال الأخير الذي تم عليه إيداع آخر مبلغ للصندوق في نهاية آخر يوم من الشهر، وجرى التوقيع عليه من قبل الموظفين المختصين، أسوة بدفتر الصندوق وببقية الدفاتر الأخرى المرتبطة به كدفتر التصنيف ودفتر السلف.

هنا برزت المشكلة: القيود الرسمية قد أُغلقت رسمياً، وجرى التوقيع عليها، والمبلغ المثبت وارد للصندوق من (قرية) خلال الشهر وقطعت فيه إيصالات رسمية هي ستون ألف ريال، والمشكلة هنا تكمن في كيفية تسجيل المبلغ الباقي الذي لم يسبق إدخاله في سجلات الصندوق والذي تمَّ استرجاعه، كما أوضحنا آنفاً لأنَّ أي تغيير في هذه السجلات فيما لو اكتشف الموضوع، فسيكون إدانة قاطعة للمختلسين، وبطبيعة الحال فسوف أكون أنا المسؤول الأول عن ذلك.

سحبت دفتر الصندوق ومجلد إيصالات سندات الاستلام، وذهبت إلى دار صهري، كنت في دوامة عاصفة حول التفكير في حل هذه المشكلة، بحثاً عن العثور على وسيلة تمكنني من إعادة تنظيم هذه السجلات بطريقة تخفي ما وقع، وتسدل الستار عليه، بحيث لا يدركها إلا من تكن له خلفية مسبقة عن الموضوع.

استعرضت شتى الطرق، ومختلف الأوجه، فلم أجد وسيلةً تحقق لي ذلك إلا أن أتذرع بالشجاعة وأتحمل المسؤولية كاملة تحت توقيعي.

وبصفتي رئيساً لجمارك الحدود، ومن ضمنهم جمرك (الحفر) هذا، فقد استدعيت المحاسب عباس هذا إلى بيت صهري، وهنا أمرته بأن يفتح في دفتر الصندوق صفحتين جديدتين يسجل فيهما مفردات واردات شهر ذي الحجة عام ١٣٦٥ من أول يوم فيه حتى نهاية آخر يوم، ثم أمرته بأن يقطع إيصالاً رسمياً لكل دفعة من الدفع الثلاث، التي أسقط تسجيلها في القيد السابق، يقطع لكل دفعة ومقدارها عشرون ألف ريال إيصالاً مستقلاً، يشير في ظهره إلى رقم وتاريخ الخطاب الواردة برفقة تلك الدفعة، بحيث تكون إيرادات الشهر المذكور قد سجلت كاملة كما يجب، وذلك بعد أن شرحت بخط يدي في قيد الصندوق السابق الملغى وتحت توقيعات الموظفين المسؤولين عبارة هذا نصها:

بمراجعتي لمفردات واردات صندوق جمرك (الحفر) لشهر ذي الحجة عام ١٣٦٥هـ، اتضح لي أن هناك خطأً غير مقصود في التسجيل، ماثلاً بسقوط ثلاث دفعات نقدية واردة من (قرية)، سقطت بطريق السهو، لذا فقد استلزم الأمر إلغاء هذا القيد وإعادة قيده من جديد، بعد أن تم إثبات الدفعات الثلاث ضمن القيد على الإيصالات الثلاث: رقم وتاريخ، ورقم وتاريخ، ورقم وتاريخ، ثم وقعت على هذا الشرح، وكذلك فعلت بالنسبة للسجلات الأخرى المتعلقة بالموضوع نفسه بعد أن تم ذلك، وقد استغرق من الوقت ما يقرب خمس ساعات.

كنا معاً أنا وعباس، في بيت صهري، فأمرته بالذهاب إلى بيته، وفي المساء - أي خارج وقت الدوام - اصطحبت دفتر الصندوق ومجلّد إيصالات الاستلام ودفتري التصنيف والسلف، جميعاً معي فوضعتها على مكتب مدير الجمرك داخل الإدارة، وذلك بعد أن عمدته بأن يحضر بعد صلاة المغرب مباشرة إلى إدارة الجمرك وينظم برقية الواردات يرسلها برقياً إلى (قرية) بعد أن يسحب برقيته الأولى من إدارة اللاسلكي وفعلاً تم ذلك.

إهالة التراب على الشائعات:

كان اليوم الثالث من شهر محرم ١٣٦٦هـ هو اليوم المحدد لسفري.

لمواصلة التفتيش على بقية المراكز الجمركية على الحدود، بيد أني رأيت في آخر لحظة أن من الحكمة والصواب أن أنتظر ذلك اليوم كله في (الحفر)، لأتحسس الأثر الذي تركه بيع موجودات عباس في السوق، بعد أن كان قد اشتراها منذ أيام معدودات. أتحسس معرفة ما يقوله الناس عن ذلك، خاصةً وأنَّ جمهور (الحفر) محدودٌ من حيث العدد، لا تتجاوز الدكاكين الموجودة في سوقه ثلاثين دكاناً تقريباً.

كنت متخوفاً أن تتسرب أخبار هذه المعضلة، فيستغلها الأمير، ويطلب هيئة تحقيق، وقد علمت من صهري في نهاية ذلك اليوم أن هناك تساؤلات عديدة يهمس بها بعض الأفراد إلى بعض، مفادها أنَّ عباس لا بد أن يكون جرى له حدث حيث انقلبت حياته فجأة، بعد أن كان يمشي في سوق (الحفر) متباهياً كالطاووس، وبعد أن كان منذ أسابيع ينفق الكثير على شراء السجاد الثمين وأدوات الرفاهية، إذا به ينزل إلى السوق جميع ما سبق أن ابتاعه، وإذا به اليوم يسير منكس الرأس، كاسف البال، وقد تصورت أن هذا التساؤل والهمس ربما ينمو ويتضاعف، ويؤدي إلى ما لا تحمد عقباه.

كانت الأنظمة آنذاك تمنح رئيس جمارك الحدود صلاحية التعيين المباشر، وصلاحية إجراء التنقلات بين موظفي الجمارك، دون الرجوع إلى أمين الجمارك في الدمام، أو وزارة المالية في الحجاز، وكانت مرتبة محاسب (الحفر) مساوية في الراتب لمدير جمرك الدويد، وراتب كل من الوظيفتين هو مائة وثمانون ريالاً، فقررت لكي أُحكِم إغلاق الستار، وأقضي على التساؤلات، أن أبعد عباس أمين بديوي، بنقله من (الحفر) فوراً، واصطحبته معي في اليوم الرابع، وغادرنا (الحفر) فجر ذلك اليوم متجهين إلى مراكز الحدود.

بوصولي إلى (الدويد) أصدرت قراراً بنقل عباس من محاسب لجمرك (الحفر) لمدير لجمرك (الدويد)، ونقل مدير جمرك (الدويد) محاسباً لجمرك (الحفر).

كان مدير جمرك (الدويد) آنذاك، أي عام ١٣٦٥هـ عبدالعزيز حامد حمد الله، وقد تمَّ نقله إلى محاسب جمرك (الحفر)، بدلاً من عباس أمين بديوي شحاته، وقد ساعد على ذلك أنَّ راتب كلتا الوظيفتين أي وظيفة مدير جمرك الدويد ووظيفة محاسب جمرك (الحفر): هو مبلغ مائة وثمانين ريالاً لكلٍّ منهما، إضافةً إلى ذلك أنَّ الصلاحيات التي كنت أتمتع بها آنذاك وكلٌّ من هو في مثل وظيفتي التي أشغلها تخوله إصدار القرارات بالتعيين أو بالنقل.

كان صدى هذا الإجراء أشبه بماء أفرغ على نار كانت في بدء اشتعالها فأخمدتها، وقُضي عليها، إذ أخذ الناس يتداولون في أحاديثهم عن ترفيع عباس أمين من موظف في إدارة محاسباً إلى رئيس إدارة مستقلة (مدير).

العودة إلى الحَفْر:

أنهيت المهمة، ثم عدت إلى (الحفر)، بعد أن كنت قد حررت سنداً على نفسي باستلامي من صندوق جمرك (الحفر) مبلغ عشرة آلاف ريال سلفةً عليَّ أسددها لمالية (قرية) عند عودتي، تسديداً من إيرادات جمرك (الحفر) لشهر ذي الحجة عام ١٣٦٥هـ، وعمَّدت المدير الذي كان قد عاد آنذاك من الكويت وهو الأخ أحمد الجابر، بأن يعتبر قيمة هذا السند كنقد ضمن موجود الصندوق النقدي المتبقي من إيراد شهر ذي الحجة عام ١٣٦٥ لكي يبعثه إلى نيابة الجمارك في (قرية)، ضمن البيانات والجداول التي ترفق عادةً في نهاية كل شهر، وبذا أصبح الوضع في سجلات قيد صندوق الجمرك سليمة لا غبار عليها.

كيف تمَّ تسديد بقية المبلغ المطلوب من المحاسب:

عدتُ إلى (قرية)، وقد بعثت خطاباً سرياً لمديرَي الجمارك في كل من الحفر وأم رضمة ولينة ولوقة والدويد، مضمونُه أنَّ أحد زملائهم في جمارك الحدود (دون أن أذكر اسمه) قد أصيب بنكبة مفاجئة خارجة عن إرادته أفقدته كل ما يملك، وأنَّ المطلوب من الجميع أن يمدوا له يد العون

والمساعدة، كلٌّ حسب استطاعته، موضّحاً لهم في الوقت نفسه أنَّ قيمة ما فقده نتيجةً لهذه النكبة قد لا تقل عن عشرة آلاف ريال، طالباً من هؤلاء الموظفين أن تكون تبرعاتهم لزميلهم هذا ترسل إلى نيابة الجمارك في (قرية) بواسطة مدير الجمرك الذي يعملون فيه.

ولقد كان هؤلاء الموظفون من الشهامة والأريحية والنخوة أكبر من مستوى الظن بهم، فقد كانت حصيلة ما تبرعوا به في حدود سبعة آلاف ريال بموجب بيانات إفرادية احتفظت بها في مكتبي السري، بإدارة نيابة الجمارك في (قرية)، وبالتالي فقد توجب عليَّ تسديد المبلغ الباقي مساهمة مني في الموضوع، وعلى ذلك تم تغطية مبلغ العشرة آلاف، التي كانت في ذمة عباس أمين بديوي.



مديرٌ ضعيف الخبرة:

في حوالي الشهر الثالث من عام ١٣٦٥هـ نقل مدير مالية (قرية) الأخ قاسم العيوني ـ الذي مرَّ ذكره ـ واستعيض عنه بالأخ الصديق عبدالله العمير، وهو حيٌّ يرزق الآن في جدة، وقد كان قبل ذلك موظفاً في جهاز اللاسلكي، بوظيفة مأمور مخابرة، استلم العمل من قاسم عيوني، ويبدو أنَّ العمل المالي وتعليماته وسجلاته كانت بالنسبة إليه شيئاً مستجداً لم يسبق له أن زاوله، كان رجلاً هادىء الطبع، متأنياً في سلوكه، ولكن كانت نقطة الضعف فيه هو أن معلوماته كما ذكرت بالنسبة للعمل في الحقل المالي يصل إلى نسبة متدنية جداً، مما نتج عنه أن تمكّن موظفوه من التمرُّد على توجيهاته وأوامره، فانعكست الآية، وكاد أن يكون هو موجَّهاً وموظفوه هم الموجِّهون، وقد أوجد لي هذا الوضع مشكلة أخذت تتضاعف، وتتعقَّد شهراً بعد شهر، كنت مسؤولاً عن استلام إيرادات هذه المراكز وتسليمها لإدارة مالية (قرية)، ومطالبة مالية (قرية) بفحص البيانات التي يقدمها برفق هذه المبالغ، للتأكد من صحتها، ثم مقابلتي بإيصالات استلام رسمية من

صندوق هذه المالية، كل مركز بإيصال استلام مستقل، لكي أقوم بدوري بتسديد سجلات نيابة الجمارك، بحسب هذه الإيصالات، ثم أقوم بعد ذلك ببعثها إلى الجمارك كل جمرك بإيصال استلام وارداته، لكي يقوم بتسديد القيد لديه بموجب هذا الإيصال.

كان المفروض أن لا تزيد مدة المراجعة والتدقيق التي يقدمها في نهاية كل شهر مع الإيرادات النقدية لمالية (قرية) عن عشرة أيام، على الأكثر، ولكن الذي حدث أنَّ هذه الإيرادات أخذت تتراكم، وتمضي عدة شهور دون أن نعوض عنها، مما نتج عنه أن تجمَّدت مبالغ طائلة للجمارك لدى مالية (قرية) دون أن تسدَّد هذه الإيرادات.

كنت أعقِّب أسبوعياً بخطابات رسمية، الواحد منها يؤكد سابقه، بمعدل خطابين في الأسبوع على الأقل، أُلِحُّ فيها جميعاً على وجوب سرعة التعويض، مبيناً في الوقت نفسه، لمدير المالية بقرية عبدالله العمير تفصيلاً بالمبالغ التي لم تعوَّض بعد، وكنت مع ذلك أقابله شخصياً، ولكنه يقابلني بالتعلل بأنها لا زالت تحت المراجعة، أو الاعتذار بأن المحاسب المسؤول مريض، أو أي عذر آخر يبرر به موقفه، ولكن بما أنه شخصياً عاجز عن القيام بأيِّ عمل مالي، لجهله بالقيود المالية، لم يستطع تقديم سوى الوعود فقط، مما اضطرني في النهاية أن أشكوه رسمياً إلى رئيسه المرحوم صالح إسلام بطريقة رسمية عن طريق البرق، طالباً منه التأكيد على مالية (قرية) بتعويضنا عن وارداتنا، عن جميع المبالغ المتجمِّدة، التي سبق إرسالها إليها من الجمارك، وأن تكون مدة التدقيق والمراجعة مستقبلاً في حدود فترة لا تزيد عن خمسة أيام من تسليمنا لإيراداتنا لمالية (قرية) في نهاية كل شهر، وقد أبرق صالح إسلام عدة برقيات لمدير مالية (قرية)، تؤكد عليه سرعة التعويض، ولكن بدون جدوى.

وخلال ذلك عَلِمتُ أنَّ الأخ عبدالله العمير هو عديلٌ للمرحوم صالح إسلام، ولما اتَّضح لي أنَّ برقية صالح إسلام لم يكن لها أي تأثير على تحريك الموضوع وإنهائه، فاضطررت بأن أطلب رسمياً من مالية الأحساء

بأن تنتدب من قبلها خبيراً مالياً للحضور إلى (قرية)، وتولي إنهاء المشكلة بيني وبين عبدالله العمير، فلم يسع تلك الإدارة إلا أن تستجيب فبَعَثَت إلينا في (قرية) الخبير السوري المدعو حسني الركبي، الذي مكث في (قرية)، وفي مراكز الحدود الجمركية أكثر من ثمانية أشهر، رفع خلالها تقارير دورية كلها تؤيد صحة ما ندَّعيه، وتثبت بصورة جلية عجز مُدِير المالية.

وخلال ذلك طلب مني صالح إسلام، رئيس مالية الأحساء، أن أوجِّه مخابراتي مع مالية (قرية) إلى رئاسة أموال الأحساء في الدمام رأساً لتتولَّى هي التعقيب مع مالية (قرية)، وواضح من هذا الإجراء أنَّ صالح إسلام أراد من ذلك تفادي الإحراج الذي يوجهه إليه أمين الجمارك أحمد بك لاري، نتيجةً لما كان يتلقاه مني من صور اتصالاتي الرسمية مع مالية (قرية)، وأصبحت علاقتي مع رئيس أموال الأحساء صالح إسلام مباشرة فيما يتعلق بإيرادات الجمارك وتسديدها.

ويبدو أنَّ هناك مفاهمات شخصية قد تمَّت بين أحمد بك لاري وصالح إسلام، مبنية على رغبة أبداها صالح إسلام، ومفادها أن يكون هناك ما يشبه فض الاشتباك بيني وبين الأخ عبدالله العمير، خاصةً، وقد صدر الأمر بإبدال مسمَّى وظيفتي إلى نائب أمين الجمارك، وزيد راتبي بنحو مائتي ريال.

كانت المفاهمة تقضي بإنشاء إدارة تكون مقراً لنائب أمين الجمارك داخل قصر (الحفر)، تلقيت أمراً من أحمد بك لاري أمين الجمارك بوجوب ذهابي إلى (الحفر)، والبحث داخل القصر عن مكان مناسب تنشأ عليه أربع غرف مع منافعها مقراً لإدارة أمانة جمارك الحدود.

توجهت على الفور ـ وقد صادف ذلك هوىً في نفسي أيضاً ـ إلى (الحفر) مغادراً (قرية)، وخلال أربعة شهور تقريباً كانت تلك الإدارة قد تمَّ إنشاؤها، وتمَّ ترحيل المكاتب والسجلات من (قرية) إلى هذه الإدارة، وأصبح مقر عملي اعتباراً من نهاية شهر رجب عام ١٣٦٦هـ في (الحفر).

سيارة لوري لتنقلاتي التفتيشية:

من الواضح أنَّ الودَّ كان مفقوداً بيني وبين الأخ عبدالله العمير ليس بسبب أمور شخصية، وإنما لأمور رسمية، أنا حريص على أن أعقب أعمالي، وأسدد إيرادات الجمارك التابعة لي بكل جهد ممكن، وهو قد يكون كذلك حريصاً على هذا الأمر، ولكنَّ ضعفه الناتج عن العجز لا يمكِّنه من ذلك، فهو يرجع إلى الحيل والمراوغَة في كتاباته الرسمية.

في نهاية ذلك العام، وأخاله في شهر شوال عام ١٣٦٦، كانت وزارة المالية بناءً على طلب أمين الجمارك في الأحساء أحمد بك لاري، قد أرسلت إليَّ في (حفر) الباطن سيارة لوري فورد، وأخالها موديل ١٩٤٦م وهي جديدة، أن تكون هذه السيارة، ومعها سائقها إسحاق الهندي، تابعة لأمانة الجمارك، لتنقلاتي وجولاتي التفتيشية التي أقوم بها ما بين فينة وأخرى، على جمارك الحدود، بدءاً من جمرك (قرية) وانتهاءً بجمرك (الدويد).

ضربة معلِّم من عبدالله العمير:

كان يوم وصول هذه السيارة، لي ولموظفي الإدارة معي، نصراً ذا شأن، فمالية (قرية) لا تملك مثل هذه السيارة. كنا ننظر إليها وكأنها طائرة كونكورد. بعد أربعة شهور تقريباً من وصول هذه السيارة كان المرحوم الملك عبدالعزيز آنذاك ـ قد أقعده المرض عن المشي، وأصبح يسير على كرسي ذي عجلات ـ موجوداً في الأحساء مخيماً على عين نجم العين المشهورة في الأحساء، التي ينبعث ماؤها حاراً أشبه بعين الحمة في سوريا، وقد وُصِفت لجلالته موضعاً للاستشفاء بماء تلك العين.

كانت مالية (قرية) في ذلك الوقت مسؤولة عن جلب براميل المحروقات من مركز السفانية، الموجود على ساحل الخليج الغربي، ويبعد حوالي تسعين كيلومتراً باتجاه الشمال الشرقي عن مدينة (قرية)، وتجميعها في (قرية)، لكي ترد إليها سيارات الدوريات لتأخذ حاجتها من هذه

البراميل، وهنا اغتنم الأخ عبدالله العمير الفرصة، فأبرق للملك عبدالعزيز رحمة الله عليه بأنَّ السيارتين اللتين لديه لا تكفيان لنقل المحروقات من السفانية لقرية، وأنَّ لدى أمين الجمارك في (الحفر) سيارة جديدة لا عمل لها. وكانت هذه ضربة معلم من الأخ عبدالله، فتلقيت أمراً برقياً من الملك عبدالعزيز، يأمرني بتسليم السيارة إلى مالية (قرية)، وكانت صدمة بالنسبة لي بيد أنه لم يكن هناك مفر من تلبية الأمر، فأرسلتها إلى الأخ عبدالله في (قرية)، ومعها موظف لكي يقوم بتسليمها له مع أدواتها وكفراتها بسند استلام رسمي.

كان أحمد بك لاري في تلك الأثناء قد نُقِل من أمانة جمارك الأحساء، وعُيِّن مكانه المدعو إسحاق نوَّاب، وهو هندي الأصل من مواليد الحجاز، مكث في أمانة جمارك الأحساء مدة لا تقل عن سنتين، ثم ترك وظائف الدولة وعاد إلى الحجاز، وفتح محلاً تجارياً لبيع معروضات سوق الحراج في جدة، ثم مخلصاً لبضائع التجار التي ترد عن طريق جمرك جدة، وقد شاهدته بعد عودتي لاحقاً إلى الحجاز عام ١٣٧٠هـ.

رُبَّ ضارة نافعة:

عندما علمت بتعيين إسحاق نواب هذا أميناً للجمارك، وبأنه أصبح رئيسي المباشر، رأيت أنَّ من اللياقة الذهاب إلى الدمام لمقابلته والتعرُّف عليه، إذ لم أكن أعرفه من قبل، ولم أسمع عن اسمه إطلاقاً.

كانت إدارة الجمارك آنذاك في الدمام فيها الكثير من الموظفين الكبار، الذين كانت تربطني بهم صداقة قديمة، كالأخ طه ضليمي، والأخ يوسف العوضي، وهو بالمناسبة أستاذي في مدرسة الفلاح، طيلة سني دراستي فيها.

لحسن الحظ أنه في يوم وصولي وصلت أربع سيارات جيوب ويلز، صغيرة جديدة، مرسلة من وزارة المالية، لأمانة جمارك الأحساء، وهنا أشار عليَّ هؤلاء الإخوان بأن من حقي أن أطلب واحدة منها، فقدَّمت طلباً

رسمياً لأمين الجمارك الجديد إسحاق نوَّاب، موضحاً له حاجتي الماسة إلى هذه السيارة لأنَّ السيارة اللوري التي سبق أن أُمِّنَتْ لي من قِبلَ وزارة المالية تمَّ تسليمها لمالية قرية بأمر ملكي، وقد تمَّت الموافقة بمنحي أحد هذه الجيوب الجديدة بكلِّ سهولة ويسر.

مكثت يومين في الدمام، اصطحبت معي الكثير من الدفاتر والسجلات والمجلدات الخاصة بأعمال الجمارك، برفقة سكرتيري الأخ عبداللطيف الجبر. بعد ذلك عدنا إلى (الحفر) وتعمدت أن يكون طريقي مروراً بقرية، فالتقيت بالمرحوم الشيخ محمد العطيشان أمير (قرية)، بقصد السلام عليه، فقد كانت علاقتي معه رحمة الله عليه على أكمل ما تكون من الود والصفاء والاحترام المتبادل، كان الوقت ضحى عندما دخلت القصر، وأوقفت سيارة الجيب، أمام مكتب الإمارة، الذي يبعد نحو ثلاثة أمتار عن مدخل إدارة مالية (قرية).

كان وجود الجيب غريباً، لأنَّ هذا النوع من السيارات لم يكن قد عرف أو انتشر، ولذلك توافد الموظفون لرؤيته، وأثناء ذلك حضر الصديق عبدالله العمير فتساءل: لمن يكون هذا الجيب؟ كان من ضمن الوقوف أمام الجيب، كما فهمت فيما بعد من المرحوم عودة الدليقان، وهو يعمل مفتشاً على السيارات في جمرك (قرية)، أجابه عودة: ربما يكون مرسل لكم من المالية، بعد دقائق معدودة نزلت من مكتب الإمارة، وذهبت إلى إدارة الجمرك مسلِّماً على موظفيها فرداً فرداً، ويبدو أنَّ الأخ عبدالله العمير فهم أنَّ هذه السيارة تابعة لي، ولذلك فما كدت أعود للسيارة، وكانت كما ذكرت أمام باب المالية إلا وهو يصافحني ويقول: مبروك. فأجبته بأن هذه حسنة من حسناته، ثم ودَّعته وانصرفت.

واصلت رحلتي إلى (الحفر)، وكما يقول المثل: رُبَّ ضارة نافعة، فقد كان الأمر بتسليم السيارة اللوري لمالية (قرية) قد أثَّر في نفسي في وقته، ولكن الحصول على هذا الجيب كان في مصلحتي بدون شك، لأنه على الأقل نظراً لخفته وصغر حجمه يمكنني من التجوال عليه خارج وقت العمل لملاحقة جمائل الصيد، ولم أكن مبالغاً إذا قلت: إنه لا يمضي

أسبوع دون أن نصطاد ظبيين على الأقل، نظراً لتكاثر جمائل الظباء وقتذاك، وخاصةً النوع المعروف (بالْعِفْري)، وهي أجمل الظباء منظراً، وألذُّها طعماً.

لمحة عن زواجي من أم البنين:

حين كنت أقوم بعمل مدير جمرك (الحفر) كما مرَّ سابقاً، عندما استلزم الأمر تنحية مديره، تمهيداً للتفتيش على سجلاته، وذلك في رمضان عام ١٣٦٣هـ كانت علاقتي بأمير الحفر آنذاك المرحوم صالح بن عبدالواحد جيدة، فكان يصطحبني معه في تجولاته خارج وقت الدوام إلى القنص والصيد، وخاصة صيد الحباري بواسطة الصقور التي كان يصطحبها معه.

وفي إحدىٰ المرات، في خلوة كنا جالسين على أحد الكثبان الرملية، سألني فجأة: لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ وكانت لديه خلفية وافية عن الفاجعة التي أصبتُ بها، بفقد زوجتي الأولى، أجبته بأنني قد قررت أن لا أتزوَّج مرة أخرى، إلا إذا عدت إلى الحجاز، وهنا قاطعني قائلاً: إن هذا رأي غير سديد، إنك موظف حكومي، وطالما أنت في الخدمة فلست تملك تحديد المكان الذي تستقر فيه، ثم أردف قائلاً: ومع ذلك فما هو المبرِّر لاختيارك لأن تكون زوجتك من الحجاز بالذات؟ أجبته بأنني قد ألفت الحياة في جدة، وعرفت الحياة الزوجية من حيث الصفات التي تتوفر في بنات المدن، وخاصةً في مدينةٍ كجدة، أجابني بقوله: ولكنك أخذت سلمى من البادية، وهي التي عاشت منذ ولادتها داخل بيوت الشعر متنقلة في الصحاري والبيداء من مكانٍ لآخر، ولم تطأ قدمها أرض مدينة قط، ومع ذلك فلن أسألك عن نظرتك إليها، وما ارتضيته منها، وما كرهته، ويكفي أن فقدها قد أوشك أن يفقدك عقلك.

أفحمتني حجته، وأسقطت من يدي قوة المجادلة، وهنا اغتنم الفرصة، فوجه إليَّ كلامه قائلاً: ما هو رأيك لو اخترت لك زوجة أكون أنا المسؤول عن مواصفاتها؟ أجبته: أي مواصفات تعني؟ أجاب من حيث الأرومة والأصل، والطباع العربية الأصيلة، قلت له: ومن تكون هذه؟ قال

لي: أولاً أأنت موافق؟ قلت: إذا كانت باختيارك، وعلى مسؤوليتك، فليس لدي مانع.

وهنا دلّني على شخصٍ يُدعى عبدالله الخليف الباني، يعمل جندياً ضمن جنود قصر الحفر، وهو ابن لخليف الباني، المعروف بأنه من أشهر أسر مدينة الرس بالقصيم، ولكن عيبه الوحيد ـ إذا كان هذا يسمى عيباً ـ ضعف حاله. ثم أردف قائلاً: أنت الآن موجود في الحفر، وفي وسعك أن تتحصل على جميع المعلومات المتعلّقة بهذا الرجل وأسرته، وأيضاً تتحصل على المعلومات المتعلقة بابنته المؤهلة للزواج، إذا رغبت في مصاهرته.

انتهى الحديث بيني وبين صالح العبدالواحد، وكأن الشريط بيني وبين أم البنين (أم يوسف)، شريط الحياة قد ابتدأ من فوق ذلك الكثيب.

أخذت أسأل، وأستقصي عن هذا الرجل، وأسرته، وعن صحة ما ادعاه ابن عبدالواحد من أن والده خليف الباني كان مرموقاً بارزاً في مدينة الرس، وقد أنجب ستة رجال كلهم يستحقون الإطراء، وهم أخوة عبدالله هذا وأسماؤهم: محمد وعبدالرحمن وناصر وعلي وسليمان، وكلهم أحياء مقيمون في الرياض ما عدا محمد الذي انتقل إلى جوار ربه، منذ عام في مدينة الحفر.

ظل هذا الموضوع مُستقراً في ذهني يعاودني التفكير فيه بين آونة وأخرى، فتارةً أهمله من تفكيري حينما أمنّي نفسي بسرعة العودة إلى الحجاز، وتارةً يأخذ التفكير فيه مأخذ الجد مني عندما أصرف نظري عن العودة إلى الحجاز، ظلَّ هذا الوضع حتى جمادى الأولى عام **١٣٦٥**هـ.

أخذت الفكرة تبرز في ذهني بشكل جاد ومتصل، وعلى ذلك تقدّمت لخطبتها من أبيها، وتمَّ ذلك بكل يسر وسهولة، وكانت كما يقول المثل: عين الخيرة، فقد وجدت فيها كما ذكر ابن عبدالواحد الصفات العربية الأصيلة التي تتميَّز بها بنات الحمايل، ورافقتني في مسيرة حياتي حتى اليوم، ولست أعرف من منا يسبق الآخر مغادراً هذه الحياة، ولكنَّ الذي أعرفه، وأؤكده، أنَّ حياتنا الزوجية كانت هانئة سليمة متناغمة، وإن كان

الحال لا يخلو في بعض الأوقات من ضباب خفيف يحدثه سوء الفهم، ولكنه لا يلبث حتى يتلاشى إلى غير رجعة.

رسالة من عمي علي الحسون:

في ذي الحجة عام ١٣٦٥ هـ، وردتني رسالة من سيدي العم الوقور المرحوم علي بن حسُّون ـ وهو أخو والدي من الأب ـ وصلتني الرسالة من عنيزة، حيث كان يقيم آنذاك، ومفادها شكواه إليَّ من الحال، وأنه يتطلع إلى مساعدتي، إذا كان في مقدوري أن أوفر له مجال عمل، خاصةً وأنه قد تلقى رسالة من البصرة من عميد بيت الذكران سليمان المحمد الذكير، مضمونها أنهم لا حاجة لهم في عودته إلى البصرة، نظراً لانتهاء عمله لديهم، وقد كان عمي يعمل كاتباً لديهم في البصرة مدةً لا تقل عن عشرة أعوام، كانت هذه الأسرة ـ وأعني أسرة الذكير ـ تمتلك من أشجار النخيل في البصرة ما لا يقل عن ربع النخيل الموجود فيها.

كان عمي يعمل لديهم باستمرار، ويزور أهله بعنيزة بين كل عامين مدة شهر واحد إجازةً. كان يجمع رواتبه خلال عمله، وينفقها خلال إجازته بعنيزة في حياةٍ من البذخ والرفاهية، بحيث لا يكاد يمضي عليه الشهر حتى يكون زيت سراجه قد أوشك على النفاد، فيسارع بالعودة إلى البصرة.

تلقيت رسالته تلك بكل إمعان واهتمام، فهو عمي وأقرب الناس إليَّ، وأحقهم بمساعدتي، فضلاً عن أنَّ له عليَّ يداً سابغة قد تفوق صلة القرابة من حيث الأهمية والقيمة المعنوية، وأعني بتلك اليد أو المكرمة أو الصنيعة، أو ما شئت سمِّها: أنه هو الذي حملني معه من عنيزة، حين كنت طفلاً في مستهل حياتي، واحتضنني، مضفياً عليَّ الكثير من الرعاية والعطف حتى أوصلني إلى الحجاز، وهيَّأ لي فرصة اللقاء بأخي الشقيق عبدالله لأول، مرة في حياتي، بعد أن غادر عنيزة، متوجهاً إلى الحجاز في وقت يصعب تحديده، لأنني كنت آنذاك في رحم الغيب، ربما قبل أن أولد بأربع أو خمس سنين، ما بين عام ١٣٢٤ـ ١٣٢٥، وقد سبق أن شرحت هذا

مفصلاً في مستهل هذه الخواطر، ويرجح أن عمره عندما وصل الحجاز كان في حدود ٨ ـ ٩ سنوات.

تعييني لعمي بوظيفة تناسبه:

في اليوم الثاني لوصول رسالة عمي علي، أبرقت له بأن يتوجه فوراً إلى (الحفر) عن طريق الرياض فقرية، وأنَّ عليه فور وصول قرية أن يراجع مدير الجمرك هناك، ليؤمن له وسيلةَ إيصاله إلى (الحفر)، وكنت أبرقت لمدير جمرك قرية بهذا الخصوص. بعد أسبوع تقريباً وصل إلى قرية، ثم وصل إليَّ في الحفر في اليوم الثاني، وكان ذلك في شهر ذي الحجة عام ١٣٦٥ هـ وقد أصدرت قراراً بتعيينه مساعداً لمأمور مستودع الأرزاق في الحفر براتب ثلاثمائة ريال.

ذكريات عن عمي المرحوم:

كان مسكنه معي في البيت، وقد سررت بمقدمه أيما سرور، وحرصت أشدَّ الحرص على أن أذكره دائماً وأبداً بأنه هو صاحب الفضل عليَّ. كنت أُقدِّمهُ أمامي أثناء العمل، وأحاول أن أسير خلفه إذا سرنا معاً في الطريق، مما نتج عنه أن أخذ الموظفون يحيطونه بالرعاية والاهتمام.

كان رحمة الله عليه رجلاً ربع القامة، كثير الصمت، جاداً في حديثه عندما يتحدث، أبغض ما يبغضه التلون أو الكذب أو النفاق.

كان مُتديناً صلباً في عقيدته وفي تعامله مع الغير، وفي آدائه لشعائر دينه، كان كثير التهجد في الهزيع الأخير من الليل.

كان البيت الذي أسكنه عبارة عن بيتين منفصلين: أحدهما يتكوَّن من قهوة وحوش وحجرتين معاً، بمنافعها، والبيت الآخر مجاور له، يفصلهما جدار من الطين، بارتفاع نحو متر ونصف تقريباً، وفي هذا الجدار فتحة ينفذ منها من بيت لآخر، وكنت أسكن في البيت الآخر، بينما عمي يسكن

في البيت المجاور، وهو دائماً يفضل الجلوس في القهوة في المحكمة عند المعاميل، يزوره الكثير من معارفه العنيزيين المقيمين في الحفر تجاراً وأصحاب دكاكين، مثل البعيجاني وأبو عليوي والقناص، وغيرهم كثيرون، كانوا دائماً في الصباح بعد صلاة الفجر وكذا بعد صلاة الظهر وأيضاً بعد صلاة العشاء، يتوافدون إليه، يتجاذبون الحديث، لفترة لا تقل عن الساعتين، وكانت تبدو عليه معالم السرور، لأنه المضيف لهم، كنت كثيراً من الأوقات عندما أحسُّ بالأرق أدخل إلى هذا البيت من تلك الفتحة، على أمل أن أحمى دلة القهوة وعادةً تكون مليئة، فأجده ساجداً بين يدي الله، فأحترم مشاعره، وأرجع من حيث أتيت، مفضلاً أن يظل مغموراً في ظلال تلك الحالة الروحية، التي انقطع فيها ليبقى بين يدي الله.

كان ـ رحمة الله عليه ـ يمثل الفطرة السليمة بأصدق وأبهى وأجمل صورها، مع الكثير من السذاجة الفطرية، التي تسمح للنفس بالانطلاق على سجيتها، دون مواربة أو التواء، ولعلَّ من الطرائف المفيدة والمضحكة في الوقت نفسه أن أذكر بعض الحوادث البسيطة، التي تصوِّر شخصيته ـ رحمة الله عليه ـ على طبيعتها الساذجة.

كنت أنا وأهل بيتي والخادمَين الموجودَين في البيت وابن أختي محمد الهزاع بالنسبة له نمثل الجنود المطيعين لرغبته، المنفذين لإرادته بكل صرامة وشدة، وكان هو يجد في نفسه زهواً محبباً، إذ يحس وهو يصدر الأوامر إلى أيٍّ منا، فيجدها تنفذ على الفور بشيء من النشوة والاستعلاء، كنت أقتني مجموعة من الدجاج، استوردتها من مدينة البصرة، وهو نوع متميز في ضخامة جسمه، وكبر حجم بيضه، كان الحوش فيه كميات من الشجر اليابس الحطب، وهو من شجر الأرطأ أو من شجر الرمث نؤمنه لأجل الطبخ والتدفئة إذ إن جو (الحفر) في أيام الشتاء تبلغ البرودة فيها حداً لا يحتمل، كان الكثير من هذه الدجاج يبيض يومياً، وعادةً الدجاجة عندما تكون في طريقها إلى وضع بيضها تحدث أصواتاً متلاحقة ومتكررة، تظل مستمرة عليها حتى تتم وضع البيضة منها.

كانت عادته بعد صلاة الفجر أن يأوي إلى فراشه، لمدة ساعة تقريباً يسميها (الصفرة). وعندما يسمع صوت الدجاجة يتابعها في الحوش وهي تنتقل بين أكوام الحطب من مكان إلى آخر ريثما تستقر في مكان تضع فيه بيضتها، يلاحقها بيقظة وانتباه حتى تضع البيضة فيأخذها ويدخلها إلى الدار، ويحدث أن تذهب هذه الدجاجة إلى البيت الآخر من خلال الفتحة الموجودة في الجدار بين البيتين، وهناك ينادي على زوجتي أو على أحد الموجودين في البيت طالباً منهم أن يتابعوا الدجاجة وإحضار بيضتها.

حفلة الزواج:

كنت ألمحت سابقاً إلى موضوع زواجي من أم البنين والدة الابن يوسف، وكيف تمَّ ذلك الزواج ومقدماته، بيد أني لم أذكر شيئاً عن الصورة التي تمَّ فيها هذا الزواج، وإعطاء لمحة موجزة عن حفلة الزواج، والتي هي بدون شك تمثل المرآة الصادقة عن الحياة الاجتماعية في ذلك الوقت، عام ١٣٦٥ هـ، ولأنَّه من الأهمية بمكان أن تحتضن هذه الخواطر بعضاً من معالم الحياة الاجتماعية لتعطي الصورة الواقعية عن ذلك الزمان لمن يقرأ هذه الخواطر، مهما امتد به البعد الزمني.

إجراءات الزواج:

تمت إجراءات الزواج، من حيث الطلب والقبول، والخطوات المتبع اتخاذها في مثل هذه المناسبة، بيسر وسهولة، تم العقد على يد فضيلة قاضي الحفر (الحميدي بن رديعان) في مسجد الحفر.

كان حضورُ العقد والد الفتاة عبدالله بن خلف الباني وأنا، وابن القاضي عبدالرحمن الرديعان المدعو عبدالعزيز، وعلي المويس أحد أبناء مدينة (الرس)، والمقيم في مدينة (الحفر) آنذاك، وكان بيته ملاصقاً للبيت الذي سيقام فيه حفل الزواج. تم العقد في المسجد كما ذكرت بعد صلاة العشاء.

بيت الزوجية:

انتقلت ووالد الفتاة إلى البيت وهو عبارة عن حوش من الطين، تبلغ مساحته نحو ثلاثين متراً طولاً في مثلها عرضهاً. يحتضن داخله ثلاث غرف من الطين، إحداهما تبلغ مساحتها تقريباً ثلاثة أمتار في أربعة، وهي تلي باب المنزل مباشرة للداخل، وتعرف بالقهوة، أما الغرفتين الأخريين فتبلغ مساحة كل منهما نحو ثلاثة أمتار في مثلها تقريباً.

كان البناء من الطين بدائياً في التنسيق والشكل، وفي متانة البناء أيضاً، كانت إحدى هاتين الغرفتين هي عش العرس، كانت ليلة هادئة تمت ببساطة ويسر، لا طبول، ولا رقصات، ولا شيء من المظاهر المعتادة، كل ما في الأمر أنه في مساء اليوم الثاني أقيمت حفلة عشاء لموظفي الجمرك واللاسلكي وكُتَّاب الإمارة.

تكاليف الزواج:

كانت تكاليف الزواج بما فيها حفلة العشاء لا تزيد عن ألف ومائة ريال، من ضمنها أربعمائة ريال مهراً، وهي التي نُصَّ عليها في صلب العقد. وواضح أنَّ هذا الزواج هو النموذج المتبع بين الجمهور آنذاك. كانت الشدة والحرص والتقصي في موضوع الزواج تتركز وتنحصر في معرفة صفات الزوجين كل منهما للآخر قبل عقد الزواج، أما ما عداه فلا أهمية له.

صفة بلدة الحفر:

كانت بلدة الحفر تتألف من القصر الحكومي، الذي سبق أن ألمحنا عن ذكره حينما تعرضنا لبناء القصور الحكومية، التي أنشأتها الدولة في عام ١٣٥٨ هـ، في كل من قرية والحفر وأم رضمة ولينة ولوقة. كان قصر الحفر يحتضن داخله سكن الأمير صالح العبدالواحد وأسرته في جانب منه، كما يحتضن مركز اللاسلكي ومركز الجمرك والمستودعات ومساكن الخويا.

بئر الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري:

وفي الجانب الجنوبي الشرقي داخل هذا القصر توجد البئر التاريخية، التي قام بحفرها الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري، عندما كان والياً لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، إبان خلافته في أواسط العقد الثاني من القرن الأول الهجري.

كانت هذه البئر مشهورة بعذوبة الماء وغزارته، وظلت طيلة هذه القرون المتعاقبة صامدة تتحدى الأيام، وقد آلت هذه البئر التاريخية الجديرة بالعناية والجديرة بالمحافظة عليها وصيانتها لبعض كبار رجال الدولة، إبان الطفرة التي مرت على المملكة ما بين **١٣٩٥** حتى نهاية **١٤٠٦** تقريباً، فقد طلبوها من الدولة مِنَحاً لهم، وتم لهم ما أرادوا، فوزِّعت عليهم وطمرت البئر، وهدمت معالم القصر، وسويت بالأرض، وبنيت على أنقاضها الأسواق والدكاكين كما يشاهد اليوم.

بيوت الحفر:

على بعد نحو أربعين متراً من مبنى القصر، باتجاه الشمال الغربي، (وأنا أذكر هذا الوصف من عام **١٣٦٥هـ**) تقع بيوت الحفر، وهي لا تتجاوز فيما أعتقد العشرين بيتاً، كلها مبنية من الطين، بطرق بدائية، وكلها ذات طابق واحد، ولا أعتقد أن سكانها يتجاوز عددهم الثلاثمائة شخص بما فيهم أصحاب الدكاكين الذين توجد دكاكينهم مشرعة على ساحة فسيحة تقع شرق هذه البيوت.

التهريب ما بين الكويت والسعودية:

ومع ضآلة السكان، وقلة المساكن أيضاً، فإنَّ المقر كان ولا زال من أكبر الأسواق التجارية في شمال المملكة، إن لم يكن أكبرها، فقد كانت يومياً تعقد فيه صفقات البيع لأعداد من الماشية، لا تقل عن أربعة آلاف رأس من الضأن وبعض الإبل.

كانت هذه المواشي والأغنام تأتي من أماكن مختلفة متفرقة من داخل المملكة وخارجها. كانت نسبة ما يرد من خارج المملكة لا تقل عن ٨٠٪، مما يباع يومياً في سوق الحفر، كانت تأتي من بادية العراق الجنوبية ومن بادية الأردن ومن بادية سوريا.

في كل صباح كانت تلك الساحة تغص بالمئات من المواشي، فما يكاد ينتصف النهار حتى تُنقل تلك المواشي إلى عدة جهات داخل المملكة، على متون الشاحنات، إلى المنطقة الشرقية أو منطقة الرياض أو القصيم أو الحجاز، بينما يصدَّر إلى الكويت (عن طريق التهريب طبعاً) ما لا تقل نسبته عن ٣٠٪ مما يباع يومياً.

ورغم وجود دوريات سعودية على امتداد حدود المملكة مع الكويت، فإنَّ التهريب يتم يومياً أثناء الليل إلى الكويت بصفة مستمرة، إذ كانت الدولة تمنع تصدير المواشي خارج المملكة، ولكن رغم ذلك، فإنَّ التهريب مستمر.

كان طول المسافة التي تفصل ما بين الحدود السعودية والحدود الكويتية، تبلغ مائتين وثمانين كيلومتراً تقريباً، تبدأ من مركز الرقعي الواقع على نقطة الزاوية الشمالية الغربية التي تلتقي عليها الحدود السعودية الكويتية العراقية، وتتجه مستقيمة باتجاه الشرق حتى مركز الخفجي الواقع على مقربة من الساحل الغربي للخليج العربي، وواضح أنَّ هذه المساحة الشاسعة من الصعوبة بمكان السيطرة عليها، مما يتيح للمهربين التسلل في ظلام الليل، ومع ذلك فقد يحدث أن تلقي الدورية القبض على مجموعة من الأغنام المهربة، وكانت العادة أن تتراوح عدد المجموعة بين مائة وخمسين إلى مائتي رأس من الأغنام، تقبض عليها الدورية فتصادرها، والنظام الجمركي يقضي بأن تباع هذه الأغنام المصادرة بالمزاد العلني في اليوم الثاني لمصادرتها ليتم توزيع إكرامية القابضين من رجال الدورية من أقيام هذه الأغنام وفقاً للنسبة التي حددها نظام الجمارك وهي عادة ٣٠٪ ومن الواضح أنَّ هذه الأغنام، عندما تعرض للبيع يتواطأ الحضور من تجار الأغنام على

العزوف عن شرائها لتباع بثمن بخس، وعادة ما يشتريها مالكها الأصلي فإذا كان الرأس قيمته ما بين ثمانية إلى عشرة ريالات للضأن فإنه يباع بالمزاد في حدود ريالين إلى ثلاثة على الأكثر.

تعييني مساعداً لرئيس مالية «قرية» وأميناً لجمارك الحدود:

في شهر ربيع الثاني من عام ١٣٦٧هـ صدرت أوامر من وزارة المالية مفادها ما يلي:

١ - تدمج مالية (قرية) مع أمانة جمارك الحدود في (الحفر) تحت مسمى واحد هو رئاسة مالية قرية وأمانة جمارك الحدود.

٢ - يعين يوسف خلاوي رئيساً لمالية (قرية) وأمانة جمارك الحدود.

٣ - يعين إبراهيم الحسون مساعداً لرئيس مالية (قرية) وأمين جمارك الحدود.

٤ - ينقل جهاز أمانة جمارك الحدود من الحفر بموظفيه وسجلاته وجميع موجوداته إلى (قرية)، ويضم إلى جهاز المالية هناك.

٥ - ينقل عبدالله العمير رئيس مالية (قرية) إلى أمانة جمارك الجنوب في جازان.

على أن يتم التوحيد والعمل بمقتضاه اعتباراً من ١/٧/ ١٣٦٧هـ.

في الوقت المحدد أعني ١/٧/ ١٣٦٧هـ كان كل شيء قد تمَّ، وفق الترتيبات الجديدة. كان يوسف خلاوي قد عاد إلى (قرية) قادماً من الرياض، وهو الذي سبق له أن عمل في (قرية) باسم مفتش جمارك الحدود خلال الفترة ما بين رجب ١٣٥٩هـ إلى رجب ١٣٦٢هـ، وكان تم بعد ذلك نقله إلى الرياض.

عندما علم سيدي العم علي الحسون بنبأ صدور الأمر بانتقال الأمانة وجهازها إلى (قرية) لتندمج مع المالية هناك في إدارة واحدة طلب مني السماح له بإجازة لزيارة أهله في عنيزة، فوافقته على الفور، وقد وافق قيام

إحدى سيارات القصر متجهةً في مهمة رسمية إلى إمارة عنيزة في القصيم، فاغتنمنا الفرصة وحملناه عليها، وكان ممتناً جداً إذ أن شنطته الحديد تعاون عليها اثنان من حمّال الجمرك لوضعها فوق سطح السيارة.

مماحكات العمل بيني وبين الخلاوي:

في نهاية جمادى الآخرة ١٣٦٧هـ كنت قد انتقلت بأسرتي إلى (قرية) كما تم نقل جهاز الأمانة وما يتعلق به من (الحفر) إلى (قرية)، وتمَّ دمج الإدارتين وتنظيمهما بفتح سجلات ودفاتر جديدة، تمشياً مع الإدارة الموحدة، وابتدأ العمل من التاريخ المحدد وسارت الأمور على شكل روتيني طبعي. وإن كان الحال لا يخلو من بعض المشاكل المحدودة، المتعلقة بموظفي الإدارتين السابقتين، من حيث ترتيبهم بالنسبة لفروع العمل، على شكل يتلاءم مع كفاءة كل منهم وأحقيته، وقد تمت تسوية تلك المشاكل بطريقة تدريجية، وسارت سفينة العمل في مجراها على بركة الله.

ومن الواضح، أنه نتيجةً لما سبق، أن يتمَّ بيني وبين رئيسي الجديد يوسف خلاوي تصادم واحتكاك عندما كان يرأسني وكنت مديراً لجمرك (أم رضمة)، خلال الفترة ما بين ١٣٥٩هـ و ١٣٦٢هـ. كان من الواضح أن يبرز هذا الاصطدام في وقت مبكر من بدء العمل، مع أنني كنت حريصاً، أشد الحرص على أن تكون صلتي به ـ أي بالخلاوي ـ مبنية على التقدير والاحترام في نطاق مصلحة العمل، رغم ما كان يبدو منه من محاباة لبعض الموظفين، أو تفضيل بعض منهم على الآخر، لا على أساس المصلحة، وإنما للمحسوبية والهوى، وكنت أقف معه في هذه المواضيع وقفة حزم، إلا أنني بحكم أنه رئيسي الأول فقد كنت أبدي اعتراضي فقط مسجلاً ذلك بمذكرات رسمية ثم أترك الأمر يسير كما يرغب، وكنت أعطي صوراً من مذكرات اعتراضي الموجَّهة له لوزارة المالية، وكان يقوم بأعمالها آنذاك الرجل الكفء المرحوم عبدالله السعد القبلان.

كان الأخ يوسف ـ رحمة الله عليه ـ منذ عودته إلى (قرية) في ١/٧/ ١٣٦٧هـ، ومباشرته العمل قد سلك معي مسلكاً لا ينم عن الود، كان يحاول انتقاصي والتقليل من شأن وجودي مساعداً له، موضحاً للموظفين في مجالسه الخاصة أنني معه لا أعدو أن أكون صفراً على الشمال، وأنَّ بقائي في منصبي هذا رهن بمشيئته، وفي وسعه أن يبعدني عن العمل متى شاء.

كانت هذه التصريحات العلنية منه تصلني باستمرار، أولاً بأول، بيد أني كنت لا أعيرها أي اهتمام، لأنها تنم عن الجبن والغطرسة. الجبن لأنه يرددها في خلوته مع بعض الموظفين، والحقد لأنه لا يزال يذكر موقفي معه أيام (أم رضمة).

كان يحاول ـ رحمة الله عليه ـ أن يستأثر بجميع ما يصدر من الإدارة، محاولاً ألا أطلع على أي شيء يدور حول العمل، ومع ذلك فلم أمكنه من محاولته هذه، وكان يريد مني بهذا أن أصطدم معه، لكي يتخذ من ذلك وسيلة لطلب نقلي وإبعادي عنه، ومع ذلك كله فقد تجاهلت كل هذه التصرفات الصغيرة منه، وركزت موقفي معه على الأمور الجادة التي تقتضيها مصلحة العمل.

اختياري ذوي الكفاءة والاستقامة:

قبل أن يصدر الأمر باندماج الإدارتين، وكنتُ أرأس جهاز الجمارك وحده، وكانت الأوضاع السائدة آنذاك تخوِّل رئيس الإدارة حق تعيين الموظفين متى توفرت الكفاءة، ومتى وُجدت الوظائف الشاغرة ويمنحه حق التعيين المباشرَ دون الرجوع إلى وزارة المالية، ويكفي أن يرفع للوزارة عن الموظف المعين بعد أن يتم تعيينه. كان هذا الوضع قد أتاح لي أن أختار مجموعة من الشباب ذوي الكفاءة والطموح.

كنت أبعث إلى أصدقائي في جدة والرياض والقصيم للبحث عن أمثال هؤلاء الشباب، وعما إذا كانوا يرغبون العمل في جمارك الحدود، وقد نتج

عن ذلك أن توفر لديَّ مجموعة من الشباب ذوي كفاءة واستقامة، وكان كلٌّ منهم يعمل في المكان المناسب لمؤهلاته ومقدرته، لذا فإنَّ الأخ المرحوم يوسف خلاوي قد أخذ ينظر إلى هؤلاء الشباب نظرة كره وتحقير، منذ أن علم أنَّ هؤلاء قد تمَّ اختيارهم وتعيينهم عن طريقي، إبان كنت أرأس جهاز الجمارك.

كان يحاول أن ينقلهم من مراكزهم إلى مراكز أدنى، متجاهلاً كفاءتهم، وسلامة آدائهم لعملهم، كنت أقف ضد تصرفاته هذه بحزم، وأحول دون هذا النقل التعسفي، طالباً منه أن يكون النقل إذا كان لا بد منه، مبرراً ولأسباب واقعية وجيهة تسجل ضمن مذكرات رسمية. وهذا ما لم يستطعه، إذ هو أعجز من أن يجد في أعمالهم ثغرة ينفذ منها، لذلك فقد بقوا في مناصبهم على الرغم منه.

أخذ الصراع بيني وبينه ـ رحمه الله ـ يتصاعد، ويطفو على السطح بصورة أوضح، كانت وسيلتي للتفاهم معه في الغالب، وخاصةً عندما ألمس منه إعراضاً عن قبول التفاهم الشفهي، تتم عن طريق مذكرات رسمية أوجهها إليه، معترضاً على بعض تصرفاته، أو منتقداً لها، وكما ذكرت فإن صوراً من هذه المذكرات تأخذ طريقها إلى وزارة المالية.

مذكرات رسمية ضد الخلاوي:

ظلَّ العمل بيني وبين يوسف خلاوي بين مَدٍّ وجزر عدةَ شهور، وكان لاختياره طريقة المذكرات الرسمية، التي أوجهها إليه كلما استلزم الأمر أشد الأمر في التخفيف من غلوائه وغروره، لأنها تكشف أخطاءه وتسجلها أولاً بأول، ولذلك فقد بدأ يلين ويتودَّد، ويحاول أن تكون المفاهمة بيني وبينه مشافهةً، وبعيدةً عن الرسميات، ولأني كنت أعرف يقيناً دخيلةَ نفسه، ولم أرَ بأساً من مجاملته ومسايرته، إلا أنه عندما تقع منه أية هفوة أو تصرُّف خاطىء يُضر بمصلحة العمل، فإني لا أتأخر عن تسجيل ذلك عليه رسمياً، الأمر الذي كان يثير انزعاجَه، ويوتِّر أعصابَه.

الهيئة الملكية ومهمتها:

في منتصف عام ١٣٦٨هـ، وكنت خلال هذه الفترة أقوم بين شهر وآخر، بجولاتٍ تفتيشية على مراكز جمارك الحدود، مبتدئاً بحفر الباطن فأم رضمة فلينة فلوقة فالدويد، وصلت إلينا في قرية أربع سيارات لواري فورد، مُحمَّلةً بقطع أدوات سيارات جديدة، بما فيها الكفرات، تحت إمرة الأخ سالم القِثامي، مرسلة من وزارة المالية إلى مالية (قرية)، ويحمل معه أمراً ملكياً بتوقيع الملك عبدالعزيز يقضي بأن تشكَّل هيئة تتألف من إمارة (قرية) ومن المالية، ومن القيادة العسكرية في قرية، وتسمى الهيئة الملكية، ويرأسها مندوب مالية قرية، وحددت مهمة هذه الهيئة بالآتي:

إحصاء السيارات التابعة للدولة:

جاءت هذه السيارات الأربع، التي بعهدة سالم القِثامي، ومعها ثلاثة مهندسين، وأربعة معاونين تحت قيادة رئيسهم المهندس خير الله السوداني. تقوم هذه الهيئة، بدءاً من مركز (قرية)، بإحصاء السيارات الموجودة التابعة للدولة، سواء كانت خاصة بدوريات الحدود، أو تابعة للإمارة، أو تابعة لإدارة أخرى من إدارات الدولة، تقوم بجرد هذه السيارات وفحصها، وتحديد القطع الناقصة فيها، أو القطع التالفة التي يراد استبدالها.

يسجل ذلك جميعه ضمن محاضر إفرادية لكل سيارة على حدة، ثم تؤخذ هذه القطع المطلوبة لتلك السيارات من الأخ سالم القِثامي، يتم ذلك كله بمحاضر إفرادية بعضها يشمل القطع الجديدة، وبعضها للقطع التالفة المسترجَعة التي يجب تسليمها لهم.

توقع هذه المحاضر من قِبَل الهيئة، ومن قبل المهندسين المختصين، وبعد أن يتم تشغيل جميع هذه السيارات، تغادر الهيئة هذا المركز إلى المركز الذي يليه، مصحوبة بسالم القِثامي وسياراته ومهندسيه، وهكذا دواليك، علماً بأن إمارة (قرية) قد أُمرت بأن تؤمن لهذه الهيئة سيارة لوري من السيارات التي تَمَّ إصلاحها، بالإضافة إلى ثلاثة من خويا الإمارة مع طبّاخ وثلاث خيام، لتأمين تنقلات الهيئة.

أرزاق الهيئة الملكية:

أما الأرزاق فقد عَمِدت المالية بأن تصرف لهم احتياجهم من التموين، وقد تحدد كالآتي:

كيس رز

½ كيس سكر

كيس طحين

٥ كيلو شاهي

٢٠ كيلو قهوة

٢ كيلو هيل

٢ تنكة سمن

وذلك لكل شهر، مع صرف مائة ريال قيمة ذبائح.

اختياري رئيساً للهيئة الملكية:

تَمَّ اختياري رئيساً لهذه الهيئة، باعتباري مندوباً عن مالية (قرية)، وهي فرصة ثمينة بالنسبة للأخ المرحوم يوسف خلاوي للتخلُّص مني، ولو إلى حين.

مكثت هذه الهيئة في (قرية) قرابة شهر كامل، أَتمَّت إصلاح جميع السيارات الموجودة في القصر، سواء كانت عائدة للإمارة، أو عائدة للدوريات، أو عائدة للعسكر، وكان عددها، فيما أذكر، نحو عشرة سيارات كلها من اللواري ماركة فورد، عدا سيارة بوكس واحدة مصندقة، كانت مخصصةً لتنقلات أمير المركز آنذاك محمد بن عطيشان.

واصلت الهيئة سفرها باتجاه (الحفر) فمكثت فيه شهراً آخر، وكان عدد السيارات الموجودة فيه مماثلاً لعدد السيارات في قرية، بما فيها السيارة البوكس المخصصة لتنقلات أمير الحفر صالح العبدالواحد.

كان مندوب القيادة العسكرية في هذه اللجنة هو الأخ الصديق عبدالله الشبرمي، الذي كان يعمل آنذاك محاسباً في القيادة العسكرية، وهو رجل في حدود الثلاثين من عمره، على جانب كبير من دماثة الخلق، واستقامة السلوك، وبُعد النظر.

أتمت الهيئة مهمتها في (الحفر)، ومن ثَمَّ غادرتها إلى (أم رضمة)، والمسافة بين قرية والحفر هي مائة وخمسون كيلومتراً تقريباً، وبين الحفر وأم رضمة مسافة مائة وخمسون كيلومتراً تقريباً، وأنَّ أم رضمة بالنسبة لمركز الحفر تقع عنه في الشمال الغربي، بينما يقع الحفر بالنسبة لقرية باتجاه الغرب تقريباً.

مَكَثَت الهيئة في (أم رضمة)، التي كان أميرها آنذاك الصديق المرحوم إبراهيم بن عمار أحد مواليد مدينة ضُرما (البلدة المشهورة في تاريخ حملة إبراهيم باشا على نجد)، كان رجلاً حاد الذكاء، لمّاح الذهن، وكانت تربطني به صلة إخاء ومودة، فقد كنت أزامله في قصر (أم رضمة)، حينما كنت مديراً للجمرك فيها آنذاك. مكثت نحو عشرين يوماً، وكان موجودها من السيارات لا يتجاوز الست، وكلها لواري قديمة من ماركة فورد، شبيهة بموجودات الحفر وقرية، ثم واصلت الهيئة سيرها متجهةً إلى (لينة)، التي تفصلها عن (أم رضمة) مسافة مائتي كيلومترٍ تقريباً، قُطعت في يومين.

أمير لينة سليمان الشنيفي:

كان أميرها آنذاك المرحوم سليمان الشنيفي، وهو شخصية متميزة بين أمراء الحدود وقت ذاك، ومرموقة لدى الجميع، وتحظى بمكانة متميزةٍ لدى أمير منطقة الشمال عبدالعزيز بن مساعد، ولدى جلالة الملك عبدالعزيز نفسه، يتضح ذلك من اختيار الدولة لهذا الأمير للمهمات الرسمية ذات الصلة بالتفاوض مع الحكومة العراقية آنذاك، في حل المشاكل المعقدة، التي تنشأ عادةً بين القبائل الموجودة على امتداد الساحة ما بين الأراضي السعودية والأراضي العراقية، والتي تكاد تغطيها جميعها قبيلة شمر، وهي قبيلة ضخمة وافرة العدد ومتعددة الأفخاذ، فبعض هذه القبيلة، وهو الموجود على

الأراضي السعودية يدين بالولاء لحكومة الرياض، كما أنَّ بعضها الآخر، وهو الموجود على الأرض العراقية المتاخمة للحدود السعودية ينتمي بولائه إلى حكومة بغداد.

المنازعات في قبيلة شمَّر:

كانت المنازعات بين أفراد هذه القبيلة، بسبب توزع ولائهما بين دولتين، مستمرة، قَلَّ أن يخلو منها شهر واحد، وغالباً ما تتركز هذه المنازعات، إما على أماكن المياه، أو أماكن المرعى، أو ادعاء بعضهم بأنَّ البعض الآخر، قد سرق له بعض مواشيه، وهكذا..

كان الأمير الشنيفي ـ رحمة الله عليه ـ، الشخص الوحيد، دون سائر أمراء الحدود، الذي تناط به مهمة حلِّ هذه المنازعات مع السلطات العراقية، ونتيجةً لذلك كان هذا الأمير يتميز عن بقية أمراء الحدود بوفرة الإمكانيات المؤمنة له من قبل الدولة، سواءٌ من حيث كثرة السيارات الموفرة له، أو عدد الرجال العاملين تحت إمرته المعروفين باسم الخويا، أو من حيث وجود شنطة لاسلكية ترافقه في تنقلاته حينما يقوم بمهمة مع السلطات العراقية، وتستمر المفاوضات في حلِّ تلك النزاعات شهوراً وشهوراً، وهذه الشنطة لها جهاز خاص من الموظفين بسيارة مستقلة.

مَكَثَت الهيئة في (لينة) قرابة الشهرين، فقد كان عدد السيارات الموجود فيها لا يقل عن خمسة وعشرين سيارة، وهنا لا بد من إعطاء لمحة موجزة لقارىء هذه الخواطر، عن طبوغرافية أرض لينة، إذ أن لها وضعاً خاصاً متميزاً عن غيره يتمثل في:

قصر لينة:

أ ـ يقع قصر لينة، على حافة منبسطٍ من الأرض يبلغ امتدادُهُ نحو سبعة كيلومترات من الشرق إلى الغرب، ونحو ستة كيلو من الشمال للجنوب. هذا المنبسط من الأرض هو عبارة عن قطعة صخرية من الحجر الصلد الأحمر، الذي يتعذر تفتيته إلا بوسائل ضخمة غير متوفرة في ذلك الوقت.

آبار لينة العجيبة:

تنتشر على رقعة هذه المساحة مجموعة من الآبار يبلغ عددها ما بين أربعين إلى ستين بئراً، عمق البئر في جوف الأرض لا يقل عن ثلاثين متراً، فوهة البئر على سطح الأرض أسطوانية الشكل، لا يتعدى قطرها المتر أو أقل، بحيث يستحيل نزول أكثر من شخص واحد إلى قاع هذه البئر، وهي مجوفة من سطح الأرض إلى قاع البئر، وكأنها أشبه بأسطوانة من الفولاذ، ملساء لا يوجد فيها أي فرجة أو نتوء، وماء هذه الآبار جميعها عذب ووفير، وهي عادةً تخصُّ قبيلة شمر في أوقات الصيف.

والملفت للنظر في هذه الآبار أن من رآها يعتقد يقيناً استحالة أن تكون أيدٍ بشرية عادية هي التي قامت بنحت هذه الآبار في وسط الصخور، ولذا فإنَّ المتداول على ألسنة سكان تلك المنطقة، هو أنَّ هذه الآبار إنما تمَّ بناؤها في عهد نبي الله سليمان، الذي أُلين له الحديد من جهة، وسُخِّرت له العفاريت ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ كما نصَّ القرآن الكريم على ذلك من جهة أخرى.

إنَّ هذا العمل يستحيل بناؤه بقوة البشر العادية. ويلاحظ أنَّ هذه البقعة تُحَدُّ من جهة الجنوب بالنفود، الذي يبدأ من هذا المكان، وينتهي على مقربة من حائل، أما من جهة الشمال فتُحَد بمجاري أودية وشعاب.

فيضة أم عمارة:

ب ـ يقع شرق هذه البقعة، وعلى بعد نحو عشرين كيلومتراً تقريباً، فيضة (وهي أرض واسعة، تُحَدُّ من جهاتها الثلاث بروابي وجبال تحجز ما يصل إلى هذه المنطقة من مياه وقت الأمطار، التي تقذف بها الأودية من الجهة الشرقية لهذه الفيضة)، وتبلغ مساحة هذه الفيضة في حدود أربعة كيلومترات مربعة تقريباً. تنتشر على جوانبها مجموعة من أكوام الأحجار التي هي بقايا أنقاض أبنية كانت تحيط بهذه الفيضة، يدل على ذلك أنَّ كثيراً من

هذه الأنقاض من معالم البناء التي كانت قائمة فيها، ولا زالت باقية حتى الآن، ماثلةً في أساسات الجدران، وهذه الفيضة تعرف باسم (أم عمارة)، وهي فيضة خصبة، تحفل بالعديد من أنواع الأعشاب المتنوعة في مواسم الأمطار وفصول الربيع، ولهذا يفضِّلُها كثيرٌ من ذوي اليسار والمكانة من زعماء البادية، ليقضوا بها أوقات الربيع، نظراً لما تحفل به من زهور وروائح ذات عبق وأريج تبهج النفوس.

السفر إلى لوقة:

واصلت الهيئة سفرها إلى (لوقة)، فوصلتها بعد مسيرة يومين، وهي تبعد عن (لينة) بنحو مائة وتسعين كيلومتراً باتجاه الشمال الغربي. وقصر لوقة مماثلٌ لقصور المراكز الأخرى، وكان أميرها آنذاك المرحوم محمد بن عرفج، وهو رجل هادىء الطبع، طلق المُحيَّا وديع المعاشرة، مكثنا في القصر نحو عشرة أيام، وكان عدد السيارات لديه لا يتجاوز الست سيارات، ثم واصلت الهيئة سفرها باتجاه الشمال الغربي حيث وصلت الدويد خلال سبعة ساعات، وهو يبعد عن لوقة بنحو تسعين كيلومتراً تقريباً.

مركز الدويد:

وكان مركز الدويد آنذاك، ويسمى (دويد القُلبان) عبارة عن منخفض من الأرض فيه بضع آبار، توجد فيها مياه عذبة، وهي قريبة العمق من وجه الأرض، ويقطنها كثير من عشائر شمر في أوقات معينة، بينما قاطنوها الأكثر استمراراً هم الفئة المعروفة (بالصَلَبْ) التي ليس لها انتماء موصول إلى الأرومات العربية العريقة.

كانت السيارات، الموجودة في هذا المركز، أربع سيارات تقريباً، وكانت أجهزة الدولة الموجودة فيها تتألف من أمير يدعى عبدالرحمن بن شبيب، وهو والد الصديق حمود الشِبِيْب أمير الخرج الآن، ومعه بضعة رجال، وهم المعروفون بالخويا، وموظف آخر لجباية الرسوم وهو الأخ حمزة هاشم الذي لا أعرف الآن ما إذا كان على قيد الحياة أو انتقل إلى

رحمة الله إذ انقطعت صلتي به منذ عام ١٣٦٥هـ وهو مدني المولد والنشأة.

كما يوجد جهاز ثالث حكومي هو جهاز اللاسلكي، وهو ماكينة إرسال برقيات، مثبت على ظهر سيارة لوري، يديره الأخ حمدان بن سليم البلوي.

بُعَيد وصولنا بيومين، على ما أذكر، لمركز الدويد، كانت قطع غيار السيارات الجديدة الموجودة لدينا قد نفدت تقريباً، مما اضطرنا إلى الإبراق لوزارة المالية بطلب قطع جديدة معينة حددنا كمياتها وأنواعها، موضحين في برقيتنا تلك، أننا في انتظار وصول هذه القطع لإكمال مهمتنا، والذي حدث أنه بعد مُضِي يومين على إرسال هذه البرقية توقّف جهاز اللاسلكي عن الإرسال نظراً لتلف إحدى القطع، مما يستلزم إبدالها بقطعة جديدة، ولأن هذا الوضع من شأنه أن يبقي الهيئة في مركز الدويد مدةً لا تقل عن شهر، حتى يمكن وصول هذه القطعة المطلوبة، ونظراً لوجود بعض التجار العراقيين الذين يتاجرون بأطعمة البادية كالتمر والطحين والتِّمّن (الأرز)، ومستلزمات البادية الأخرى، وهؤلاء التجار يمتلكون خياماً منصوبة، لدى كلٍّ منهما خيمتان أو أكثر، إحداهما لسكنه والأخرى مستودعاً لبضاعته، وهؤلاء التجار قد لا يقل عددهم عن عشرين تاجراً، كانت تمونهم سيارات تأتي من مدن العراق كمدينة النجف، ومدينة كربلاء، ومدينة الناصرية، وسوق الشيوخ، والسماوة، كانت تَرِد إليهم على فترات من الزمن متقاربة فلا يمر أسبوع إلا وتكون بعض تلك السيارات قادمة أو آيبة.

سفري إلى العراق:

كانت المسافة بين مركز الدويد هذا، وبين أقرب مدينة عراقية وهي مدينة النجف ـ لا تزيد عن مائة وثمانين كيلومتراً تقريباً ـ، ولأن الحدودَ مفتوحةٌ بين الدولتين السعودية والعراق، فقد رأيت أن اغتنم هذه الفرصة فأزورَ العراق، وهي أول مرة تتاح لي مثل هذه الفرصة، وفي وسعي أن أقوم بها، وأعود إلى مركز الدويد، مطمئناً إلى عودتي قبل أن تصل تلك

الأدوات المطلوبة، شرحت لزملائي رغبتي هذه، فوافقوني، وشجعوني على ذلك.

في اليوم التالي ركبت في إحدى السيارات المتجهة للنجف، وكانت مسافة الطريق ليست بالطويلة إلا أنها كانت وعرة المسالك، ملتوية الطرقات، نتيجةً لما يوجد عليها من سباخ كثيرة، وبحيرات من الماء متفرقة هنا وهناك، فكان سير السيارة يتم في حَذر وبطء شديد، مما اضطرنا لقطع هذه المسافة في يومين تقريباً.

كنت أرتبط بصداقة سابقة مع أحد تجار مدينة النجف البارزين المعروفين بعلاقتهم التجارية مع البادية السعودية، ومع كثير من التجار السعوديين، في مراكز الحدود كلينة ولوقة والحفر، وهذا الشخص، هو الحاج: عطا إلياس الحاج عطا، وهو شيعي المذهب، وعلى جانب من الخلق الرفيع، وصدق المعاملة.

عطا إلياس الحاج عطا:

كانت بدء علاقتي به أن بعث لي رسالةً حينما كنت مديراً لجمرك (أم رضمة)، خلال الفترة ما بين ١٣٥٩هـ، إلى ١٣٦٣هـ مضمونها توسيطي في استحصال مبلغ معيَّن له من أحد أمراء البادية الموجودين في (أم رضمة)، إبان موسم الصيف، وهو المدعو بَرْغَش العَرقان من قبيلة السهول، وقد تمَّ استحصال المبلغ بيسر، وإرساله إليه على الفور في مدة لا تزيد عن شهر من وصول رسالته. ثم استمر تبادل الرسائل بيني وبينه حتى بعد انتهاء عملي من (أم رضمة)، وانتقالي إلى قرية.

استقبلني الرجل بكل ود وترحاب، وأحاطني بعناية وتكريم، تدلُّ على نبل خلقه، وكرم طباعه، أفرد لي غرفةً هي أشبه بجناح من داره الفخمة المتميزة المحاطة بحديقةٍ غنَّاء، وجعل تحت تصرفي سيارته الخاصة مع سائقها، وكلَّف ابنه الأكبر عباس بمرافقتي وإرشادي إلى كل ما أرغب الاطلاع عليه.

مدينة النجف:

تجولت في اليوم الأول في مدينة النجف، وهي مدينة قديمة البناء، عربية الطراز، مبانيها من الطين، ومن نوع من الحجارة لم يكن لي سابق معرفة به، وهي من حيث الطراز والتصميم لا تختلف عن النمط المعروف لدينا في مدن الجزيرة، والنجف مدينة قد يبلغ سكانها، على ما أعتقد، نحو خمسين ألفاً، بيوتها ذات ثلاثة طوابق في الغالب، ذات نوافذ وشبابيك شبه الرواشين، التي كانت توجد في منازل مكة وجدة.

تقع المدينة في فسيح من الأرض، تحيط به الحدائق، وأشجار النخيل، وتنسابُ على جوانبه جداول المياه من هنا وهناك. توجد فيها الشجيرات ذات الزهور المتعددة الألوان، التي تثير في النفس البهجة والرضا.

كانت المدينة، وأنا أتجول ماشياً، ومعي الأخ عباس بن مضيفي، تعجُّ بالحركة والنشاط، وكانت تجارتها تتركز بنسبة ٨٠٪ تقريباً مع أفراد البادية، وخاصةً البادية السعودية، وقد علمتُ نتيجةً للأسئلة التي كنت أوجِّهها إلى بعض المارة ممن التقيتُ بهم أثناء تجوالي، أنَّ هذه البلدة يوجد فيها أربع مدارس ابتدائية، ومدرستين متوسطة، ومدرسة ثانوية، كلها حكومية.

أمضيت يومي الأول، متنقلاً تارةً بالسيارة، وتارةً ماشياً على قدمي، فاستطعت أن أكوِّن في ذهني خطوطاً عامةً عن واقع تلك المدينة والحركة فيها. كان يوجد فيها، إلى جانب مضيفي، عدة تجار لا يَقلون عنه شهرةً وثراءً، وكلهم تتركز تجارتهم كما ذكرت مع أفراد البادية، سواء كانت البادية السعودية أو البادية العراقية، فهم يشترون من البادية ما يجلبونه من مواشي إبلاً أو أغناماً، أو كميات من السَمن، أو ما تنتجه البادية كالأقِط (اللبن المجفف) وغيره، وفي الوقت نفسه يبيعون على أفراد هذه البادية ما يحتاجونه من أطعمة وأقمشة وبيوت شعر، وما تحتاجه البادية أثناء تجوالها متنقلة في صحاري الجزيرة.

السفر إلى بغداد:

في صباح اليوم الثاني وقد فهم مني مرافقي أني شديد الرغبة في زيارة بغداد، فأفهمني بأنه قد وضع سيارته الصغيرة البوكس مع سائقها تحت تصرفي، بيد أني رفضت، وأصررت على أن تكون رحلتي إليها على أساس سيارة أستأجرها، سواءً باليوم أو لمدة محددة، وبعد أخذ ورد، اتفقنا على أن يصحبني بسيارة توجد لدى جاره، يستعملها في نقل الركاب، وهي سيارة بوكس حمولة ثمانية أنفار، ينقل فيها ركاباً ما بين النجف وكربلاء والمسيَّب وبغداد. وبما أن سيارة جاره هذا دائبة الحركة ما بين هذه المدن باستمرار (أي أنها أشبه بخط البلدة كما نسمِّيه عندنا) فلم أرَ مانعاً من أن أكون أحد ركابها.

توابيت تُنقل للنجف وكربلاء:

غادرنا مدينة النجف، في صباح اليوم التالي، باتجاه بغداد، وكان ذلك في حوالي أواخر شهر ذي القعدة من عام ١٣٦٨هـ. كنت قبل مغادرة النجف، قد تناولت طعام الإفطار مع مضيفي وبعض أولاده، ثم ظللنا نحو ساعة في انتظار حضور جاره بسيارته التي سبق أن اتفقنا على استئجارها للركوب فيها.

كنت أثناء انتظاري أُطِلُّ من شرفة منزلِ مضيفي إلى الفضاء البعيد، حيث إن سكنه في الناحية الشرقية من مدينة النجف، التي تكاد أن تكون آخر العمران من تلك المدينة، في ذلك الاتجاه، وكانت تطل على فسيح من الأرض على امتداد الأفق البعيد من جهتي الجنوب والشرق.

كنتُ أشاهد كثيراً من العربات الكارو، التي تجرُّها الحمير والبغال، تعلوها توابيت مغلقة، وكذا جماعات متفرقة ومحدودة العدد ما بين خمسة إلى عشرة تقريباً، تتعاقب على أكتافها نقل توابيت موتى مماثلة لتلك التوابيت التي تحملها العربات الكارو، جميعها متجهة إلى مقابر النجف، وبعضها يواصل سيره إلى مدينة كربلاء، وكلها قادمة، حسب ما فهمت من

مضيفي، من جميع المدن الإسلامية الممتدة إلى الشرق مروراً بإيران وخُراسان وجميع المدن الإسلامية، التي بعضها يبعد عن العراق مسافات شاسعة كبُخَارى وخوارزم وسمرقند وخيوة ونيسابور، وكل المدن التي يغلب على سكانها اعتناق المذهب الشيعي، فهم يفضلون دفن موتاهم في مقابر إحدى المدينتين (النجف أو كربلاء)، متحملين في ذلك أشق المتاعب، وقد يصل الأمر ببعضهم أكثر من شهر، يقطعونه سيراً على الأقدام، ومن الواضح أنَّ هذه التوابيت هي لأفرادٍ أثرياء، يحرصون أشدَّ الحرص، على أن يوصوا في وصيتهم أثناء حياتهم بضرورة دفنهم في مقابر إحدى هاتين المدينتين، بعد أن يكونوا قد رصدوا في حياتهم أموالاً كافيةً لعملية التحنيط ومصاريف النقل.

مسجد النجف:

بعد ساعة تقريباً، بُعيد شروق الشمس وصل السائق بسيارته، فغادرنا النجف أنا ومرافقي ابن مضيفي واسمه عباس عطا، وكنت وعباس قد حجزنا المقعد الأمامي في السيارة، وكنا نمر بمدينة النجف فشاهدتُ عدة مآذن شاهقة فسألت مرافقي: ما هذه المآذن؟ أجابني بأنها مآذن مسجد النجف المشهور، وهنا أجاب بأنَّ المسجد في ذلك الوقت كان مغلقاً، وغير مسموح الدخول فيه، لأنَّ الهيئة العلمية الشيعية (وهي هيئة ضخمة تمثل بالنسبة للشيعة ما يمثله الأزهر بالنسبة للسنة)، قد أوصدت أبواب ذلك الجامع الكبير، وكذلك الدور المحيطة به، فتُجري فيها جميعاً ترميمات وإصلاحات، وخاصةً أنها تحوي - كما يقول مرافقي - نقوشاً وزخارف ذات نَمط خاص من عهود سحيقة القدم.

بعد أن قطعنا نحو عشرين كيلومتراً تقريباً، متَّجهين إلى الشمال الغربي، وكانت البحيرات والجداول وأشجار النخيل والجسور الخشبية الموضوعة على هذه الجداول متقاربة بعضها من بعض، يفصل بعضها عن الآخر مسافة لا تزيد عن ثلاثين متراً تقريباً، أينما اتجهت بنظرك يميناً أو شمالاً تجد هذه الجداول، التي هي أشبه بنهيرات صغيرة تنساب رقراقةً

بعضها متجه من الشمال إلى الجنوب، والآخر خلافه، وعلى جميع جوانب تلك الجداول تعلو الأشجار والشجيرات، على مختلف مسمياتها وأنواعها.

مدينة المسيَّب:

كنا وصلنا مدينة المسيَّب، دخلناها من الشرق، وقد تجولنا في شوارعها بناء على رغبتي ورجائي من السائق، وكان تجوالنا لا يزيد عن ربع ساعة لأنها بلدة تكاد تكون متوسطة بين المدينة بمعناها الواسع وبين القرية الواسعة المساحة. منازلُها لا تقلُّ عن طابقين، ونادراً أن تجد بنايةً أرفع من ذلك، وشكلُها المعماري من حيث البناء هو ما عليه البناء في مدينة النجف، فيها مجموعة من الدكاكين أغلبها بقالات للأطعمة.

أسواقها متربة، ومعالم الحضارة فيها محدودة، ولكن أشجار النخيل الفارهة الطول والمتوسطة، تكاد تكون غابة ملتفةً تحيط بالبلدة من جميع الجهات؛ وفي تقديري أن سكان هذه البلدة يتراوح عددهم ما بين خمسة عشر إلى عشرين ألف نسمة.

ثم واصلنا السير على طريق مماثل للطريق ما بين النجف والمسيب، وهو طريق ترابي لم تمتد إليه يد التشذيب أو السفلتة.

دار السلام الخالدة (بغداد):

وصلنا بغداد قبيل الظهر بنحو ساعة، فطلبت من مرافقي الأخ عباس أن يتجه بي رأساً إلى فندق ممتاز يختاره هو بمعرفته.

نزلنا في فندق يُدعى (فندقَ الرضا)، وهو في الواقع من حيث النظافة، والفرش، والأثاث نظيف، بيد أنَّ البناء يبدو أنه قديم جداً، وأعتقد أنه من فئة الدرجة الثانية وربما الثالثة، أفهمني مرافقي أنَّ هذا الفندق يعتبر من أفضل فنادق بغداد آنذاك، ولرغبتي في أن أتيح لنفسي قدراً أوسع، لإشباع هوايتي من التعرف على معالم دار السلام الخالدة (بغداد) ومغانيها، فقد رأيتُ أنَّ من الأفضل أن أطلبَ من مرافقي عباس أن يعود إلى النجف

على أن يرجع إليَّ بعد خمسة أيام على الأقل، وقد تمَّ ذلك.

النزول في فندق الرضا:

كان الفندق يقع في وسط بغداد تقريباً على ما أعتقد، وهو قريبٌ من شارع الرشيد. كان الجو حاراً، وبغداد بالذات معروفة بشدة لهيب حرها، ولذلك فقد أخلدتُ إلى الراحة في غرفتي، التي تتكوَّن من سرير واحد وحمام، ولم تكن هناك آنذاك مكيفات أو مراوح أو وسائل تبريد، إلا نوع يعرف بالمهاف (مفرد مهفَّة)، وهي نوع يُصنع من سعف النخيل معروفة لدينا في الحجاز بالمروحة.

التعرُّف على صاحب الفندق:

بعد صلاة العصر من ذلك اليوم، نزلت إلى مطعم الفندق، وهو مطعم نظيف ـ والحق يقال ـ شهيُّ المأكولات، ومتعدد الأصناف، وتعرفت خلال ذلك على صاحب الفندق، وجدته متكئاً على إحدى الآرائك في الصالون الكبير، تجاذبنا أطراف الحديث، وتعرَّف كلٌّ منا على الآخر، وابتدأت تنشأ بيننا ألفة وليدة.

وقد امتدَّ الحديث بيني وبينه في أول لقاء أكثر من ساعة، وكنتُ قد لمست من حديثه مجموعةً من تجارب حياته، التي قضاها في بغداد، فهو أحد مواليدها، وكان قدومه الأول إلى هذا الوجود في عهد كانت فيه بغداد، وغيرها من المدن العربية، تخفق في سمائها راية الخلافة العثمانية الإسلامية.

سقوط الخلافة العثمانية:

كان الرجل، حسب ما فهمت من حديثه، قد نيَّفَ على الثمانين، ولذلك فقد عاصر الأحداث الجِسام، أو قل على الأصح: الزلزال العنيف الذي قوَّض دولة الإسلام ومزَّقها شرَّ ممزق فتقاسمت أشلاءها دول الغرب

وأعداء الإسلام، وما أعقب ذلك من سقوط الخلافة العثمانية، بعد أن تمَّ إلغاؤها على يد الطاغية كمال أتاتورك في عام ١٩٢٤م، فخرج السلطان وحيد الدين الذي هو آخر خليفة عثماني، وهو السابع والثلاثون من خلفاء بني عثمان العظام، الذي بلغ الإسلام في عهدهم شأواً ورفعةً لا يقل عما بلغه في عهد ملوك الخلافة الأموية أمثال الوليد وسليمان وعمر بن عبدالعزيز.

غادر وحيد الدين إسطنبول باكياً كما غادر أبو عبدالله غرناطة عندما ودَّعها باكياً في رجب عام ٨٩٢ هجرية. غادر وحيد الدين إسطنبول مخلِّفاً وراءه قصر يلدز، وقصر ضولمة باغجة، وغيرهما الكثير من قصور بني عثمان، وكذا مخلِّفاً وراءَه جامع السلطان محمد الفاتح، وسليمان القانوني، وأحمد الأول، وأياصوفيا، وغيرها من معالم المجد التليد الذي أشاده سلاطين بني عثمان، إذ كانت جيوشهم آنذاك تقف على أبواب فينا بعد أن طوت البلقان كله تحت ظلِّ راية آل عثمان، وبعد أن أصبحت روما والكثير من الدول الأوروبية تدفع لهم الجزية سنوياً.

أحداث مرت بالعراق:

أخذ صاحب الفندق يحدثني عن الأحداث التي مَرَّت بالعالم الإسلامي عامةً، وبالعراق خاصة، وكأنه يقرأ من كتاب. أخذ يسلسل الأحداث بطريقة رائعة، وكأنها عِقْد محبوك النظم.

دخول بريطانيا أرض العراق:

حدَّثني عن نزول بريطانيا أرض العراق عن طريق ميناء البصرة، في أواخر الحرب العظمى الأولى، كان الجنود الذين قدموا إلى أرض العراق - كما يذكر مُحدِثي - هم خليط من أجناس متعددة، منهم الهندي والباكستاني والبورمي، وكثيرٌ من الأعراق والأجناس التي كانت بريطانيا تهيمن على شؤونهم، كان العنصر البريطاني في هذه المجموعات يقتصر على القادة والضباط فقط، ولا يوجد أي جندي إنكليزي ضمن هؤلاء

الجنود، وهذه طبيعة الاستعمار، فهو يُسخِّر أفرادَ الشعوب، ويرغمهم ليكونوا وقوداً للمعارك والحروب التي تُغذي مطامحه وكبرياءه.

الرجل المريض:

كانت الدولة العثمانية قد تشتَّت قواها، ومُزِّقت ولاياتُها، وهي فوق ذلك كانت حتى قبل بدء الحرب على وضع هو أشبه بحالة الاحتضار، الذي كان الغربيون ينعتونها في إعلامهم وصحفهم، بالرجل المريض.

انهيار المقاومة:

لم تَدُم مقاومة الجيش العثماني في العراق طويلاً، فسرعان ما انهارت تلك المقاومة وتمزقت شَذَرَ مذَر، تاركةً المجال فسيحاً للجحافل البريطانية لتنتشر في طول البلاد وعرضها، وبالتالي يصبح العراق بأكمله مستعمرةً بريطانية.

تركَّزت قوة الاحتلال في بغداد العاصمة، تحت قيادة القائد البريطاني (تاوزند)، الذي أخذ هو وجنودُه يُعِيثون في أرض العراق فساداً ونهباً وإذلالاً، وكبتاً لكل حركة تنم عن التذمُّر أو المقاومة، كان البريطانيون يَغُطُّون في في أحلام نشوة انتصارهم، غير مقيمين أيَّ وزنٍ، أو اهتمام، لأي مقاومةٍ قد تحدث من هذا الشعب، الذي غُلب على أمره، بعد أن كَان طيلة القرون السيد المعتز بكرامته، المتمسك بكبريائه، المُملي لإرادته.

بوادر التمرُّد:

وإذا كان الاحتلال البريطاني قد تمكَّن من إخماد أنفاس سكان المدن العراقية، فقد عجز أشدَّ العجز، أن يقضي على بوادر التمرد والثورة ضد وجوده، منبثقة من خلال أعمدة بيوت الشَّعر المنتشرة في جوانب أرض العراق طولاً وعرضاً شرقاً وجنوباً، فكانت أرض العراق دون غيرها قد اجتذبت منذ القدم، نتيجةً لخصوبتها وخيراتها، كثيراً من أمهات القبائل العربية، التي أصبحت تقطن أرض الجزيرة، وقبائل شَمَّر في الجزيرة

وفروعها الكثيرة، وكثير أيضاً من بطون القبائل الأخرى، قد هبَّت في وجه رجال السلطة المحتلة، منذ وطئت أقدامهم أرض العراق، لأول مرة، هَبُّوا يقاومون ويدافعون العدو المغتصِب، بكلِّ ما أُوتوا من قوة وجهد.

كان البدء أن اصطدمت مجموعة من الجنود الهنود مع أحد بيوتات قبيلة شمر في الجزيرة، كأنَّ السكان وممتلكاتهم أموالٌ مباحةٌ يعبثون بها كما يشاؤون، وكان عليهم أن يُذعِنوا، ويستسلموا لكلِّ ما يُطلَب منهم، وأن لا يُبدوا أي مقاومة أو تذمُّر.

بدأ الشِّجار بين مجموعة من هؤلاء الجنود الأعاجم (الهنود)، وبين أحد مشايخ تلك القبيلة، الذي لا أذكر اسمه، بدأ الأمر بملاسنة بين الجنود الهنود وبين صاحب بيت الشعر، شيخ القبيلة ـ عندما رفض طلباً لأولئك الجنود، بكل عنفوان وشمم، فأراد أحد الجنود أن يمسك بأحد الأفراد الموجودين بجوار هذا الشيخ، فما كان من هذا الشيخ إلا أن أغلظ لهم القول بالانصراف، بيد أنهم لم يفهموا لغته، مما حمله إلى الاعتقاد بأنَّ عدم انصرافهم يعني تحدياً له، فما كان منه إلا أن حسم الأمر بسحبه لسلاحه الذي كان معلَّقاً في عمود بيت الشعر، وأطلق عياراً نارياً على تلك المجموعة، فأردى أحدهم قتيلاً، وفَرَّ الباقون.

تطويق الجيش الغازي:

وما كادت تغيب شمس ذلك اليوم حتى كان نبأ الحادث قد انتشر بسرعة البرق بين جميع القبائل الموجودة على أرض العراق، وهنا اشتعلت الحَمِيَّة والإباء العربي الأصيل، ثأراً للكرامة المهدرة، فأسرعوا إلى السلاح يحملونه بوجه السلطة، وكانت هذه القبائل من الكثرة، ووفرة العدد، والسلاح فقدَّر قائد الجيش في بغداد أن ليس في وسع الجنود الغازية الموجودة آنذاك على أرض العراق أن تقف في وجه هذه الثورة العارمة، فاضطر إلى سحب جميع جنوده الموجودين خارج المدن، واللجوء إلى داخل المدن والاحتماء بها، وهكذا لم تمضِ بضعةُ أيام على الحادث حتى

كان الجيش الغازي مطوَّقاً داخل المدن بأفراد القبائل الهائجة، وقد استسلم جميع الجنود الموجودين في المدن للثوَّار عدا مدينتي البصرة وبغداد.

كانت بريطانيا آنذاك، رغم أنها خرجت منتصرةً في تلك الحرب، إلا أنها كانت منهكة القوى خائرة العزم، لم يكن في وسعها أن تُقدِّم أيَّ مساعدة لإنقاذ جيشها المحصور مع قائده في بغداد أو البصرة.

مفاوضات بين الإنكليز والثوار:

ظلَّ القائد البريطاني، وجيوشه، محاصراً في بغداد، طيلةَ ستةِ أشهر، وكأنه فأرٌ حوصر في جُحره. دامت خلال هذه الفترة التي امتدت ستة أشهر مفاوضاتُ الإنكليز في لندن، وأعوانهم في الشرق، مع الثوار الأحرار من أبناء بوادي العراق، وانتهت بعد مساومات طويلة، وأخذ وَردٌ، بأن أذعن الإنكليز لشروط الثوَّار، التي تتلخص في سحب الجيش الإنكليزي من أرض العراق، وتشكيل حكومة مَدَنِيَّة من أبنائه مقابل أن يَسمح هؤلاء الثوار الأبطال للجنود الغازية، بعد أن يَفكُّوا الحصار عنهم، بأن يفرُّوا هاربين من حيث أتَوْا، وقد تَمَّ ذلك، وهكذا حقَّق أولئك الأبطالُ ما أراده شاعرهم العربي أمير الشعراء:

وللحرية الحمراء بابٌ ... بكل يَدٍ مضرَّجةٍ يُدَقُّ

أو كما قال الآخر:

لا يسلمُ الشرف الرفيعُ من الأذى ... حتى يراقَ على جوانِبِهِ الدَّمُ

ومثله قولُ الآخر:

ومن لم يَذُدْ عن حوضِهِ بسلاحِهِ ... يُهدَّمْ، ومن لا يتقِ الشتمَ يُشْتَمِ

انسحاب الجيش البريطاني:

ابتدأ الجيش البريطاني الغازي في الانسحاب، مغادراً أرض العراق، أرض الإباء والشهامة والكبرياء، غادرها يجرُّ أذيال الخيبة والخسران، مدركاً

أنَّ قناة الأمة العربية لا زالت قوية لم تُخْضَد بعد، وأنَّ الأمة العربية هي الأمة العربية بهؤلاء الأبطال، الذين تسابقوا من بيوت الشَعر، واضعين رؤوسهم على أكفهم، هم هم أحفاد أولئك الأبطال، الذين وقفوا على أرض الصين شرقاً، وعلى جبال البرينيه غرباً.

تأسيس حكومة مدنية عراقية:

طبقاً للاتفاق، الذي تَمَّ بين المحتل والثوّار، شرعت الحكومة البريطانية في تنفيذ شرط الثوّار الأول، وهو تأسيس حكومة مدنية عراقية، تتولى حكم العراق. بثَّت عيونها وجواسيسها في طول البلاد وعرضها بحثاً عن زعماء وقادة المدن العراقية، ممن قد تتوفر فيهم الشروط، التي تتلاءم ومطامع الغزاة، أي: أن تكون أيدٍ طيِّعة، يحكم الإنكليز العراق عن طريقها، وقد أعياها البحث أن تجد نماذج من هذا النوع، إذ كان كلٌّ منهم حريص على كرامته، غيورٌ على وطنه.

طالب النقيب باشا:

وكان أحد قادة العراق آنذاك، البارزين على الساحة في زعامة العراق إبان الثورة، قد سخَّر ثروته وإمكاناته في شدِّ أزر الثوَّار، وتزويدهم بالمال والسلاح، تحريضاً لهم على الاستمرار في الثورة والمقاومة، وهو البطل المعروف طالب النقيب باشا، أحدُ زعماء البصرة: فقد أفرغ الإنكليز ضغينتهم، وحقدهم عليه، فاقتادوه غدراً وخِلْسة في ظلام الليل من منزله بالبصرة، ونقلوه معصوبَ العينين إلى إحدى بوارجهم الموجودة في ميناء البصرة، فحملته إلى جزيرة سيشيل، وظل منفياً هناك عدة سنوات.

مصير الشريف الحسين وأبنائه:

في الوقت الذي كانت البارجة البريطانية تغادر ميناء البصرة، حاملةً طالب النقيب في طريقه إلى منفاه، كانت هناك على الجانب الآخر بارجة أخرى تمخر عباب اليم مُقِلةً الشريف فيصل بن الحسين النجل الثاني للشريف الحسين بن علي، شريف مكة متَّجهةً به إلى ميناء البصرة.

مؤامرة سايكس بيكو:

كانت بريطانيا إبَّان الحرب العالمية الثانية، تفاوض الشريف الحسين، على أساس أن يُنَصَّب الشريف الحسين مَلِكاً وحيداً، وبدون منازع، على الأمة العربية: من جبال طوروس من الشمال حتى البحر العربي من الجنوب، ومع هذا الوعد الذي خُدِعَ فيه الحسين أيما خديعة عندما انكشفت مؤامرةُ (سايكس بيكو)، التي أفقدت هذا الاتفاق أي قيمة أو مضمون، إذ ما كادَ أوار الحرب ينطفىء وتصمت المدافع، ويتمُّ النصر لبريطانيا وحلفائها: حتى كشَّرت بريطانيا عن أنيابها، وخلعت عنها مسوح الرهبان، الذي كانت ترتديه، وظهرت سوأتها على حقيقتها، فما كاد الشريف حسين يتلذَّذ بأحلامه في عمَّان، بعد أن توافدت عليه وفود الأمة العربية، مبايعةً له بالخلافة العظمى، باسم أمير المؤمنين الحسين بن علي، حتى أُفهم صراحةً بأنه ملك الحجاز فقط، ثم تلا ذلك ما هو معروف عن مصير الحسين وأبنائه.

الجيش العربي المزعوم:

وإذ كان أبناء الحسين، وعلى رأسهم نجله الثاني فيصل، قد أسدوا للحلفاء أجلَّ الخدمات، فقد استطاعوا أن يَشلُّوا فاعليةَ الجيوش العثمانية التي كانت موجودة على الساحة ما بين الحجاز والشام، والتي كان بمقدورها أن تلحق بالحلفاء هزائم، قد تؤدي إلى طردهم من المنطقة العربية، ولكن الجيش الذي أُلف من قبل الحسين وأبنائه، بتمويل من بريطانيا مالاً وعتاداً، والذي أُسبغ إليه زوراً اسم الجيش العربي، وهو في حقيقة الواقع الجيش الإنكليزي، إذ كانت قيادته الفعلية بيد الجاسوس البريطاني المعروف «لورنس»، الذي أثبت في كتابه (الأعمدة السبعة) من التفاصيل المثيرة ما فيه الكفاية، ممثلةً في نسف قطارات الجنود العثمانية، وتمزيقها بالمتفجرات، ونسف قضبان السكك، وارتكاب أحقر الأعمال تجاه الجنود الأتراك البواسل، يفعلون ذلك كله باسم الدين والعروبة بأيدٍ عربية مسلمة مع الأسف.

دخول اللورد اللنبي دمشق:

سار هذا الجيش المعروف بالجيش العربي زوراً متعقِّباً الجيش العثماني حتى أخرجَه من البلاد العربية، وحتى دخل الجيش العربي، رمز البطولة والكفاح العربي، مدينةَ دمشق، تحت قيادة قائد منطقة الشرق الأوسط القائد البريطاني اللورد (اللنبي).

فرح الشعب السوري واللبناني بدخول الجيش العربي:

بدخول الجيش العربي أرض الشام، وجلاء الجيوش العثمانية عنها، وإذ كان الجو في هذه الجهات، سواء في سوريا أو في لبنان، مشحوناً بالحماس وبالعواطف الملتهبة المتأجِّجة في نفوس المواطنين كافةً، لتخلُّصهم من الأتراك، الذين كانوا يمقتونهم أشدَّ المقت، لا لأنهم مسلمون مثلهم، ولكن لأنهم لا زالوا ينظرون إلى أحرار سوريا ولبنان مُعَلَّقين على أعواد المشانق في ساحة المرجة في دمشق، وفي ساحة الشهداء في بيروت، أولئك الأبطال الذين بطش بهم الطاغية السفَّاح جمال باشا، لا لذنبٍ إلا أنهم أحرار يطالبون بحرية بلادهم.

المناداة بالفيصل بن الحسين ملكاً على الشام:

كان الشعبُ في لبنان وسوريا في تلك الأيام في قمة النشوة والحماس فَرَحاً بدخول الجيش المنقذ في تصوُّرهم، وظناً منهم أنهم أصبحوا أحراراً يملكون أمرهم ويقرِّرون مصيرهم، ولذلك فقد أسرع الأحرار في لبنان وسوريا إلى إعلان الدولة العربية في الشام، ورُفعت راياتُها على المباني الحكومية في كلٍ من بيروت ودمشق وسائر مدن الشام، ونُودي بفيصل بن الحسين الذي قاد هذا الجيش العربي - كما سُمِّي - بمصاحبة لورنس الإنكليزي، نودي به ملكاً على الشام.

احتلال فرنسا سوريا ولبنان:

بيد أنَّ هذه الفرحة لم تَعِش أكثر من بضعة أيام، إذ أطبقت السفن

الفرنسية، تحمل جيوش فرنسا لتحتل أرض لبنان والشام تطبيقاً لمعاهدة «سايكس بيكو» الغادرة بين بريطانيا وفرنسا، التي كان من ضمن بنودها أن تكون لبنان وسوريا من نصيب فرنسا بعد أن تمَّ لهم تمزيق الدولة العثمانية، وهكذا نَزَلَت في ميناء بيروت فرق الجيش الفرنسي بأعتدتها وعتادها فأسرعت إلى الراية العربية تهوي بها إلى الأرض رافعةً مكانَها العَلَم الفرنسي، وكان هذا اليوم بالذات يومَ عرس وابتهاج بالنسبة لمسيحيي لبنان: من غُلاة الموارنة، بينما كان يومَ حزن وبؤس لمسلمي لبنان.

اقتطاع لواء اسكندرونة من سوريا:

كان رَدُّ الفعل المباشر لهذا التصرف أن تنادى أبناء سوريا الأحرار، من مختلف مدنها، ومن ضمن تلك المدن لواء الإسكندرونة، الذي كان آنذاك جزءاً من أرض سوريا، ثم اقتُطِعَ لتعطيه فرنسا الغادرة هديةً سخيةً لكمال أتاتورك فيما بعد، مكافأةً له على إلغائهِ الخلافة الإسلامية في أسطنبول، وهي الأمنية التي كان الغرب بأجمعه يتحرَّق شوقاً إلى تحقيقها، منذ أكثر من أربعة قرون.

المؤتمر الوطني بدمشق:

تنادى أحرارُ سوريا، فعقدوا مؤتمراً في دمشق، سُمِيَ بالمؤتمر الوطني، وقرر هذا المؤتمر إعلان سوريا دولةً عربية مستقلةً ذات سيادة، نظامها ملكي دستوري، يرأسُه الملك فيصل بن الحسين، وعلى الأثر شكِّلت أول وزارة عربية برئاسة رضا باشا الركابي، وعُيِّنت بعض الشخصيات المتميِّزة في سوريا آنذاك، وكان من أبرزهم وزير الدفاع يوسف بك العظمة.

أُبلغت قرارات المؤتمر لجميع الدول، وباشرت مختلف الوزارات نشاطها، وعكف رجال القانون على صياغة بنود الدستور.

تهديد (غورو) لسوريا:

كان وقع هذا التصرُّف السريع والحازم من أبناء سوريا على رأس

الجنرال الفرنسي (غورو)، الذي قدم إلى لبنان قائداً للحملة أشبه بالصاعقة التي أفقدته صوابه، ولذلك أخذ يهيىء، ويستعد ويطلب المزيد والمزيد من الجند والسلاح من باريس، لكي يقوم بحملةٍ تأديبيةٍ لغزو سوريا، وضمها إلى السيادة الفرنسية بعد إسقاط حكومتها، وما هي إلا فترة لم تزد على ستة شهور، أحسَّ ذلك الجنرال بأنه قادرٌ على تنفيذ خطته، ولذلك وجَّه فرق جيشه باتجاه سوريا، موجِّهاً إنذاراً إلى حكومة فيصل الوليدة، متضمِّناً بنوداً تعجيزيةً رفضها مجلس الوزراء، بكل إباء وشمم، ثم أردَف ذلك بإنذارٍ ثانٍ محدداً مدةً معينة، وإلا سيبدأ باقتحام دمشق بالقوة، إذا انتهت هذه المدة، وهي أربع وعشرون ساعة مضت دون أن تعلن دمشق التزامها وموافقتها وقبولها بهذه الشروط.

موقعة ميسلون واستشهاد البطل يوسف العظمة:

في تلك اللحظات الحرجة اجتمع مجلس الوزراء السوري الوليد برئاسة الملك فيصل ذاته، تدارسوا الموقف من جميع جوانبه، وكانت الأكثرية تميل إلى الاستسلام، إذ من الواضح أنه لم يكن هناك أية إمكانية للمقاومة، تقابل هذا الجيش اللَّجِب، الذي صقلت تجاربَه ميادين الحرب العالمية الأولى في أوروبا، والمزوَّد بأحدث ما توصَّل إليه الفن العسكري آنذاك من وسائل الدمار.

كان مجلس الوزراء السوري بأكثريته يميل إلى قبول الإنذار، تمشياً مع واقع الحال، بيد أنَّ أحد أعضاء المجلس وزير الدفاع البطل الجريء يوسف بك العظمة صرخ في الأعضاء بصوت جهوري: لأن نموت واقفين خيرٌ من أن نموت راكعين، ثم ألهب شعورهم بكلمات الإباء والشَّمم، مذكِّراً إياهم بوقائع حطين وعين جالوت والقادسية واليرموك، موضحاً لهم كيف نال العرب فوزهم وانتصاراتهم في تلك المعارك الطاحنة، التي قوَّضَتْ عروش قيصر وكسرى أعتىٰ دولتين تحكمان العالم آنذاك، كما حطَّمت غطرسة التتار والصليبيين، وطردتهم من البلاد بعد أن داست على أعناقهم، لا بكثرة عددها، إذ إنَّ نسبة القوى العربية في هذه المعارك جميعها لا تزيد عن الربع

بالنسبة لعدد أعدائهم، فضلاً عن ضآلة العتاد الحربي، الذي قاتل به هؤلاء الأبطال بالنسبة لما بأيدي أعدائهم.

وصول طلائع الجيش الفرنسي:

أثارت كلمات هذا البطل الملتهبة نفوس المجتمعين وألهبت شعورهم، وإذا بهم جميعاً يريدون الجهاد والشهادة، فتوافد الأحرار من أبناء سوريا من مختلف مدنها وقراها إلى ساحات دمشق، للتدريب على حمل السلاح، ثم الاتجاه لملاقاة العدو القادم من الغرب (غورو وجنوده)، وخلال فترة وجيزة كان قد تجمَّع من الأبطال المجاهدين مجموعاتٌ محدودة العدد قد لا يزيد عددها عن أربعمائة فرد؛ اتجهوا بأسلحتهم البدائية سيراً على الأقدام لمقابلة العدو الغادر، وفي قرية ميسَلون التي تقع في الغرب من دمشق على طريق الخط المتَّجه إلى بيروت كانت طلائع الجيش الفرنسي قد وصلت إلى هناك، وهنا كانت حماسة المجاهدين قد بلغت مداها، فأسرعوا إلى الالتحام مع أعدائهم أملاً في أن يقضوا على هذه الطلائع قبل تكامل وصول الجيش الغازي.

نشبت المعركة على الفور، وكان لسان الحال يشير إلى أنها أشبه بعملية انتحارية من قِبَل هؤلاء الأبطال المجاهدين، الذين اعتقدوا أنَّ هدفهم الأسمى إذا لم ينتصروا فإنهم سيخطُّون بدمائهم على ساحات ميسلون أسطراً من الإباء والبطولات تضمن لهم الخلود على مدى الأجيال، وتبقى شعلةً منيرةً تضيىء للأحرار طريق المجد والكرامة.

لم تزد المعركة عن أربع ساعات. كان العدو يقاتل داخل دباباته ومدرعاته وبمدافعه ورشاشاته، بينما هؤلاء الأبطال يحاربون في العراء مكشوفين، وببنادق غير ذات فعالية، وقد لا يتجاوز عتاد الفرد منهم العشر طلقات.

انتهت المعركة، وكان قائدها البطل يوسف بك العظمة وزير الدفاع أول من سطر بدمائه الغالية سفر الخلود في دنيا العرب، حيث كان من أوائل من استشهد في تلك المعركة، ثُم تلاه رفقاؤه يقتدون بفعله الواحدُ تلو الآخر، حتى لم ينجُ منهم إلا القليل الأقل.

فرار رجال الحكومة:

انتشرت أخبار المعركة بسرعة البرق، فلم يجد رجال الحكومة ملاذاً سوى الفرار، وعلى رأسهم الملك فيصل، مغادرين البلاد قَبلَ أن تصل إليهم أيدي خصومهم، أما البطل يوسف بك العظمة فها هو رمز بطولته شامخٌ في ساحة مدينة ميسلون، ظلَّ وسيظل رمزاً لأحرار هذه الأمة، وأمجادها الخالدة.

مؤتمر الصلح:

في تلك الأثناء كان هناك في باريس مؤتمر دُعي بمؤتمر صلح، وهو الذي عُقد على أثر انتهاء الحرب في ميادين القتال في عام ١٩١٨م، إثر انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكان هذا المؤتمر يتحكم في مصائره قادة الدولتين الاستعماريتين المنتصرتين بريطانيا وفرنسا، وكان الرئيس الأمريكي في تلك الأثناء يلتزم الحياد بالنسبة لمشاكل ما بعد الحرب، ويسعى جاهداً لأن يكون هذا النصر الذي تحقق للحلفاء مصباح نور تستطيع بواسطته الشعوب المغلوبة أن تسترد حريتها، وتتحكم في شؤونها وتقرر مصيرها.

أما بالنسبة لروسيا فقد كانت آنذاك مشغولة بتثبيت أقدام الشيوعية فيها، لم يكد يمضي على تقويضها لعرش القيصر في بطرسبرج وإعدام كامل أسرته من عائلة رومانوف، أكثر من عامين.

مقاطعة الرئيس الأمريكي المؤتمر:

كان لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا ووزير خارجيتها (الذي لا أذكر اسمه الآن) والمسيو كليمنصو المعروف (بالنمر)، وهو رئيس وزراء فرنسا، ووزير خارجيته المدعو أرشيد بريان، كانا هما المتحكمان والمسيطران على رسم خريطة العالم آنذاك، وتقاسم مناطق النفوذ فيما بينهما، وكأنهما كلاب تتهارش على جيفة ملقاة، مما أغضب الرئيس الأمريكي، وأثار حنقه وغيظه، وبالتالي حمله على مغادرة أوروبا ومقاطعة ذلك المؤتمر.

استرضاء بريطانيا الشريف حسين:

ولمّا كانت بريطانيا أثناء الحرب قد وعدت الشريف حسين بن علي شريف مكة، عندما كانت تستدرجه لدخول الحرب معها ضد دولة الخلافة العثمانية، بأن يحضر مؤتمر الصلح ضمن الدول المنتصرة، باعتباره حارب الأتراك، ورغم أنها كانت قد طعنته من الخلف بعد ذلك بمدية (سايكس بيكو)، بالإضافة إلى تحطيم آماله بتحجيم حكمه باقتصاره على الحجاز فقط، بعد أن أعلن في عَمَّان بأنه خليفة المسلمين وملك العرب المنقذ، وأُخذت البيعة له على هذا الأساس.

رأت بريطانيا أن تقوم ببعض المجاملة والاسترضاء للملك الحسين بن علي، فأوعزت إلى نجله الملك فيصل الذي غادر لتوِّه سوريا فاقداً عرشه هارباً منها، بأن عليه أن يحضر إلى باريس للاشتراك في مؤتمر الصلح العتيد، موهمةً إيَّاه بأن وجوده سيمكنها من إقناع حلفائها من الفرنسيين بأن يعقدوا اتفاقاً مع الملك فيصل لكي يعود ملكاً على سوريا ضمن شروط ومعاهدة تضمن حقوق الفرنسيين، وعلى هذا الأساس غادر فيصل منطقة الشرق الأوسط إلى باريس.

كانت محاولات الإنكليز إقناع الفرنسيين بعودة فيصل باءت بالفشل، ولذلك ظلَّ فيصل في باريس عدة أشهر يقضم أنامله ندماً وغيظاً على ما قام به للإنكليز وحلفائهم من خدمات مكنتهم من النصر على الأتراك، وكان جزاؤه منهم جزاء سِنِمَّار.

تنصيب بريطانيا الملك فيصل ملكاً على العراق:

قلنا سابقاً أنه في الوقت الذي غادرت فيه البارجة البريطانية التي تُقِلُّ طالب النقيب، الشخصية العربية العراقية المؤهَّلة لحكم العراق آنذاك إلى منفاه في سيشيل كانت هناك بارجة أخرى تمخر عباب البحر، قادمة من أوروبا متَّجهةً إلى البصرة، وعلى متنها الملك فيصل بن الحسين، التي قررت وزارة المستعمرات البريطانية أن تنصِّبه ملكاً على العراق تعويضاً له عن عرش سوريا، كما فعلت الفعل نفسه مع أخيه عبدالله بن الحسين، وهو

الذي كان يطمح إلى عرش العراق، بيد أنَّ بريطانيا لم تَرَ في عبدالله كفؤاً لعرش العراق، ولذا قرر ونستون تشرشل، وزير الحرب آنذاك ببريطانيا، أن يقتطع من أرض فلسطين منطقة عمان والبلقاء، ويوجد فيها أمارة يُجلس على أريكتها عبدالله بن الحسين.

أُستقبل الملك فيصل في ميناء البصرة بمجموعة ضخمة من أعيان العراق ورجالاته، والجميع يعلّقون على وجوده أوسع الآمال على اعتبار أنهم سَيُحكمون بِمَلِكٍ عربي هو منهم لحماً وديناً وعروبة، يملأ غرورهم، ويرضي كبرياءهم، فهم يُحكمون بملكٍ منهم، لا دخيلٍ أجنبي غريب.

استقبال الملك فيصل:

كانوا يستقبلونه ونفوسهم ملأى بالأماني العذاب، والطموحات الضاربة في أعماق دنيا الشموخ والكبرياء، كانوا يستقبلونه، والحماس يتفجَّر من أعطافهم بهجةً واعتزازاً؛ لأنه سيتربع على عرش بغداد: بغداد الخالدة، فيعيد لها أمجادها التليدة التي ملأت بطون التاريخ، يحكم بغداد ملك عربي بعد أن غاب عنها قرابة ثمانمائة عام، بعد أن غادرها آخر ملك عربي هو المستعصم بالله العباسي الذي أعدمه التتار على يد هولاكو عام ٦٥٦ هجرية، أعدَمَهُ وأسرتَه، وأحال بغداد وما فيها من كنوز وأمجاد ومعالم حضارية خالدة، إلى أكوام من الرماد والدمار والخراب.

أمنيات أهل العراق وطموحاتهم:

يستقبل أهل العراق الملك فيصل وأمام بصائرهم خريطة بغداد، بغداد المنصور، بغداد الهادي والمهدي، بغداد هارون وابنه المأمون، بغداد المعتصم، يتمثلون هؤلاء ويشخصون بغداد في عهد هؤلاء درةَ الدنيا، وفريدة الدهر.

بغداد الرشيد:

يتصورون الرشيد وهو يتجوَّل على متن جسرها في الرَّصافة، يرافقه صديقاه وأخلص المخلصين لدولته، جعفر ويحيى أبناء خالد البرمكي، يسير

الثلاثة معاً على الجسر، في هدأة الليل، وإشراقة البدر، فيبصر الرشيد غمامةً تسدُّ الأفق، وما تلبث أن تزمجر بالرعد والبرق، ثم تهب رياح تبعدها عن بغداد، فينظر إليها الخليفة هارون بثقة واعتزاز، موجِّهاً إليها الخطاب (على سبيل المجاز): «سيري أين شئت، فإنَّ خراجَك سيبلغني»! كنايةً عن سعة الملك، وعنفوان السلطان، وكأنه يقول: أنه مهما امتدَّ سيرُك في الأفق البعيد على وجه الأرض، فإنَّ ما ستفرغينهُ من ماء على أيِّ بقعة مهما نأت وبعدت، سيصلني خراج ما ينتج من ماءك هذا من محصول وثمار.

أمجاد وبطولات الأمة العربية:

الله أكبر ما أروع المجد! ما أروع المعنى وأعمقه! ما أشد تأثيره في نفوس الأحرار، وبالأخص أولئك الذين لم تتح لهم فرصة معايشة تلك الأمجاد إلا عبر بطون الكتب! يستشعرون في أعماقهم هذه الدنيا المليئة بأمجاد الأمة العربية، أمة كانت سيدة العالم آنذاك بدون منازعٍ، قوةً وعلماً وحضارةً وثراءً، بينما يعيشون في واقعهم في ظروفنا الحاضرةِ وقد ارتكست أنوفهم في أعماق الوحل والظلام.

بغداد المنصور:

بغداد الخالدة التي كانت قبلة الدنيا، كانت أضواؤها ومعارفها تضيء جنبات الأرض، كانت شعوب العالم آنذاك تَحثُّ الخطى من مختلف بقاعها، متجهةً إلى بغداد لتنهلَ من نور المعرفة والحضارة، بغداد الخالدة يتصورونها فيتصورون معها المعتصم العباسي وقد حفزته النخوة الإسلامية والإباء العربي، حينما نمى إلى علمه أنَّ امرأةً مسلمةً قد استنجدت به حينما حاول إيذاءها أحد علوج جيش بيزنطة، فقالت: «وامعتصماه» وذلك على إثر إحدى المعارك، التي دارت على الحدود الشمالية لدولة الخلافة في مدينة قونيه، وهي مدينة ما زالت معروفة إلى الآن، وتقع في شرق تركيا وتحتضن الآن ضريح جلال الدين الرومي، المتصوِّف المعروف.

لم يكد المعتصم يسمع بهذا النداء من تلك المرأة العربية حتى بادر

من فوره بتسيير جحافل الجيوش، الواحد تلو الآخر، وما هي إلا عدة أسابيع، رغم بُعد المسافة بين بغداد وقونية، حتى كان الجيش الإسلامي يمزِّق جحافل الجيش الرومي، ويقضي عليه مُخَلِّصاً لتلك المرأة، معيداً لها كرامتها، ومثبتاً لها بلسان الواقع، أنها حقاً استغاثت بمغيث، وقد سجل التاريخ هذا الموقف الرائع على لسان الشاعر العربي أبي تمام، في رائعته الخالدة التي سجَّل فيها فتح عمورية والتي مطلعها:

السيفُ أصدق إنباءً من الكتبِ   في حدِّهِ الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ

كما سجلها من الجانب الآخر ممثلاً لهوان العرب في حاضرهم الآني الشاعر الحر عمر أبو ريشة ضمن رائعته التي يقول فيها:

رب وامعتصماه انطلقت   ملء أفواهِ الصبايا اليُتَّمِ
لامست أسماعَهم لكنها   لم تلامس نخوةَ المعتصمِ

وصول موكب الملك فيصل إلى بغداد:

وصل موكب الملك فيصل بن الحسين ومرافقيه إلى بغداد قادماً من البصرة، وكانت معالم الزينة والأفراح قد أُقيمت في طول البلاد وعرضها، وهو يوم بلا شك خالد في دنيا العرب، بل يمثل عرسها الأبهى والأجمل.

صياغة دستور الحكم:

شُكلت الحكومة، وَفقاً للمنهج الديمقراطي، وأُعلنت حكومة دستورية ذات سيادة، وفي الوقت نفسه، كلفت مجموعة من أبناء بغداد والبصرة وكبريات مدن العراق ممَّن قُدِّر لهم الدراسة العليا في مدارس الدولة العثمانية في إسطنبول، قبل انهيار تلك الدولة، وكان الكثيرون منهم يحملون شهادات عليا في دراسة القانون.

كلفت تلك الهيئة بصياغة دستور جديد، ينظم الحكم في البلاد، لكي تتم على أساسه الانتخابات وفقاً للمنهج النيابي الديمقراطي.

تشكيل جهاز الحكومة:

وفي الوقت نفسه شُكِّل جهاز الحكومة الذي تألَّف من عدة وزارات، منها الدفاع، وأسند إلى حيدر رستم، والمعارف وأسندت لساطع الحصري، وهكذا بقية الوزارات الأخرى، التي أخذت في عقد جلساتها وتبني من الصفر مؤسسات الدولة المستقبلية.

ومن المعلوم أنَّ بغداد وغيرها من مدن العراق، وكذا المدن العربية الأخرى، كان هناك من أبنائها كثير ممن تلقوا تعليمهم في تركيا، عندما كانت الدولة العثمانية آنذاك، قبل أن تنكب بمجموعة من أبنائها، الذين تلقوا دراساتهم العليا في باريس ولندن وبرلين، كأنور وطلعت وجمال ومحمود شوكت، وأمثالهم من الأتراك الذين أوجدوا في دولة الخلافة نعرة الطورانية (التتريك)، وأخذوا يناوؤون العنصر العربي، ويحاولون إبعاده عن مناصب الدولة، ومراكز النفوذ فيها، مما أوجد عداءً بين العنصرين كل منهم يعتزُّ بقوميته، بينما كانت الدولة قبل مجيء هذه العناصر الخبيثة أُمّاً للجميع، لا تميز بين ترك أو عرب أو أرمن أو أي عنصر آخر، وإنما تحتضن الجميع تحت راية الخلافة الإسلامية الحانية.

تأسيس دولة العراق الفتية:

كان يوجد في بغداد عند تنصيب فيصل، والمناداة به ملكاً على العراق مجموعة كبيرة من أبناء الأمة العربية، ممَّن نالوا حظاً وافراً من الثقافة والمعرفة، فأصبحوا يمثلون اللبنة الأساسية في رفع صرح هذه الدولة الفتية، وكان من أبرز أولئك الرجال، على سبيل المثال لا الحصر، نوري باشا السعيد، وياسين باشا الهاشمي، وطه ياسين الهاشمي، وجعفر العسكري، وحيدر رستم، وطالب النقيب، وساطع الحصري، وغيرهم وغيرهم كثير جداً ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن، والذين كان لسواعدهم القوية، وحماسهم الوطني أكبر الأثر في تأسيس دولة العراق الفتية.

مهرجان تأسيس الدولة:

ظلت بغداد تنعم في عرس مهرجان تأسيس الدولة، وتنصيب الملك العربي العتيد ملكاً دستورياً على عرشها. ظلت في أعراس أفراحها أسابيع وأسابيع، ولم تتأخر قرية أو مدينة عن المشاركة في هذا العرس الخالد، الذي لم يقتصر صداه على العراق وحده، بل كان شاملاً للعالم العربي في مختلف بقاعه، وكيف لا وأنه يعلن عن إعادة مجد العباسيين في العراق.

أحابيل المؤامرة:

في ذلك الوقت إبان مهرجانات الاحتفالات والأفراح، كانت تتم في دهاليز الظلام أمور تعاكس هذا العرس، وتفرغه من مضمونه، بل تحيله إلى مأتم إن صحَّ هذا التعبير.

كانت هناك أحابيل بريطانيا وعقدها اللئيمة الماكرة، تنسج خيوط الحكم في العراق، وَفْقاً لما تريده، وتخطط له.

كانت عناصر المؤامرة ضد الحكم الوطني الحر تُحاك وتدبَّر، انطلاقاً من دار المندوب السامي البريطاني آنذاك، التي كان من ضمن الشروط التي أبرمت بين بريطانيا وثوَّار العراق، والذي أذعنت بموجبها بريطانيا ليحكم العراق أحدُ أبناء العروبة.

الحية الرقطاء:

في دار المندوب هذا، وكان اسمه ـ إن لم تخني الذاكرة ـ (كونراليس) حيةٌ رقطاء، تدعى (جروت بل). كانت هذه الحية تمسك بخيوط السياسة والإدارة، وجميع شؤون الحكم في العراق، بكلتا يديها، تنسج خيوطها في الظلام، بحيث تنفذ كل ما تريدُ، أو على الأصح كل ما تأمر به وزارة المستعمرات في لندن، بدون أن يحس أحد، أو يشعر بوجودها، وإنما تبرز جميع التصرُّفات الخاطئة على السطح، وكأنها تصرفات رجال الحكم والإدارة من أبناء العراق.

دار المندوب السامي البريطاني:

استطاعت هذه الحيزبون، في خلال أشهر معدودة أن تجعل من مكتبها في دار المندوبية قِبلة لكل طامع في مجد أو جاه، وتدريجاً أخذ القادة والزعماء العراقيون على مختلف مراتبهم وكفاءاتهم، يستلهمون منها العون والتوجيه، والتمكين لهم للوصول لما يريدونه من مجدٍ وجاه.

أحلام تلاشت:

ومعنى ذلك أنَّ الحكم الوطني الذي صفق الشعب وهلَّل لمولده، وبُذلت في سبيل الحصول عليه، دماءٌ عزيزة غالية من أبناء العراق الأحرار، قد أصبح مجرَّد حلم ما كاد يبرز للوجود حتى ذهب وتلاشى، وحتى سَنَح لأحدِ أبناء العراق، وهو الشاعر المعروف، معروف الرصافي، بأن يصف هذا الحكم بريشة الفنان المتعمق في بيت من الشعر ضمن إحدى فرائد قصائده، إذ يقول:

عَلَمٌ ودستورٌ ومجلسُ أمةٍ   كلٌّ من المعنى الصحيح مُجَرَّدُ

يقظة أحرار العراق:

كانت وزارة المستعمرات في لندن قد أخذت تستعيد ثقتها بنفسها، وبصحة تقديراتها وكفاءة رجالها، إذ خُيِّل إليها أنَّ الوضع في أرض العراق سيستمر وفقاً لرغباتها، وطبقاً لما ترسمه وتخططه من عقد ومكايد نتيجةً لما كان يرفع إليها من مندوبها في العراق من تقارير ومعلومات، عن سَيْر الأمور في أجهزة الدولة الجديدة، بيد أنَّ أحرار العراق الذين سَبَق أن ضحوا بدمائهم قد أدركوا ما تدبره بريطانيا لهم، وأنَّ موافقتها لإنشاء حكم وطني في العراق على رأسه ملك عربي، إنما هو طُعْمٌ قدَّمته لهم؛ لامتصاص ثورتهم ونقمتهم، ولذلك فقد أخذوا بمناوأة هذه السياسة، ومقاومتها بكل عنف وشدة، وقد تمثَّل ذلك أول ما تمثَّل في صبِّ غضبهم وسخطهم على أولئك الرجال الذين يتولون مناصب الحكم والإدارة من العراقيين، والذين يخالونهم صنائع لدار المندوب السامي البريطاني.

ضعف النفوذ البريطاني:

ورويداً رويداً ابتدأت تختفي من الساحة تلك المجموعات من الرجال، التي كانت تحوم حول دار المندوب، كما يحوم الذباب، وابتدأت تبرز إلى الساحة عناصر وطنية من الشباب المتحمِّس؛ الذي يقاوم بكل ما يملك من قوة، كل إجراء أو تصرُّف صادر من دار الانتداب لا يرونه في صالح وطنهم، وعلى ذلك فقد ابتدأ النفوذ البريطاني يضعف شيئاً فشيئاً، حتى أصبح أيُّ طامع من هواة الزعامة والجاه يفكِّر ألف مرة ومرة قبل أن يقترب ويحوم حول دار الانتداب.

نَسْرٌ في قفص:

كان الملك فيصل، وهو مَنْ هو ثقافةً وتجربةً وممارسةً للسياسة، وشؤون الحكم، قد أحسَّ منذ وصوله بغداد أنه أشبه بنسر احتواه قفص، ولذا عاش شهوره الأولى حزيناً كئيباً، منقطعاً عن الاتِّصال بأفراد شعبه إلا من ترضى دار الانتداب عن الاتصال به، ولذا فقد أخذ يتنفس الصعداء، وابتدأت علاقاته تنمو وتتقوى مع أحرار البلاد، وإن كان ذلك في نطاق محدود، وَفْقاً لما تمليه الظروف السياسية آنذاك.

دخول العراق في عصبة الأمم:

كانت عصبة الأمم قد أقيمت، وباشرت أعمالها في جنيف بعيد نهاية الحرب العالمية الأولى ١٩١٨ م، وكان العراق من ضمن حصة بريطانيا من الحصص التي تمَّ تقاسمها على خارطة العالم في باريس في مؤتمر سايكس بيكو، بيد أنَّ ثورة العراق، وطرده لجنود الاحتلال، وإبرامه اتفاقاً مع بريطانيا، يلزمها بأن تسعى لإدخاله ضمن عصبة الأمم كعضو مؤسس أسوةً ببقية الدول، وهذا ما تمَّ فعلاً، فقد أصبح العراق عضواً في هيئة الأمم مستقلاً، له مكانته القانونية بين شعوب العالم، فأخذ العراق يفك قيود المعاهدة شيئاً فشيئاً، حتى استطاع أن يتحرر من قيودها وأغلالها بما لا يقل عن ٩٠٪، الأمر الذي أتاح للملك فيصل أن يتحرَّر، وأن يضع

يده في أيدي شعبه لبناء العراق الحديث، ولعلَّ الفنان المبدع والموسيقار العظيم محمد عبدالوهاب لم يُجانب الصواب حينما ترنَّم على أوتار قيثارته منشداً:

يـا شِـراعـاً وراء دجـلـةَ يـجـري   مـن دمـوعـي تـجـنـبـتـك الـعـوادي
سر عـلـى الـمـاء كـالـمـسـيـح رويـداً   وامـش فـي الـيَـمِّ كـالـشـعـاع الـهـادي

إلى أن يقول واصفاً شعب العراق وأمة العراق:

أمـة تـنـشـىء الـحـيـاة وتـبـنـي   كـبـنـاء الأبـوة الأمـجـادِ

الشريف فيصل بن الحسين مع الملك عبدالعزيز آل سعود:

وقد كانت طموحات فيصل رحمه الله أن يتعالى على جراحه، وأن يسمو على الألم، طمعاً في مجد أمته وتوحيد كلمتها، ودفعها بقوةٍ لكي تقتعد قمةَ المجد، كما كانت تفعل في الماضي، فأقدم على خطوات جريئة في هذا الشأن، في مقدمتها اجتماعه بخصمه جلالة الملك عبدالعزيز آل سعود رحمه الله، فقد تمَّت الترتيبات لعقد لقاءٍ بين الخصمين لأول مرة في التاريخ، وتمَّ هذا الاجتماع في أحد شهور عام ١٩٣٠م، على ظهر البارجة البريطانية (لوبن) في عرض البحر، في مكان متوسط بين رأس تنورة وميناء البصرة على الخليج العربي.

وقد حُمِدَت هذه الخطوة لفيصل بن الحسين كما حمدت للملك عبدالعزيز، من قِبَلِ جمهرة أحرار العرب ومفكريهم آنذاك؛ لأنها خلقت في أنفسهم انطباعاً يشي بانبثاق فجر جديد، تلوح تباشيره من أعماق الأفق البعيد، مبشِّراً بقدوم وحدة العرب الكبرى التي هي حلم وأنشودة كل عربي حر.

عاد الملِكان كلٌّ منهما إلى عاصمته بعد أن تبادلا الرأي، مُسْتعرضَين أوضاع الأمة العربية في مختلف بقاعها، وأوضاع الأمة الإسلامية عامةَ التي مزقتها براثن أعدائها غلاة الاستعمار في الغرب شرَّ ممزق.

تلاحق الأحداث في العراق:

سارت الأحداث بطيئة متلاحقة على أرض الرافدين خاصةً، وكانت تلك الأحداث، التي مرت على العراق بعد هذا اللقاء، من التنوع والضخامة والألم والحسرة أكبر من أن نلم بها في هذه العجالة، فنكتفي بذكر رؤوس أقلام موجزة عناوين لتلك الأحداث.

موت الملك فيصل واعتلاء الملك غازي الأول العرش:

حَكَمَ فيصل العراق بضع سنوات، ملأى بالأسى حيناً، وبالأمل والرجاء حيناً آخر، ثم عاد إلى بلاده بعد أن مرض، وذهب إلى الغرب للعلاج، عاد جثماناً، فقد لقي ربه في أوروبا. تلقفت نعشه الجماهير باكيةً حزينةً، واعتلى العرش من بعده ابنه الوحيد غازي الأول، وكان قمةً في الحماس لأمته العربية، بلغت به جرأته وحماسه أن يضرب بعنف الآشوريين، الذين أرادوا التمرد على حكمه، والانفصال عن دولته.

إخماد الملك غازي تمرُّد الآشوريين:

أخمد تمردهم بضربة قاضية من سلاح الطيران آنذاك ضارباً باحتجاج الإنكليز ومعارضتهم لتصرفه هذا عرض الحائط.

موت الملك غازي:

بيد أنَّ هذا الأمل الذي لاح في الأفق مركزاً راية العرب في أعماق الفضاء لم يمض عليه أكثر من أربع سنوات حتى صرعه الموت، لاصطدامه بسيارة كان يقودها، اصطدمت بعامود كهرباء في أحد شوارع بغداد، كما صوَّرته أجهزة الإعلام الإنكليزية آنذاك، والواقع على ألسنة مواطنيه، في بغداد، أنه قتل عمداً بيد الإنكليز تخلُّصاً من وطنيته.

عبدالإله وصيٌّ على العرش:

شغر العرش في قصر الرحاب في بغداد نتيجةً لهذه الفاجعة، التي أبكت الأمة العربية والإسلامية، أياماً وأياماً. وكان غازي الأول قد أنجب

طفلاً صغيراً قبيل مصرعه من ابنة عمه الملك علي بن الحسين (وهو الذي سَلَّم الحجاز للملك عبدالعزيز عام ١٣٤٤هـ)، سُمِّي هذا الطفل باسم جده فيصل الثاني، وكان ابن الملك علي المدعو عبد الإله، وهو خال الطفل فيصل الثاني، فكانت للإنكليز فرصةً ذهبيةً اهتبلوها، ليقيموا عبد الإله هذا وصياً على العرش، ريثما يبلغ الطفل رشده، ويتسلَّم زمام العرش من خاله هذا.

كان عبد الإله فتىً طائشاً، محدودَ التفكير، لم يتجاوز العقد الثالث من العمر تقريباً، جاهلاً بأمور السياسة والحكم، وهو ما كان يطمح إليه الإنكليز، لأنهم بواسطته سيُحكِمون قبضتهم على شؤون العراق في مختلف مناحيها واتجاهاتها، ومن ثم أحاطوه بنوعية من الرجال، الذين كانوا على الساحة آنذاك أمثال نوري السعيد وأضرابه ممن لا يزيد ولائهم لوطنهم عن ولائهم لبريطانيا.

منع الجيش العراقي من دخول معركة فلسطين ١٩٤٨:

ظل العراق، نتيجةً لهذا الوضع، تسير أموره بخيوطٍ خفيَّة، تديرها وزارة المستعمرات في لندن، كيفما أرادت، مما نتج عنه أن أصيبت الأمة العربية بضربات موجعة، لعلَّ أقلها منع الجيش العراقي البطل من اقتحام معركة تحرير فلسطين في عام ١٩٤٨م عندما كانت بقية الجيوش العربية ملتحمة على امتداد ساحات المعركة في أرض فلسطين مع العدو الصهيوني، الذي كان يترنَّح آنذاك، لو اشترك الجيش العراقي في تلك المعركة لما قامت لإسرائيل دولة.

موقف مُخزٍ:

لقد كان ذلك الموقف موقفاً مخزياً، بكل ما تعنيه هذه الكلمة. كان ضباطه وجنوده يتحرقون غيظاً، ويكادون ينتحرون، لمنعهم من المشاركة من قبل قائدهم الأعلى، المدعو الجنرال الداغستاني، الذي لا أذكر اسمه الكامل الآن، الذي كان جوابه لجنوده: (ماكو أوامر) أثبت التاريخ فيما بعد

أنَّ الأوامر التي أرسلت إليه من بغداد بتوقيع عبد الإله الوصي على العرش، باعتباره القائد الأعلى للقوات المسلحة العراقية تمنع هذا القائد وجنوده منعاً باتاً، بأن يطلقوا أي رصاصة على العدو، وهذا بدون شك ما أرادته بريطانيا علماً بأنَّ الجيش العراقي كان موجوداً في مدينة قَلْقِيْلِية على بعد عشرة كيلومترات من تل أبيب كان في وسع مدافعه أن تضرب تل أبيب بكل سهولة ويسر.

سقوط وزارة العراق:

سقطت وزارة العراق التي كان يرأسها آنذاك المرحوم مزاحم باشا الباجهجي، وكأن الإنكليز أرادوا أن يستروا سوأتهم التي انكشفت للعالم أجمع، وللأمة العربية خاصة، بمعرفة الجميع أن عبد الإله هو دمية بأيديهم لا حول له ولا طول.

نوري السعيد رئيساً لوزارة العراق:

مرت الأحداث متلاحقة في العراق، وجاء الإنكليز بصنيعتهم نوري باشا السعيد، ليرأس الوزارة العراقية خلفاً للباجهجي، ويزعم تشكيل لجنة تحقق في أسباب منع الجيش العراقي من الاشتراك في معركة فلسطين، ولكن هذه كانت لعبة مكشوفة، فما هي إلا أيام حتى أسدل الستار على هذه اللجنة.

كان الشعب العراقي يختزن في أعماق نفسه أثار هذه الخيانة، التي ألصقت بجيشه، ألصقت بسمعة العراق، ولذلك كان الجيش يتململ ويتوجع ويئنُّ ويشكو، ويترقَّب الفرص للانتقام من هذه الفئة الضالة من أبنائه، الذين ألبسوه ثوب العار من انقيادهم لأعدائهم.

ثورة ضباط جيش العراق الأحرار وقيام الجمهورية العراقية:

تجلَّى هذا الغضب عندما سنحت الفرصة في عام ١٩٥٨م، عندما كان الملك فيصل الثاني مدعواً، هو وخاله الوصي عبد الإله، لاجتماع في تركيا، وأثناء وجودهم في المطار، اهتبلها الشعب فرصة، فقام أحد أبنائه

الضباط، المدعو عبدالكريم قاسم مع فئةٍ من أبناء العراق الأحرار، كعبدالسلام عارف، وكاظم الطبقجلي، ورفعت الحاج يسري، ومحمد الشوَّاف وغيرهم من ضباط جيش العراق، وأعلنوا ثورتهم على الحكم القائم.

انفجار براكين الغضب:

وما هي إلا ساعات حتى سيطروا على جميع أجهزة الحكم، معلنين قيام الجمهورية في العراق في الوقت الذي انفجرت براكين الغضب في نفوس الشعب العراقي، فانطلقوا يملؤون شوارع بغداد، يتصيَّدون العملاء والأذناب، ويبطشون بهم أعنف البطش، ويكفي دليلاً على ذلك أنَّ الوصيَّ عبد الإله ظلت الجماهير تسحب جثته بحبل من شارع إلى شارع في بغداد، والجميع يركله برجله ويبصق عليه.

مصير نوري السعيد:

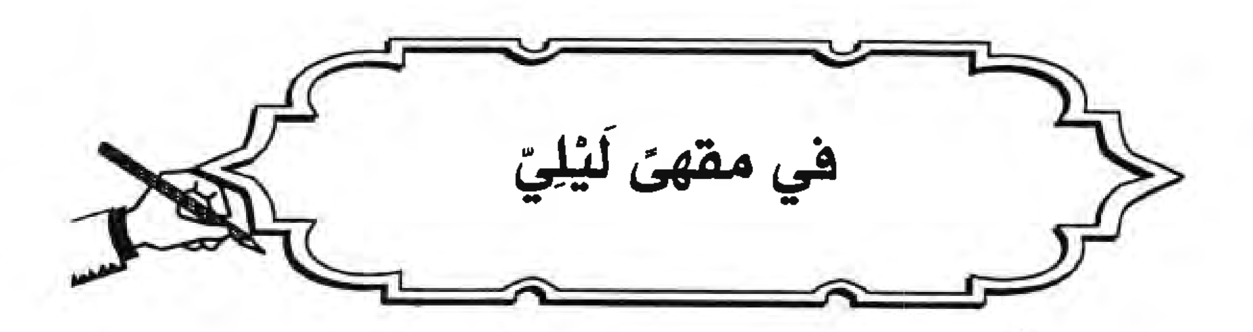
أما نوري السعيد فقد تنكر في زي امرأة، فلم يكن أقل حظاً من زعيمه عبد الإله. ظلَّ مختفياً في دار أحد أصدقائه في بغداد بضعة أيام، مختفياً عن أعين الجماهير، التي كانت تنقِّب عنه، وتبحث في كل ركن ومنعطف، حتى إذا ما توهم أنَّ العاصفة قد هدأت، وأنَّ البحث عنه قد توقَّف خرج من مخبئه مرتدياً لباس امرأة، محاولاً الفرار عن بغداد بأيِّ وسيلة، ولكن أبى الله إلا أن يذيقه سوء عمله، فبينما كان يسير في أحد الشوارع يتخفى تحت عباءة امرأة، إذ لمح أحدُ المارة البنطلون، فشكَّ فيه، فصرخ بأعلى صوته: هذا هو، هذا هو، عندئذ أدرك نوري أنه قد اكتشف، فأسرع راكضاً فراراً من الجماهير، التي أحاطت به في لحظات، ومزَّقته شرَّ ممزَّق في شوارع بغداد.

فواجع متلاحقة على أرض الرافدين:

كانت هذه الثورة دامية بشعة قاسية فظة، مغايرةً لمقاييس كل الثورات عبر التاريخ، وكأنَّها بركان انفجر فجأةً فدمَّر كلَّ شيء. ونتائج هذه الثورة

تتالت بمآسي وفواجع تلاحقت، ولا زالت على أرض الرافدين كلٌّ منها أشد قسوة من الأخرى، حتى آلت حال العراق إلى ما هي عليه الآن في عهد صدام، من الواضح أنَّ تتبع هذه الأحداث زمنياً، وتسجيل تفاصيل أحداثها يطول شرحه، ويحتاج إلى مجلدات، ولذا فإني أرى أنَّ فيما سَجَّله التاريخ ويسجله غنيةً وكفاية.





(عود على بدء):

أعود إلى فندق الرضا والتاريخ هو أحد الأيام من الربع الأخير من عام ١٣٦٨هـ، وأواصل الحديث.

سبق أن شرحت عن مُحدِّثي في صالة الفندق (وهو صاحبه) عن الإلفة والاستلطاف التي نشأت بيني وبينه، وكنت معجباً بحديثه، توّاقاً للاستزاده منه ما أمكن، وكان هو بدوره يبادلني هذا الشعور، بيد أنَّ الذي حدث هو أنني في اليوم الثاني من نزولي في الفندق، لم أستطع مغادرة غرفتي والنزول إلى صالة الفندق، نتيجةً لما ألَمَّ بي من مرض، ماثلاً في قُشعَريرة وارتفاع في الحرارة أخذت تعاودني ما بين فينة وأخرى، فاضطرتني إلى ملازمة الفراش، وقد ظلَّ هذا الوضع أربعة أيام متوالية رغم ما كنت أتناوله من أدوية، وهي حبوب لا أعرف اسمها، وإنما وصفها لي الطبيب الذي أُحضر إليَّ في الفندق بناءً على طلبي، وفي اليوم الخامس شعرتُ بشيءٍ من التحسُّن والنشاط، فآثرتُ النزول إلى الشارع رغبةً في مشاهدة شوارع بغداد من جهة، ولأنَّ المشي من طبيعته يجدد النشاط.

شارع أبي نواس:

كان الشارع، الذي كنتُ أسير على أحد أرصفته، يُدعى بشارع أبي نواس، كانت المعالم الحضارية في هذا الشارع تكاد تكون بدائية، ومع ذلك فقد واصلت سيري لما أحسستُ به من نشاط، كان الوقت آنذاك ضحى، وبعد مسيرة نحو ساعة استرعى انتباهي لوحة كُتِبَ عليها (صالة أبي نواس)،

عُلِّقت على باب واسع في أحد جوانبه كشك لبيع تذاكر الدخول.

صالة أبي نواس:

علمت من أحد الواقفين، بأنَّ هذا الباب يُفضِي إلى صالةٍ واسعةٍ، تقام فيها عروض ترفيهية، يحضرها الكثير من المواطنين على مختلف مستوياتهم. وبدافع غريزة الفضول، ورغبة في المعرفة والاطلاع، قررت أن أدخلَ هذه الصالة لأرى وأسمع.

كانت الصالة تحتوي على صفوف من الكراسي قد تبلغ الثلاثين، وكلُّ صفٍّ به ما يقرب من عشرين كرسي من كراسي الخيزران العادية، لا شيء جديد في هذه الصالة يُلفت النظر إلا أنَّ في مقدمتها مربع من الأرض يرتفع عن أرض الصالة بنحو نصف متر، يُصعد إليه على درج، ومساحة هذا المربع في حدود أربعة عشر متراً.

أغاني عراقية:

نُصِبَ في وسطه عمود من النحاس، يعلوه ميكرفون، وأمام هذا الميكرفون فتاةٌ في حدود العشرين من العمر، تغني للجمهور أغانيَ عراقية مقلِّدةً مطربة العراق الشهيرة آنذاك عفيفة اسكندر، وكان صوتُها شجياً، وكانت تتمايل يَمْنةً ويَسْرة وَفقاً لنبرات الصوت.

جمهور الحاضرين:

كان أكثرية جمهور الحاضرين تتألَّف من فئة تُعرف في العراق بالفلاحين، وهم أشخاص يمتلكون أراضٍ شاسعة، يستغلونها بواسطة أُجراء مما جعلهم يُعتبرون من الإقطاعيين وعلى جانب من الثراء.

كان لباسهم يتكوَّن من الثوب السميك من الصوف، حيث كان الوقت شتاء، يعلوه جاكيت من القماش نفسه، ويعتمر الفرد على رأسه شماغاً أزرق اللون، يعلوه عقالٌ أسود سميك جداً، وكأنه وهو على رأس الفرد منهم أشبه ما يكون بكفر أو عجلة.

المطربة راوية:

أما المطربة هذه فقد علمت فيما بعد بأن اسمها راوية، وأنها من مطربات العراق الناشئات.

كان التخت الموسيقي الذي يرافقها، ويجلس خلفها مباشرة، يتكوَّن من خمسة رجال، وبعض الفتيات الواقفات خلفهن. ولأني أدخل مثل هذه الصالة، وأشاهد مثل هذا العرض، لأول مرة في حياتي؛ فقد حرصت على أن يكون موضعي ضمن الصف الأول.

كانت الفتاة رخيمة الصوت، وكانت موسيقى الآلات تصدح بعنف (كما هي الموسيقى العراقية).

هياج وفوضى:

وكان الجمهور يصفِّق بحماس وانفعال، وبعضهم يصرخ بأصوات بذيئة، ويكرر عبارات ينبو عنها الذوق السليم، حتى آلَ الأمر أن تكون الصالة في شبه هياج وفوضى، مما يوحي بأنَّ هؤلاء الرجال قد لعبت برؤوسهم الخمر وشربوا حتى الثمالة.

ثور هائج:

وفي هذا الجوِّ الصَّاخب، كنت أركز نظري على آلات الموسيقى إذا بحركة عنيفة وهياج مزمجر في مؤخرة الصالة، فالتفت خلفي لأرى. ويا لَبشاعة ما رأيت، إذ أبصرت أحد الرجال وقد انفرط عقاله على رقبته، مقبلاً كالثور الهائج، فاتحاً بنطاله... ومندفعاً نحو الفتاة التي تغني لافتراسها. فما كادت تبصره الفتاة، حتى صرخت مستنجدةً بالجمهور الذي هبَّ محاولاً إنقاذها من هذا الثور الهائج. أما أنا فقد أسرعت مهرولاً إلى الباب نافداً بجلدي، لأني لم أعتد رؤية مثل هذا المنظر.

العودة إلى الفندق:

عدت إلى الفندق مصمِّماً على العودة إلى مضيفي بالنجف، مختصراً زيارتي لبغداد، ومصمِّماً في الوقت نفسه أن أعود إليها في أقرب فرصة

سانحة، يكون الوقت الذي أمضيه فيها مفتوحاً وغير محدَّد حتى أروي ظمئي من مشاهدة معالم أمجادها، أتجوَّل في الرصافة وأردد مع ابن الجهم قوله:

عيون المهابين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أشاهد معالم قصر الخلد، معالم دار الحكمة، معالم الأمجاد والخلود، معالم دار السلام، التي كانت قبلة الدنيا، ودرَّة المدن.

وصول مرافقي عباس عطا:

ما كدت أصل الفندق، حتى صعد إليَّ ابن مضيفي الشاب عباس عطا الحاج عطا قادماً من النجف، وقد سررت بمجيئه أيَّما سرور، لأنَّ مجيئه وافق هوىً في نفسي، لكي أغادر بغداد، نزلنا هو وأنا مطعم الفندق، فتناولنا طعام الغداء، وسدَّدت للفندق حسابه، وودعت الرجل الطيب صاحب الفندق، الذي كان يعزُّ عليَّ فراقه، والذي أخذ وهو يودعني يلح ويتوسَّل ببقائي ولو لمدة أسبوع، واعداً إيَّاي بأنه سيتفرَّغ لي ويصطحبني معه في جولات يومية على جميع أحياء بغداد ومعالمها.

شكرته كل الشكر على عاطفته تلك، وأوضحتُ له أنَّ ذلك يسعدني، وهو غاية أمنيتي، بيد أنني موظف حكومي أقوم بعمل محدَّد لا أملك معه حريتي الآن، موضِّحاً له بأني سأكون على اتصال مستمر معه، وأني بحول الله وقوته سأعود إليه مرة أخرى في وقت لن يكون بعيداً بإذن الله.

العودة إلى النجف:

عدت مع مرافقي عباس بعد الظهر على الطريق نفسه الذي قدمنا منه، ضمن ركاب إحدى الحافلات المتجهة من بغداد إلى النجف، حيث وصلناها قبيل الغروب من ذلك اليوم، وإذ كان وصولنا النجف تَم وفي اليوم بقية فقد رغبتُ من مرافقي عباس أن نتجول في أسواق النجف مشياً على الأقدام، قبل أن نذهب إلى بيت والده.

التجوُّل في شوارع النجف:

كانت حركة الشوارع متوسطة الكثافة، وكان أكثر ما يملأ الحوانيت هي المواد الغذائية على مختلف أنواعها، على أنه يوجد مجموعة من الحوانيت متفرقة هنا وهناك، تزاول مهنة بيع الأقمشة، سواء ما كان منها إنتاج محلي أو كان مستورداً من الخارج، وقد استرعى انتباهي أنَّ هناك أنواعاً من أقمشة الصوف من إنتاج محلي، يفوق في جودته ما كانت تنتجه مصانع لانكشير البريطانية.

أبناء المتعة:

بعد نحو نصف ساعة من تجوالنا، ونحن في الطريق إلى بيت والد عباس، كنت أشاهد الكثير من الصبية (الذكور) ممن قابلتهم، يتجولون في الأسواق، يعلِّقون في آذانهم أقراطاً من الفضة، ولما كنت أعلم أن مثل هذه الأقراط إنما مكانها آذان الفتيات لا الفتيان فقد استوضحت من مرافقي، الذي أجابني بقوله: إنَّ كل من تراه يحمل قرطاً في أذنه من الذكور، فإن ذلك يعني أنه ابن متعة، والمتعة معروفة عند فقهاء الشرع، وهي التزوُّج لمدة محددة، يفترق بعدها الزوجان، وما قد ينتجه هذا الزواج من ذرية وخاصة، الذكور، فإنه لا بد أن يوضع في أذنيه هذا القرط تمييزاً له عن غيره من الفتيان الذين أتوا عن طريق الزواج الشرعي المعروف.

مغادرة النجف:

في اليوم التالي لوصولي النجف غادرتها بعد أن ودّعت مضيفي وشكرتُه كلَّ الشكر على ما أحاطني به من عناية وإكرام، وما أسبغه عليَّ من منة وفضل.

غادرت النجف على إحدى السيارات العراقية، التي كانت ساعتئذ محمَّلة بالأطعمة كالدقيق والتمر، من مستودع مضيفي الحاج عطا الياس نفسه مرسلةً لأحد التجار العراقيين الموجودين في مركز الدويد بالسعودية للمتاجرة مع البادية السعودية.

سارت السيارة بُعيد شروق الشمس في تُؤدة وهدوء، وهي سيارة قديمة من النوع المعروف بـ (الفنس)، وهو نوع من السيارات اللواري ليس له مقدمة بارزة، كان يستعمله الجيش الثامن البريطاني في ساحات معركة العلمين، وشكلها يدل على أنها مستهلكة، ولكن لم يكن هناك بدٌّ من استعمالها لعدم وجود البديل.

سائق ثرثار:

كنت أجلس بجوار السائق، وكان عراقياً صميماً، أخذ يحدثني طيلة الطريق معتقداً أنني أصغي لكلامه، ولكنني كنت في واد وهو في واد. يبدو أنَّ هذا السائق يختص بميزة الترف في لسانه أكثر من اللازم، أما أنا فكنت أجيل بطرفي، متنقلاً على مختلف الآفاق، ومختلف الجهات، على هذه الرقعة من الأرض التي حباها الله نعمة الخصوبة والنعومة والخير، فلا تقع عينُك على بقعة منها ليست ملتفة الأشجار، أو غزيرة المياه. كنت أفكر وأتأمل وأستعرض شريط الذكريات.

استمر سيرنا نحو عشر ساعات تقريباً، تخللها بعض الراحات، إحداها على جانب إحدى البحيرات التي تكوَّنت بفعل الأمطار المتوفرة في تلك المنطقة، فأصبحت المنطقة المحيطة بالبحيرة تزخر بالأعشاب والنباتات ذات الرائحة الطيبة، والمنظر الآخاذ الجميل.





شللٌ متناحرة:

كان دخولنا مركز الدويد مصاحباً لذُكاء، وهي ترسل أشعتها الذهبية، يمنةً ويَسْرةً، في أعماق الأفق، تمهيداً لاختفائها قبل أن تقتحمها جحافل الليل.

وجدت الزملاء لا زالوا في انتظار القطع التي طُلِبَت، وقد أسعدني ذلك جداً. كانوا خلال هذه الفترة يقضون أوقاتهم في تكاسل مُمِل، بعد أن أشبعوا أدمغتهم سُباتاً حتى ملُّوا النوم، ونتج عن فراغهم هذا أن كوَّنوا شللاً، هذه شلة المهندسين، وأخرى شلة السائقين، والثالثة للموظفين، وقد فهمت أنهم خلال غيبتي كانوا يتشاجرون أشبه بالديوك في أكثر الأوقات، ولكنه عراك لا يصل إلى العظم، وهذا شيء طبعي، إذ لم يكن هناك ما يشغلهم، كما لم يكن هناك من يحزم أمرهم.

السائق (قيران):

وفهمت أيضاً أن المحرِّك الرئيس لهذه المشاجرات اللفظية والشتائم التي يتمُّ تبادلها بينهم، وهي من العيار الثقيل، كان سببها الرئيس، ومثير غبارها، هو أحد السائقين القادمين من الرياض، ويدعى (قيران)، وهذا القيران هو إنتاج أحد أدغال إفريقيا، وهو من حيث الشكل لا يقل خَلْقه بشاعةً عن سوء الخُلُق، وسلاطة اللسان، فهو يمتاز بأنف يحتل ما بين

شحمتي أذنيه أشبه بظهر السلحفاة، تقدمه أنياب بارزة مخيفة الشكل، أما أجفانه فتكاد تغطي عينيه، ولذلك فقد فرض سيطرته على الجميع، وأصبح الكل يتحاشاه، ويتفادى شرَّه.

بعد وصولي الدويد بنحو أسبوع، وصلت إلينا سيارة (لانسي) لوري، قادمة من الرياض تحمل قطع الغيار المطلوبة.

مكثنا في (الدويد) نحو أسبوع، ثم غادرناه إلى (قرية) في الطريق نفسه الذي قدمنا منه.

تلطُّف يوسف خلاوي في تعامله:

هذه الغيبة التي قضيتها في هذه الرحلة كان لها بعض الأثر في تلطيف الجو بيني وبين زميلي ورئيسي الشيخ يوسف خلاوي، إذ أخذ يتلطف معي في حديثه، ويغيِّر بعض أسلوبه في المعاملة، محاولاً إيهامي بأنه طوى صفحة الماضي معي، وأنَّ علينا أن نعمل سوياً لما فيه المصلحة العامة متعاونين متكاتفين. أمَّنت على ذلك وأفهمته أنني أحبذ هذا النهج لأنه هو النهج السليم والصحيح.

كنت أفعل ذلك معه، وأنا أعلم في قرارة نفسي أنه يُبطِن غير ما يظهر، وأنه يتحيَّن الفرص، ويحاول البحث عن منفذ أو خلل يتعلق بتصرفاتي، لكي يتخذه سلاحاً ضدي، بيد أني كنت أكيل له بالمكيال نفسه الذي كان يكيل به لي، لاقتناعي بصدق أبي الطيب رحمه الله حينما قال:

إنَّ الأفاعي وإنْ لانَتْ ملامسها   عند التقلُّب في أنيابها العطبُ

وصول عمي علي ثم أختي نورة لزيارتي:

بعيد وصولي (قرية) بنحو أسبوعين شرَّفني عمي المرحوم علي الحسون، وكنت لم أره منذ سافر من الحفر عام ١٣٦٦هـ أي قبل سنتين.

سُرِرتُ بمقدمِهِ كلَّ السرور، وأقمت لمجيئه وليمةً دعوت إليها عموم

زملائي الموظفين، من المالية والجمارك واللاسلكي والحرس، وعلى رأس الجميع المرحوم الأمير محمد بن عطيشان أمير (قرية) آنذاك.

بعد ذلك بيومين أو ثلاثة وصلت أيضاً قادمةً من عنيزة، عن طريق الرياض شقيقتي الكبرى نورة إذ كان ابنها محمد الهزاع مقيماً معي منذ عام ١٣٦٢هـ، قدمت لتراني كما تقول، وترى ابنها أيضاً، ولتصطحبه معها لتزويجه.

تنظيم كشف رواتب ابن أختي محمد الهزَّاع:

كان سروري مضاعفاً بوجودهما في بيتي. وأخذت أختي تلحُّ في السماح لها بالعودة بعد مضي نحو أسبوع على وصولها قرية فأجبت طلبها، بعد أن نظمت كشفاً برواتب ابنها محمد منذ عينته موظفاً بعيد وصوله إليَّ بأم رضمة.

كان راتبه في مبدأ الأمر ستون ريالاً شهرياً، ثم طرأت عليه زيادات دورية خلال تلك المدة، وقد تحقق أن جميع ما وفره لدي هو مبلغ تسعة آلاف وثمانمائة ريال، وكان شيئاً مبهجاً بالنسبة لوالدته، ولي أيضاً.

سلَّمت المبلغ لوالدته عداً بيدها بحضور العم علي، ثم طلبت من العم أن يوقِّع على الكشف، بعد ذلك أفهمتها بأن ما في بيتي أمامها من قطع زل وغيرها من الأثاث، هو ملك لها تأخذ منه ما تشاء، فاكتفَتْ بأخذ ثلاث قطع من الزل من النوع التركي، ثم غادرتني مع ابنها محمد بعد أن أمَّنت لهم المركب اللازم المريح، على إحدى السيارات المتوجِّهة إلى الرياض، وتوجَّهوا على بركة الله.

توقيع العم علي على كشف الحساب:

كنت حرصت على أن يوقِّع العم علي على كشف حساب الابن محمد لأمر رأيته يستوجب ذلك، هذا الأمر هو أنني، قبل وصول شقيقتي نورة ببضعة أيام، كان قد وصلني عن طريق البريد خطاب مسجل من جدة بتوقيع

أخي عبدالله، وهو أول خطاب يصلني منه منذ ودعته، مغادراً جدة في ٧ شعبان ١٣٥٧هـ، كما سبق أن ذكرت في هذه الخواطر، وذلك على الرغم من أنني طيلة هذه المدة، وتبلغ اثني عشر عاماً، لم يمض عليَّ شهر واحد دون أن أبعث له خطاباً مسجَّلاً عن طريق البريد، ولكن دون إجابة.

خطاب أخي عبدالله الأول، وجوابي عليه:

كان مضمون الخطاب الذي وصلني من أخي مفاده، أن شقيقتي نورة هذه قد كانت عنده في جدة منذ شهرين من تحرير الخطاب، ذهبت تشكوني إليه، بحجة أنها لا تدري عن ابنها إذا كان يتقاضى راتباً أم لا، لأنها لم تستلم منه أي مبلغ، وهي في الواقع مُحقَّة في ذلك، لأنني كنت أحتفظ برواتبه لأوفِّرها له، حتى يتجمَّع له المبلغ الذي يمكنه من الزواج، وأن يبدأ الخطوات الأولى في حياته متى ما رغب ترك الخدمة، علماً بأنه طيلة مدة إقامته لدي أتكفل به من جميع احتياجاته من مأكل ومسكن وملبس.

هي محقة في شكواها، بيد أنَّ أخي رحمه الله وعفا عنه، استغلَّ هذه الشكوى، ليكيل ليَ التهم، ويوجِّه إليَّ أقسى الكلمات وأعنفها، لذلك فقد حرصت على توقيع الكشف من العم علي، بادرتُ فور مغادرتها وابنها قرية إلى إرسال هذا الكشف لأخي عبدالله في جدة، مرفقاً بخطاب مني، مفاده كلمات مختصرة هذا كشف حساب الابن محمد الهزاع، وهذا توقيعه ووالدته على استلامه، ومعهما توقيع العم علي للمعلومية.

خطاب ثان من أخي عبدالله:

لم تمض عدة أيام حتى تلقيت خطاباً مسجَّلاً عن طريق البريد، مكوناً من ثلاث صفحات بتوقيع أخي الأكبر عبدالله، جواباً على رسالتي له المرفق بها كشف حساب الابن محمد الهزاع. حوى هذا الخطاب العجيب المعجب في كل ما يمكن أن يتصوَّره إنسان مثلي في علاقتي مع أخي، التي ظلت مبتورة من قبله معي أربعة عشر عاماً. كانت كل كلمة وكل حرف في هذا

الخطاب تقطر ـ إذا صح التعبير ـ وداً وعطفاً وحناناً، بل أكاد أزعم فأقول: وتوسُّلاً واستعطافاً.

لقد صوَّرني هذا الخطاب منه بصورة أقرب ما تكون إلى صورة الملاك، كل معاني الأدب والمروءة وحسن السلوك، بل كل ما يمكن أن يذكر فضيلة للرجال، الشيء الذي أثار اندهاشي وعجبي.

استجاشة العاطفة:

كان أبرز ما فيه أنه رحمة الله عليه كان يستحلفني في هذا الخطاب، ويتوسَّل إليَّ بأن أحقِّق له أمنيته التي ذكر أنها أمنيته الوحيدة في الحياة، وهي أن أعود إليه في جدة، ولكي يستفز عاطفتي ذكر لي أن أبناءه يلحُّون عليه صباحَ مساء برغبتهم في رؤية عمهم، الذي يسمعون به دون أن يروه ـ كما يقول ـ، ولكي يعطي الموضوع أهمية أكبر من حيث استجاشة العاطفة والقربى، ولإحساسه بعمق الذنب، الذي وقع منه، فقد أوضح لي أنني إذا كنت لا أرغب في الحضور إلى جُدة، بسبب وجوده هو فيها، فإنه مستعدٌ أن يذهب إلى عنيزة، ويبقى فيها المدة التي أكون فيها قد حضرت إلى جدة، واجتمعت بأبنائه.

واضح أنَّ كلاماً كهذا يوجَّه منه إليَّ، وأنا الشخص الذي عشت معه مدة وجودي في الحجاز، مسلوب الإرادة بالنسبة له، لا أجرؤ على رفع طرفي أمامه، فضلاً عن أن أعاتبه أو أناقشه، إذ كنت أشعر في قرارة نفسي، بصرف النظر عن كل اعتبار، وبصرف النظر من أن أتهم من بعض الناس بأن موقفي منه هذا كان يعدُّ وهناً، وضعف شخصية، وقِصَر نظر.

كنت أدين له من أعماقي، لأنه صاحب الفضل عليَّ بعد الله، وليس في نظري أن فضلاً أو معروفاً أو إحساناً يضاهي تمكينه لي بأن أواصل دراستي حتى نهايتها في مدرسة الفلاح، موفِّراً لي كل ما تتطلبه هذه الدراسة من إمكانيات وعون ورعاية.

طلب منحي إجازة لمدة ثلاثة شهور:

كانت بضعة أسطرٍ منه يأمرني بالحضور، إلى جدة كفيلة بأن تجعلني أهرول حال تلقي خطابه ملبياً طلبه بالحضور دونما تردد أو تفكير، ولذا بادرت فور استلامي هذا الخطاب بالإبراق لوزارة المالية طالباً منحي إجازة لمدة ثلاثة شهور، بيد أنَّ الإجابة تأخرت رغم تعقيباتي المتكررة، وقد يكون هناك أيدٍ تحاول منعي من السفر.

موافقة وكيل الوزارة عبدالله السعد القبلان:

المهم في الموضوع أنه بعد إصرار مني، وتهديد بالاستقالة، جاءت الموافقة بتوقيع المرحوم وكيل الوزارة آنذاك عبدالله السعد القبلان، وفحوى الموافقة أنَّ الوزارة كانت ترغب تأجيل الإجازات هذه لبعض الوقت، ولكن طالما أنت مُصِرٌّ فلا مانع، وقد عُمِّدت المالية بصرف رواتب الإجازة.

موقف حاقد من يوسف خلاوي:

وصلتني البرقية من الوزارة في نهاية شهر ذي الحجة عام ١٣٦٩هـ، وعلى الفور جَهَّزت نفسي ترافقني زوجتي أم يوسف، ولأنه يوجد لديَّ بعض الأثاث في بيتي، ورغبت اصطحابه معي إلى الحجاز، وهي عشر قطع زل بعضها من النوع الشيرازي، وبعضها من النوع التركي، وكلها من الصنف الممتاز، وكلها سبق أن استوردتها على فترات، ودفعت رسومها للجمارك، واحتفظت بإيصالات ترسيمها لدي.

وكنت قد اتفقت مع إحدى السيارات اللواري التي يقودها عبدالكريم الشُويِّب، أحد أبناء الزلفي، الذين كانوا يمتهنون عملية النقل على سياراتهم ما بين الرياض والكويت مروراً بقرية.

في تلك اللحظة التي كانت تنقل فيها الطرود من السيارة التي أحضرتها من بيتي إلى سيارة عبدالكريم الشويب التقيت بالأخ المرحوم يوسف الخلاوي، الذي كان موجوداً في الساحة أثناء التحميل، ورأى الطرود الثلاثة وهي تُحَمَّل.

انطلاق السيارة متَّجهة إلى الرياض:

انطلقت سيارة عبدالكريم الشويب في اتجاهها إلى الرياض بعد أن زودته بورقة (فسح) رسمية، صادرة من جمرك قرية توضِّح أعداد ومقاسات الزل الموجود في الصناديق.

بعد نحو أسبوع من مغادرة عبدالكريم الشُويِّب من قرية لحقت به أنا وأهلي على أحد السيارات المتَّجهة للرياض، لأني اضطررت للتأخر هذه المدة، لإنجاز بعض الأمور، التي كان يتوجَّب عليَّ إنجازها، خاصةً وأنني قد سبق أن قررت في نفسي أنَّ وداعي لقرية هو الوداع الأخير، ولن تكون لي عودة إليها مرة أخرى.

وعورة الطريق:

قطعنا مسافة الطريق في حدود ٢٤ ساعة تقريباً من قرية إلى الرياض نظراً لوعورة الطريق؛ وخاصةً الطريق الذي يجتاز نفود الدهناء، نزلنا في الرياض عند ابن العم إبراهيم الحمد الحسون.

زيارة مدير جمرك الرياض إبراهيم الوقيد:

في اليوم التالي ذهبت إلى جمرك الرياض، الذي كان آنذاك يقع على مقربة من المطار القديم، وكان يُديره الصديق إبراهيم العبدالله الوقيد، وكم كانت دهشتي عظيمة، حينما دلفت عليه في مكتبه داخل الجمرك، فهبَّ لمعانقتي واحتضاني مع وابل من القبلات، ولكنه فاجأني بعد ذلك، رغم حرارة اللقاء هذه بقوله بشيء من الاستغراب: ماذا فعلت بنفسك؟؟ دُهِشت لهذا السؤال مجيباً: ماذا تعني؟؟ هنا أوضح لي الموضوع، الذي مفاده أنه سبق من مدة أربعة أيام أن تلقَّى برقية من (قرية) بتوقيع رئيس مالية وأمين جمارك الحدود يوسف خلاوي، موجَّهةً له بصفته مديراً لجمرك الرياض، وصورة منها لرئيس ديوان المراقبة آنذاك المرحوم عبدالله بن عدوان يذكر الخلاوي في هذه البرقية أنه يوجد ثلاثة طرود زل شُحِنَت من (قرية) إلى الرياض على سيارة عبدالكريم الشويب باسم إبراهيم الحسون، وأنَّ على

جمرك الرياض أن يحجز هذه الطرود ويصادرها، لأنها مهربة لم تستوفَ عليها الرسوم الجمركية المستحقَّة.

حقد وبلاهة:

ضحكت من كل أعماق قلبي على حقد هذا الرجل وبلاهته، وكيف دفعه غرورُه وحقده إلى أن يرتكب مثل هذه السَّوْأة.

طمأنت خاطر أخي إبراهيم الوقيد، بأنَّ موضوع هذه الطرود هو بغاية السهولة، فهي تخصُّني فعلاً، ولكن قاتل الله الحقد الذي يُعْمي ويصم.

قال: إنه يطلب مصادرتها لأنها مهربة، قلت له: فعلاً إذا كانت مهرَّبة فهي تستحق المصادرة، بَيْد أنَّ الواقع عكس ذلك.

أجابني: ماذا تعني أمرسمةٌ هي؟ قلت: نعم، وهل مثلي يرتكب مثل هذا الخطأ!! أمين جمارك، ويقوم بالتهريب؟؟.

مرة أخرى أعدت عليه القول، موضِّحاً أنَّ إيصالات ترسيم هذه الطرود هي موجودة في حوزتي.

طلبت من ابن العم إبراهيم الحمد الحسون الذي كان معي بسيارته الخاصة أن يعود إلى داره، ويطلب منهم تسليمه شنطة يدوية موجودة معهم.

اللقاء بالشيخ ابن عدوان:

أثناء ذهابه اتَّصل مدير الجمرك الأخ إبراهيم الوقيد بالمرحوم عبدالله بن عَدْوان، وشرح له الموضوع، وأنَّ الخلاوي كاذب في دعواه، وأنَّ هذه الطرود مرسَّمة. وفي أثناء حديثه مع ابن عَدْوان وكنت حاضراً استفسر ابن عدوان عني، فأجابه أنني وصلت الرياض ومعي سَنَدات الترسيم، وأنني موجودٌ الآن في مكتبه بالجُمْرك، لاستلام تلك الطرود المحجوزة.

انتهت المكالمة، وبعد نحو ربع ساعة تقريباً إذا بي أفاجأ بإبراهيم الوقيد مدير الجمرك يهب واقفاً قائلاً: الشيخ ابن عدوان! فالتفتُّ نحو باب الجمرك، وإذا بالشيخ المرحوم عبدالله بن عدوان بقامته الفارهة، ووجهه الوسيم يترجَّل من سيارته، فأسرعت إليه معانقاً ومرحِّباً.

كان اللقاء بابن عدوان حاراً، والعاطفة جيَّاشة إذ هي المرة الثانية التي تتاح لي فرصة اللقاء به، فقد سبق أن التقيت به لأول مرة في (أم رضمة) حوالي عام ١٣٦٠هـ على ما أذكر، حينما وصل إليها منتدباً من قبل الملك عبدالعزيز - رحمه الله - في مهمة توزيع إعاشة على فقراء البادية في تلك المنطقة تتألف الإعاشة من كميات من الحنطة، وكميات من الملابس.

حفاوة ابن عدوان وتودُّده:

كان الرجلُ شديدَ الحفاوة بي في هذا اللقاء، وقدرت ما أبْدَاه من تودُّد واحترام، الأمر الذي اسْترعَى انتباه الصديق إبراهيم الوقيد مدير جمرك الرياض، وكَأنَّ المرحوم عبدالله بن عدوان بهذا اللطف، الذي أسبغه عليَّ في هذا اللقاء، يريد أن يذكرني بلقائنا الأول، وأنه خير من يرعى المعروف ويستذكره.

دلفنا جميعاً إلى مكتب مدير الجُمْرك، فجلس ابن عدوان على كرسي المدير، الذي أخلاه له، وكنت والأخ الوقيد جالسين أمامه.

كان الحديث منحصراً في بادىء الأمر في فِرْية الخلاوي وكذبه، وكيف بلغت به القحة والوقاحة هذا المستوى الرخيص، وقد أوضح ابن عدوان بأنَّ مثل هذا التصرُّف الأرْعَن ليس غريباً على يوسف خلاوي بالذات، موضِّحاً أنه من أولئك الأشخاص الذين جُبِلوا على الحقد والضغينة.

بعد نحو ربع ساعة ودعنا المرحوم ابن عدوان، بعد أن أكَّد عليَّ وعلى الأخ إبراهيم الوقيد بأنه سينتظرنا الليلة في قَصْره العامر، الواقع على شارع الناصرية، والذي يعرفه الأخ الوقيد، وذلك لتناول العشاء معه، وفعلاً تم ذلك.

تلبية دعوة ابن عدوان:

وقد وجدنا عنده مجموعة من الشخصيات البارزة، ممن لهم مراكز مرموقة بالدولة، كان حديثه أثناء تناول العشاء حديث الرجل المؤمن المعتز

بوطنه، الحريص على انتشاله من عثرته، وكان يتخلَّل حديثه إلينا الكثير الكثير من القصص، التي لا تُشَرِّف من تُنسب إليهم خاصَّةً في ميدان الأمانة والعفَّة، وهم ممَّن يتظاهرون بالدين، بحيث تخدع مظاهرهم ولاة الأمر، فيُسْنِدون إليهم معظم المهام التي تتعلَّق بأمور البادية، والتي يُفترض أن يكونوا نتيجةً لورعهم أبعد ما يكونوا عن الشبهات.

لم يذكر أسماءً معيَّنة من هؤلاء الأشخاص، وهذا شيءٌ بديهي يتَّسق مع نُبْل خُلُقِهِ، وعفَّة لسانه، كان يتكلَّم بمرارة وألم، ويذكر كتدليل على ذلك أنه حينما استدعاه الملك عبدالعزيز ـ رحمة الله عليه ـ ليكلِّفه بمهمة أم رَضْمة، حاول الاعتذار من جلالته عن القيام بهذه المهمة، فخاطبه الملك بقوله: إذا أنت لم تذهب لمثل هذه المهمة الإنسانية فمن ترانا نُرسل لها؟ أتريدنا أن نرسل فلاناً وفلاناً وفلاناً، وأنت تعلم ماذا كانت نتائج مهماتهم التي سبق وأن كُلِّفوا بها. عقَّب على ذلك مخاطباً الملك بقوله: ما دام الأمر كذلك، فأنا الخادم المطيع، وقد رَجَوْت من جلالته بأن لا حاجة لي بمعاونين أو طبَّاخين، وأنني سأقوم بالمهمَّة وحدي مكتفياً بشخص واحد فقط يعاونني على التوزيع، وقد شكرني جلالته على هذا القول.

إبنا العم: إبراهيم وعبدالله الحسون:

مكثت في الرياض ثلاثة أيام عند ابن العم إبراهيم الحمد الحسون، وكان هو وأخوه عبدالله، الذي يكبره، يملكان بَيْتاً واسعاً في شارع السُّويلم، أحد شوارع الرياض المعروفة آنذاك، وكان لهما محل تجاري في قَيْصرية الملك سعود، وهي على مَقْربةٍ من قصر الحكم، تقع على بعد نحو مائتي متر باتجاه الشمال الغربي.

نشاط الأخوين إبراهيم وعبدالله الحسون التجاري:

كان نشاطهما في هذا المكتب متشعباً، فهما يزاولان مهنة البيع والشراء في المواد الغذائية على مختلف أنواعها، كما يقومان أيضاً بالتعامل مع التجار في مختلف مدن المملكة كمدينة نجران، ومدينة الحوطة، ونعام

والخرج، وخميس مشيط، وأبها، والكثير الكثير من تجار هذه المدن، الذين أقبلوا على هذين الأخوين يُودِعون لديهم ما يحملوا من نقود، ويكلِّفونهم بتأمين ما يحتاجونه من بضائع على مختلف أنواعها، سواءً كانت هذه البضائع شراءً من السوق، أو كانت ضمن موجودات مستودعاتهم، يجهِّزونها ويشرفون على تحميلها إلى أولئك التجار في المدن، التي يوجدون فيها مشفوعة بالفواتير والبيانات. هذا فيما يتعلق بالتجار داخل مدن المملكة، وفي الوقت نفسه تردُ إليهم أسبوعياً كميات هائلة من البضائع على مختلف أنواعها، مرسلة من تجار الكويت، على أن يقوم الأخوان إبراهيم وعبدالله بدفع الرسوم المستحقّة بجمرك (قرية) بواسطة مندوب لهم هناك، يُدعى عبدالعزيز الصانع، الذي كان يستقبل هذه البضائع عند قدومها قرية، ويتولى دفع ما يتحقق عليها من رسوم لصندوق الجمرك، ثم يرسلها إليهم في الرياض، ومعها مستنداتها الرسمية، وكلها معنونة باسم الحسون.

الرسوم الجمركية على البضائع المرسلة من الكويت:

وبحكم عملي أميناً لجمارك (قرية) فإنني كنت أطّلع على تلك البضائع التي ترد خلال أيام الأسبوع، وأذكر أيضاً أنَّ ما كان يدفعه عبدالعزيز الصانع من رسوم على تلك البضائع في بعض الأيام يتراوح ما بين خمسين إلى ثمانين ألف ريال فضّة في اليوم الواحد.

إيداع الأموال:

كنت خلال الأيام الثلاثة التي قضيتها في الرياض أجلس في دكانهم في القَيْصرية كل صباح، وقد شاهدت أكثر من مرة بعض الأشخاص يحضرون إلى إبراهيم، وهو في الدكان، يحملون معهم أكياساً من النقود طالبين منه إيداعها عنده، وكان يرفضها بلباقةٍ ولطف، ويمتنع عن قبولها.

دار مفتوحة:

كانت دارهم مفتوحة ولها بابان: أحدهما من جهة الشرق وهو خاصٌ للعائلة، والآخر يطل على شارع السُّويلم مباشرة، وهو عبارة عن مجلس

كبير، يُصعَد إليه، مفروشاً بأحسن الأثاث، وتنشر على جوانبه المراتب المريحة، كان هذا المجلس يوّدع ذاهبين ويستقبل قادمين كلَّ يوم، وكان العدد لا يقل عن خمسة أشخاص في أقل القليل.

كانت سفرة الغداء عندما تقدم، وهي عادة تتألف من الأرز الذي تعلوه كمية وافرة من اللحم، لا تقل عن نصف ذبيحة، مع اللبن والتمر والخضار.

وكان عملاؤهم يتخذون من دارهم هذه فندقاً، لا يبارحونه طِيلَة وجودهم في الرياض.

صلتهم بتجار الكويت:

بلغ هذان الأخوان من السَّعَة والثروة ما كان موضع غبطة أو حسد الكثير من جيرانهم، أو ممن يحتكُّ بهم، ونتج عن ذلك أن توطَّدت صلاتهم نظراً لانتشار نطاق تجارتهم، واتِّساع شهرتهم بالكثير من تجار الكويت الذين عُرف عنهم منذ القدم الأمانة والصدق في معاملاتهم التجارية، ولم يسبق أن نُسب عن أحد منهم غدر أو خيانة، وهذا ما جعل هذين الأخوين يحسنان الظن بجميع أولئك التجار، ولم يَدر بخلدهم أنَّ الورد لا يخلو من الشوك.

مكيدة تاجر ماكر:

وقد تجلَّى ذلك في أحد تجار الكويت، الذي لا أذكر اسمه الآن، الذي ـ كما فهمت منهما ـ تردَّد على الرياض أكثر من مرة، موطِّداً صلته بهم، وفي الوقت نفسه نافثاً سموم مكيدته التي كان يحيكها لهم في صدره، فقد أقنعهم بأن هناك طرقاً مربحة وسهلة وميسورة، وهي أن يبعثوا إليه كميات من الريالات الفضة في الكويت، لكي يقوم بتصريفها هناك، إذ أن ربحها مُغْرٍ ومضمون، موضِّحاً لهم بأنه سيتولى هو بنفسه تأمين الوسائل، التي تنقلها من الرياض إلى الكويت دون أن تمرَّ على مراكز الحكومة، أو تتعرَّض لمراكز الدوريات.

نَجَحَت المكيدة، إذ كانت مهمة تصدير الفضة إلى خارج المملكة مهمة خطرة، لأنَّ ذلك كان ممنوع منعاً باتاً، والقبض على مثل هذه الكميات من مثل الدوريات في حالة وقوعه، سيكلِّف مرسلَها، وصاحبها المصادرة، لذا فقد كانت تلك الكميَّات تُرسل بدون أن ترفق بأيِّ خطابٍ أو بيان يوضِّح هويَّة المُرْسِل والمرسَل إليه.

كان التعامل بينهم وبين هذا الماكر على أساس الثقة بين الطرفين، وما هي إلا شهور حتى قلب لهم هذا الخائن ظهر المِجَنّ، منكراً وصول أيّ مبلغ إليه، ولما كانت ثروتهم متركِّزة على ودائع الغير لديهم بالدرجة الأولى، وعلى ثقة الناس بهم، فقد كانت ضربة هذا الغادر مُوجعةً مؤثرةً، وما كاد يشيع الخبر حتى تسارع أصحاب الودائع بطلب سحب ودائعهم.

ضربة موجعة:

كانت ضربةً موجعة إلى أقصىٰ ما تعنيه هذه الكلمة، إذ لا يستطيع هذان الأخوان أن يَنْبسا ببنت شفة أو أن يذكرا سبب النكبة، خوفاً من عقاب الحكومة من جهة، ودرءاً لشماتة الحاسدين، وحقد الحاقدين من جهة أخرى، ولذا كَظَما غيظهما، وأخفيا جراحهما، وأسرعا ببيع ما يملكون دون تحفُّظ لجمع أكبر كمية من النقود لتسديد بعض أصحاب الحقوق، وفي مقدمة ما أسرعوا إلى بيعه البيت الكبير، الذي كانوا يسكنونه، علماً بأن الكثير الكثير من أصحاب الودائع الموجودين في الرياض خاصَّة، أو في بعض المدن ممن عرفوا جيداً صدق معاملة هذين الأخوين وأمانتهما، فقد أفهموهما بأنهما لن يطالبوهما بما لديهم من مبالغ، تاركين ذلك إلى أن يكشف الله عنهما هذه الغمة.

ضياع حصيلة العمر:

وقد كنت شخصياً من ضمن هؤلاء، وإن كانت وديعتي ضئيلة ومتواضعة، وهي عشرون ألف ريال، كانت حصيلة العمر بالنسبة لي، وكنت سلمتها للأخوين بقصد استثمارها لديهم.

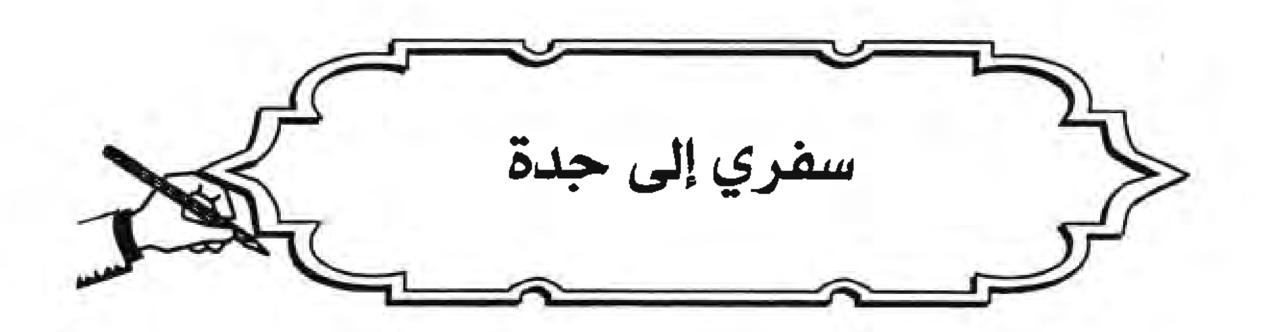
من قمة الثروة إلى حضيض الفقر:

وقد ترتب على ذلك الحادث، الذي ألمَّ بهما، أن انقلبت أوضاع حياتهما رأساً على عقب.

فجأةً ترديا من قمَّة الثروة والجاه إلى حضيض الفقر والمَسْغَبة، الأمر الذي أصبح معه وجودهما في مدينة الرياض ضرباً من المحال، فاعتزما الافتراق، والبدء في حياة جديدة لكلٍ منهما تبدأ من الصفر، فقد اتجه الأكبر منهما، وهو عبدالله، شرقاً إلى مدينة الدمام، ففتح فيها دكاناً صغيراً، بينما اتجه أخوه الأصغر إبراهيم إلى جدة فنهج النهج نفسه، الذي سلكه أخوه.

كنت ساعة تلك الأحداث مقيماً لديهما بطريق مروري إلى جدة، عبر الرياض، وشاهدت المأساة، وتركت في نفسي أثراً عميقاً لن أنساه من تقلُّبات الأيام وغدرها.





أول طائرة ركبتها:

كنت آنذاك قد حجزت على الطائرة إلى جدة، وتوجَّهت بعائلتي المكوَّنة من زوجتي، وطفل صغير مريض تحمله بين يديها لم يتجاوز الستة شهور من مولده.

أقلعت بنا الطائرة من مطار الرياض، وبالمناسبة فهي أول مرة أعبر فيها أجواء الفضاء على متن الطائرة، قطعت الطائرة المسافة بين البلدين في حدود ثلاث ساعات ونصف، على ما أذكر، على نوع من الطائرات تسمَّى (كونفير) بينما أصبحت المسافة الآن بين البلدين لا تتجاوز ساعة وعشر دقائق.

استقبال حافل:

كنت أبرقت لأخي الشقيق عبدالله محمد الحسون عن موعد حضوري، ووصولي إلى جدة، ورقم الرحلة ونوع الطائرة، ولذا فما كادت عجلات الطائرة تلامس أرض المطار حتى رأيت أخي ومجموعة من أصدقائه من أعيان جدة وهم: إبراهيم الحمد الصَّنيع، ومحمد السليمان التركي وأخوه إبراهيم، والشيخ علي العماري ـ رحمهم الله تعالى ـ وبعض الأصدقاء الآخرين، الذين لا أذكر أسماءهم الآن، وهم من عِلْية القوم في جدة، هبطت الطائرة، وفتح باب النزول، ولكم كانت دهشتي، وأنا أسرِّح طرفي

في الأفق أن أرى المطار بمنشآته، وأن أرى العمران وقد امتد شرقاً بشكل لا يكاد يُصدّق، وبينما كنت مبهوراً بالمنظر إذا بأخي يمسك بطرف ثوبي من الأرض ويتلُه بعنف قائلاً: إنزل، وفعلاً نزلت، ثم تبعتني حرمي، التي كانت تنتظرها سيارة على مقربة من المطار استقلتها إلى حيث منزل أخي في باب مكة.

أما أنا فقد وقفت نحو ربع ساعة أتبادل القبل والأحضان بين هؤلاء الأعزة، الذين شرَّفوني بحضورهم، ولم أكن في قرارة نفسي أستحق ربع هذا التكريم منهم ولكن هي الأخلاق العالية، والمثل النبيلة، التي تدفع بمثل هؤلاء، وهم من هم تجاراً مرموقين وموظفين يشغلون مراتب عالية في الدولة، ولا شك أن حضورهم كان تقديراً لأخي بالدرجة الأولى.

بعد فترة استقلينا السيارات، وكانت أربع سيارات، متَّجهين إلى بيت أخي في باب مكة، وهنا يحسن بي أن ألتفت قليلاً إلى الوراء لأصور الواقع الذي تركت عليه مدينة جدة حينما غادرتها في ٧ شعبان عام ١٣٥٧هـ، أي قبل ١٤ عاماً تقريباً لتعطي القارىء صورة للمقارنة بين القفزة العمرانية السريعة التي خطتها المملكة، وفي مدينة جدة بالذات خلال هذه المدة.

مدينة جدة يوم تركتها عام ١٣٥٧هـ:

كانت المنطقة الواقعة شرق جدة والمتاخمة للسور أرضاً فضاءً، إذا خرجت من الباب باتجاه الشرق، وسرت أربعة أو خمسة أمتار تتجه إلى جهة اليسار فتجد هناك مقهيين - مفردها مقهى - أحدهما من الشمال، والآخر من جهة الجنوب، ويفصل بين هذين المقهيين شارع بسعة ١٠ أمتار تقريباً، وهذان المقهيان يستقبلان فئة معينة من البدو أصحاب الجمال، الذين يفدون إلى جدة مع جمالهم، لنقل بضائع على تلك الجمال من جدة إلى مكة، كما يفد إلى هذين المقهيين مجموعة أخرى من البدو، الذين يجلبون الفحم من مسافات بعيدة إلى جدة على جمالهم، كما يحملون أنواعاً معينة من علف الماشية، التي كانت تعرف آنذاك بالضَرم والعثَري.

هذان المقهيان يملكهما الشيخ محمد نصيف الأفندي عين أعيان جدة، وهو رجل أشهر من أن يُعرَّف، كما أنه يملك الدكاكين المطلة على الشارع الذي يمتد من باب مكة باتِّجاه مكة، يمتد نحو مائة وخمسين متراً تقريباً، حتى يصل على مقربة (من مقبرة الأسد)، وهي المقبرة الثانية من المقابر التي تستقبل من يختارهم الله إلى جواره من أهل جدة أو غيرهم، وعلى بعد نحو كيلومتر تقريباً من هذه المقبرة تقع زميلتها الأخرى من الشمال، وأعني بها مقبرة أمنا حواء.

قبر أمنا حواء:

وكانت هذه المقبرة محاطة بسور ومدخلها من جهة الجنوب، ويوجد بداخلها بناء مستطيل متهدِّم يبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو ٥ أمتار وعرضه نحو متر، وكان العوام يزعمون أنه قبر أمنا حواء، ولذلك نسبت المقبرة إلى حواء، فقيل مقبرة أمنا حواء، وكان هذا القبر المزعوم مصدر رزق لصبيان مطوفي الحجاج في جدة وخدمهم، الذين كانوا يصطحبون الحجاج معهم حين يأتون إلى جدة، ويحضرونهم معهم إلى هذا المكان، ويقفون خارج السور بإزاء هذا القبر المزعوم، رافعين أكفهم إلى السماء، موهمين الحجاج المساكين بأنهم يدعون لهم عند أُمِّهم حواء، وأنها ستقبل هذه الدعوات ممن بيديه الأمر، والذي يملك إجابتها، ثم يتجَّهون إليهم، فيطلبون منهم فرداً فرداً أجرَ دعواتهم هذه، فيتنافس الحجاج بورع وتقوى وحُسن نية إلى نفحهم بالنقود، وهكذا يعود هؤلاء الخدم والصبيان، وقد امتلأت جيوبهم بالنقود، وقد شاهدت ذلك بنفسي أكثر من مرة خلال أعوام ٤٥، ٤٦، ٤٧ بعد الألف والثلاثمائة.

امتداد العمران:

كان ذلك عند مغادرتي لجدة كما أسلفت، وقد أعقب ذلك بعد مغادرتي الحجاز بمدة أن أزيل السور المحيط بها، وامتد العمران خارجها بطريقة مذهلة، وعلى مساحات شاسعة تساوي عشرات أضعاف مساحة جدة عند مغادرتي لها.

عقارات أخي عبدالله وبيته:

كان من ضمن ذلك أن قام أخي عبدالله بشراء هذين المقهيين من مالكهما الأفندي نصيف، وقام بإنشاء مجموعة من الدكاكين، وثلاث عمارات في موقع هذين المقهيين، وعند قدومي إلى جدة كانت مباني الدكاكين قد تمَّت منذ سنوات، وتمَّ شغلها بالمستأجرين، كما أنَّ العمارات الثلاث، قد أنجز بناء طوابقها الأول والثاني منها، وكان أخي يسكن في كبرى هذه العمارات الثلاث وهي المطلة على الشمال، وقد كان يسكن عندما كنت معه في جدة في بيت كان قد شادَه المعلم ابن لادن ـ كما سبق أن ذكرنا ـ وذلك في محلة المظلوم، أحد أحياء مدينة جدة القديمة.

عندما ابتدأ العمران ينتشر من جوانب جدة الأربعة رأى أخي أن يبيع هذا البيت، وأن يستعيض عنه بشراء مقاهي الفحم، وإنشاء الدكاكين والعمارات عليها كما أسلفت، وهنا قبل أن أنهي الحديث عن هذا البيت وانتقاله إلى ملك الغير، لا بد لي أن أسجِّل للتاريخ واقعةً معينة قد تكون بسيطةً في مدلولها، بيد أنها عميقة التأثير في نفسي في واقعها، ومن المفيد أن أذكرها ملخصة فيما يلي:

واقعة مؤثرة:

عندما اعتزمت مغادرة جدة لأوَّل مرة في حياتي، وكان ذلك في ٧ شعبان عام ١٣٥٧هـ، وكنت غادرتها في ظروف غير طبيعة بالنسبة لي وعلاقتي بالأخ الشقيق عبدالله الذي كان يؤويني في منزله، ويعطف عليَّ عطف الأب على ولده:

وقد سبق لي أن أوضحت ملابسات هذه الظروف فيما سبق أن أمليته في هذه الخواطر والذكريات.

كنت خلال وجودي عند أخي، وأثناء دراستي في مدرسة الفلاح مولعاً بالقراءة إلى حدٍّ يكاد لا يصدق، وأشبه بحالة الإدمان، ونتيجةً لذلك فقد كنت أحرص أشد الحرص على اقتناء كل ما أقدر عليه من نفائس الكتب،

ومما كانت تصدره المطابع آنذاك من صحف ومجلات ومنشورات ودوريات.

فقد ٢٧ صندوقاً من الكتب والمجلات:

كنت أحتفظ بذلك جميعه في قاعة كبيرة في بيت أخي بالطابق الأرض، وعندما اعتزمت مغادرة جدة، وكان في تقديري آنذاك أن مدة غيابي عنها لن تطول أكثر من عام أو عامين، لم أجد بداً من أن أعبىء هذه الكتب والمجلات ضمن صناديق من فوارغ صناديق الشاي الكبار وأسمِّرها، وكان عدد هذه الصناديق، وهي ضخمة، لا تقل عن **٢٧** صندوقاً، أحكمت إغلاقها جميعاً على أمل أن أجدها حينما أعود إليها، والذي حدث أنَّ أخي عندما باع ذلك البيت ونقل أثاث بيته ومحتوياته إلى البيت، الذي أنشأه في باب مكة كان من ضمن ما نقله تلك الصناديق التي ذكرتُ، نُقِلت على (عربات كَرِّو) من حارة المظلوم إلى باب مكة.

ولما كان أخي ـ لسوء حظي ـ أمِّياً لم تُتَح له فرصة التعليم، بحيث لا يحسن كتابة حرف واحد، وإن كان يحسن كتابة الأرقام الحسابية، فقد أُنزِلت تلك الصناديق على سطح العمارة التي كان ينشئها في باب مكة دون أن يعيرها أي اهتمام أو رعاية، ودون أن يقدِّر القيمة التاريخية الثمينة لمحتويات هذه الصناديق، ولذلك فلقد ظلت تلك الصناديق مهملة على السطح، ومن ثمَّ ابتدأت تمتد الأيدي إليها رويداً رويداً، مختلسةً ما بداخلها من كتب وصحف ومجلات، واستمرت ذلك عندما لم تجد من يمنعها، حتى استطاعت أن تسحب جميع ما بداخل الصناديق، ولعلَّ أخي لم يعلم بذلك، نظراً لأن السطح الذي كانت توجد عليه تلك الصناديق بعيدٌ عن نظره.

حزن عميق وفجيعة بالغة:

وكم كان حزني عميقاً، وفجيعتي بالغة، عندما وقع نظري أثناء دخولي تلك العمارة لأول مرة على تلك الصناديق محطمة ومتناثرة على السطح

تحمل تلك الكتابات، التي خططتها بيدي عندما عبأتها موضّحاً بيان أعداد ما بداخل كل صندوق فيها وأنواعه، كان ألمي عميقاً وقد بذلت جهدي في التحري لمعرفة كيف تمَّت هذه الجريمة الآثمة، غير أني لم أظفر بنتيجة نظراً لتعاقب الصبيان والخدم، الذين كان من الممكن مساءلتهم والتحقيق معهم، نظراً لطول المدة التي مرت على تلك الصناديق، ولأنَّ الكثير من الخدم والصبيان قد ذهبوا وحلَّ غيرهم مكانهم.

وليمة فاخرة:

وصلت إلى دار أخي، ومعي الأخوان الذين كانوا في انتظاري بالمطار، وكان وصولنا ظهراً، كان أخي قد أعدَّ بالمناسبة وليمةً فخمةً، دعى إليها أكثر من ثلاثين شخصاً من الأخوة والأصدقاء، ما كدت ألج البيت، وأصعد إلى حيث توجد أسرة أخي حتى وجدتهم مجتمعين في أحد الصالونات انتظاراً لمجيئي، كان أخي يرافقني إلى هذا المكان، ثم تولّى تقديمهم إليَّ فرداً فرداً معرِّفاً بالاسم:

التعرُّف على أبناء أخي:

هذه لولوة، وهذه فوزية، وهذه لطفية، وهذه زهية، وهذه فريدة، وهذا محمد، وهذا إبراهيم، وهم كامل أنجاله حتى ذاك التاريخ.

حين مغادرتي جدة لم يكن لدى أخي من الذرية سوى البنات الثلاث الأولى: لولوة ـ فوزية ـ لطفية، أما الباقون فقد وُلِدوا في غيبتي.

فرحة اللقاء بعد غياب ١٤ سنة:

كانت فرحة اللقاء غامرة تملأ نفوس الجميع، ولا غرابة في ذلك فلقاء يتم بعد أربعة عشر عاماً ليس بالحدث اليسير، بالنسبة لأسرة تستقبل أحد أبنائها.

انتهت الوليمة وتفرَّق المدعوون، ولا تسأل عن فرحة اللقاء والمعانقة مع كل فرد من هؤلاء المدعويين.

أحسست بأنَّ أخي يحوطني برعاية متميزة لم آلفها من قبل هذه المرة، كان حريصاً على أن يتحسَّس رغباتي، ويوفِّر لي ولحرمي كل ما يستطيع من راحة ومتعة، وكان ذلك يتجلَّى في تخصيصه لأوسع غرف العمارة التي تسكنها العائلة وأجملها، لتكون سكناً لي ولزوجتي.

جدة بين الأمس واليوم:

ظللت عدة أيام مبهوراً بما أشاهد في جدة ومحيطها، فلا الناس هم الناس، الذين عهدتهم من قبل مغادرتي جدة، ولا الأماكن، ولا الأحياء التي تركتها، إذ لاحظت أنني أشاهد جمهوراً مختلف السمات، متنوع الأجناس، قد لا يكوّن جمهور جدة السابق الذي أعرفه أكثر من ٢٠٪ مما أشاهد الآن!!.

كانت الأحياء التي كانت معروفة آنذاك تمثل ٤ أحياء محدودة في بقعة معينة، أصبحت هذه الأحياء بالنسبة لواقع جدة الحالي أشبه بقطرة في محيط المتاجر، العمارات الضخمة، المعارض، الشوارع، الحركة التجارية، كثافة السكان، كلها مستجدة عليّ، لذا فقد أخذت يومياً أطوف بجدة للتعرف على مدى نموِّها واتِّساعها.

كان موقع المطار في السابق يقع في صحراء، قلَّ أن يصل إليه أحد، لعدم وجود العمران فيه.

كانت صهاريج الماء وهي أقبية حُفِرت في أعماق الأرض، لتكون مواضع تتجمَّع فيها مياه الأمطار، لتغذِّي مدينة جدة، التي لم يكن لها من مصادر الماء سوى ماكينة التقطير (المعروفة بالكنداسة)، وهي محدودة الإنتاج.

وحتى الصهاريج التي لا تقل مساحتها عن ٦ كيلومتر مربعاً تقريباً ها هي الآن بعد عودتي قد اختفت جميعها من الوجود وشيدت على مساحتها قصور وعمارات.

في بيت أخي عبدالله مجدَّداً:

كنت سعيداً جداً بهذه الحياة الهانئة الوادعة، التي شعرت أنني أمارسها في بيت أخي.

كنا نجتمع اليوم الواحد أكثر من مرة نتبادل الأحاديث ساعات طوال، كنت أحسُّ في أعماق نفسي بسرور لا حدَّ له إذ أجد أنَّ أخي الذي ظللت عائشاً بكنفه أكثر من أربعة عشر عاماً قبل مغادرتي جدة وكنت لا أظفر منه ببسمة أو حديث ودي: ها هو الآن يفيض عليَّ من حنانه ويتحدَّث معي حديث الند للند.

كان يحدثني، وكنت ألحظ من حديثه إليَّ أنه يريد الإيحاء إليَّ أنه وما يملك ملكاً لي أتصرَّف به كيف أشاء.

قضيتُ الأيام الأولى سعيداً مبتهجاً، لا ينغّص صفوي سوى ما كنت أحسُّه في أعماق نفسي من مراره كلما تذكرت قضية الكتب وضياعها.

كان حضوري إلى جدة على أساس إجازة رسمية أخذتها من الدولة، إذ لا زلت آنذاك أشغل وظيفة مساعد رئيس مال وأمير جمارك الحدود، وهي إدارة رئيسة كما هو واضح من اسمها يلتحق بها عدة إدارات جمركية قد لا يقل عدد موظفيها عن ١٠٠ موظف.

كانت مدة الإجازة ثلاثة أشهر، ولما كان أخي يعلم ذلك، فقد شرع في بذل العديد من المحاولات لإقناعي بالبقاء في جدة، والاستقالة من عمل الحكومة، موضحاً لي أنني لست بحاجة إلى المادة، لأن ما يملكه هو ملكٌ لي، ومع ذلك فقد كنت أحاوره بلطف، وأعده وعوداً مبهمة، بأنني سأنظر في الأمر.

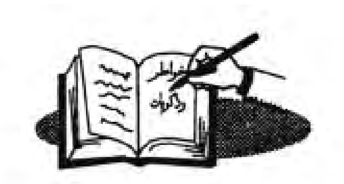
أمنية غالية:

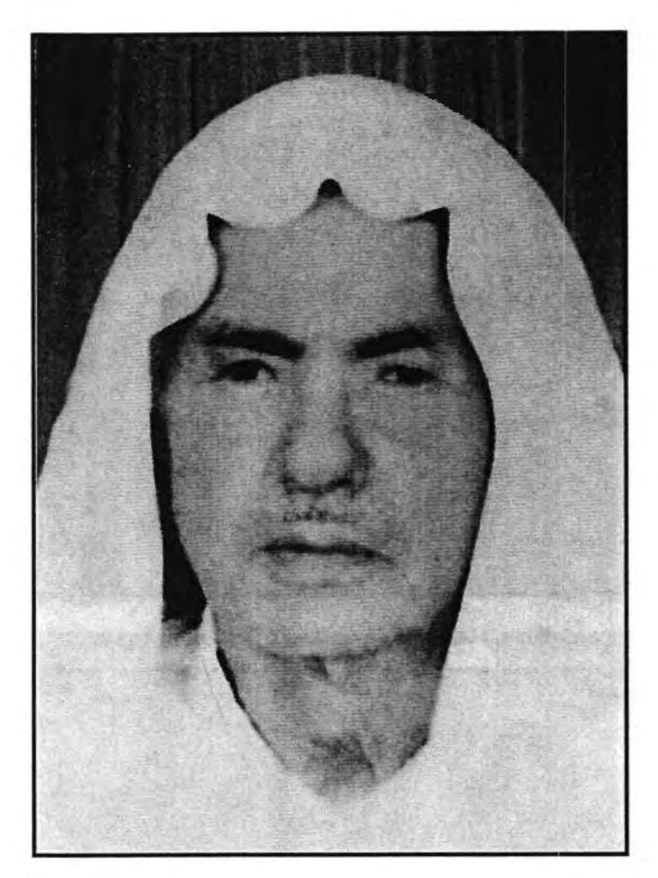
وهنا خطرت لي فكرة هي أن أغتنم فرصة هذه الإجازة ووجود أسرتي عند أخي أغتنمها في تحقيق أمنية غالية على نفسي طالما تمنيتها، واشرأبت إليها آمالي ألا وهي زيارة مصر.

مصر التي تمتلىء مخيلتي بما لا يحصى من الصور والذكريات والمعارف عنها رغم أنني لم أرها قط، وإنما ذلك كله كان حصيلةً لما كنت أقرؤه في صحافتها ومجلاتها وكتبها.

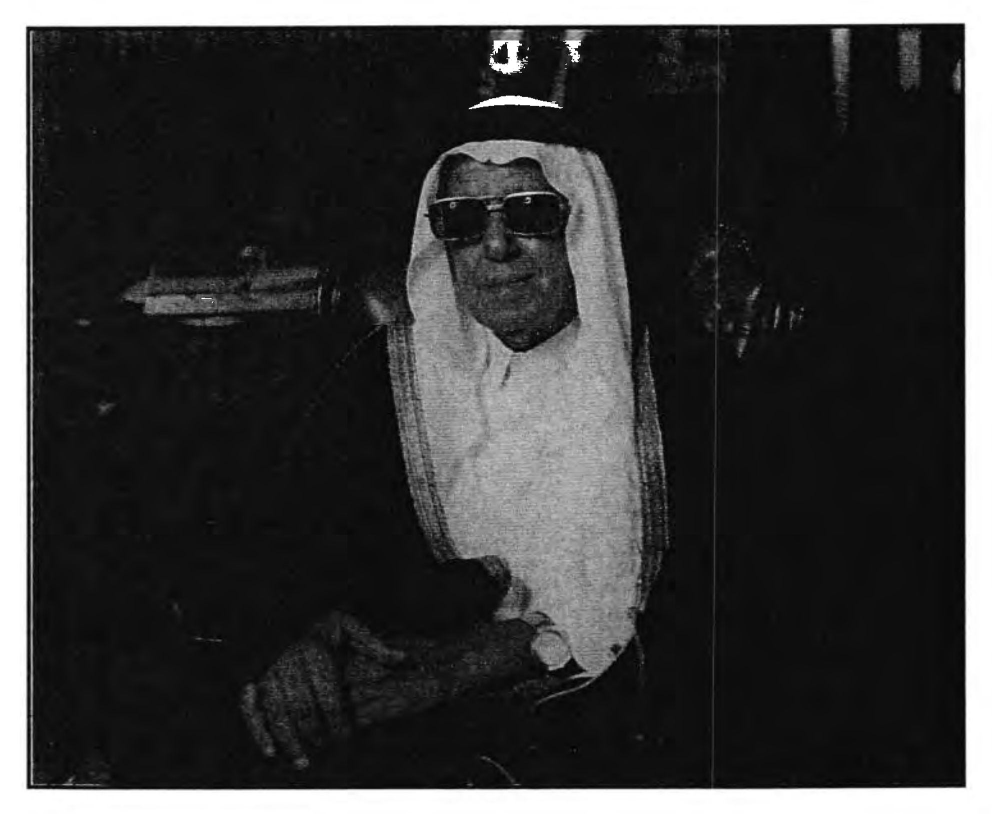
معالم مصر الخالدة:

كنت أختزن الكثير الكثير عن معالمها الخالدة: الأهرام ـ المقطم ـ القناطر الخيرية ـ مصر القديمة ـ جامع عمرو بن العاص ـ الأزهر الشريف ـ حي باب الشعرية ـ الدرَّاسة ـ شارع فؤاد ـ الأزبكية ـ دار الأوبرا ـ العتبة الخضراء ـ الإمام الشافعي ـ الكثير الكثير مما كنت أتمنى رؤيته على الطبيعة، وها هي الفرصة أصبحت متاحة لي الآن فعليَّ المبادرة باغتنامها، لذا ما كدت أفاتح أخي بها حتى أبدى ارتياحه وتشجيعه على إنفاذ الفكرة، وبادر من فوره بتجهيز الجواز اللازم وتهيئته ووسائل السفر.





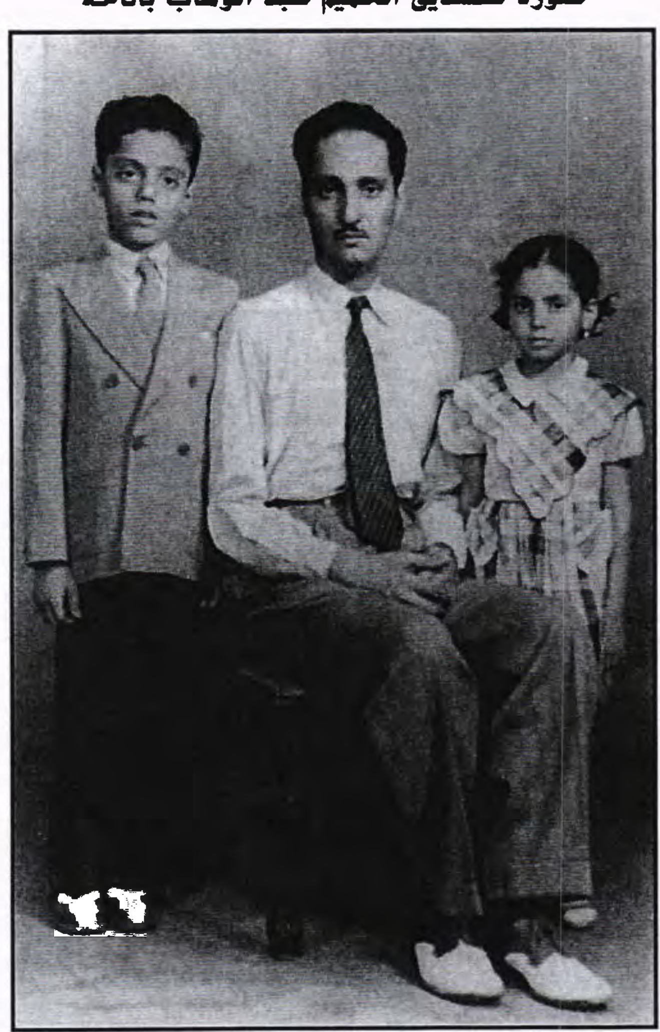
صورة لشقيقي عبد الله المحمد الحسون رحمه الله



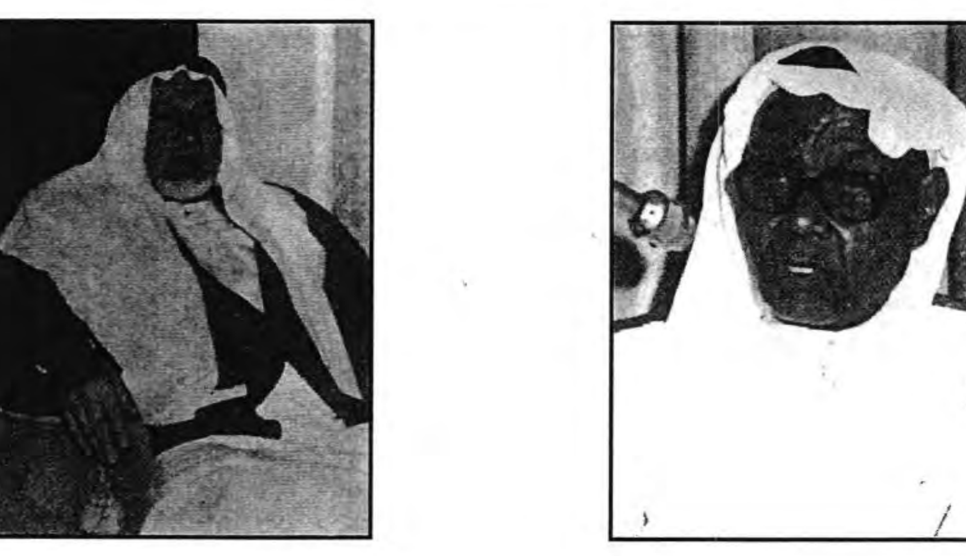
إبراهيم المحمد الحسون



صورة للصديق الحميم عبد الوهاب باناحه



صديق العمر عبد الوهاب باناحه في عهد الشباب
وعن يمينه ابنه عمر، وعن يسآره ابنته




محمود عارف

محمد على مغربى



علي كامل خجا



معالي الشيخ محمد أمين العوضي
وزير التجارة السابق



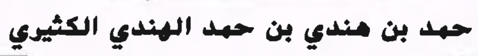
صادق دحلان



عبد المحسن بن حمد المنقور



صدقة أبو زيد



حمد بن هندي بن حمد الهندي الكثيري



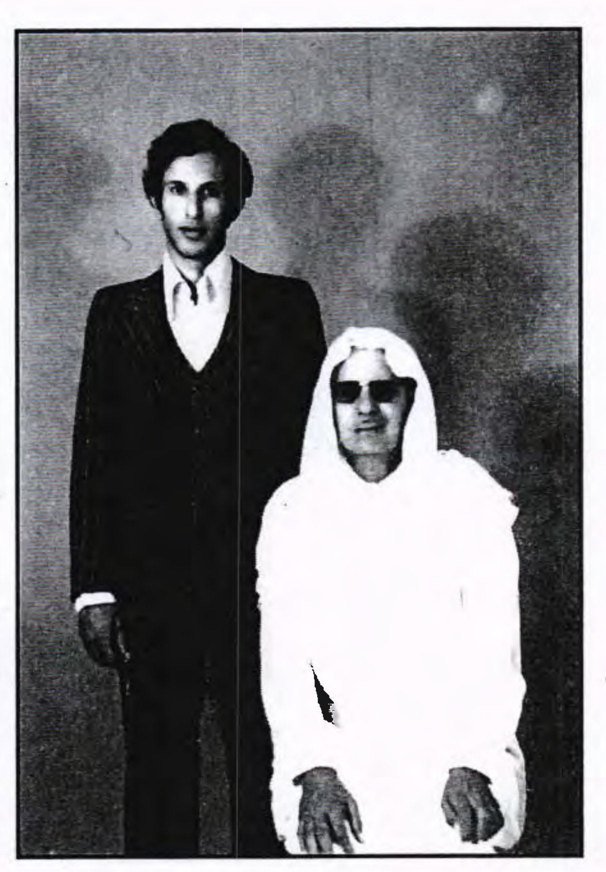
إبراهيم السليمان التركي



العم علي الحسون الحسون



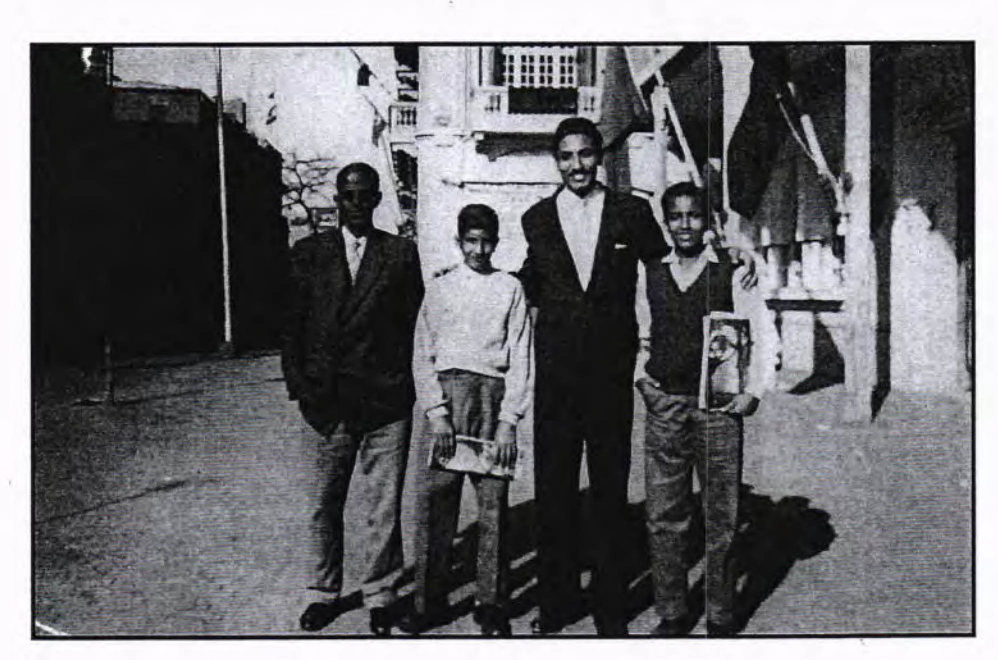
إبراهيم الحسون



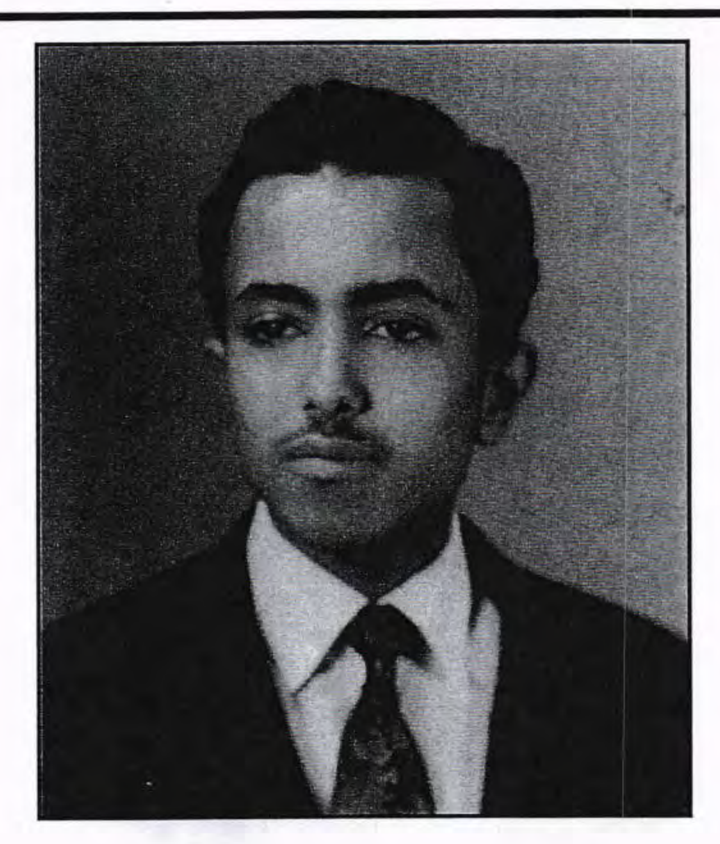
إبراهيم الحسون وولده يوسف



إبراهيم الحسون وابنه يوسف وابنته هدى
سنة ١٣٧٨



إبراهيم عبد الله الحسون - محمد عبد الله الحسون - سمير محمود أبو الفتح
إبراهيم المحمد الحسون. في بور سعيد (١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م)



محمد عبد الله الحسون
سنة ١٩٥٩



محمد عبد الله الحسون
سنة ٢٠٠٢
ابن الأخ العزيز الذي كان له أطيب الأثر
في تدوين هذه الذكريات



إبراهيم المحمد الحسون وعن يمين الصورة ابن أخيه محمد عبدلله الحسون
وعن اليسار إبراهيم عبد الله الحسون. بور سعيد ١٩٥٨ بعد العدوان الثلاثي



يوسف إبراهيم الحسون وشقيقته هدى

قصيدة محمود عارف ـ بخطه ـ


الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة